أويغن روغه

# عند تلاشي الضوء

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

رواية

حازت جائزة
الكتاب الألماني

«مذهل... نظرة رائعة من داخل
جمهورية ألمانيا الديمقراطية»

*Frankfurter Allgemeine Zeitung*

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

أويغن روغه

# عند تلاشي الضّوء

## سيرة عائلة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

twitter @baghdad_library

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

---

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

---

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥

ISBN: 978–9953–88–819-4

Author: Eugen Ruge

Originally published as: **IN ZEITEN DES ABNEHMENDEN LICHTS.**

Copyright © 2011 by Rowholt Verlag GmbH, Reinbek bei Hamburg, Germany.

GOETHE INSTITUT

The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs.

ترجمة: أحمد فاروق

تدقيق لغوي: محمد زينو شومان

تصميم الغلاف: داني عوّاد وريتا كلزي

الإخراج الفني: فدوى قطيش

صورة الغلاف: www.shutterstock.com/beerlogoff

www shutterstock.com/andreiuc88

إليكم

twitter @baghdad_library

# ٢٠٠١

ظل يومين راقداً كالميت على أريكته المصنوعة من جلد الجاموس، ثم نهض واستحم طويلاً ليطرد من جسده آخر جزيء من هواء المستشفى، بعدئذٍ توجه بالسيارة إلى نويندورف.

كعادته سار على الطريق السريع A115 ونظر متأملاً العالم في الخارج ليفحص إن كان ثمة شيء قد تغير. هل تغير شيء؟

بدت له السيارات أنظف من ذي قبل. أنظف؟ بشكلٍ ما ألوانها أكثر بهجة. أكثر بلهاً.

كانت السماء زرقاء، وماذا عساها أن تكون غير ذلك؟

تسلل الخريف من الخلف ووضع بريشته بعض النقاط الصفراء الصغيرة على الأشجار. لقد صرنا في أيلول/سبتمبر، ومادام خرج من المستشفى يوم السبت فلا بد أن اليوم هو الثلاثاء. لقد نسي التقويم في خلال الأيام الماضية.

أخيراً صار لنويندورف مدخل خاص بها من الطريق السريع. «أخيراً» مازالت تعني لألكسندر ما بعد سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩ أدى الطريق مباشرة إلى شارع تيلمان (لا يزال الشارع يحمل هذا الاسم). كان معبّداً بأسفلت ناعم، وعلى جانبي الطريق ثمة شريط



twitter @baghdad_library

أحمر خاص بسير الدراجات. مبانٍ رُممت حديثاً وعُزلت حرارياً وفقاً لمقياس ما من مقاييس الاتحاد الأوروبي. وبنايات جديدة بدت وكأنها مسابح: أطلقوا عليها اسم فيلات المدن.

لكن المرء لم يكن في حاجة إلا للانعطاف مرة يساراً والسير مئة متر في الطريق الجانبي المنحني، ثم إلى اليسار مرة أخرى - هنا بدا أن الزمن قد توقف: شارع ضيق ظللته أشجار الزيزفون، وأرصفة بُلطت بأحجار أسفلتية خرجت من مواضعها بسبب بروز جذور الأشجار. أسوار حدائق متداعية وحشرات بق النار. في عمق الحدائق خلف الأعشاب العالية، ظهرت النوافذ العارية للفيلات التي تجري نزاعات في مكاتب المحاماة البعيدة من هنا بشأن حق إعادتها إلى ملاكها الأصليين.

من البيوت القليلة التي مازال فيها سكان هنا، البيت ذو الرقم سبعة في شارع فوكسباو. طحالب فوق السطح، وشقوق في الواجهة. شجيرات البيلسان لامست الشرفة. وشجرة التفاح التي كان كورت يقلّمها بنفسه دائماً، نمت أغصانها طولاً وعرضاً باتجاه السماء لتصبح دغلاً فريداً.

كان الطعام الذي جلبته خدمة التوصيل إلى البيوت موضوعاً في علبة على عمود السُّور ومغلفاً بلفافة عازلة للحرارة. الثلاثاء، هكذا ثبت له اليوم من المكتوب على العلبة. أخذها ألكسندر ودخل.

وبرغم امتلاكه مفتاحاً، فقد دق الجرس، ليرى إن كان كورت سيفتح له - ولكن من دون جدوى. على أي حال، كان يعرف أن كورت لن يفتح له. لكنه سمع خشخشة مألوفة في الردهة وعندما نظر عبر نافذة الباب الصغيرة ظهر كورت - مثل شبح - في المدخل شبه المظلم.

- افتح، صاح ألكسندر.

اقترب كورت أكثر وحملق.

- افتح!

لكن كورت لم يتحرك.

فتح ألكسندر الباب وعانق والده، رُغم أنه منذ زمن لم يعُد يأنَسُ للعناق. كانت لكورت رائحة نفّاذة. إنها رائحة الشيخوخة. رائحة ترسخت في خلاياه. كانت له أيضاً رائحة من استحم وغسل أسنانه.

- هل تعرفني؟ سأله ألكسندر.

- نعم، رد كورت.

كان فمه ملطخاً بمربى البرقوق، فالممرضة المكلفة بالخدمة الصباحية كانت مجدداً في عجلة من أمرها. وسترته المشغولة لم تكن مزرّرة بشكل صحيح، ولم ينتعل إلا فردة شبشب واحدة.

قام ألكسندر بتسخين طعام كورت، بالميكروويف، بعد فتح صمام الأمان. وقف كورت إلى جانبه مهتماً.

- هل أنت جائع؟ سأله ألكسندر.

- نعم، رد كورت.

- أما زلت جائعاً؟

- نعم، قال كورت.

كان الطعام مؤلفاً من قطع لحم صغيرة مع الكرنب الأحمر (منذ كاد كورت يموت اختناقاً من جراء ابتلاع قطعة لحم بقري كبيرة، لم



twitter @baghdad_library

يعد يُطلب له سوى قطع صغيرة). أعدّ ألكسندر قهوة، ثم أخرج طعام كورت من الميكروويف ووضعه على المفرش المشمّع ماركة *Igelit*.

- شهية طيبة!

- نعم، رد كورت.

وبدأ يأكل. لفترة لم يكن يُسمع سوى شهيق كورت المركّز. رشف ألكسندر من قهوته التي كانت لا تزال ساخنة جداً وراح يراقب كورت وهو يأكل.

- إنك تمسك الشوكة بالمقلوب. قالها له بعد فترة.

توقف كورت عن الطعام لحظة وبدا أنه يفكر. لكنه واصل الأكل: حاول أن ينقل قطعة اللحم بمقبض الشوكة إلى نصل السكين.

- إنك تمسك الشوكة بالمقلوب. كررها ألكسندر.

تحدث من دون تشديد على مخارج الألفاظ، ومن دون أن ينطوي كلامه على لهجة تحذيرية، لكي يختبر تأثير المصطلحات في ذاتها في كورت. لا تأثير. صفر. ماذا دار في هذا الرأس؟ في هذا الفضاء الذي لا يزال مفصولاً عن العالم بواسطة جمجمة ولا يزال يحتوي على شيء من الأنا داخله. بماذا كان يشعر كورت؟ وفيم كان يفكر، حينما كانت خطاه تجوب الغرفة، وعندما كان يجلس إلى مكتبه في الصباح حسبما قالت الممرضات، ويحملق ساعات في الصحف؟ فيم كان يفكر؟ هل كان يفكر بالأساس؟ كيف للمرء أن يفكر من دون كلام؟

تمكّن كورت أخيراً من وضع قطعة اللحم على طرف السكين، ووازنها، وهو يرتعش نهماً لينقلها إلى فمه. سقطت. محاولة ثانية.

فكّر ألكسندر أن من المضحك أن يبدأ تدهور حالة كورت باللغة على الخصوص. كورت الخطيب، الحكواتي الكبير. وكيف كان يجلس في مقعده الشهير - مقعد كورت! والجميع يتعلق بحركة شفتيه، عندما يقص السيد البروفيسور حكاياته. نوادره. الغريب أن كل شيء يتحول على لسان كورت إلى نادرة. كلامه هو نفسه - حتى حين كان يحكي قصته عندما كاد يصاب بالشلل في معسكر الاعتقال - دائماً كانت هناك نهاية طريفة، دائماً كانت ثمة مزحة فى الأمر. كان فعل ماض. ماض بعيد. كانت الجملة الأخيرة المترابطة التي استطاع كورت أن يقولها هي: لقد فقدتُ اللغة. إنها أيضاً نتيجة ليست سيئة. بالمقارنة بأدائه الحالي تعد هذه الجملة شيئاً باهراً. لكن ذلك كان قبل عامين وقد فكر الناس فعلاً أنه قد فقد اللغة لكنه بخلاف ذلك... بدا متماسكاً نوعاً ما. كان يبتسم ويومئ، ويقوم بتعبيرات وجه مناسبة، ويجيد التصنع بدهاء. إلا أنه فقط بين الفينة والأخرى، كانت تنفلت منه أفعال غريبة: كأن يصبّ النبيذ الأحمر في فنجان قهوته. أو أن يقف حائراً وبيده سدادة زجاجة نبيذ - ثم يضعها في آخر المطاف في رف الكتب.

حصيلة بائسة: لم يتمكن كورت سوى من أكل قطعة لحم صغيرة. الآن هم بالأكل: بأصابعه. رفع بصره برأس مائل تجاه ألكسندر مثل طفل يختبر رد فعل الأبوين، ثم دس قطعة اللحم في فمه وتبعها بأخرى ثم أخذ يمضغ.

وفي أثناء مضغه رفع أصابعه المتسخة إلى الأعلى وكأنه سيؤدي قسماً.

- لو كنت تعرف، قال ألكسندر.

لم يبدِ كورت أي رد فعل. لقد وجد طريقة: حلاً لمشكلة قطع



twitter @baghdad_library

اللحم. أخذ يدسها في فمه ويمضغ، وسال «الصوص» في خط رفيع على ذقنه.

لم يكن كورت قادراً على عمل أي شيء، لم يعد يستطيع الكلام ولم يعد قادراً على غسل أسنانه، ولا حتى مسح مؤخرته، عندما يجلس على المرحاض ليتبرز. الشيء الوحيد الذي ما زال كورت قادراً على فعله بدافع ذاتي، ولديه اهتمام به فعلاً ويستخدم من أجله ما تبقى له من ذكاء هو الأكل. تناولُ الطعام. لم يأكل كورت بمتعة، ولم يأكل مثلاً لأن المذاق أعجبه (كان ألكسندر مقتنعاً بأن أعصاب التذوق لديه قد دُمرت تماماً بسبب تدخينه الغليون طوال عقود). كان كورت يأكل ليعيش. الطعام = الحياة، هذه الصيغة، فكر ألكسندر، تعلمها كورت في معسكر الأشغال الشاقة بشكلٍ راسخ. تعلمها مرةً لتبقى لديه أبداً. النهم الذي يأكل به كورت، وهو يدس قطع اللحم في فمه، لم يكن شيئاً آخر سوى إرادة البقاء. كان هذا آخر ما تبقى من كورت، وما أبقاه على قيد الحياة، ما جعل هذا الجسم يواصل العمل. آلة للدورة الدموية للقلب تعمل بنفسها من دون ضابط أو رادع وتظل دائرة - وستظل على الأرجح تعمل فترة وهذا ما يُخشى. عاش كورت أطول من الآخرين، أطول من إيرينا والآن ثمة فرصة حقيقية أيضاً لأن يعيش أطول منه، أطول من ألكسندر.

تشكلت قطرة ثخينة من «الصوص» على ذقن كورت. واعترت ألكسندر رغبة قوية في إيلام كورت. أن يقطع منشفة ورقية ويمسح الصوص عن وجهه بغلظة.

ارتعشت القطرة، وسقطت.

هل كان ذلك بالأمس، أم اليوم؟ في وقت ما من هذين اليومين،

عندما كان راقداً على الأريكة المصنوعة من جلد الجاموس (بلا حراك ولسبب ما كان يسعى دائماً لئلا يحتك جلده العاري بجلد الأريكة) في لحظة ما خطرت له فكرة: قتل كورت. ولم يقتصر الأمر على مجرد الفكرة بل تخيل سيناريوهات مختلفة للتنفيذ: خنق كورت بوسادة - أو جريمة القتل المتقنة - أن يقدم إلى كورت شريحة لحم بقري نيئة كتلك التي كاد يختنق بها. ولو لم يقم ألكسندر، عندما ازرق وجه كورت وترنح في الشارع وسقط مغشياً عليه - لو لم يقم آنذاك بالتصرف غريزياً وقلبه على الوضع الجانبي المستقر، ولو لم تنزلق في إثر ذلك كرة اللحم المهروس من جراء المضغ اللانهائي مع طقم الأسنان من حلق كورت، لما كان كورت على الأغلب على قيد الحياة ولوفر ألكسندر على نفسه هذه الهزيمة (أقله هذه).

- هل لاحظت أنني لم أكن موجوداً فترة طويلة؟

كان كورت قد بدأ بالتهام الكرنب الأحمر - اكتسب منذ فترة العادة الطفولية بأن ينهي كل نوع من أنواع الطعام بمفرده ثم ينتقل إلى الآخر: البداية باللحم ثم الخضروات فالبطاطا. والمدهش أنه قد أمسك الآن بالشوكة - ومن الناحية الصحيحة. وأخذ يغرف بها الكرنب الأحمر.

أعاد ألكسندر سؤاله:

- هل لاحظت أنني لم أكن موجوداً فترة طويلة؟

- نعم، قال كورت.

- إذاً، لقد لاحظت ذلك. كم طال غيابي: أسبوعاً أم عاماً؟

- نعم، قال كورت.

أم هل قال: عاماً؟



twitter @baghdad_library

- عاماً إذن، سأل ألكسندر.

- نعم، قال كورت.

ضحك ألكسندر برغم أنه أحس فعلاً وكأن عاماً قد مضى. وكأنها حياة أخرى - بعد أن انتهت الحياة السابقة بجملة تافهة وحيدة:

- سأرسلك إلى شارع فوربل.

هذه هي الجملة.

- شارع فوربل؟

- المستشفى.

بعدما خرج من عند الطبيب خطر له أن يسأل الممرضة إن كان ذلك يعني أن يجلب معه بيجامة وفرشاة أسنان. ودخلت الممرضة ثانية إلى حجرة الطبيب وسألت إن كان على المريض أن يحضر بيجامة وفرشاة أسنان فأكد الطبيب وجوب إحضارهما. وهكذا كان.

أربعة أسابيع. سبعة وعشرون طبيباً (لقد أحصاهم). الطب الحديث.

الطبيب المساعد الذي بدا وكأنه طالب ثانوية عامة أخذ يشرح له في حجرة استقبال عبثية - حيث كان بعض المرضى يتأوهون خلف ساتر - القواعد الأساسية للتشخيص. والطبيب صاحب عقصة ذيل الحصان الذي قال: إن عدّائي الماراثون ليس لديهم أمراض خطيرة، إنسان لطيف جدّاً. وطبيبة الأشعة التي سألته إن كان لا يزال يرغب في عمره هذا في إنجاب أطفال. والجراح الذي اسمه فلايشهاور أي الجزار. وطبعاً كارايان[1] ذو الوجه المجدور: كبير الأطباء د. كوخ.

---

(١) تلميح إلى وجه الشبه بينه وبين قائد الأوركسترا الشهير هيربرت فون كارايان. (المترجم)

بالإضافة إلى اثنين وعشرين آخرين.

وربما كان هناك أكثر من عشرين من العاملين في المختبرات الذين قاموا بملء الدم الذي أُخذ منه في أنابيب الاختبار، وحللوا بوله وتأملوا أنسجته تحت ميكروسكوبات ما أو وضعوها في أجهزة للطرد المركزي. وكل هذا من أجل النتيجة المثيرة للشفقة والوقحة التي لخصها الدكتور كوخ في جملة مقتضبة:

- لا يمكن علاجه.

هذا ما قاله د. كوخ. بصوته الأجش. ببثور الجدري في وجهه، وتسريحة كارايان. قال: لا يمكن علاجه وكان يترجّح في كرسيّه الدوّار وقد برق زجاج نظارته مع إيقاع حركته.

انتهى كورت الآن من خانة الكرنب الأحمر، وبدأ يأكل البطاطا: من دون «صوص». كان ألكسندر على دراية بما سيحدث (لو أنه لم يضع فوراً كوباً من الماء أمام كورت): تحديداً ستعلق البطاطا الجافة في حلق كورت، ما سيجعله يصاب بفواق حاد جداً لدرجة أن المرء يمكن أن يظن أن معدته يمكن أن تخرج على الفور. ربما كان في الإمكان أيضاً خنق كورت بالبطاطا الجافة.

قام ألكسندر وملأ كوباً من الماء.

الغريب أن علاج كورت كان ممكناً: لقد استأصلوا ثلاثة أرباع معدته. وكان يأكل بما تبقى من معدته وكأنهم منحوه ثلاثة أرباع معدة إضافية. بغض النظر عن نوع الطعام، كان كورت يأتي على طبقه كاملاً. كان قبل ذلك أيضاً يأكل طبقه كاملاً، هكذا دار في خلد ألكسندر. كل ما كانت تضعه إيرينا أمامه كان يأكله ويمدحها قائلاً: ممتاز! دائماً المديح نفسه ودائماً «شكراً» و«ممتاز»، وبعد ذلك بسنوات، بعد



twitter @baghdad_library

موت إيرينا - حينما كان ألكسندر يطبخ أحياناً، عندئذ أدرك كم كان هذا المديح الدائم «شكراً» و«ممتاز» مضنياً ومهيناً لأمه. لا يمكن لوم كورت على شيء، فهو في الحقيقة لم يطلب قط أي شيء ولا حتى من إيرينا. وكان يذهب إلى المطعم أو يأكل شطيرة زبد، عندما لا يطبخ أحد. وعندما يطبخ له أي شخص كان يشكره بأدب، ثم يأخذ قيلولته وبعدها يتمشى، ثم ينهي مراسلاته البريدية. ما الذي يمكن الاعتراض عليه في هذا؟ لا شيء. وهذه هي المشكلة بعينها.

تحسس كورت بأطراف أصابعه آخر فتات البطاطا. وأعطاه ألكسندر منديلاً ورقياً. مسح كورت فمه فعلاً ثم طوى المنديل بعناية ووضعه إلى جانب الطبق.

- اسمع يا أبي. لقد كنت في المستشفى.

هزّ كورت رأسه بالنفي. أمسك ألكسندر به من ذراعه وحاول أن يقول له مجدداً بتشديد أكثر:

- أنا - وأشار إلى نفسه - كنت في المستشفى! أتفهمني؟

- نعم، قال كورت ثم نهض.

- لم أنته بعد، قال ألكسندر.

لكن كورت لم يبد أي رد فعل. وخطا بتثاقل إلى غرفة النوم وهو لا يزال ينتعل فردة شبشب واحدة، ثم خلع بنطاله ونظر إلى ألكسندر متمعّناً.

- القيلولة؟

- نعم، قال كورت.

- إذن فلنغير الحفاضات.

خطا كورت نحو الحمّام واعتقد ألكسندر أنه قد فهمه، لكن في الحمّام أنزل كورت حفاضه قليلاً وبال على الأرضية صانعاً ببوله قوساً كبيراً.

- ماذا تفعل!

نظر كورت مفزوعاً ولم يعد قادراً على حبس بوله.

بعد أن حمّم كورت والده ووضعه في الفراش ومسح الأرضية كانت قهوته قد بردت. نظر إلى ساعته: إنها الثانية. لن تأتي ممرضة المساء قبل السابعة. فكّر قليلاً إن كان ينبغي له أن يأخذ السبعة وعشرين ألف مارك من خزينة الحائط الآن ويذهب من دون رجعة. لكنه قرر الانتظار. كان يريد أن يفعلها أمام ناظرَي أبيه. أراد أن يشرح له الأمر حتى لو لم يكن لذلك أي معنى. أراد أن يقول كورت نعم لهذا - برغم أن نعم هي الكلمة الوحيدة التي يتقنها.

دخل ألكسندر حجرة المعيشة بقهوته، ما العمل الآن؟ ماذا نفعل بهذا الوقت الضائع؟ شعر بالضيق لأنه أخضع نفسه لإيقاع كورت ولا إرادياً ارتبط هذا الضيق بحنقه المبالغ فيه على الحجرة. لكن الأمر بدا له أسوأ بعد غيابه عن المكان أربعة أسابيع: ستائر زرقاء وورق حائط أزرق، كل شيء أزرق لأن الأزرق كان اللون المفضل لمعشوقته الأخيرة... سفه في الثامنة والسبعين. لم يكد يمر نصف عام على وفاة إيرينا... بل إن المناديل الورقية والشموع: زرقاء!

بعد عام صارا يتصرفان مثل التلامذة. كانا يتبادلان إرسال بطاقات بريدية عليها قلوب وهدايا غرامية ملفوفة في ورق أزرق، ثم كان أن



twitter @baghdad_library

لاحظت المعشوقة أن البله قد بدأ يصيب كورت - فاختفت. ولم يبق منها سوى التابوت الأزرق، هكذا يسمّي ألكسندر هذه الحجرة. عالم أزرق بارد، لم يعد يسكنه أحد.

ركن الطعام هو الوحيد الذي بقي كما كان في السابق. ولا هذا أيضاً... صحيح أن كورت لم يلمس الخشب المبطن للجدران - الذي كانت تعتز به إيرينا: خشب جدران أصلي! وقد ظل هذا الخليط أيضاً من المقتنيات المعلق عليه موجوداً - ولكن بأي شكل! في أثناء قيامه بتجديد الغرفة نزع كورت هذه المجموعة الضخمة من أغرب الهدايا التذكارية التي تراكمت مع السنين وعُلقت على الحائط الخشبي بشكل عشوائي، ونفض عنها الغبار واختار «أهمها» (أو ما يعتبره كورت كذلك) وعلّقه بشبه ترتيب (أو ما يعتبره كورت كذلك) مجدداً على الحائط الخشبي. وحاول مع ذلك أن يستغل ثقوب المسامير الموجودة «بما يلائم الغرض». إنها جماليات كورت التوافقية. هكذا بدت أيضاً.

أين كان الخنجر الصغير الذي أهداه إليها الممثل غويكوفيتش - زعيم القبيلة في كل أفلام الهنود الحمر التي أنتجتها شركة ديفا. وأين كان طبق كوبا الذي سلّمه الرفاق من منجم كارل ماركس للفحم لفيلهلم في عيد ميلاده التسعين، ورُوي أن فيلهلم أخرج حينذاك مئة مارك وألقاها على الطبق لأنه كان يظن أنهم يطلبون إليه التبرع من أجل التضامن الشعبي.

إنها أشياء، فكّر ألكسندر... مجرد أشياء. لمن سيأتي بعده ستكون تلك مجرد كومة كبيرة من النفايات الضخمة.

انتقل إلى مكتب كورت الواقع على الجانب الآخر (الأجمل، حسب رأي ألكسندر).

على النقيض تماماً من غرفة المعيشة حيث غير كورت كل شيء - بما في ذلك أثاث إيرينا. الفترينة الجميلة القديمة حلت محلها قطعة أثاث قبيحة مصنوعة من ألواح الخشب المضغوط، وحتى مائدة الهاتف الصغيرة الرائعة التي كانت مهزوزة دائماً، تخلص كورت منها. وما أثار استياء ألكسندر من كورت على الخصوص، تخلصه من ساعة الحائط: الساعة القديمة اللطيفة التي دأبت كل نصف ساعة وكل ساعة في إصدار كركرة في إشارة إلى أنها لا تزال تقوم بعملها برغم أن صندوق جرسها غير موجود، في الأصل كانت ساعة ذات صندوق طويل وقامت إيرينا اتباعاً لموضة ما بأخذها من الصندوق وعلقتها على الحائط وما زال في إمكان ألكسندر أن يتذكر كيف أحضرها هو وإيرينا، وأن إيرينا لم تستطع أن تبلغ السيدة العجوز التي تخلت عن الساعة أن صندوقها عديم الفائدة، وأنها طلبت العون من أحد الجيران في أثناء وضع الساعة بصندوقها في السيارة وكيف أن صندوق الساعة الكبير الذي نقلاه معهما فقط للتمويه قد برز من ظهر السيارة «ترابانت»[1] الصغيرة بحيث لم يعد في إمكان السيارة تقريباً الحفاظ على بقائها على الأرض في أثناء سيرها. على النقيض من غرفة المعيشة التي تم تجديدها تماماً، ظلت غرفة كورت على حالها السابقة وذلك على نحو مرعب.

كان المكتب موضوعاً بشكل مائل أمام النافذة - طوال أربعين عاماً كان يوضع بعد كل تجديد للبيت تماماً في المكان نفسه الذي خلف فيه آثاره على السجادة. وكذلك ركن الجلوس الذي يضم مقعد كورت الضخم وكان يجلس فيه حاني الظهر ويداه مضمومتان معاً

(١) سيارة ترابانت كانت هي السيارة الشعبية في ألمانيا الشرقية، وكانت أجزاء من هيكلها مصنوعة من البلاستيك ولهذا كانت خفيفة جداً. (المترجم)



twitter @baghdad_library

ليحكي نوادره. وكذلك المكتبة الكبيرة المسمّاة بالحائط السويدي (لماذا السويدي؟) ظلت موجودة كما هي. انحنت الرفوف تحت وطأة الكتب، هنا وهناك وضع كورت رفاً إضافياً ذا لون غير مناسب لكن النظام الغريب لم يتغير - وكأنه نوع من التخزين الاحتياطي الأخير لمخ كورت: هناك القواميس والموسوعات التي كان ألكسندر يستخدمها أيضاً (ولكن يجب أن تعيدها إلى مكانها!). وهناك الكتب عن الثورة الروسية، وهنا في صف طويل مجلدات لينين ذات اللون البني الصدئ، وإلى اليسار بجانب لينين في آخر قسم أسفل الملف المعنون بصرامة «شخصي»، كانت لا تزال هناك رقعة الشطرنج القابلة للطي التي أكل الدهر عليها وشرب - بإمكان ألكسندر إخراجها وهو مغمض العينين - بقطعها التي نحتها في يوم ما أحد معتقلي الغولاغ المجهولين.

الشيء الوحيد الذي أُضيف في خلال أربعين عاماً - بغض النظر عن الكتب الجديدة - كان بعضاً من التذكارات الكثيرة جداً التي جلبها الجدان من المكسيك، والتي أُهدي الكثير منها وبيع بثمن بخس في تصرفات مندفعة. وأيضاً الأشياء القليلة التي لم يكن يرغب كورت، ويا للغرابة، في التخلي عنها ولم يتمكن من ضمها إلى «خليط المقتنيات» - لنقص في المكان كما كان يزعم، لكن الحقيقة أن إيرينا كانت تكره كل ما كان يأتي من بيت حمويها ولم تتمكن قط من التغلب على هذه الكراهية. لذلك وضعها كورت «موقّتاً» في حائطه السويدي وهناك بقيت «موقّتاً»، إلى يومنا هذا. علّق كورت صغير سمك القرش المحنط، الذي كان جلده الخشن يعجب ألكسندر كثيراً في طفولته، بأحد أشرطة الهدايا على أحد عوارض الرف. القناع الأزتيكي المثير للخوف مازال موجوداً في الفترينة ووجهه إلى الأعلى مع عدد لا يحصى من زجاجات البراندي الصغيرة، والقوقعة الكبيرة الوردية اللون

التي ركب فيها فيلهلم - لا أحد يعرف كيف - مصباحاً، ظلت موجودة في إحدى الخزائن الجانبية من دون وصلة كهربائية.

فكّر ألكسندر مجدداً في ماركوس: ابنه. تخيّل ماركوس وهو يجول هنا بالسترة ذات القلنسوة وسماعات الأذن - هكذا رآه في المرة الماضية قبل عامين. تخيله وهو يقف أمام مكتبة كورت ويركل الرفوف بطرف حذائه ويقلّب بين يديه أشياء جُمعت على مدى أربعين عاماً ليفحص إن كان من الممكن استعمالها أو بيعها: لن يجد أحداً يشتري منه لينين، وربما سيحصل على بعض الماركات ثمناً لرقعة الشطرنج، أغلب الظن سيستحوذ صغير سمك القرش المحنط والقوقعة الوردية الكبيرة على اهتمامه وسيضعهما في غرفته، من دون أن يفكر في مصدرهما.

لثانية خطرت له فكرة أن يأخذ القوقعة معه ليلقيها في البحر في المكان الذي أتت منه - ثم تراءى له ذلك مثل مشهد من مسلسل تلفزيوني مبتذل، فعدل عنها.

جلس خلف المكتب وفتح بابه الأيسر. في آخر الدرج الأيسر داخل علبة ورق الصور ماركة أورفو بقي مفتاح خزينة الحائط منذ أربعين عاماً مخبأً تحت أنابيب الصمغ - ولا يزال في مكانه (فجأة دهم ألكسندر تصور سخيف بأنه من المحتمل أن يكون المفتاح قد اختفى ومن ثم تذهب خططه أدراج الرياح).

للاحتياط وضع المفتاح في جيبه - وكأن أحداً يمكنه أن يأخذه. ورشف رشفة من القهوة الباردة.

غريب كم هو صغير جداً مكتب كورت. على هذا المكتب كتب كورت مؤلفاته. جلس هنا في وضع مقلق جداً طبياً على كرسي يعتبر كارثة بدنية، وكان يدخن غليونه ويشرب قهوته المصفاة المرة ويضرب



twitter @baghdad_library

على الآلة الكاتبة بأربع أصابع ونصف إصبع، تاك - تاك - تاك - تاك، بابا يعمل! سبع صفحات يومياً، كان هذا «معدله الطبيعي»، لكن أحياناً أيضاً كان يعلن في أثناء طعام الغداء: اليوم اثنتا عشرة صفحة! أو خمس عشرة! وبهذه الطريقة صنع ركناً كاملاً من حائطه السويدي، متر في ثلاثة أمتار ونصف المتر، كله ملآن بهذه الأعمال، «أحد أكثر مؤرّخي جمهورية ألمانيا الديمقراطية غزارة في الإنتاج» هكذا كانوا يصفونه، وحتى لو انتزعنا المقالات من المجلات التي ضمّتها ومساهماته من المجلدات التي تجمع عدة مؤلفين، وضممناها إلى الكتب العشرة أو الاثني عشر التي ألفها كورت فإنها ستظل تشغل رفاً كاملاً، يمكنه تقريباً أن ينافس أعمال لينين: متر من العلم. من أجل هذا المتر كدح كورت ثلاثين عاماً، ولثلاثين عاماً أرهب عائلته. من أجل هذا المتر قامت إيرينا بالطهو والغسل. من أجل هذا المتر حصد كورت أوسمة وجوائز، وانتقادات أيضاً، بل في مرة من المرات نال لفت نظر من الحزب. وساوم دور النشر التي عانت دهراً نقص الورق على حجم الطبعة ودخل في حروب صغيرة بسبب الصياغات والعناوين، أحياناً كان يضطر إلى الاستسلام أو كان يحقق نجاحات جزئية بالحيلة والإصرار - والآن صار كل شيء، كل شيء ورقاً تالفاً.

هكذا فكر ألكسندر. لقد ظن أنه أقله تمكن من تحقيق هذا الانتصار بعد سقوط الجدار: كل هذا، هكذا اعتقد، قد انتهى. هذا البحث المزعوم وهذه الأكاذيب التي كتبها كورت ولم يكن مؤمناً بها عن تاريخ الحركة العمالية الألمانية - كل هذا قد غمره طوفان التحول التاريخي ولم يعد ثمة شيء باقياً من أعمال كورت.

لكن كورت عاد ليجلس على كرسيه الكارثي وكان تقريباً في الثمانين وعكف في سريّةٍ تامةٍ على تأليف آخر كتبه. وبرغم أن هذا

الكتاب لم يحقق نجاحاً عالمياً - أجل، قبل عشرين عاماً كان من الممكن لكتاب ألفه شيوعي ألماني عن سنواته في الغولاغ أن يحقق نجاحاً عالمياً (إلا أن كورت كان أجبن من أن يكتبه!) - لكن بالرغم من أنه لم يحقق نجاحاً عالمياً لكنه كان، شاء المرء أم أبى، كتاباً مهماً وفريداً، كتاباً «باقياً» - كتاباً ما كان لألكسندر أن يكتب مثله، والآن على الأغلب لن تتاح له أيضاً فرصة كتابته.

هل أراد ذلك؟ ألم يتحدث دائماً عن أنه يشعر بانجذابه إلى المسرح لأن في المسرح شيئاً فانياً؟ كلمة الفناء لها وقع جيد. مادام المرء ليس مصاباً بالسرطان.

رقص البعوض في ضوء الشمس، كان كورت لا يزال نائماً - برغم ما يقال عن أن كبار السن لا ينامون طويلاً. قرر ألكسندر أن يرقد قليلاً.

كان على وشك مغادرة الغرفة، ثم وقع نظره على الملف الذي كُتب عليه «شخصي»، كان يجذبه دائماً لكنه لم يكن يجرؤ على فتحه - برغم أنه لم يكن يتورع في مراهقته عن الاطلاع حتى على مجموعة الصور الإيروتيكية الخاصة بوالده، حتى وضع كورت قفلاً لباب الخزانة.

أخرج الملف: قصاصات وملاحظات. نسخ من وثائق. وفي مقدمتها العديد من الرسائل المكتوبة بحبر قرمزي، كما كان معتاداً قبل سنوات عديدة في روسيا:

«حبيبتي إيرا» (١٩٥٤).

تصفّح ألكسندر... كورت كعادته. حتى رسائله الغرامية كان يكتبها بدقة على الصفحة وظهرها بخط بارز وقد ملأ كل الصفحات على



twitter @baghdad_library

آخرها تاركاً مسافات متساوية، من دون أن تتباعد السطور أو تتزاحم في نهاية الرسالة، ومن دون أن يكتب شيئاً إضافياً على هامش الصفحة... كيف أمكنه عمل ذلك؟ مع كل هذه الإطراءات المحيرة التي كان يغدقها على إيرينا:

«حبيبتي إيرينا العزيزة!» (١٩٥٩).

«شمسي وحياتي!» (١٩٦١).

«زوجتي المحبوبة، صديقتي ورفيقتي!» (١٩٧٣).

أعاد ألكسندر الملف إلى مكانه وصعد الدرج إلى غرفة إيرينا. ورقد على الأريكة الكبيرة المغطاة بقماش يشبه قماش دمى الدببة وحاول أن ينام قليلاً. عوضاً عن ذلك رأى كارايان ذا الوجه المجدور الذي بدا مثل لعبة ذات زنبرك يترجّح في كرسيّه الدوّار. برق زجاج نظارته وصوته ردد الجملة نفسها... فلننته من ذلك. كان عليه أن يفكر في شيء آخر. لقد اتخذ قراراً، بأن لم يعد ثمة شيء يفكر فيه ولم يعد ثمة شيء يقرره.

فتح عينيه وتأمل دمى إيرينا القماش، التي وُضعت على مسند الأريكة بعضها إلى جانب بعض بنظام - كما صفتها عاملة التنظيف: الكلب، القنفذ والأرنب بأذنه المحترقة...

ماذا إذن لو كانوا على خطأ؟

العبثي في الأمر، هكذا فكر، أن إيرينا كانت تقول له غرفتك حتى النهاية. ستنامان في الأعلى في غرفتك، رنت الجملة فجأةً في أذنه. بالرغم من أنه يصعب تصور غرفة أخرى يمكنها أن تجسد أكثر من هذه التحقق المثالي لحلم الفتاة حتى ولو كان متأخراً: جدران وردية. مرآة

من طراز الروكوكو، معطوبة ولكنها أصلية. على الشباك ثمة مكتب صغير أبيض كانت إيرينا تهوى أن تُلتقط لها صور وهي جالسة أمامه في وضع التأمل. كما أن الكراسي الهشة التي تنتمي غالباً إلى طراز الروكوكو أيضاً قد أضفت منظراً لطيفاً جداً على الغرفة بحيث لم يعد للمرء رغبة في الجلوس عليها.

وفعلاً كلما حاول تخيل إيرينا، كان يراها جالسة على الأرض في حفلات مجونها المنفردة عندما كانت تستمع لتسجيلات رديئة لأغاني فلاديمير فيزوتسكي وتسكر رويداً رويداً.

وهناك الهاتف، لا يزال هو الجهاز نفسه - من أيام ألمانيا الشرقية - كان في الماضي في الطابق الأرضي. إنه الجهاز نفسه الذي كانت تتحدث منه بصوت خال من أي لحن وتقول هذه الكلمات الأربع:

- ساشينكا. عليك. أن. تأتي.

هذه الكلمات من فم أم روسية، كان كل فخرها أنها لم تطلب البتة من ابنها شيئاً:

- ساشينكا. عليك. أن. تأتي.

وبعد كل كلمة خشخشة في الخط، ما يغويه بإنهاء المكالمة، لأنه يعتقد أن الخط قد انقطع.

وهو؟ ماذا كان يقول؟

- سآتي عندما تكفين عن الشراب.

نهض وتوجه إلى المكتب المدهون بالأبيض الذي عثروا في أدراجه السرّية بعد وفاة إيرينا على مخزوناتها الكحولية. فتح غطاء



twitter @baghdad_library

المكتب وبدأ يبحث فيه كالمدمن. ثم استلقى على الأريكة. لم يعد ثمة كحول فيه.

أم أنه قال لها عندما تكفين عن «السكر»؟ سآتي عندما تكفين عن السكر.

بعدها بأربعة عشر يوماً ذهب إلى مكتب الدفن لكي يعيد الحياة إلى أمه مجدداً. لا، لقد ذهب إلى هناك لأنه كان عليه أن ينجز بعض الإجراءات الشكلية. ولكن بعد ذلك وهو في الشارع سيطرت عليه فكرة أن في استطاعته أن يحيي أمه لو تحدث إليها فقط. وبعد أن دار دورتين حول المربع السكني الذي فيه مكتب الدفن وحاول أن يقنع نفسه بالعدول عن الفكرة، ذهب وطلب رؤية أمه ولم يمنعه من ذلك ما نصحه به أهل الخبرة، بأن من الأفضل أن يحتفظ بذكرى أمه كما كانت على هيئتها و«هي حية».

ثم أحضروها له. وأُغلق ستار خلفهما. لقد وقف إلى جانب جثة هُيئت بإهمال، ولا بد من الاعتراف أنها غير بعيدة الشبه عن أمه (بغض النظر عن الوجه الصغير جداً والشفتين المجعدتين مثل الأوكوروديون)، وقف إلى جانبها ولم يجرؤ أن يكلمها أمام عاملي مكتب الدفن اللذين وقفا متربصين خلف الستار. كانا قريبين جداً بحيث كان من الممكن رؤية حذاءيهما عند طرف الستار. ولأجل أن يكون قد حاول الإقدام على شيء، لمس يدها واكتشف أنها باردة: باردة مثل قطعة دجاج يأخذها المرء من الثلاجة.

لم يخطئوا. لقد كانت ثمة صورة أشعة. وأشعة مقطعية، ونتائج مختبر. كان الأمر واضحاً: ورم الغدد اللمفاوية غير هودجكين، نوع

ينمو ببطء - وحسبما يقولون لا يوجد مضاد لها - يا له من تعبير مهذب! - علاج فعال.

- وماذا يعني ذلك بالسنوات؟

عندئذٍ تلفت هذا الشخص الجالس على كرسيه دهراً يمنة ويسرة، بتعبير وجهٍ يوحي أنه من الإهانة أن يضطر إلى الإجابة عن سؤال كهذا، ثم قال:

- لن تسمع مني أي تقديرات.

ثم تحشرج صوته - مثل جهاز الأوكسجين في غرفة أبيه.

وحدات زمنية. اثنا عشر عاماً. سقوط الجدار. زمن بعيد المنال. برغم ذلك حاول أن يستشعر الأمر مجدداً: ما وزن الأعوام الاثني عشر؟

من الواضح أن السنوات الاثنتي عشرة قبل سقوط الجدار بدت له أطول كثيراً جداً من السنوات الاثنتي عشرة بعدها. ما بعد ١٩٧٧ دام أبداً! ١٩٨٩ في المقابل كانت مثل انزلاقة سريعة، مثل مشوار في قطار الأنفاق، برغم أن أشياء كثيرةً حدثت، أليس كذلك؟

لقد فر وعاد ثانية (برغم أن البلد الذي عاد إليه قد اختفى). كان قد عمل بأجر جيد جداً لدى مجلة تعنى بأحد فنون القتال (ثم تركها مجدداً). راكم ديوناً (ثم سدّدها). وخطط لمشروع فيلم (انس الأمر).

ماتت إيرينا: ست سنوات.

لقد قام بإخراج مسرحيات طوال عشرة أو خمسة عشر عاماً (دائماً في مسارح غير مهمة). كان في إسبانيا، وإيطاليا وهولندا وأميركا والسويد ومصر (لكنه لم يذهب إلى المكسيك). ضاجع عدداً غير



twitter @baghdad_library

محدد من النساء (لا يستطيع تذكر أسمائهن جميعاً). ثم - وبعد فترة من التسكع والعربدة - استسلم لشيء ما يشبه العلاقة الثابتة.

تعرف إلى ماريون: ثلاث سنوات.

لكنها لم تبد له الآن قصيرة جداً.

خطر له أنه كان عليه أن يقول لها. أقله كانت هي الوحيدة التي زارته - برغم أنه منع زيارتها له. مع هذا عليه أن يعترف بأن الأمر لم يكن بهذا السوء. لا، فهي لم تُظهر،كما كان يخشى، هذه العناية المبالغ فيها، ولم تحاول استخدام أية عبارات لرفع معنوياته ولم تجلب له زهوراً، بل سلطة طماطم. كيف تسنّى لها أن تعرف الشيء الذي يشتهيه؟ ومن أين عرفت أنه كان لديه ساعتئذٍ خوف مريع من أن يتلقى زهوراً في المستشفى؟

أو لنطرح السؤال بشكل آخر: لماذا لم يكن قادراً على حب ماريون؟ هل كانت كبيرة في السن؟ في مثل سنه. هل كان ذلك بسبب الشريانين الأزرقين أو الثلاثة شرايين التي تبرز بوضوح في فخذيها؟ هل كانت المشكلة فيه هو نفسه؟

«معشوقتي المحبوبة إيرينا! شمسي، وحياتي!» لم يكتب قط لامرأة على هذا النحو. هل كان هذا الأسلوب متقادماً؟ أم هل أحب كورت إيرينا؟ هل تمكن هذا الكلب المتحذلق الهرم، هذه الماكينة المسمّاة كورت أومنيتزر من أن تحب؟

شعر ألكسندر مع تشككه هذا بالغثيان ما اضطره إلى النهوض.

عندما هبط الدرج، كانت الساعة قد اقتربت من الثانية والنصف. كان كورت لا يزال نائماً. كان يعرف أن ماريون في المشتل: من المبكر

الاتصال بها. عوضاً عن ذلك اتصل بالاستعلامات. أراد في الواقع الذهاب مباشرة إلى المطار. لكنه اتصل الآن، وطلب من الاستعلامات ربطه مباشرة بالمطار، وعندما عرف أنه قد رُبط بالمكتب الصحيح، تردد عندما تبين له أنه من الممكن ببساطة حجز تذكرة طيران للغد، شرط أن تكون لديه بطاقة ائتمانية.

لديه واحدة.

- إذن، هل عليّ أن أحجز لك أم لا؟ سألته السيدة على الجانب الآخر من الخط بطريقة لا تخلو من التهذيب، ولكن بنبرة تفيد بأنها لن تواصل الهذر إلى ما لا نهاية.

- نعم، قالها، وأعطاها رقم بطاقته الائتمانية.

عندما وضع السمّاعة كانت الساعة ٠٢:٤٦ عصراً. ظل واقفاً برهة في الظلام، منتظراً أن يغمره شعور ما في إثر ذلك لكنه لم يأت. خطر له فقط هذا اللحن من الأسطوانة العتيقة المصنوعة من الشيلاك التي كانت ملكاً لجدته شارلوته وسقطت في الشارع وتفتتت ألف قطعة في أثناء النقل:

*Mexico lindo querido*
*Si meuro lejos de ti...*

«خوخي في جنينتي». كيف هي بقية الأغنية؟ لم يعرف. هل باستطاعته أن يحصل على مثل هذه الأسطوانة في المكسيك؟ بعد نصف قرن؟

دخل إلى «التابوت الأزرق» وأخذ فنجان قهوته إلى المطبخ، مكث قليلاً واقفاً أمام نافذة المطبخ، وألقى نظرة على الحديقة. بحث وكأنه مدين أقله بهذه الثانية من الذكرى، وسط الأعشاب الذهبية



twitter @baghdad_library

العالية، حيثما كانت تقف بابا ناديا ساعات محنية لتهتم بحوض الخيار الذي تزرعه. لكنه لم ير شيئاً، واختفت بابا ناديا من دون أي أثر.

أحضر صندوق الأدوات من المخزن وذهب إلى غرفة كورت.

في البداية سحب رقعة الشّطرنج القديمة التي كانت موضوعة إلى جوار لينين، وفتحها. فتح الملف المكتوب عليه «شخصي». أمسك بحفنة أوراق، بالضبط بقدر ما تستوعبه رقعة الشطرنج القابلة للطي، ووضع الأوراق داخلها. أحضر كيساً بلاستيكياً كبيراً من المطبخ. وضع رقعة الشطرنج داخلها. بشكل تلقائي تماماً. بهدوء وثقة وكأنه قد دبر ذلك طويلاً.

سيضع المال بعد ذلك أيضاً في الكيس، هكذا فكر. ثم قلب ليخرج الإزميل الذي طالما أُسيء استخدامه من صندوق الأدوات ودقه في شق باب الخزانة السفلي المغلق بقفل. أحدث ذلك دوياً وتناثرت قطع الخشب. الموضوع أصعب مما كان يظن. اضطر أن يسحب كل الأدراج من النصف الآخر للخزانة السفلية، حتى انثنى الحاجز الأوسط للخزانة وانفتح الباب: صور، لعبة ورق إيروتيكية، وأشرطة فيديو، وبعض المجلات من النوع نفسه... وهناك وجدها، لم يكن مخطئاً: العلبة الحمراء الطويلة التي تحتوي على الشرائح الضوئية. لقد فتح العلبة مرة واحدة في السابق ووضع أول شريحة تقع في يديه أمام الضوء وتعرف فيها إلى ملامح أمه وهي شبه عارية في وضع واضح - ثم أعاد الشريحة بسرعة إلى العلبة.

أحضر سلة الغسيل من الحمّام ووضع فيها كل شيء.

مدفأة الفحم الوحيدة الباقية كانت في غرفة المعيشة. لم تُستخدم لسنوات. أحضر ألكسندر ورق صحف ودعامتين من الخشب من مكتبة

كورت، ومقشات، وزيت قلي من المطبخ. أغرق ورق الصحف في الزيت وأشعل النار في كل هذه الأشياء...

فجأةً وقف كورت عند الباب، بشوشاً، وقد أخذ كفايته من النوم. برزت ساقاه النحيفتان من حفاضه. وشعره أشعث كأفرع شجرة التفاح في الخارج. بفضول اقترب كورت بخطاه المتثاقلة.

- سأحرق هذه الصور. قال ألكسندر.

- نعم، أجاب كورت.

- اسمع يا أبي، أنا سأسافر. هل تفهمني؟ سأسافر بعيداً ولا أعرف كم هي المدة. هل تفهمني؟

- نعم، قال كورت.

- لهذا سأحرقها حتى لا يعثر عليها أحد.

لم يبد لكورت أن شيئاً غريباً في الأمر. لقد جلس مع ألكسندر قرب سلة الغسيل وأخذ ينظر داخل المدفأة. بدأت النار الآن بالاشتعال وبدأ ألكسندر بإلقاء ورق اللعب فيها واحدة تلو الأخرى، ثم الصور والمجلات... فكر في أن يلقي أشرطة الفيديو في صندوق القمامة لاحقاً، لكن لا بد من حرق الشرائح الضوئية ولكن أين العلبة؟

رفع رأسه فوجد العلبة في يد كورت. أعطاه إياها.

- وماذا أفعل بها؟ سأل ألكسندر.

- نعم، رد كورت.

- هل تعرف ما هذا؟ سأل ألكسندر.

بذل كورت جهداً في التفكير ودعك فوديه كما في الماضي عندما



twitter @baghdad_library

كان يبحث عن كلمات، وكأنه يريد بهذا الدعك أن يولد طاقة كهربائية في المخ، أن يولد نبضة أخيرة.

ثم قال فجأة:

- إيرينا.

نظر ألكسندر إلى وجه كورت، إلى عينيه. كانت عيناه زرقاوين، فاتحتي الزرقة. وشابتين، أكثر شباباً بكثير مقارنة بالوجه الذي شقّقته التجاعيد.

أخذ منه العلبة وأفرغها من الشرائح الضوئية وأخذ في كل مرة يلقي ملء يديه منها في النار، كانت تحترق بسرعة ومن دون صوت.

ألبس كورت ثيابه ومشّط شعره وحلق له مواضع الذقن النابتة التي تركتها الممرضة. ثم أعد قهوة (لكورت من ماكينة القهوة). سأله أولاً إن كان يريد أن يشرب قهوة. ثم جاء ميعاد النزهة. جرى كورت باتجاه الباب مثل الكلب الذي يعرف القواعد ويطالب بحقه.

قاما بجولة كورت: إلى البريد، كما كان يطلق عليها في الماضي، برغم أن مكتب البريد كان جزءاً صغيراً من طريق كورت اليومي. مع ذلك، كان يعلن خروجه لتمشيته اليومية قائلاً: «سأذهب إلى البريد»، وحتى عندما لم يعد لديه شيء يحضره إلى مكتب البريد، كان يواصل ذهابه إليه. وبفضل حذلقة كورت هذه تجمعت سبعة وعشرون ألف مارك في خزانة الحائط. فلفترة طويلة كان كورت لا يزال يعرف الرقم السري لبطاقته المصرفية وكان قادراً على سحب أموال من الصرّاف الآلي. ولأنه لم يكن لديه شيء ينجزه لدى البريد، كان يسحب المال،

في كل مرة ألف مارك، وذات مرة كان في محفظته ثمانية آلاف مارك، فأخذ ألكسندر الأموال ووضعها في خزانة الحائط، وهكذا كان هو الوحيد الذي يعرف بأمر هذه الأموال.

سارا بطول شارع فوكسباو حيث منازل الجيران الذين كان كورت يعرفهم شخصياً: هنا كان يسكن هورست ميليش الذي كان يعتبر فيلهلم في أثناء حياته كبير الجواسيس السوفيات، وظل حتى النهاية مدافعاً عن نظرية اغتيال فيلهلم، وهناك كان بيت مخبر الشتازي بونكه، الذي ظل عدة سنوات بعد سقوط الجدار يزرع الخضروات في الحديقة ويحيي الناس بود عبر سور حديقته، قبل أن يختفي من دون ضجيج. وهناك سكن معلم الرياضة شروتر، وهنا الطبيب القادم من الغرب. وأخيراً وفي نهاية الشارع كان منزل جده وجدته. وكانت ملكيته قد آلت ثانية إلى أصحابه الأصليين. وسكن فيه الآن أحفاد المالك السابق وقد كان من القيادات النازية المتوسطة. وقد أثرى من صناعة المناظير الميدانية للجيش. قام الورثة بتجديد البيت ودهنه. وأُعيد ترميم الشرفة الرائعة المصنوعة من الحجارة الطبيعية التي تسبب فيلهلم بانهيارها بسبب المبالغة في صب الخرسانة. والحديقة الشتوية بدت غريبة جداً بالزينة التي غطت زجاج نوافذها، لدرجة أنه صعُب على ألكسندر أن يصدق فعلاً أنه كان يجلس مع جدته شارلوته هناك ويستمع إلى قصصها المكسيكية.

ثم انعطفا إلى شارع شتاين. سار كورت بنفس متهدّج منحنياً إلى الأمام، لكنه لم يتخلف عن ألكسندر. هنا على الأسفلت كانوا يلعبون بأحذية التزلق وكانوا يرسمون بالطباشير على أرض الشارع. هناك كان الجزار، حيث كانت إيرينا تشتري منه وهي مغمضة العينين



twitter @baghdad_library

تلك اللفافات التي كان يتم إعدادها خصوصاً لها في الغرفة الخلفية. وهناك كانت «المكتبة الشعبية» التي تحولت إلى مكتب سياحة. وهنا المجمع الاستهلاكي (الذي لا علاقة له في الواقع بالاستهلاك)، حيث كان الحليب قبل زمن بعيد - تمكن ألكسندر بصعوبة من تذكر ذلك - يوزع بالحصص.

وهنا كان مكتب البريد.

- مكتب البريد؟ قال ألكسندر.

- نعم، قال كورت.

لم يقولا شيئاً بعد ذلك.

صعدا التلة إلى خزان المياه القديم. من هنا كان يمكنهما رؤية المنظر الجميل المطل على نهر الهافل. جلسا على الدكة الخشبية وتأملا طويلاً السماء الآخذة في الاحمرار تدريجاً.

# ١٩٥٢

خلال فترة نهاية العام وبداية العام الجديد قضيا بضعة أيام على ساحل المحيط الهادئ. جلبتهما شاحنة لنقل القهوة من المطار الصغير إلى بويرتو أنخيل. نصحهما أحد معارفهما بالمكان: قرية رومانسية تقع على خليج خلاب يمتلئ بقوارب الصيادين ومحاط بالجبال.

وبالفعل كان الخليج خلاباً، بغض النظر عن رصيف شحن القهوة الإسمنتي.

أما المكان نفسه: نحو عشرين إلى خمسة وعشرين بيتاً صغيراً، ومكتب بريد منسي وكشك تباع فيه مشروبات كحولية.

والمكان الوحيد المعروض للإيجار كان كوخاً صغيراً جداً، لكنه أقله كان مسقوفاً بالحجارة (كانت المستأجرة الأسبانية الأصل تسميه «فيلا») وفيه سرير حديدي تحت الناموسية المعلقة من السقف (التي تسمّيها المستأجرة مقصورة). وإلى جانبه كومودان صغيران. وعُلِقت شماعات للملابس بمسامير دُقت في مواضع مختلفة من الأعمدة الخشبية.

وأمام «الفيلا» كانت ثمة شرفة مسقوفة وفيها كرسيا بحر هزازان وطاولة.



twitter @baghdad_library

- جميل، قالت شارلوته.

لقد تجاهلت الخفافيش التي تعلقت فوق رؤوسهم تحت إفريز السقف المائل، أي في وسط الحجرة، لأنه وكما المعتاد هنا يوجد دائماً بين السقف والحائط شق بعرض كف. كما تغاضت عن الخنزير الكبير المرقط الذي كان يرتع في الحديقة وينبش الطين حول المخزن الخشبي الذي كانت تسميه المستأجرة حماماً.

- جميل، سنرتاح هنا!

أومأ فيلهلم موافقاً واستلقى منهكاً على الكرسي. ومع جلوسه انسحب سرواله إلى الأعلى ليكشف شيئاً من سمانتيه النحيلتين الشاحبتين. إنه نحيف في كل الأحوال وقد فقد في الأسبوع الماضي خمسة كيلوغرامات أخرى من وزنه. لقد بدت أطرافه الحادة الزوايا أشبه بكرسي البحر الذي استلقى عليه.

- سنقوم ببعض الرحلات الجميلة في المنطقة المحيطة، وعدته شارلوته.

لكن تبين لهما أنه لا توجد تقريباً أية «منطقة محيطة».

ذات مرة سافرا - بشاحنة لنقل القهوة - إلى بوشوتلا القريبة وزارا محلاً صينياً للبقالة. جاب فيلهلم ببطء المحل المكتظ تماماً بالبضائع، ذاهلاً عما حوله حتى توقف أمام قوقعة حلزونية ضخمة تم تلميعها.

- خمسة وعشرون بيسوس، قال الصيني.

كان ذلك مبلغاً كبيراً.

- لقد أردت اقتناء واحدة كهذه، قالت شارلوته.

هزّ فيلهلم كتفيه رافضاً.

- سنشتريها، قالت شارلوته.

ودفعت دون أن تساوم على السعر.

وفي مرة أخرى ذهبا مشياً حتى مازونته. كانت الشواطئ متشابهة إلى حد كبير، مع الفرق أن الشاطئ في مازونته مليء بالبقع الدكناء. وقد عرفا السبب وراء ذلك سريعاً، وتحديداً عندما رأيا الصيادين وهم يفصلون سلحفاة بحرية ضخمة عن صدفتها وهي على قيد الحياة.

لم يذهبا مرة أخرى إلى مازونته، كما أنهما كفا بعدها عن تناول حساء السلاحف.

وأخيراً جاءت ليلة رأس السنة. قام رجال القرية لعدة أيام بشحن القهوة وسط صراخ وضجيج شديدين. والآن دُفعت لهم أجورهم. في الساعة الثالثة كانوا مخمورين وفي الساعة السادسة فقدوا الوعي. ساد السكون في القرية. لم يتحرك شيء، ولم يظهر أحد. وككل ليلة أشعلت شارلوته وفيلهلم ناراً صغيرة بالخشب الذي جمعه لهما الخادم في مقابل بضعة بيسوس.

حل الظلام مبكراً، والليالي كانت طويلة.

دخن فيلهلم.

طقطقت النار.

تصرفت شارلوته وكأنها لا تهتم بالخفافيش، التي كانت تعبر في وهج النار مثل شهب ساقطة.

في الساعة الثانية عشرة شربا شامبانيا في أكواب الماء وكلاهما



twitter @baghdad_library

أكل حبات عنبه، وفقاً لتقليد محلي، حيث يأكل كل شخص اثنتي عشرة حبة عنب في رأس السنة، باثنتي عشرة أمنية - لكل شهر واحدة.

أكل فيلهلم حبات العنب مرّة واحدة.

أولى أمنيات شارلوته كانت أن يكون فيرنر على قيد الحياة، ولهذه الأمنية احتاجت إلى ثلاث حبات عنب. أما كورت فهو على قيد الحياة وقد تلقت منه رسائل أخيراً. كان لأسباب لم يذكرها في الرسالة قد استقر في مكان ما في منطقة الأورال وقد تزوج هناك في هذه الأثناء. وحده فيرنر - لا تعلم عنه شيئاً. برغم جهود دريتسكي، وبرغم طلبات البحث لدى الصليب الأحمر. وبرغم الطلبات التي قدمتها لدى القنصلية السوفياتية - أولها كان قبل ست سنوات:

- احتفظي بهدوئك أيتها المواطنة. كل الأمور ستأخذ مسارها.

- يا رفيق، أنا عضو في الحزب الشيوعي والشيء الوحيد الذي أرجوه هو أن أعرف أين يعيش ابني.

- كونك عضواً في الحزب الشيوعي لا يعني أنك تتمتعين بحقوق استثنائية.

وجه الخنزير هذا، عليهم أن يقتلوك رمياً بالرصاص. عندئذٍ مزقت حبة العنب بأسنانها.

وإن كان لا بد فمن الأفضل أن يقتلوا إيفيرت ورادوفان: لكل منهما حبة عنب.

وحبة أخرى لتبديل عقوبتهما إلى الإصابة بالتيفوئيد. تيفوئيد يمكن الشفاء منه. وحبة لكي ينتقل الوباء إلى إنغه زوجة إيفيرت التي أصبحت أخيراً رئيسة للتحرير.

وفجأة لم تتبق سوى ثلاث حبات. وكان ذلك معناه الاقتصاد.

العاشرة: الصحة لكل الأصدقاء - من يكون هؤلاء يا ترى؟

الحادية عشرة: لكل المفقودين. كالمعتاد في كل عام.

والثانية عشرة... مضغتها ببساطة، من دون أن تتمنى لنفسها شيئاً. فجأة كان كل شيء قد انتهى.

وعموماً كان كل ذلك من دون فائدة. لقد تمنت خمس مرات أن تعود في السنة التالية إلى ألمانيا. لكن ذلك لم يجد، ومازالا قابعين هنا.

ظلا قابعين هنا فيما المناصب توزع في الدولة الجديدة.

بعد يومين طارا عائدين إلى مكسيكو - سيتي. في يوم الأربعاء، كما المعتاد كان اجتماع هيئة تحرير المجلة. صحيح أنه تم إقصاء فيلهلم عن قيادة المجموعة الحزبية بالانتخاب، لكنه لا يزال محتفظاً بوظائفه السابقة في مجلة «ديموكراتيشه بوست»: كان مسؤولاً عن الحسابات ويدير الخزنة ويساعد على الإخراج وعلى توزيع الأعداد التي تقلصت طبعتها إلى بضع مئات من النسخ.

لكن شارلوته شعرت أيضاً أنها ملزمة بالحضور. كان اجتماع هيئة التحرير مرة واحدة في الأسبوع ولم يكن باستطاعة المرء أن يعرف حقاً إن كان في الوقت ذاته اجتماعاً للحزب أيضاً أم لا. كلما صغرت المجموعة، اختلطت الأمور أكثر: خلية الحزب، لجنة التحرير، القيادة التنفيذية.

ما تبقى من المجموعة هو سبعة أشخاص. ثلاثة منهم كانوا هم «القيادة». بمعنى أصح اثنان بعدما تم استبعاد فيلهلم.



twitter @baghdad_library

بذلت شارلوته جهداً كي تتحمل الاجتماع وجلست منحنية في نهاية الطاولة ولم تكن قادرة على النظر إلى عيني رادوفان. قالت إنغه إيفيرت كلاماً غبياً، ولم تعرف قياس عرض مساحة الطبع وخلطت بين العمود ورقم الملزمة، لكن شارلوته كتمت في داخلها أي حافز للتدخل أو لتقديم أية مقترحات. وتجاهلت عمداً الأخطاء الطباعية الموجودة في المقال الذي أُوكل إليها مراجعته، لكي يدرك الرفاق في برلين، إلى أي مستوى هبطت المجلة منذ تغيير رئيس تحريرها.

بسبب «خرق النظام الحزبي». لم يكن أمام شارلوته أي سبيل آخر سوى أن تكتب من جانبها تقريراً لدريتسكي. كان «خرقها للنظام الحزبي» يتمثل في أنها قد نشرت في يوم المرأة العالمي في الثامن من آذار/مارس مقالاً يثني على قانون المساواة الجديد في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، بالرغم من أن الأغلبية قد رفضت المقترح بوصفه «غير مثير للاهتمام». وكانت تلك هي الفضيحة الحقيقية.

وأضافت أن لإيفيرت «موقفاً انهزامياً» في قضية السلام وأن رادوفان خالف الخط الذي وضع دريتسكي أساسه عندما كان لا يزال في المكسيك، فيما يتعلق بالعمل السياسي في قضية اليهود ذات الحساسية الخاصة هنا (وكان لا يزال لمجلة «ديموكراتيشه بوست» الكثير من القراء من البرجوازية اليهودية).

لم يكن ذلك تصرفاً منصفاً، لكن هل كان من الإنصاف اتهامها بـ «خرق النظام الحزبي»؟

- هل يمكنك أن تكتبي شيئاً للصفحة الثقافية حتى بداية شباط/ فبراير؟

صوت رادوفان.

- صفحة ونصف صفحة، موضوع ذو طابع محلي.

أومأت شارلوته بالإيجاب وخطّت شيئاً في مفكرتها. هل يعني ذلك أنها لم تعد أهلاً للثقة في الجانب السياسي؟

استحمّت في المساء - لقد أصبحت شبه عادة في يوم اجتماع هيئة التحرير.

وفي يومي الخميس والجمعة أعطت دروس تقوية في اللغة الإنكليزية والفرنسية، ثلاث ساعات لكل مادة (وربحت في خلال يومين أكثر مما يربحه فيلهلم في خلال أسبوع في «ديموكراتيشه بوست»).

في الوقت المتبقي قبل عودة فيلهلم، ترجحت في حديقة السطح على السرير المعلق، وطلبت إلى الخادمة أن تحضر لها النُقل وعصير المانغو، وطالعت كتباً عن بدايات التاريخ الكولومبي، من أجل المقال المخصص للصفحة الثقافية، هكذا كان التبرير الذي لم يطلبه أحد منها.

وفي نهاية الأسبوع، قرأ فيلهلم كما هو معتاد صحيفة «نويس دويتشلاند» (ألمانيا الجديدة) التي كانت تأتي دائماً من ألمانيا مجموعة في طرد بتأخير أربعة عشر يوماً. ولأنه لا يتحدث الإسبانية ولا الإنكليزية، كانت هذه الصحيفة هي الشيء الوحيد الذي يقرأه. كان يقرأ كل سطر، وينشغل بالقراءة حتى آخر المساء، باستثناء مرتين يخرج فيهما نصف ساعة من أجل فسحة الكلب.

كانت شارلوته تهتم بشؤون البيت: تناقش مع الخادمة غلوريا قائمة



twitter @baghdad_library

الطعام للأسبوع المقبل وتراجع الحسابات وتسقي الزرع. ومنذ فترة اعتنت بزهرة ملكة الليل النادرة في شرفة السطح. لقد اشترتها وهي تأمل برغم ذلك ألا تراها وهي تزهر.

يوم الاثنين هرع فيلهلم مبكراً إلى المطبعة واتصلت شارلوته بأدريان وتواعدت وإياه عند الظهر.

كان أدريان يريد منذ فترة طويلة أن يريها تمثال كواتيلكو الضخم. لقد حكى لها كثيراً عن إلهة الأرض الأزتكية، وهي تعرف صورها: كائن مخيف. كان وجهها مكوناً على نحو غريب من رأسي حيتين بحيث يرى المرء عين إحدى الحيتين ونابيها في كل جانب على حدة. وفي حجرها يظهر رأس ابنها هويتسيلوبوكتلي الذي يشبه جمجمة الميت. وقد علقت في رقبتها سلسلة من الأيادي المقطوعة والقلوب المنزوعة: رمز طقوس القرابين لدى الأزتك.

لقد عُثر على التمثال قبل أكثر من مئة وخمسين عاماً تحت بلاط زوكالو، قال أدريان وهو يرشف من قهوته وينظر إلى شارلوته وكأنه أمام اختبار.

للمرة الأولى تزور الجامعة. كل شيء، حتى فناجين القهوة في مكتب أدريان بدت لها مقدسة. وأدريان نفسه بدا أكثر مهابة، جبينه أكثر سمواً، ويداه أرق من ذي قبل.

- في العام ١٧٩٠ أُخرجت من موقعها الأثري وجُلبت إلى الجامعة. لكن عميد الجامعة السابق قرر إعادتها إلى زوكالو ودفنها هناك ثانية. لقد دفنوها ثلاث مرات - إلى هذه الدرجة كان الناس يعتبرون وجهها لا يطاق. وحتى بعد ذلك بقيت عقوداً وراء شاشة وأصبحت تعرض للزوار على أنها شيء مريع.

سارت وراء أدريان عبر متاهة من الطرق والسلالم، ثم أصبحا في الفناء الداخلي وأدار أدريان شارلوته بلطف فرأت قدمي كواتيلكو. كانت تتوقع تمثالاً بالحجم الطبيعي. بحذر جالت ببصرها إلى ارتفاع أربعة أمتار. أغلقت عينيها وأدارت ظهرها للتمثال.

- يكمن جمالها، قال أدريان، في أن الفظاعة أسيرة الشكل الجمالي.

في كانون الثاني/يناير كتبت صفحتين عن الجدل حول مفهوم الجمال في فن الشعب الأزتيكي.

في شباط/فبراير لاقى مقالها رفضاً من جميع أفراد هيئة التحرير بمن فيهم فيلهلم لكونه نظرياً جداً.

في آذار/مارس وعلى غير المتوقع تماماً بدأت تمطر وتقدم أدريان للزواج بها.

لم تكن على علاقة بأدريان، كما لم تكن على علاقة بفيلهلم الذي لم يعد ناشطاً جنسياً منذ خسارته في انتخابات قيادة الحزب.

جلسا على درجات هرم تيوتيهواكان الشمسي، الذي زارته مع أدريان عدة مرات. نظرت شارلوته بعيداً عبر المدينة الميتة والطبيعة الجبلية التي يسمّونها وادي المكسيك برغم أنها في الواقع على ارتفاع ألفي متر، وظنت فجأة أنها يمكنها أن تتخلص من كل بلائها.

وعوضاً عن ذلك: تبقى لترى لمرة واحدة في حياتها زهرة ملكة الليل وهي تزهر.

لكن عندما عادت في هذا المساء إلى بيتها ورأت فيلهلم جالساً على الأرض إلى جانب الكلب، عرفت أن ذلك غير ممكن.



twitter @baghdad_library

وبغضّ النظر عن ذلك: هل سيمكنها أن ترى ابنيها لو بقيت في المكسيك؟

وبغضّ النظر عن ذلك: هل تعتزم حقاً قضاء بقية حياتها في إعطاء دروس خصوصية لأبناء الأغنياء؟ أو في إعطاء الأوامر لخدم أستاذ جامعي أرمل؟

وبغض النظر: في التاسعة والأربعين!

في نيسان/أبريل وصلت رسالة دريتسكي، والغريب أنها في ١ نيسان/أبريل. وحسبما عرفت من عنوان المرسل فإن دريتسكي قد أصبح في غضون ذلك وزير دولة في وزارة التعليم. لم يتطرق بكلمة إلى ما جاء في تقرير شارلوته، بل أبلغهما أن تأشيرتي دخول باسمهما موجودتان في قنصلية الاتحاد السوفياتي وطلب إليهما أن يعودا على الفور لأن مهام جديدة في انتظارهما: حيث من المفترض أن تصبح شارلوته مديرة لمعهد الأدب واللغة في أكاديمية علوم الدولة والقانون التي ستؤسس قريباً. أما فيلهلم الذي يعتبر، كما كتب دريتسكي، مهاجراً غربياً، فلن يسمح له بتحقيق أمنيته وهي أن ينضم إلى جهاز المخابرات الجديد، بل سيصبح مديراً إدارياً للأكاديمية.

في هذه الليلة تمشيا عبر حديقة ألميدا، وتركا نفسيهما لاندفاع تيار الزحام البشري. من بعيد تهادى لسمعيهما رنين أجراس كنيسة ماريا تشي وأكلا «تورتيا» بزهور القرع.

لكن الأمر لم يكن كما في الماضي.

تحرك ثلاثة رجال شرطة على ظهور خيولهم وسط الجموع في تمهل يشبه الحركة البطيئة في الأفلام. ثلاثتهم اعتمروا طاقية

السومبريرو برغم أنها كانت كبيرة وثقيلة، ما جعلهم يسعون إلى الحفاظ على توازنهم أكثر من كونهم يعتمرونها، وهذا ما أعطى الفرسان الثلاثة مظهراً مهيباً ومثيراً للسخرية في الوقت ذاته. ممثلو سلطة الدولة الذين أنقذوا حياتهما قبل ١٢ عاماً... فكرة عبثية: أن يكون هذا كله مجرد كذبة نيسان/أبريل. ولكن ألم يكن عبثياً أيضاً، فكرت شارلوته، أن يريد دريتسكي أن يجعل من فيلهلم مديراً إدارياً للأكاديمية؟ ليست لفيلهلم أية فكرة عن الإدارة. بالأساس ليس لدى فيلهلم فكرة عن أي شيء. كان سمكرياً، ولم يكن شيئاً بعد ذلك.

صحيح أنه كان فعلاً ذات مرة - على الورق - أحد مديري شركة «لودكه أندكو للاستيراد والتصدير». لكنه أولاً لم يذكر ذلك في السّيرة الذاتية التي كان يطلبها الحزب - نظراً إلى التزامه بأن يكون هذا الأمر سراً طوال حياته. وثانياً إن شركة لودكه أند كو للاستيراد والتصدير لم تكن سوى شركة صورية يمولها الروس، تهدف إلى مساعدة مخابرات الكومنتيرن على تهريب البشر والمواد.

احتاج فيلهلم إلى وقت طويل كي يجد عملاً في المكسيك، وما وجده - برغم الأجر الجيد - كان عبارة عن وظيفة حارس شخصي لتاجر ألماس. وبغض النظر أن هذه الوظيفة كانت تنتهك الشرف البروليتاري لفيلهلم، لكونه يحرس حياة مليونير وممتلكاته، فإنها كانت محبطة له بوجه خاص، لأنه كان يشعر دائماً أنه يُدفع له في مقابل غباوته. لقد عينه مانديل إيدر ليس مرغماً وإنما لأنه كان لا يتحدث الإسبانية. وكان مناسباً تماماً لهذا التاجر أن يجلس بجواره شخص أصم أبكم في أثناء المفاوضات التي يخوضها.

ولم يبدأ فيلهلم بالعمل لمجلة «ديموكراتيشه بوست» إلا في مرحلة



twitter @baghdad_library

متأخرة عندما عاد سائر المنفيين إلى ألمانيا، لكن ومع أنه يكتب في سيرته الذاتية «المدير التنفيذي لمجلة «ديموكراتيشه بوست»» كآخر وظيفة تقلدها (والعمل لدى إيدر، حوّره إلى «خدمة الشحن بشركة إيدر»)، فلا بد أن دريتسكي كان يدرك أن عمل حساب التبرعات لمجلة «ديموكراتيشه بوست» لا يمكن مقارنته ولا حتى من بعيد بإدارة أكاديمية كاملة.

- إذن فأنا الآن بالتأكيد رئيسك، قالها فيلهلم وأخرج سيجارة من علبته.

- بل على الأرجح لا، ردت شارلوته.

ما الذي دار في هذا الرأس؟

لقد سنحت لهما فرص العودة عدة مرات لكن دائماً كانت تقع أشياء في آخر المطاف تحول دون عودتهما. في البداية خاب مسعاهما بسبب تأشيرة المرور عبر الولايات المتّحدة، وفي مرة أخرى نفدت الأموال في خزينة الرحلات لأن رفاقاً أهم كانت لهم الأولوية، ثم ادعت القنصلية السوفياتية أن ليس لديها أوراق تخصهما. وفي النهاية قيل لهما إنهما لم يستغلا مراراً تصريح السفر الذي حصلا عليه ومن ثم عليهما التحلي بالصبر.

لكن في هذه المرة بدا أن الأمور سارت على نحو مختلف. وبالفعل تسلما تأشيرتي السفر من القنصلية السوفياتية. وحصلا على رحلة مباشرة بالسفينة، مع تخفيض. وفضلاً عن ذلك فقد حصل فيلهلم (لماذا فيلهلم بالذات) على قيمة تذكرته من خزينة الحزب. برغم أنه كان لديهما في هذه الأثناء المال الكافي لتحمل ثمن الرحلة بنفسيهما.

بدأت شارلوته تهتم بتدبير الشؤون المنزلية استعداداً للرحيل، ففسخت العقود وباعت ملكة الليل بخسارة لتاجر الزهور. كان من المدهش أن يتم إنجاز أشياء كثيرة، والآن اكتشفت مدى ارتباطها وتغلغلها القوي في الحياة هنا. كل كتاب فكرت في أخذه معها، وكل قوقعة وكل تمثال صغير قامت بلفه بأوراق الجرائد أو قررت التخلص منه - كل ذلك كان ذكرى لحياة انتهت. لكن في الوقت ذاته وفيما كانت تقوم بفحص صلاحية كل الأشياء للحياة الجديدة، بدأت صورة هذه الحياة الجديدة تتشكل أمامها.

اشتريا خمس حقائب ضخمة على شاكلة خزائن، وحولا جزءاً من ثروتهما الصغيرة إلى حلى فضية واشتريا بالباقي أشياء كثيرة تصورا أنه سيصعب الحصول عليها في ألمانيا ما بعد الحرب، مثلاً آلة كاتبة سويسرية محمولة للرحلات، وطقمين من أدوات المائدة العملية من البلاستيك الصلب، ومحمصة خبز والعديد من الأغطية القطنية ذات النقوش الهندية وخمسين علبة من النسكافيه وخمسمئة سيجارة، بالإضافة إلى الكثير من الملابس التي رأيا أنها ستكون ملائمة للطقس ولمركزهما الاجتماعي الجديد على السواء. وبدلاً من الملابس الصيفية فاتحة اللون، جربت شارلوته البلوزات المقفلة حتى الرقبة وأطقم تايير غير لافتة بدرجات مختلفة من اللون الرمادي: واختارت تسريحة التموج الدائم واشترت نظارة بسيطة ولكنها أنيقة، إطارها الأسود الرفيع أكسب وجهها مصداقية صارمة، عندما كانت تجرب أمام المرآة كيف تنظر كمديرة معهد.

ولمرة أخيرة التقت أدريان بملابسها القديمة ولكن مع النظارة وتسريحة الشعر الجديدتين. ذهبا كما يفعلان كثيراً إلى مطعم صغير في حي تاكوبايا، عيبه الوحيد هو أنه قريب من القنصلية السوفياتية. طلب



twitter @baghdad_library

أدريان كأسين من النبيذ الأبيض وطبقاً من «التشيليز إن نوغادا» أي الفلفل المحشو بالجوز. وقبل أن يأتي الطعام سأل شارلوته ما إذا كانت تعرف بأن سالانسكي قد حُكم عليه بالإعدام.

- لماذا تقول هذا؟ أرادت أن تعرف.

وبدلاً من الإجابة استطرد أدريان:

- وعلى عشرة آخرين بتهمة التآمر الصهيوني.

وضع أدريان صحيفة «الهيرالد تريبيون» على المائدة.

- اقرئي.

لكن شارلوته لم ترغب في القراءة.

- هنا يوجد الإثبات، قال أدريان وهو يضرب بيده على الصحيفة، بأن شيئاً لم يتغير قط.

- هل يمكنك أن تخفض من صوتك لو سمحت؟

- انظري، ها أنت خائفة. فكيف سيكون الحال إذن هناك؟

جاء الطعام لكن شارلوته لم ترغب في الأكل. جلسا فترة أمام طبق الفلفل الحار المحشو، ثم قال أدريان:

- الشيوعية، يا شارلوته، تشبه العقيدة الأزتكية القديمة، إنها تتغذى بالدم.

أخذت شارلوته حقيبة يدها وخرجت مسرعة إلى الشارع.

بعد ذلك بخمسة أيام ركبا السفينة التي ستقلهما إلى أوروبا. في اللحظة التي فُكت فيها حبال السفينة، ومادت الأرض تحت قدميها قليلاً،

وربما غاصت بضعة مليمترات، ارتعدت ركبتاها، واضطرت بجهد بالغ أن تحكم قبضتها على سور السفينة. انقضى هذا الدوار، من دون أن يلحظه فيلهلم، بعد دقيقة.

اختفى الساحل وسط البخار، وولت السفينة وجهها صوب المحيط لتبدأ رحلتها مخلّفة وراءها تياراً مائياً مستقيماً. جلبت الرياح هواءً منعشاً، وصرت حبال الصواري على ظهر السفينة، وبعد فترة وجيزة أصبحوا محاطين بلون رمادي لا نهائي يغطي الآفاق في كل الاتجاهات.

طالت الأيام والليالي كانت أطول. ونامت شارلوته بشكل سيئ، وتكرر لديها حلم وحيد يقودها فيه أدريان عبر متحف سفلي، وعندما كانت تصحو لم يكن في استطاعتها النوم ثانية. كانت تقبع ساعات في الظلام وتشعر بحركة السفينة وارتجاجاتها، وباهتزاز هيكل السفينة مع عصف الزوابع. وعشرةٍ آخرين، قالها أدريان. لماذا لم تقرأ أقله أسماءهم؟ أسئلة. ماذا يفعل كورت في الأورال؟ لماذا لم يتمكن الصليب الأحمر حتى بعد سنوات طويلة من العثور على فيرنر؟ لقد كانت رفيقة سيئة. أفكارها كانت تخرق دائماً النظام الحزبي، بل كاد جسمها يخرق النظام الحزبي أيضاً.

خلال النهار كانت تنسحب بعيداً عن فيلهلم وتحاول أن ترتب أفكارها. كانت تتساءل، أي مصير ستؤول إليه من دون الحزب؟ لقد تعلمت فن الرفء والكي في مدرسة التدبير المنزلي. وكانت ستبقى ترفأ الملابس وتكويها مع الأستاذ أومنيتزر الذي كان يخونها مع تلميذاته، وكانت ستظل تتحمل إهانات حماتها وتشعر بالحنق لأن السيدة باشكه قد أخذت منها حبل غسيلها، لو لم يدخل الحزب الشيوعي في حياتها مع تعرفها إلى فيلهلم.



twitter @baghdad_library

لقد خبرت في الحزب الشيوعي وللمرة الأولى الاحترام والتقدير. فالشيوعيون الذين كانت تعتبرهم في البداية مجرمين (كطفلة كانت تتخيل دائماً أنهم يقتحمون البيوت ويمزقون الأسرة المرتبة، لأن أمها حكت لها أن الشيوعيين ضد النظام)، هؤلاء الشيوعيون كانوا أول من اكتشف مواهبها ودعموا دراستها للغات الأجنبية، وعهدوا لها بمهام سياسية. وفيما فشل أخوها غوستاف الذي وفرت أمها بشكل وحشي من أجل تمويل دراسته للفن - تتذكر شارلوته بمرارة كيف كانت أمها تكلفها، من أجل توفير الغاز، مراقبة إبريق الشاي على الموقد وكيف كانت تضربها على رأسها بلوح تقطيع الخبز، عندما تنسى أن ترفعه عن الموقد قبل أن يصفر - فيما فشل غوستاف كفنان وغاص في أوساط المثليين في برلين، عادت هي التي تعلمت أربع سنوات فقط في مدرسة التدبير المنزلي إلى ألمانيا لتتولى إدارة معهد للغات والآداب، والشيء الوحيد الذي آلمها هو أن أمها لم تعد موجودة لتشهد هذا الانتصار، وأنها لم تستطع أن ترسل إلى أمها رسالة مقتضبة معنونة بلقبها «شارلوته بوفيلايت. مديرة المعهد».

ثم جاء الليل ثانية. ارتج جسم السفينة طوال الليل ولم تكد شارلوته تنعس، حتى حضر أدريان وقادها عبر دهاليز سفلية متعرجة ينتظرها في نهايتها شيء سيئ. انتظرت... وصحت على صرختها.

في هذه الأثناء بدا أن فيلهلم يشعر بالتحسن يوماً بعد يوم. فعلى الجانب الآخر من المحيط كان يعاني أرقاً مزمناً وكان يشكو من فقدان الشهية. لكن الآن كلما أكلت شارلوته أقل بدا أن جوعه قد زاد. كان ينام جيداً ويقوم في أسوأ الأحوال الجوية بالمشي على سطح السفينة ويشتكي عندما يعود بقبعته المبللة التي لا تبلى من ماركة تاردان المكسيكية، من أن شارلوته تقبع الوقت كله في القَمرة.

- أشعر بدوار البحر، قالت شارلوته.

- في رحلة الذهاب لم تصابي بدوار البحر، رد فيلهلم.

هو، الذي ظل طوال اثني عشر عاماً يشارك في السهرات صامتاً مثل عكاز منسي، لم يتمكن من قراءة أي لافتة بالإسبانية وكان يضطر دائماً إلى طلب المساعدة من شارلوته إذا تحدث معه شرطي، ظهر الآن فجأة كعارف بالثقافة الإسبانية وعاشق للمكسيك وتحدث أمام الحاضرين على مائدة القبطان راوياً قصصاً مدهشة عايشها بنفسه، وبرغم أنه منذ فترة إقامته في هامبورغ - «شركة لودكه للاستيراد والتصدير» - كان يتحدث دائماً بالألغاز والتلميحات، لكن الجميع كانوا مقتنعين بأنه قطع الطريق بين المحيطين الهادي والأطلسي على ظهر الخيول واصطاد سمك القرش بقوارب الكانو في بويرتو أنخيل، وأنه قام بنفسه وسط الأدغال المتشابكة باكتشاف أسوار أحد معابد المايا - كل هذا فيما كانت شارلوته تغمس البقسماط في شاي البابونج.

لم يبد أن الريح القارسة البرودة التي استقبلتهما بها ألمانيا الجديدة كان لها أدنى تأثير في فيلهلم. كان يسير مختالاً باستقامة عبر أرض الميناء واضعاً يده على القبعة، عارفاً هدفه وكأنه يعرف المكان. أما شارلوته فسارت وراءه بخطى قصيرة وقد رفعت كتفيها إلى أعلى.

ثم دخلا إلى إحدى المباني الموقتة حيث قام رجل شاحب بفحص أوراقهما وتفتيشها، وفيم كانت شارلوته تفكر فيما إذا كان عليها أن تخاطب موظف الجمارك في ألمانيا الجديدة بـ«المواطن» أم «الرفيق»، قام فيلهلم بتسوية الأمور وطلب تاكسي.

ما رأياه من المدينة لم يختلف في شيء تقريباً عن الميناء، وبرغم



twitter @baghdad_library

أن شارلوته لم تستطع أن تتعرف من النظرة الأولى إلى دمار واضح، لكنها رأت أن كل شيء قد دُمر في الواقع: البيوت والسماء والناس والوجوه المتخفية وراء ياقات مرفوعة.

في أحد الأركان كان الحساء يباع من برميل كبير. وحاول شخصان رفع عربة يد مكدسة بالمخلّفات فوق الرصيف.

تدريجاً تبين لشارلوته أن القبعة المزودة طرحة من الُتل التي اشترتها خصوصاً لرحلة العودة كانت اختياراً خاطئاً.

أخذ فيلهلم يعطي الأوامر لحامل الحقائب. أعطت شارلوته الرجل الذي أصابه الذهول دولارين إكرامية.

- إنك تبالغين، قال فيلهلم.

- أنت أيضاً، ردت شارلوته.

انطلق القطار مصدراً فحيحاً ينذر بالخطر. كانت له رائحة السكك الحديد: المزيج التقليدي من السُّخام والبراز. لم تسافر شارلوته بالقطار منذ فترة طويلة.

نظرت من النافذة. الطبيعة تمر أمامها على إيقاع ضجيج القطار المنتظم تراك - تراك. كانت الغابة تقطر من فرط البلل. وفي الأراضي البور كانت ثمة بقع متسخة من آثار الثلوج الأولى. تصاعد دخان من كوخ لحراس حواجز المزلقان، وفي أثناء مرور القطار لحظت شارلوته الحارس وهو يرفع الحاجز.

- حارس مزلقان، قالها فيلهلم بلهجة منتصرة وكأنه يريد أن يبرهن على شيء.

لم تقم شارلوته بأي رد فعل، ونظرت عبر النافذة وحاولت أن تكتشف شيئاً يسري عنها. حاولت أن تفرح لرؤية برج الكنيسة المبني بالآجر، حاولت في أثناء مشاهدتها الطبيعة أن تشعر بشيء يشبه الإحساس بالوطن. فالجادات التي تزين الأشجار أطرافها، جعلتها أقله تتذكر أنه كان يوجد بألمانيا أيضاً شيء مثل الصيف. نسيم معتدل في أثناء انطلاق دراجة فيلهلم البخارية ماركة «بي إم دبليو آر ٣٢» (BMW R 32) المزودة عربة جانبية، كان يجلس فيها ولداها ضاحكين، لا يدريان بما يحدث.

توقف القطار وانفتح باب الديوان، فدخله شيء من سخام الفحم البني والمطر البارد. لم يحي الرجل ولم يخلع معطفه عندما جلس. كان معطفاً جلدياً أدكن بالياً. وحذاؤه كان متسخاً بالطين.

تفحصها الرجل سريعاً، ثم أخرج علبة خبز من حقيبته وأخذ منها شطيرة مقضومة. أخذ يمضغ طويلاً بعناية، ثم أعاد نحو ثلاثة أرباع الشطيرة إلى العلبة ثانية. ثم أخرج صحيفة «نويس دويتشلاند» من حقيبته وفتحها، وعلى الفور لفت عنوان على ظهر الصفحة المواجهة لشارلوته انتباهها:

## الحزب يناديك!

شعرت شارلوته بالخجل. بسبب طرحة التل في قبعتها. وبسبب خوفها. بالخجل من علب النسكافيه الخمسين في حقيبتها... نعم الحزب يحتاج إليها. هذا البلد يحتاج إليها. ستعمل وستساعد على بناء هذا البلد - هل ثمة مهمة أجمل من هذه؟



twitter @baghdad_library

أمسك الرجل بالصحيفة على نحو يجعلها تستطيع رؤية الجزء الأسفل من الصفحة. أشياء ثانوية استحوذت فجأة على اهتمامها. كم هو جميل أن تفكر في أنها، لو رغبت، يمكنها اليوم فعلياً الذهاب إلى سينما شتيرن في وسط برلين - حيث يعرض فيلم «طريق الأمل». كانت شارلوته على استعداد أن تأخذ ذلك كأمارة جيدة وشعرت بالتأثر - لماذا؟ بل كادت عيناها تدمعان عندما قرأت في ركن «إشارات»:

طلبات الحصول على أشجار عيد الميلاد الكبيرة يتم تسليمها في موعد أقصاه ١٨ كانون الأول/ديسمبر كتابياً أو هاتفياً لجمعية برلين الكبرى التعاونية.

فتح الرجل الصحيفة على آخرها بحيث أصبحت الصفحة الأولى مرئية لشارلوته، وقرأت عيناها تلقائياً عنوان الصورة:

وزير الدولة في وزارة التعليم، الرفيق...

والآن كان من المفترض أن يكون اسمه كارل هاينتس دريتسكي.

لكنه لم يكن.

ترجرج القطار في أثناء مروره عبر حقل تحويلات. ترجحت شارلوته في أثناء سيرها في الممر ولم تكد تشعر باصطدامها بالجدران. بجهد بالغ وصلت إلى دورة المياه ورفعت - بيدها العارية - غطاء المرحاض وتقيأت القليل الذي تناولته في الإفطار.

أغلقت غطاء المرحاض ثانية وجلست عليه. الآن استشعرت رجرجة القطار في أسنانها مباشرة، في رأسها مباشرة. وما زالت تشعر بالنظرة الباردة الفاحصة التي سُلطت عليها من فوق طرف الصحيفة.

وبالذات من معطف جلدي أسود. كان كل شيء واضحاً، والأمور بدت متسقة بعضها مع بعض.

الكلمة المناسبة هي التهريب. لقد تم تهريبهما عن طريق العميل الصهيوني دريتسكي.

كان ثمة صرير وخشخشة وكأن أجزاء القطار على وشك أن تنفصل بعضها عن بعض. أمسكت رأسها بكلتا يديها... أم أنها أُصيبت بالجنون؟ لا لقد كانت في كامل قواها العقلية. كان ذهنها صافياً كما لم يكن من قبل... كان من المفروض أن يُكتب أقله وزير الدولة الجديد... ضحكت في سرها حد المتعة تقريباً لكونها تعلمت التعرف إلى هذه الفروق البسيطة. وزير الدولة الجديد: معناها أنه كان ثمة وزير قديم. لكن هذا القديم لم يكن موجوداً. لقد كانا في حماية شخص غير موجود. وهكذا فإنهما أيضاً كانا بدورهما غير موجودين. في محطة شرق برلين سيقف رجال يرتدون معاطف جلدية سوداء وشارلوته ستتبعهم من دون مقاومة ومن دون ضجيج. وستوقع اعترافات وستختفي. أين؟ لن تعرف. أين كان هؤلاء الذين لم تعد أسماؤهم تذكر؟ الذين لم يعد لديهم وجود فحسب، بل لم يكن لهم وجود من الأساس؟

نهضت وخلعت قبعتها وغسلت فمها وتأملت نفسها في المرآة مثل البلهاء.

ثم أخرجت مقص الأظفار من حقيبة يدها وفصلت به التل عن القبعة. أقله أرادت أن توفر ذلك على نفسها.

وقف الرجل في الممر ودخن، حشرت نفسها لتمر بجانبه من دون أن تلمسه.



twitter @baghdad_library

- أين كنت كل هذا الوقت؟ أراد فيلهلم أن يعرف.

لم تجب شارلوته. جلست ونظرت عبر النافذة ورأت الحقول والتلال، رأتها ولم ترها. اندهشت لكونها أحست بالضيق في المقام الأول. اندهشت مما فكرت فيه تواً. ظنت أنها فكرت في شيء مهم. لكنها فكرت في آلتها الكاتبة السويسرية. فكرت فيمن سيتمتع بالخمسين علبة من النسكافيه، وفكرت في ملكة الليل التي أعادتها إلى بائع الزهور (بثمن بخس جداً). وفكرت، فيما دار في الخارج فيلم من دون مضمون، وزحف جرار عبر حقل...

- جرار، قال فيلهلم.

فيما توقف القطار في محطة صغيرة قذرة...

- نويشتيرليتز، قال فيلهلم.

... فيما أصبحت الطبيعة مسطحة أكثر وبائسة، وفيما مرت صفوف رتيبة من أشجار الصنوبر على جانبي الطريق، تقطعها جسور وشوارع وجسور لعبور المشاة، لم يقف عليها أحد قط، فيما تقافزت أسلاك التلغراف في عجلة عبثية من عمود إلى عمود وبدأت قطرات المطر تزحف بشكل مائل على زجاج النوافذ - فكرت في فيلهلم الذي كان راقداً قبل عام تقريباً على كرسي البحر في بويرتو أنخيل، وفي ساقيه النحيلتين الشاحبتين اللتين برزتا من بنطاله...

- ماذا إذن، هل نزعت الحجاب؟ قال فيلهلم.

- نعم لقد نزعته، قالت شارلوته.

ضحك فيلهلم. ومض بياض عينيه في وجهه الذي اكتسب بشرة بنية ولمعت الجمجمة الحادة الحواف مثل جلد الحذاء.

منطقة أورانينبورغ: لافتة تشير إلى الطريق المؤدي إليها. ذكريات حانات الخروج حيث كان المرء يحصل على القهوة في مقابل بضعة بفنيغات ويجلس في ظل شجرة كستناء لتناول الخبز الذي أحضره معه، وذكريات شواطئ الاستحمام والناس في لباس الخروج يوم الأحد وأصوات البائعين الجوالين ورائحة السجق الساخن. الآن في أثناء المرور اعتقدت لثانية أن الأمر يتعلق بأورانينبورغ أخرى لا تعرفها: مجموعة من المباني الموزعة بشكل عبثي، وحتى لو سكن فيها أحد ذات يوم، فقد بدا أن سكانها جميعاً قد هجروها. عمود تلغراف مهشم. مركبات عسكرية. الروس. سيدة تقف بدراجتها على جسر المشاة، وفي سلة الدراجة كلب. فجأة أدركت شارلوته أنها لا تستطيع تحمل الكلاب.

ثم برلين. جسر مدمر. وواجهات بيوت مزقها الرصاص. هنا بيت دمرته القنابل وعرت الحياة داخله، حجرة النوم والحمّام والمطبخ. مرآة محطمة. بل كادت تظن أنها رأت كوب غسل الأسنان. مر القطار ببطء أمام المبنى وكأنه في جولة بالمدينة. كادت شارلوته تأسى لحال سكان هذا البلد: يا لها من مشقة!

لم تر شيئاً معروفاً لها، لا شيء له علاقة بالمتروبول الذي غادرته في الثلاثينيات. كسب القوت ببيع لافتات بائسة مرسومة باليد. شوارع خالية. لا توجد سيارات تقريباً، وعدد قليل من المارة.

ثم بعد ذلك طابور طويل من البشر أمام مبنى. وقفوا هناك في عناد وكآبة.

وعدد من العمال الذين قاموا وسط هذا التشاؤم بإصلاح قطعة صغيرة من الطريق.



twitter @baghdad_library

ثم بدأت أرصفة المحطة تتشعب.

- محطة شرق برلين، قال فيلهلم.

بركبتين مرتعدتين تعثرت شارلوته في أثناء عبورها في الممر. أحدثت مكابح القطار صريراً. هبط فيلهلم من القطار وأخذ منها الحقائب، ثم هبطت شارلوته. سقف المحطة هو الشيء الوحيد الذي استطاعت التعرف إليه مجدداً. حط حَمَامٌ فوق دعائم المحطة المصنوعة من الصلب. من ناحية قطار المدينة السريع جاء تنبيه قوي النبرة:

- رجاء الرجوع إلى الوراء!

بحذر جابت شارلوته الرصيف ببصرها.

- إن وجهك مصفرّ تماماً، قالها فيلهلم.

# ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩

بدأ الجنون قبل الثامنة صباحاً بقليل.

كان يوم أحد،

وقد ساد السكون.

وحدها زقزقة العصافير الخفيضة كانت تتسلل عبر نافذة غرفة النوم نصف المفتوحة، وإذا ما أنصت لها المرء، كان يدرك من خلالها هذا السكون المطبق المخيم على هذا المكان الذي ظل يصحو منذ أكثر من ربع قرن في كنف الحدود بعيداً عن حركة المرور وضجيج البناء أو آلات الحدائق الحديثة.

وسط هذا السكون دوى جرس الهاتف، تفصل بين رناته فترات توقف خادعة.

أحياناً كانت إيرينا تظن أنه يمكنها من خلال الرنات معرفة أن شارلوته هي المتصلة. كانت ترقد في السرير على ظهرها وقد ثنت ركبتيها وسمعت عبر باب الغرفة كورت وهو خارج من المطبخ وصرير الباركيه تحت قدميه وهو يذرع الصالة ذات الأمتار الستة ويمسك أخيراً بسمّاعة الهاتف ويقول:

- نعم يا أمي.



twitter @baghdad_library

أغمضت إيرينا عينيها وزمت شفتيها وحاولت أن تكتم غيظها.

- لا يا أمي، ألكسندر ليس عندنا.

عندما يتحدث مع شارلوته ينادي ابنه «ألكسندر» بدلاً من اسم التدليل «ساشا»، ما يعد غريباً على أذني إيرينا، فباللغة الروسية لا يستخدم أحد «ألكسندر» إلا في صيغة الاحترام.

- إذا كان قد تواعد وإياك في الحادية عشرة، فعلى الأرجح سيأتي في الحادية عشرة... آلو... آلو؟

من الواضح أن شارلوته وضعت السماعة. هذه هوايتها الجديدة أن تضع السماعة متى فقدت الاهتمام في خلال المكالمة أو إذا حصلت على المعلومات التي تحتاج إليها.

عاد كورت إلى المطبخ. سمعت إيرينا وقع خطاه وقرقعته. أخيراً أصر كورت على أن يعد الفطور بنفسه في نهاية الأسبوع، على الأغلب ليثبت أنه مع المساواة بين الجنسين.

امتعضت إيرينا وحزنت لبضع ثوان على ساعة الصبح الضائعة، الساعة الوحيدة التي تخصها وحدها، لو لم يتصل أحد ولو لم يتسبب أحد بإثارة أعصابها، عندما تشرب قهوتها بكل هدوء وتدخن سيجارتها الأولى، قبل أن تبدأ العمل. يا لها من متعة. وأيضاً كأس البراندي الصغيرة التي كانت تسمح بها لنفسها أخيراً من حين إلى آخر. كأس وحيدة. لقد كانت حاسمة في ذلك. من أجل أن تحصن نفسها ضد الجنون اليومي.

منذ أسابيع سارت الأمور على هذا النحو: شارلوته تتصل يومياً وتطلب شيئاً ما، وتعطي تكليفات وتسحبها ثانية وتغيرها وتعطيها مجدداً. هل في استطاعة إيرينا إحضار بطاقات لاصقة للكتابة على

المزهريات. كما هو معتاد كل عام تستعير شارلوته مزهريات من كل بيوت نويندورف، وبرغم أن ذلك يتم دائماً من دون مشكلات، إلا أنه رسخ في ذهن شارلوته فجأة أنه لا بد من وضع بطاقات لاصقة على المزهريات حتى يستعيد الجميع مزهرياتهم الصحيحة.

لماذا؟ تتساءل إيرينا. لماذا ذهبت بسيارتها وجلبت هذه البطاقات اللاصقة اللعينة؟ لقد قضت نصف يوم في المرور على محال الأدوات المكتبية في المدينة واحداً تلو الآخر: يبدو هذا سهلاً ولكن لا بد من حساب البحث عن مكان لصف السيارة والالتفاف على ورش البناء في الطريق (منذ سنوات لم تتحرك ورش البناء هذه من مكانها) ثم الوقوف في صف طويل بمحطة الوقود (لمدة نصف ساعة والشجار مع المزاحمين) والضجر بسبب المسافات التي تقطعها هباء لأنها وبعد عناء إيجاد مكان لصف السيارة، كانت تجد على المحل لافتة تقول: «مغلق للجرد» وبالطبع لأنها لم تجد بطاقات لاصقة في أي محل للأدوات المكتبية، ذهبت بزجاجة كونياك إلى ستوديوهات «ديفا» لكي ترجو مدير معمل الشاشة الكبيرة أن يوفر لها بعضاً من هذه البطاقات. كل هذا برغم أن فيلهلم لم يكن يكترث إطلاقاً للزهور. تذكر إيرينا جيداً أنه جلس في العام الماضي في كرسيه المجنح مثل طفل وأخذ يكرر المزحة نفسها على سمع كل مهنّئ له:

- ضع الخضر في أصيص الزرع!

ومتملقوه يضحكون في كل مرة ضحكاً مدوياً وكأنه قد جاء بشيء فذ.

لم يعد فيلهلم يسمع جيداً منذ فترة طويلة، كما أنه كان شبه ضرير. كان يجلس في كرسيه المجنح هيكلاً عظمياً ذا شارب، لكنه كان



twitter @baghdad_library

عندما يرفع يده ليقول شيئاً ما يصمت الكل وينتظرون بكل صبر حتى تصدر عنه بعض الأصوات المتحشرجة التي يسعى كل الحضور عندئذ لتفسيرها بكل حماسة. ويحصل كل عام على وسام. وفي كل عام تلقى بعض الخطب ويُقدم الكونياك البائس عينه في الأكواب الألومنيوم الملونة ذاتها. وفي كل عام يبدو لإيرينا أن فيلهلم محاط بالمزيد من المتملقين؛ كانوا يتكاثرون، وكأنهم جنس من الأقزام، الكثير من صغار القوم في بزات رمادية دبقة، لم تستطع إيرينا التمييز بينهم، كانوا يضحكون دائماً ويتحدثون لغة لم تفهمها إيرينا في الواقع إطلاقاً. وعندما كانت تغلق عينيها، كانت تعرف كيف ستشعر في نهاية هذا اليوم، تحس بخديها المتصلبين من فرط الضحك المتكلف، تشمّ رائحة المايونيز الذي تجشّأته بعد أن جربت بسبب الملل أشياء عديدة من البوفيه البارد. وتحس بطعم الألومنيوم في الأكواب الملونة التي قُدم فيها الكونياك.

عموماً لم تكن تأتي إلى بيت حمويها عن طيب خاطر، مجرد التفكير في ذلك لم يكن مريحاً لها. كانت تكره الأثاث الضخم القاتم والأبواب والسجّاد. كل شيء في هذا البيت كان قاتماً وثقيلاً. كل شيء يذكرها بأيام معاناتها، حتى الحيوانات النافقة التي سمرها فيلهلم على الحائط. وأيضاً بعد ثلاثة وثلاثين عاماً لم تنس تنظيف شقوق خزانة معاطف الضيوف المبطنة بالخشب ولا كيف كانت تطهو الشوفان لفيلهلم وتقف على الدرج لتنصت متى يخرج من الحمّام ثم تسرع إلى المطبخ لتقليب الشوفان، حتى لا يكون معجناً، عندما تقدمه له... لم تكن قط في حياتها بلا حول ولا قوة مثلما كانت في ذاك الوقت: لم تكن تعرف اللغة مثل صماء بكماء تبحث حائرة في إشارات ونظرات الآخرين عن الطريق.

وكورت؟

كان كورت يجلس بالقرب من شارلوته على الأريكة ويأكل العنب فيما هي واقفة في غرفة الغسيل تكوي قمصان فيلهلم وطفلها يمسك بذيل تنورتها، وكانت معهم هذه السيدة شتيلر.

عفواً، الدكتورة شتيلر.

سمعت كورت يدخل الغرفة ويضع شيئاً على المائدة ثم يعود إلى المطبخ. كانت الساعة تقارب الثامنة والنصف. عليها أن تحضر الزهور حتى العاشرة على أقصى تقدير. ثم تذهب إلى المحل الروسي لإحضار سجائر «بيلوموركانال». كما أنها تريد أيضاً طهو بيلميني عندما يأتي ساشا للغداء.

لكن كورت كان يصر على أن تبقى راقدة في السرير حتى يمرر رأسه من فتحة الباب ويدعوها بصوت طفولي للإفطار. وإيرينا كانت تلبي له رغبته. لماذا؟

تأملت نفسها في المرآة البيضوية الكبيرة المعلقة قبالة طرف السرير... هل كان للأمر علاقة بالضوء؟ أم بهذه المرآة اللعينة التي يرى المرء فيها نفسه دائماً واقفاً على رأسه؟ ستتخلص من هذه المرآة أيضاً، فكرت إيرينا وتذكرت في اللحظة نفسها أن هذه الفكرة كانت تخطر لها مراراً ودائماً يوم الأحد عندما يعد كورت الفطور وترقد هي هنا وتتأمل نفسها في المرآة.

أسوأ شيء كان هو أنها تبدأ باكتشاف ملامح أمها في وجهها. هذه الحقيقة أحبطت إيرينا. لا شك أنها ما زالت حسنة المظهر. اليوم أيضاً سيغازلها هورست ميليش ذو العينين الكلبيتين مجدداً بعبارات ساخنة. وحتى أمين عام المقاطعة الجديد المبتسم دائماً، هذا الكائن



twitter @baghdad_library

العديم الجنس الذي يبدو بالأحرى وكأنه من البلاستيك وليس من لحمٍ ودم - على النقيض من القديم الذي كان برغم قصره وسمنته رجلاً بحق - بل قادراً على تقبيل يد سيدة - لكن حتى هذا الأمين الجديد كان سينحني مرة أكثر من اللازم وهو يحييها وسيبدو في نظرته التي ستتجاوزها سريعاً شيء ما إن لم يكن إعجاباً، فهو شيء يشبه الارتباك.

لكن كل هذا لن يغير من حقيقة أن الشيخوخة تزحف بشكل محسوس ولا رجعة فيه، ومنذ أن أصبحت أمها تعيش معها في المنزل (أحضرتها إيرينا قبل ١٣ عاماً من روسيا بعد تعقيدات بيروقراطية تفوق الخيال)، تجسد أمام عينيها مآل هذا الزحف. بالطبع كانت تعرف دائماً أن المرء سيشيخ. لكن وجود أمها جعلها تعي يومياً عدم جدوى مقاومته، كان يفتتها ويضع في رأسها أفكاراً مهرطقة، ويهمس لها بغواية أن تتخلى عن كونها امرأة. لماذا تلبس جوارب طويلة بحمالات وتعالج لثتها، ولمَ الباروكات وحليب التجميل، ولمَ الشد والأصباغ؟ لكي تثير إعجاب بعض الرجال الهرمين المملين بقصات شعر مسؤولي الحزب؟ من أجل هذه المتعة السنوية الصغيرة في التفوق على السيدة شتيلر، عفواً الدكتورة شتيلر التي أصبح قوامها يقترب شيئاً فشيئاً من جوال البطاطا والتي يزداد وجهها احمراراً بسبب أحد أمراض ضغط الدم؟

رن الهاتف.

مجدداً صرّت خطوات كورت على ستة أمتار من الباركيه، ماراً بالأريكة الضخمة وبحذاء باب غرفة النوم وأخيراً خرج صوته:

- نعم يا أمي.

لا تصدق إيرينا مدى صبر كورت ولطفه مع شارلوته.

- لا يا أمي. إنها الثامنة والنصف. إذا كان موعدكما في الحادية عشرة فسيأتي ألكسندر بعد ساعتين ونصف ساعة.

مبدئياً وفي أعماق قلبها تشعر إيرينا بالضيق. فهي تحس بغبن دائم وكبير: وكأن كورت يرفض أن يدرك حتى اليوم ما فعلته شارلوته بها في الماضي.

- يا أمي أنا لا أعرف متى تواعدتما.

كانت شارلوته تُعاملها أسوأ معاملة، ولو كان الأمر بيدها لأعادتها إلى قريتها الروسية وزوّجت كورت بهذه السيدة د. شتيلر.

سمعت خطى كورت المتثاقلة في أثناء عودته إلى المطبخ. يا إلهي كم يحتاج هذا الرجل كي يفك قطعة جبن من غلافها ويضع طبقين على المائدة. وفي آخر المطاف يتوهم أنه يساهم في أعمال المنزل. برغم أنه يضر أكثر مما ينفع، ذات مرة نسي أن يضع إبريق القهوة تحت الماكينة، وفي مرة أخرى كان الفطور بيضاً غير مسلوق - مع أنه ترك الماء يغلي ثلاث دقائق ونصف الدقيقة بالضبط.

بصيص الأمل الوحيد في هذا اليوم كان مجيء ساشا للغداء. هذا ما فكرت فيه إيرينا في أثناء وضعها الغطاء على الأرض للقيام ببعض تمارين اليوغا (أو ما تعتقد أنه كذلك) - مجيء ساشا كان هو العَرَض الوحيد اللطيف المصاحب لحفلة عيد الميلاد هذه.

مثل كثيرين عُهدت إلى ساشا مهمة خاصة. مهمة ساشا كانت توسيع مائدة الطعام. رسخ في ذهن شارلوته أن ساشا هو الوحيد القادر على القيام بهذه المهمة. كان ذلك سفهاً، لكن إيرينا لم تستطع قط أن تزعزع شيئاً من هذا الاعتقاد الخاطئ. مادام ساشا قد طُلب في الحادية عشرة لتوسيع مائدة الطعام، فلن يكون مجدياً أن يعود إلى



twitter @baghdad_library

برلين مباشرة، وسيبقى كالعادة في بيت العائلة بشارع فوكسباو حتى موعد الحفلة، وعندئذٍ سيأكلون بيلميني بصوص الكريمة المخمرة والخردل، كما يحب ساشا. لم يكن لديها شيء ضد كاترين، سوى أنها لم تكن تفهمها. لماذا انتقل ساشا ليعيش مع امرأة كهذه. دائماً ينتقل على الفور للعيش مع النساء، بدلاً من أن ينتظر حتى يتعارفا قليلاً، ويرى إن كانت العلاقة ستنجح. كان بإمكانه أن يعيش هنا. لقد وسّعت إيرينا الطبقة العلوية وصنعت منها شقة كاملة بحمّامها الخاص.

لا، لم يكن لديها شيء ضد كاترين، فكرت إيرينا فيما كانت تؤدي تمرين الشمعة بشكل معقول. لكن إذا ما أرادت أن تكون صريحة مع نفسها، فما زال من المستغلق عليها معرفة الشيء الذي يعجب ساشا في هذه المرأة. بالطبع لم يكن هذا من شأنها. لقد حظرت على نفسها أن تنطق ولو ببنت شفة في هذا الشأن. مع ذلك فقد كانت تستغرب ألا يجد رجل حسن المظهر وذكي وشاب امرأة أفضل من هذه. يُقال إنها ممثلة. ألم يرَ أن هذه المرأة قبيحة؟ ركبتاها قبيحتان، لا وسط لها ولا ردفان، وذقنها يشبه ذقن عامل بناء. عيناها جميلتان، لا بد أن تعترف لها بذلك. رغم أنه على الجانب الآخر: هذه النظرة المرتعشة، هذا القلق في العينين عندما يتحدث المرء معها... لم تشعر إيرينا قط بأنها قريبة فعلاً. دائماً كانت تبدو أنها تفكر بشكل محموم. دائماً كان يدور في رأسها شيء ما وهي تبتسم لأي شخص.

لا يهم، قالت إيرينا لنفسها، وتأملت ساقيها الممددتين اللتين تعتبرانهما - عندما تكون صادقة مع نفسها - ما زالتا جميلتين بالمقارنة بساقي كاترين اللتين تشبهان أعواد سور خشبي. ولهذا قررت ألا ترتدي فستاناً مكشوف الظهر كما في العام الماضي، بل التنورة الخضراء بلون المحيط، برغم أنها أقل احتفالية وتعد قصيرة بعض الشيء بالنسبة إلى

سنها - لا يهم - فكرت إيرينا - فليسعدوا بذلك، أو لا يسعدوا، لكن أقله مرة في العام لا بد لساشا أن يتمكن من المجيء إلى بيت العائلة وحيداً. مرة واحدة في العام تريد أن تأكل بيلميني مع ساشا كما في الماضي. ما العيب في ذلك؟ وخصوصاً أن كاترين لا تحب البلميني. وبعد الطعام - هكذا تخيلت إيرينا وهي تنهي تمرين الشمعة بتنهيدة - سيغفو ساشا قليلاً في الطبقة العلوية، وبعدها يجلس الرجلان في غرفة كورت ويلعبان مباراة شطرنج ويشربان في خلال ذلك كأساً صغيرة من الكونياك، وهي أيضاً بمجرد أن تنتهي من غسل الأطباق، ستصب لنفسها كأساً من الكونياك وتجلس صامتة - هذا وعد - (وعلى أقصى تقدير ستلكز ساشا من تحت المائدة، إذا قام بحركة خطيرة). وبعد ذلك سيذهبون معاً إلى حفلة عيد الميلاد - تصور محتمل، بل يكاد يكون لطيفاً، خصوصاً في ما يتعلق بالتمشية عبر شوارع نويندورف الخريفية. تصور مناسب لاستحضار ذكريات أبعد وأقل احتمالاً، ذكريات زمن كان فيه ورق الشجر لا يزال يُحرق في نويندورف، وكان ساشا يتقافز بخطى سريعة متعلقاً بيدها.

لكن الهاتف رن للمرة الثالثة هذا الصباح وقبل أن تشعر كانت قد نهضت وأمسكت بالسمّاعة في يدها.

- ألا تستطيعين أن تتركينا نفطر بهدوء، قالتها بفحيح غاضب قبل أن تسمح لشارلوته أن تنطق كلمة واحدة.

وصفقت السمّاعة وتسمّرت نظرتها على الهاتف للحظات وكأنه الحيوان الذي صرعته تواً وكانت على استعداد لأن تهشمه بالضربة التالية - لكن الهاتف لم يرن ثانية.

- عليك ألا تنفعلي بهذه الطريقة.



twitter @baghdad_library

كان كورت واقفاً وراءها وفي يده كأس بيض (وبداخله بيضة).

- إنك لا تزال تدافع عنها.

لم يرد كورت، وضع كأس البيض جانباً وعانق إيرينا. كان عناقاً أبوياً خالياً من أي نيات أخرى. التفت ذراعا كورت حول جسد إيرينا وأخذ يهدهدها بلطف: كان هذا يسمّى «مواساة» في لغتهما الخاصة، برغم أن إيرينا كانت تعترض على ذلك في البداية، لكنها كانت تحب عموماً أن تُواسى: عن كل ما ضاع، عن كل ما فعلته بها الحياة وعن كل ما فعله بها كورت أيضاً. وضعت إيرينا رأسها على كتف كورت وتركته يهدهدها. في اللحظة نفسها انفتح باب غرفة أمها بصرير عال، ما جعل إيرينا تتسمّر في مكانها وتترقب وقع الخطى التي لا بد ستسمع في الثواني التالية. لاإرادياً تراءى لإيرينا جسد أمها المنحني بقلنسوة النوم التي حاكتها لنفسها، والتي تنام بها في كل فصول السنة، وسلسلة المفاتيح التي تعلقها في رقبتها وكأنها تخشى أن تحبسها إيرينا على حين غرة، وحذاء البيت البائس الذي يشبه خرقة أكثر مما يشبه الحذاء، والذي تفضل أمها انتعاله لأن قدميها المشوهتين من جراء العقد العظمية تؤلمانها... ناديجدا إيفانوفنا الشبح الذي يجسد مستقبل إيرينا. اقتربت خطى الشبح أكثر. بقي غير مرئي خلف باب غرفة المعيشة الموارب، وهمهم بشيء ما.

فتحت إيرينا الباب.

- ماذا تريدين؟

كانت إيرينا تتحدث الروسية مع أمها. في خلال السنوات الثلاث عشرة التي عاشتها ناديجدا إيفانوفنا هنا لم تتعلم أي كلمات ألمانية بخلاف

«نهارك سعيد» (Guten Tag) و«مع السلامة» (Auf Wiedersehen) وللأسف تستخدم الواحد محل الآخر في معظم الأحيان.

- متى سيأتي ساشا اليوم؟ سألت ناديجدا إيفانوفنا.

- من أين لي أن أعرف، ردت إيرينا مزمجرة. من الأفضل أن تضعي طقم أسنانك وتفطري شيئاً.

- لا أريد فطوراً، قالت ناديجدا إيفانوفنا، وسارت إلى الحمّام.

جلست إيرينا والتقطت سيجارة «كلوب» من العلبة.

- فلتأكلي شيئاً، قال كورت.

- علي أولاً أن أدخن، أصرت إيرينا.

- إيروشكا، عليك ألا تنفعلي على هذا النحو، قال كورت، انظري، كم رائعة هي الشمس.

وافتعل تعبيراً مضحكاً بوجهه لكي يشجع إيرينا.

- لا أريد فطوراً، قلدت إيرينا أمها.

- لن تموت جوعاً، قال كورت.

أشاحت إيرينا بيدها، يسهل لكورت الكلام لأنه لا يعتني بناديجدا إيفانوفنا. إنه لا يعرف كيف تبدو غرفتها. الطعام المتعفن الذي تجده إيرينا دائماً فيها، فناديجدا إيفانوفنا دائماً تأخذ معها أشياء قاربت أن تفسد إلى الغرفة لكي تأكلها هناك في السر، لأنها تريد أن تبرهن تماماً أنها ليست عبئاً على أحد. لم يضطر كورت إلى إعادة تنظيف أدوات المائدة التي كانت تنظفها ناديجدا إيفانوفنا بدافع التوفير بماء فاتر ومن دون صابون، ولم يضطر إلى تحمل وباء الخيار الذي كان يتفشّى



twitter @baghdad_library

في هذا الوقت من كل عام لأن ناديجدا إيفانوفنا كانت ترغب بأي حال أن تكون «نافعة»، عبر احتلالها المطبخ أياماً وأسابيع لكي تقوم بصنع مخلل الخيار الذي تقطفه بنفسها - وهو نشاط كان له مغزى في جبال الأورال الروسية، أما هنا فلا معنى له إطلاقاً، لأن المرء يستطيع الحصول في أي محل على برطمان من الخيار المخلل لقاء بضعة بفنيغات.

- شيء فظيع، أن تكون محاطاً بالكثير من المسنين، قالت إيرينا.

- هل علي أن أنتقل؟ سأل كورت.

لم تجد إيرينا ذلك مضحكاً، لكنها عندما نظرت تجاه كورت وعندما رأته جالساً بوجهه الذي شقّقته صروف الدهر وحاجبيه النافرين باستمرار (لا بد من تهذيبهما قبل حفلة عيد الميلاد) وعينيه الزرقاوين، إحداهما عمياء منذ الطفولة وقد كفّت تدريجاً عن اتباع حركة العين الأخرى السليمة (وهو عيب لم تكد إيرينا تلحظه تقريباً بعد أربعين عاماً من الزواج، ولكنها مع ذلك تحب أن تربط بينه وبين العيوب في شخصية كورت، على سبيل المثال طموحه المبالغ فيه وخياناته الشهيرة) - عندما رأته جالساً هناك، وهو يبتسم بمكر طفولي على مزحته، شعرت فجأة بميل إلى هذا الإنسان. بل أحست بإغواء مفاجئ بأن تغفر له كل شيء - هذا على كل حال في هذه اللحظة التي أدركت فيها أن كورت يشيخ أيضاً، أقله لم يخذلها في هذه الناحية.

- أتعرفين يا إيروشكا؟ قال كورت، اليوم أحد، ولا ندري إلى متى سيبقى الطقس جميلاً. دعينا نذهب إلى الغابة ونبحث عن الفطر أو أي شيء آخر.

- أنت لا تحب البحث عن الفطر. قالت إيرينا.

والأمر لم يقتصر فقط على أن كورت لا يحب البحث عن الفطر، بل إنه لم يعثر قط على أي منه. لكن إيرينا لم تصرح بذلك البتة لأنها كانت تربط الأمر بالعين العمياء.

- لكنني أحب أن أراك وأنت تبحثين عن الفطر، رد كورت.

- كورتيك، علي أن أعد الطعام وأن أحضر هدية فيلهلم...

- أي هدية؟

بدا التعجب على وجه إيرينا.

- فيلهلم يحصل على الهدية نفسها منذ ثلاثين عاماً!

كانت الهدية عبارة عن عشر علب «بيلوموركانال»: إنه نوع تقليدي من سجائر البابيروسا الروسية المزوّدة مبسماً كرتونياً، اعتادت إيرينا أن تجلبها له مما يسمّى بدار الضباط - تبغ سيئ جداً، كان فيلهلم يحب تدخينه لمجرد التباهي وليظهر أمام رفاقه أنه يعرف كيف يثني المبسم ويستعرض في أثناء ذلك الكلمات الثلاث التي يعرفها بالروسية ويقوم بتلميحات غامضة عن فترة «إقامته في موسكو».

- إيروشكا، اعترض كورت، ولكن فيلهلم لم يعد يدخن منذ عامين.

الشيء الغبي في الأمر هو أن كورت كان على حق. بعد الالتهاب الرئوي الحاد الذي أُصيب به (عموماً لقد أُصيب بعدة التهابات رئوية حادة) توقف فيلهلم عن التدخين، وفي عيد الميلاد الماضي أعطى فيلهلم سجائر «البيلوموركانال» إلى هورست ميليش الذي لم يجد حرجاً في إخراج سيجارة وثني مبسمها وتدخينها أمام الجميع.

- ومن سيعد الغداء؟



twitter @baghdad_library

- أعدي شيئاً سهلاً، قال كورت.

- شيئاً سهلاً! هزت إيرينا رأسها رافضة - ساشا سيأتي - وأعد شيئاً سهلاً!

- لم لا؟

- لأننا نأكل دائماً بيلميني عندما يأتي ساشا في تشرين الأول/ أكتوبر.

- يا سلام، رد كورت، هذا غير مهم إطلاقاً.

كسر للإفطار بيضة وبدأ يضع قشر البيض في كأس البيضة وهي طريقة اعتبرتها إيرينا خالية من الذوق لأن إخراج قشر البيض من الكأس لم يكن مريحاً. لكنها لم تقل شيئاً. أخذت نفساً عميقاً من السيجارة، ما جعلها تشعر بدوار خفيف. سمعت خروج ناديجدا إيفانوفنا من الحمّام.

- سأذهب أولاً إلى الحمّام. قالت إيرينا.

عندما عادت إيرينا من الحمّام، كان كورت يقلّب في الصحيفة. وكان طبقه لا يزال على حاله من دون فتات خبز.

- لماذا لا تأكل شيئاً؟ قالت إيرينا، ستصاب مجدداً بآلام في المعدة.

- لا توجد حقاً ولا كلمة، قال كورت، ولا حرف عن هنغاريا ولا عن اللاجئين ولا عن السفارة في براغ...

طوى الصحيفة وأهوى بها على الطاولة. وكان العنوان الرئيس مكتوباً بخط كبير:

**في معارك عصرنا تقف جمهورية ألمانيا الديمقراطية جنباً إلى جنب مع جمهورية الصين الشعبية.**

رأت إيرينا هذا العنوان بالأمس - لقد كانت النسخة الأسبوعية من صحيفة «نويس دويتشلاند» التي لم يكن كورت قد قرأها بعد لأن أسبوعية «ليتراتورنايا غازيته» الروسية قد وصلت أمس. تساءلت إيرينا لماذا لا يزال يقرأ هذه الصحيفة القذرة: «نويس دويتشلاند»!

ضرب كورت بإصبعه الصحيفة:

- هل تفهمين ما يريدون قوله؟

هزّت إيرينا كتفيها نافية. لقد رأت الصورة أيضاً: مجموعة من القططة السّمان في حزبي البلدين تقف في ثلاثة صفوف طويلة بعضها وراء بعض، وتظهر الصورة رؤوسها على شاكلة حبيبات غليظة بحيث لا يمكن التمييز إلا بشق النفس بين الصينيين الكثيرين والألمان. إنها واحدة من الصور النمطية الغبية للصحيفة، لكن هذه أكثر غباوة خصوصاً في ظل هروب الناس من البلاد (وهي حقيقة لم تقلق إيرينا كثيراً - بخلاف كورت - بل جعلتها تشعر بشيء من الشماتة).

- هذا تحذير، قال كورت محاضراً، هذا يعني: أيها الناس إذا ما حدثت أي تظاهرات، فسنفعل ما فعله الصينيون في ميدان السلام السماوي. يا إلهي، غير معقول، عقول خرسانية، قال كورت، عقول متحجّرة!

أخذ شريحة من الخبز الأبيض من سلة الخبز وراح يدهنها بالزبد.

الصورة التي تراءت لإيرينا عند ذكر «ميدان السلام السماوي» كانت عبارة عن شخص نحيف في قميص أبيض أجبر صفاً مكوناً من



twitter @baghdad_library

أربع أو خمس دبابات على التوقف. تذكرت كيف حبست أنفاسها أمام التلفزيون عندما حاولت الدبابة الأولى وقد أطلقت سحابة من الدخان وتحركت بدويّ مخيف محاولة تخطي هذا الشخص النحيف. كانت تعرف جيداً كيف هو الشعور عندما يقف المرء على هذه المسافة القريبة جداً من دبابة. لقد خاضت الحرب عامين كاملين، حتى ولو اقتصر دورها على التمريض. لقد عرفت من هدير انطلاق الدبابة أنها من طراز تي ٣٤ (T-34).

- هل ستتحدث مع ساشا لكي لا يفكر في القيام بشيء مجنون؟

أشاح كورت بيده:

- وكأن ساشا سيصغي إلي!

- بالرغم من ذلك عليك أن تتحدث معه.

- ماذا ينبغي لي أن أقول له؟ أنظر إلى هذا الهراء - ضرب كورت بإصبعه بعنف الصحيفة - كذب وهراء!

- احك ذلك لأمك اليوم بعد الظهر.

التقطت إيرينا سيجارة من العلبة. أمسك كورت يدها.

- إيرينا، كفاك، كلي شيئاً أولاً.

رنت ساعة الحائط معلنة التاسعة. للحظات تسمّر الاثنان وكأنهما على موعد - كان عليهما الإنصات جيداً لمعرفة الوقت من خلال هذه الرنة الخفيضة للساعة. ثم قال كورت:

- حسناً، سأتحدث مع ساشا.

بدأ يأكل بيضته بالملعقة، لكنه توقف ثانية برهة وقال:

- لكن بعد الإفطار سنذهب لتمشية قصيرة.

أخذت إيرينا أيضاً خبزاً من السلة ودهنته بالزبد والجبن وحسبت ما تبقى من وقت للتمشية، إذا ما تخلت عن المحل الروسي. ومن ناحية أخرى لم تكن لديها رغبة في التمشية، وبالذات مع كورت، الذي كان دائماً يغذّ السير سابقاً إياها. كما أنه ليس لديها حذاء مناسب.

- هل اتصل بفيرا؟ سأل كورت، ربما ترغب في المجيء معنا.

- أهكذا الأمر إذن؟ قالت إيرينا.

- ماذا؟ أي أمر؟

- هل اشتقت إلى فيرا؟

- فيرا صديقتك، قال كورت، وظننت أنك تملين معي وحدي.

- فيرا لم تكن قط صديقتي. قالت إيرينا.

- رائع، قال كورت، فلنذهب إذن وحدنا.

أبعدت إيرينا الخبز وأشعلت سيجارة.

- ما هذا يا إيرا؟

- لا شيء، يمكنك الآن الذهاب للتمشية مع فيرا.

- لا أريد التمشية مع فيرا، قال كورت.

- عفواً، لقد قلت تواً إنك تريد التمشية مع فيرا، قالت إيرينا.

ساد السكون للحظات، ثم صدرت حشرجة من أحد الأبواب وسُمع وقع خطى ناديجدا إيفانوفنا الثقيلة وهي تقترب في الممر، ثم توقفت... فتحت إيرينا الباب وأعطت أمها الطبق بالخبز المدهون.

- كلي هذا، أمرت أمها.



twitter @baghdad_library

- ما هذا؟ سألت ناديجدا إيفانوفنا دون أن تأخذ الطبق.

- يا إلهي إنه خبز مع جبن! هل تظنين أنني أريد سَمَّكِ؟

- لا أتحمل الجبن، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

نهضت إيرينا وذهبت إلى غرفة أمها وقرعت الطبق فوق المائدة.

ولم تتسلل رائحة غرفة ناديجدا إيفانوفنا إلى وعيها إلا عندما عادت إلى غرفة المعيشة - إلى جانب المواد الغذائية المتعفنة ودهانات القدم النفاذة الرائحة والعديمة النفع برغم ذلك، طغت الرائحة العفنة السكرية لمسحوق مبيد العث الذي جلبته ناديجدا إيفانوفنا من روسيا بتركيز قاتل.

فتحت إيرينا باب الغرفة مجدداً وصرخت:

- ألا يمكنك التهوية من فضلك!

جلست، وضربت بكفّيها على وجهها.

- أتريدين قهوة ثانية؟ سأل كورت.

أومأت إيرينا. ثم قالت:

- معذرة!

صب كورت القهوة، وأعد لها بعناية شطيرة خبز مشابهة تماماً لتلك التي أدخلتها إلى ناديجدا إيفانوفنا في غرفتها، وأعطاها إليها.

- كنت أظن أننا تجاوزنا ذلك يا إيروشكا.

أجل، فكرت، كنت أظن أننا تجاوزناه، لكن بدلاً من ذلك قالت.

- اسمع يا كورتيك، اذهب للتمشية وحدك، فلدي فعلاً أشياء كثيرة أنجزها.

- وحدي، إنني أفعل ذلك يومياً.

- إذن فلتذهب إلى الحديقة وتقص الورود.

- تقليم الورود؟ زفر كورت وأضافت إيرينا:

- سأُحضر لك قهوة وخبزاً بمربى توت العُليق.

أومأ كورت مقلداً لكنتها الروسية المميزة بمط الحروف المتحركة التي احتفظت بها وطورتها طوال ثلاثين عاماً ومنذ ثلاثين عاماً يمازحها كورت بها.

- ما الخطأ في كلامي، أرادت أن تعرف.

- لا شيء، قال كورت دون أن يغير من تعبير وجهه. ثم أضاف بعد برهة: من نطقك فهمت شيئاً آخر وهو أن المربى داخل الدب وأنها ستخرج وستحضرينها إلي.

- آه منك أنت، قالت إيرينا.

ثم وجهت إليه ضربة ولكن وهي تضحك.

تصرف كورت وكأنه يريد الإفلات وذهب إلى غرفته لإحضار الغليون. في هذه اللحظة رن جرس الهاتف ثانية.

- انتظري، سأرد أنا، نادى كورت من غرفته.

أتى مسرعاً ووضع الغليون على المائدة ورفع السمّاعة:

- نعم، قال كورت.

- مرحباً، قال كورت، ومن طريقة الترحيب عرفت أنّ المتصل ليس أمه.



twitter @baghdad_library

- ماذا؟ قال كورت، ولمَ ذلك؟

فجأة تحول وجه كورت إلى اللون الرمادي.

- ماذا حدث، أرادت إيرينا أن تعرف.

لكن كورت رفع يده فقط طالباً منها الصمت. ثم قال في السمّاعة:

- أنت غير جاد فيما تقول، أليس كذلك؟

ثم أنصت فترة مكرراً عدة مرات وبصوت خفيض:

- نعم... نعم... نعم.

ثم بدا أن الخط قد انقطع:

- آلو، آلو؟ قال كورت.

هل كانت فعلاً شارلوته؟ هل وقع شيء؟

عاد كورت بتمهل إلى المائدة وجلس.

- من كان هذا؟ سألت إيرينا.

- ساشا، قال كورت.

- ساشا؟

أومأ كورت.

- ماذا حدث، أين هو؟

- في غيسين، قال كورت بصوت خفيض.

تفاعل جسمها مع النبأ بصورة فورية وكأن أحداً قد سدد له ضربة - لكن مخها احتاج إلى فترة أطول لفهم ما تعنيه: غيسين.

لم يقل أي منهما شيئاً لوقت طويل.

وبعد فترة شرع كورت في حشو غليونه، ومن حين إلى آخر كان يخرج الدخان من أنفه وهي حركة اعتاد أن يقوم بها عندما يكون في حيرة من أمره.

خشخش كيس دخانه.

ثم تحشرج باب غرفة ناديجدا إيفانوفنا. ببطء، ببطء شديد اقتربت الخطى المتثاقلة من غرفة المعيشة... ثم توقفت. ثم سُمع صوت ناديجدا إيفانوفنا عبر فتحة الباب، رفيعاً لكنه حاد وآخذ فى العلو باطراد:

- على ساشا ألا ينسى أن يأخذ معه برطمان خيار.

نهض كورت ببطء ودار حول المائدة وفتح باب الغرفة على آخره وقال:

- لن يأتي ساشا اليوم يا ناديجدا إيفانوفنا.

ظلت ناديجدا إيفانوفنا للحظة حائرة، ثم قالت:

- لا يهم، الخيار لن يفسد.

- يا ناديجدا إيفانوفنا، قال كورت... ورفع كلتا يديه ثم تركهما تسقطان ثانية وقال:

- من فضلك اجلسي لحظة يا ناديجدا إيفانوفنا.

- لقد أفطرت، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

- اجلسي للحظة، كرر كورت.

دارت ناديجدا إيفانوفنا ببطء حول المائدة وجلست على طرف أحد الكراسي ووضعت برطمان الخيار الذي جلبته معها على المائدة ووضعت يديها المعروقتين المنهكتين الواحدة فوق الأخرى.



twitter @baghdad_library

- يا ناديجدا إيفانوفنا، قال كورت، ساشا لن يأتي على الأغلب لوقت طويل. هذا هو الموضوع.

- هل هو مريض؟ سألت ناديجدا إيفانوفنا.

- لا، ساشا في الغرب، قال كورت.

فكرت ناديجدا إيفانوفنا.

- هل هو في أميركا؟

- لا ليس في أميركا، بل في غرب ألمانيا.

- أنا أعرف، غرب ألمانيا يقع في أميركا.

لم تتحمل إيرينا ذلك.

- رحل ساشا، قالت صارخة، إنه ميت أتفهمين؟ ميت.

- لا تستطيعين قول شيء كهذا يا إيرينا.

ثم تحدث باللغة الروسية إلى ناديجدا إيفانوفنا قائلاً:

- ساشا ليس ميتاً. إيرينا تقصد أنه بعيد جداً، وهذا سيعني أنه لن يعود.

- لكنه سيأتي للزيارة. قالت ناديجدا إيفانوفنا.

- لا، ساشا لن يأتي أيضاً للزيارة، لن أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك في اللحظة الراهنة.

نهضت ناديجدا إيفانوفنا ببطء وخطت بتثاقل عائدة إلى غرفتها، وأزّ الباب عندما أغلقته.

# ١٩٥٩

ما لا نهاية.

قال آخيم شليبنر، لا يمكن لأحدٍ أن يعد إلى ما لا نهاية.

رقد ألكسندر في سرير الحضانة وحلم بأن يعد إلى ما لانهاية. كان يعد ويعد حتى يبلغ أرقاماً ضخمة تصيب الرأس بالدوار، ملايين، تريليونات، تريليمليارات، ألف مليون تريليمليار وفجأة يصل إلى غايته: ما لا نهاية! تصفيق. الآن أصبح مشهوراً. كان واقفاً في تشايكا مفتوحة، إنها سيارة المواكب السوفياتية الأسطورية، المزدانة بالكثير من الكروم اللامع ورفارف المؤخرة تشبه الصاروخ. سارت السيارة ببطء عبر الشارع فيما وقف الناس على الصفين في تشريفة لتحيته كما يحدث في الأول من أيار/مايو، كانوا يلوحون له بأعلام صغيرة لونها أسود في أحمر في ذهبي...

ثم تلقى ضربة بكتاب على رأسه. لقد كانت السيدة ريمشل التي تمثلت مهمّتها في التحقق من نوم جميع الأطفال، ومن لا ينام يتلقّى ضربة بالكتاب على رأسه.



twitter @baghdad_library

أحضرته أمه من الحضانة، وكانت الشمس قد بدأت تغيب. وبعد ذلك بقليل جاء الرجل الذي يشعل مصابيح الغاز في الشوارع.

- ماما، متى سنسافر إلى بابا ناديا؟

- آه يا ساشينكا، ما زال هناك الكثير من الوقت.

- لماذا يحتاج كل شيء دائماً إلى وقت طويل؟

- كن سعيداً يا ساشينكا إن الأمور تحتاج إلى وقت طويل. عندما تكبر، سيسير كل شيء فجأة بسرعة جداً.

- لماذا؟

- هكذا هي الحال: عندما نكبر، يمضي الوقت أسرع.

معلومة مذهلة.

ثم ذهبا إلى جمعية «كونزوم» الاستهلاكية. كانت الجمعية في منتصف الطريق الذي كان طويلاً، خصوصاً في الصباح. طريق العودة كان دائماً أقصر. فهل لذلك علاقة بأنه يصبح بعد الظهر أكبر قليلاً.

- هل تريد الدخول، سألته ماما، أم تريد أن تنتظر هنا؟

- أريد الدخول معك؟

في «كونزوم» كان الناس يحصلون على الحليب في مقابل كوبونات. وتقوم البائعة بملء آنية الحليب بمغرفة كبيرة. في الماضي كانت السيدة بلوميرت تقوم بذلك، لكنها اعتقلت. وهو يعرف أيضاً لماذا؟ لأنها باعت حليباً من دون كوبونات. هذا ما قاله آخيم شليبنر. بيع الحليب من دون كوبونات كان ممنوعاً منعاً باتاً. لهذا فزع ألكسندر عندما سمع البائعة تقول:

- لا يهم يا سيدة أومنيتزر، أحضري كوبونك لي غداً.

كانت أمه لا تزال تبحث عن الكوبون في محفظتها.

- لكنني لا أريد حليباً. قال ألكسندر.

- ماذا؟

كان الفزع واضحاً في صوته، وكان يتكلم بصعوبة.

- لا أريد حليباً. ردد بصوت خفيض.

أخذت أمه آنية الحليب من البائعة.

- لا تريد حليباً؟

غادرا المحل وساقاه لا تكادان تتحركان. جثت أمه على ركبتيها وسألته:

- ما بك يا ساشينكا؟

أخبرها بمخاوفه بكلام متقطع، فضحكت أمه.

- لكن أحداً لن يعتقلني يا ساشينكا!

بدأ يبكي. حملته أمه وقبلته.

كانت تسمّيه «لابوتشكا»: أي القدم الصغيرة بالروسية.

حصل عند الخباز على قطعة من كعك اللوز بالقشدة والعسل. امتزجت حلاوة العسل بملح الدموع على شفتيه. وشيئاً فشيئاً أصبح العالم من جديد على ما يرام.

- لكن السيدة بلوميرت اعتقلت.

- هذا هراء! نظرت إليه أمه باستغراب وقالت: نحن لسنا في الاتحاد السوفياتي!



twitter @baghdad_library

- ولماذا؟

- هذا مجرد كلام أقوله هكذا. لكن إياك أن تقول لجدتك إنهم يعتقلون الناس في الاتحاد السوفياتي.

كانوا يسكنون في طريق «شتاين». في الطبقة السفلية تسكن الجدة شارلوته مع فيلهلم وهم، أي ماما وبابا وهو، يسكنون في الطبقة العلوية.

كان بابا دكتوراً، لكنه ليس دكتوراً حقيقياً بل دكتوراً في الكتابة على الآلة الكاتبة. كان بابا طويلاً وقوياً جداً وكان يعرف كل شيء. ماما لم تعرف كل شيء. ماما لم تكن حتى تستطيع التحدث بالألمانية بشكل صحيح.

- مثلاً ماذا تعني «كريسا»[1] بالألمانية؟

عندها كانت ماما لا تجد جواباً.

لكن وفي المقابل فقد خاضت ماما الحرب ضد الألمان.

- هل قتلت بعضهم؟

- لا يا ساشينكا، أنا لم أطلق الرصاص. لقد كنت ممرضة.

برغم ذلك فقد شعر بالفخر، فأمه فازت في الحرب والألمان خسروا. الغريب أن بابا كان أيضاً ألمانياً.

- هل حاربتَ ضد ماما؟

- لا، لقد كنت في الاتحاد السوفياتي عندما بدأت الحرب.

---

(١) جرذ بالروسية. سترد في الرواية لاحقاً جمل وعبارات باللغة الروسية مصحوبة بترجمتها، وسنكتب نطقها بالحرف العربي كما اعتمد المؤلف في الأصل الألماني كتابة نطقها بالأبجدية الألمانية وليس بالأبجدية الكيريلية. (المترجم)

- لماذا؟

- لأنني هربت من ألمانيا.

- وبعد ذلك؟

- كنت أقوم بالحفر في الأرض؟

-وبعد ذلك؟

- تعرفت إلى ماما؟

- وبعد ذلك؟

- ثم جئنا بك إلى الدنيا.

تخيل أنهم يحفرون ثقباً في الأرض ويأتون منه بالأطفال إلى الدنيا. شيء أشبه برشاش النجيل الخاص بالجدة، كان عبارة عن عصا طويلة لها طرف حاد، وهذا الطرف كان يغرس في الطين والبقية لم تكن واضحة ولكن لها علاقة بالأرض.

في يوم الأحد كان يأتي ليبيت مع أبويه في السرير ويضع إصبعه في مؤخرته ليقول لهما:

- شمّا!

- أف، كان الأب يصيح ويقفز من السرير.

معلومة مذهلة: حتى برازك أنت نفسك له رائحة كريهة.

ثم يقومون بتدريبات الصباح بإطارات «الهولا هووب».

- إنها الآن شيء «مودرن» تماماً.



twitter @baghdad_library

ماما كانت فعلاً «مودرن»، أما بابا فلم يكن «مودرن» تماماً.

كان يحب دائماً أن يحتفظ بأشيائه القديمة.

- الحذاء لا يزال جيداً.

- فتردّ ماما:

إنه لم يعد «مودرن».

نفاذة هي الرائحة عندما تقوم ماما بحرق زغب الدجاجة على شعلة البوتاغاز.

جيد إن بابا يفضل أكل اللحم الأبيض.

غير مفهوم أن الوالدين ينامان القيلولة طوعاً.

وبعدها لعب الشطرنج. كان بابا يعطيه طابتين مقدّماً، وبرغم ذلك كان يفوز دائماً.

- كان مورفي يفوز على والده وهو في السادسة من عمره. هكذا يقول له أبوه.

لكن ذلك ليس سيئاً تماماً، فهو لا يزال في الرابعة ولا يزال أمامه وقت لكي يهزم أباه في الشّطرنج.

أيام الأسبوع من الاثنين إلى الجمعة. كان يعرف أيضاً أنه لا تزال هناك جمعة أولى وجمعة ثانية وفي الجمعة الثانية يذهب إلى جدته.

قبلها يستحم ويمشط شعره وعندئذٍ كان يعرف ما سيحدث، ماما تخرج المقص بسرعة.

- دائماً حين أذهب إلى جدتي، لا بد أن تقصي بعضاً من شعري.

- اثبت مكانك والزم الصمت.

- لكن هذا يخزني!

بالضبط كان هذا هو الشعور التقليدي للذهاب إلى الجدة: مستحماً تواً ومرتدياً بُرنس الحمّام والشعيرات المحلوقة تواً تخز القفا.

- والآن فلتذهب يا لابوتشكا.

كانت ماما تقف أعلى الدرج والجدة تقف أسفله.

- تعال إذن يا عصفوري! تقول الجدة.

التفت ولوّح بيديه لأمه. هذا يعني: يمكنك الذهاب. لم يرغب في أن تسمع أمه جدته وهي تقول له: «يا عصفوري». ولم يرغب أيضاً في أن تسمع جدته أمه وهي تقول له: «لابوتشكا».

لكن أمه لم تفهمه. وظلت باقية وأومأت له.

تعلق بإفريز الدرج وهو يهبط ببطء شديد، حتى انحنى الدرج ثم اتسع بشكل كبير مؤدياً إلى الردهة التي كانت القوقعة الوردية مضاءة فيها دائماً في المساء، وكان فيلهلم قد ركب فيها مصباحاً كهربائياً، لكن لا أحد يدري كيف فعل ذلك.

عالم الجدة. هنا كان الوضع مختلفاً بعض الشيء، وهو أيضاً كان يتكلم على نحو مختلف، أي أكثر تعقيداً:

- جدتي هل نقوم اليوم بعمل سرّنا مرة أخرى؟

- طبعاً، يا عصفوري.

في البداية يجري إعداد المائدة. بحماسة للعمل يهرع ألكسندر



twitter @baghdad_library

رواحاً وغدواً بين المطبخ و «الصالون» وهو الاسم الذي تطلقه الجدة على الغرفة الكبيرة.

قواعد إعداد المائدة (تسري فقط على الطبقة السفلية للبيت): كانت فوط الطعام موضوعة في حلقات فضية عند طرف المائدة، ثم السكاكين وبعدها الشوك. وعند الجدة كان يجري استخدام ألواح تقطيع الخبز للأكل عليها. كان ذلك عملياً جداً لسهولة قطع حواف الخبز عليها، ففيلهلم لم يكن يحب حواف الخبز على الإطلاق، والملعقة كانت توضع بالعرض في أعلى طرف لوح تقطيع الخبز، وكانت تستخدم لتناول كريمة الليمون التي اشتهرت بها الجدة.

كانت كريمة الليمون طعام ألكسندر المفضل. لكنه لم يعرف كيف أصبحت كذلك، ففي الواقع لا يعجبه طعم كريمة الليمون على الإطلاق. لكنها أصبحت الطعام المفضل لديه - عند الجدة.

وبخلاف ذلك كان يشرب عند الجدة شاي البابونج ويأكل الجبن الطري ونقانق الكبد. وهذا أيضاً جزء من الشعور بالجدة، مثل الشعيرات التي تشك في القفا.

كان يجب وضع الزبد في مكان على المائدة يسهل لفيلهلم أن يناله بسهولة.

كان هذا كل شيء.

وفي أثناء ذلك كانا ينفذان سرهما.

كان السر يكمن في أنهما كانا يأكلان شطائر التوست التي تسمّيها الجدة قرقشات في المطبخ، لأن فيلهلم لا يطيق أن يأكل الآخرين قرقشات في حضوره. كان بدنه يقشعر من صوت القرقشة، هكذا قالت

الجدة، ولذلك كان عليهما أن يأكلا القرقشات سراً في المطبخ مع المربى.

حتى يظهر فيلهلم.

- هلا، يا Hombre [1]؟

ويمسك في أثناء ذلك وجه ألكسندر بفظاظة.

صحيح أن رأس فيلهلم كان صغيراً لكن يديه كانتا ضخمتين، وذلك لأنه كان عاملاً في الماضي. والآن هو في مركز أعلى. لكنه لا يزال محتفظاً بيدي العامل، وإحداهما تكفي لكي تغطي وجه ألكسندر. غص ألكسندر، إذ كان لا يزال شيء من التوست في فمه.

- ترى أياً من طعام القردة أعددتم؟ قالها فيلهلم وسار مختالاً إلى الصالون.

- فيلهلم يمزح، همست الجدة لألكسندر.

خمن ألكسندر أن كون فيلهلم ليس جده الحقيقي هو السر وراء غرابته الشديدة. ولهذا فهو يدعى فقط فيلهلم، وإذا ما ناداه ألكسندر سهواً «جدو» فيلهلم، كان فيلهلم يخرج طقم أسنانه من فمه، وكان هذا شيئاً مخيفاً جداً لألكسندر.

كان العشاء مصحوباً بالموسيقى: من مشغل الأسطوانات الذي كان عبارة عن خزانة دكناء ذات غطاء نصف دائري، يُفتح إلى الأعلى.

كان فيلهلم لا يحب الموسيقى.

- أنت دائماً بتقاليعك تلك. قال للجدة.

---

(١) يا رجل! بالإسبانية. (المترجم)



twitter @baghdad_library

لكنه كان الوحيد الذي يستطيع تشغيل الجهاز، لذلك كان على الجدة أن تطلب إليه متوسلة:

- فيلهلم ضع لنا أسطوانة، فألكسندر يحب سماع خورخي نيغريتي.

وفي آخر المطاف كان فيلهلم يخرج أسطوانة من الخزانة ويسحبها من مغلفها ويأخذ فرشاة ويمررها وهو ممسك بالأسطوانة من طرفها ووسطها فقط، في حركة دائرية مبالغ فيها قليلاً فوق حزوز الأسطوانة، فيما هو يعرضها للضوء مراراً وتكراراً. ثم يبحث مطولاً عن السن البارزة التي يجب أن يدخل فيها ثقب الأسطوانة، والتي كان فيلهلم لا يراها في أثناء انكفائه على مشغل الأسطوانات - عملية صعبة، وإذا نجح ذلك، يضبط فيلهلم السرعة وينحني هابطاً برقبته إلى الأسفل بحيث يمكن ألكسندر رؤية صلعته، ثم يضع بحذر الإبرة على الأسطوانة حتى يمكن سماع تلك الخشخشة السحرية... وبعدها تأتي الموسيقى.

«خوخي في جنينتي». تخيل ألكسندر الخوخ على الشجر، لكنه لم يفهم علاقة ذلك بالموسيقى؟ ولأن أبويه لا يملكان مشغل أسطوانات، كانت أغنية «خوخي في جنينتي» هي الموسيقى الوحيدة التي يعرفها، لكنه يعرفها جيداً:

*México lindo y querido*
*si muero lejos de ti*
*que digan que estoy dormido*
*y que me traigan aquí*[1]

---

(١) أيتها المكسيك الجميلة الحبيبة
إذا مت بعيداً عنك
يقولون إني نائم
ويحضرونني إلى هنا. (المترجم)

وبرغم أنه لم يكن يفهم كلمة واحدة، إلا أنه كان يستطيع ترديد قرار الأغنية.

- هل تعرف لماذا يسمّى الهنود الحمر هنوداً حمراً، سأله فيلهلم وضرب شريحة الخبز على لوح التقطيع.

كان ألكسندر يعرف لماذا سمّي الهنود الحمر هنوداً حمراً لأن فيلهلم قد أوضحها له مرتين. ولهذا بالذات تردد في الإجابة.

- آه، قال فيلهلم، إذن هو لا يعرف، شباب هذه الأيام ليست لديهم أية معرفة!

ثم ألقى بقطعة زبد فوق الخبز ودهنها بحركة واحدة.

- كولومبوس، قال فيلهلم، هو الذي سمى الهنود الحمر هنوداً حمراً، لأنه ظن أنه في الهند Comprende[1]؟ ونحن لا نزال نسمّيهم هكذا. أليس ذلك سخفاً؟

ثم دهن طبقة سميكة من نقانق الكبد على الخبز.

- الهنود هم سكان القارة الأميركية الأصليون، قال فيلهلم، وأميركا ملك لهم. لكن بدلاً من ذلك...

ثم وضع قطعة من الخيار المخلل على الخبز، تحديداً، لقد رماها لتسقط على الخبز لكنها سقطت وجرت فوق غطاء المائدة.

- بدلاً من ذلك، قال فيلهلم، هم الآن أفقر الفقراء، نزعت ملكيتهم، واستغلوا وقُمعوا.

---

(١) أتفهم؟ (المترجم)



twitter @baghdad_library

ثم قطع الخيارة وغرس نصفها عميقاً في نقانق الكبد وأخذ يمضغ بصوت عال.

- هذه، قال فيلهلم، هي الرأسمالية.

بعد العشاء ذهبت الجدة وألكسندر إلى الحديقة الشتوية. كانت الحديقة الشتوية دافئة ورطبة، ورائحتها حلوة ومالحة، تقريباً كما في حديقة الحيوان. كانت نافورة الحجرة تصدر أزيزاً خفيضاً. ما بين أشجار الصبار والصمغ كانت توجد أشياء متناثرة أحضرتها الجدة معها من المكسيك: شعب مرجانية وقواقع وأشياء من الفضة الحقيقية وجلد حية من ذات الأجراس، قتلها فيلهلم بنفسه باستخدام منجل. وعلى الحائط عُلق منشار سمكة أبي منشار حقيقي، طوله متران تقريباً وخيالي مثل قرن وحيد القرن الأسطوري، لكن الشيء الأفضل كان صغير سمك القرش الذي كانت جلدته الخشنة تفزع ألكسندر.

جلسا على السرير (سرير الجدة في الحديقة الشتوية، لأنها لا تستطيع النوم بهدوء إلا هنا) وبدأت الجدة تحكي عن رحلاتها: وعن الجولات بالخيول التي دامت أياماً والرحلات بقوارب الكانو، عن أسماك البيرانا التي كانت تأكل أبقاراً كاملة وعن العقارب في الأحذية وعن قطرات المطر التي كانت في حجم جوزة الهند وعن الغابات التي كانت أشجارها كثيفة جداً لدرجة أنه كان يجب على المرء استخدام منجل ليشق طريقه في خلالها، وفي طريق العودة تكون النباتات قد نمت من جديد.

واليوم حكت له الجدة عن الأزتك. في المرة الماضية حكت عن تنقل الأزتك عبر الصحراء. واليوم وجدوا المدينة المهجورة، ولأن

أحداً لا يسكنها، اعتقد الأزتك أن هذه هي مدينة الآلهة وأطلقوا عليها اسم تيوتيهواكان - المكان الذي يصبح فيه الإنسان إلهاً.

- جدتي، هل حقيقي أنه لا يوجد إله؟

- في الحقيقة لا يوجد إله، قالت الجدة وحكت عن الآلهة وإنشائهم العالم الخامس.

- لأن العالم، قالت الجدة، قد انهار أربع مرات وكان كل شيء قاتماً وبارداً ولم تكن ثمة شمس في السماء، وكانت شعلة وحيدة موجودة على قمة هرم تيوتيهواكان الأكبر، فتجمعت الآلهة للتشاور وتوصلوا إلى قرار فحواه أنه لن تكون ثمة شمس جديدة لو لم يضحّ أحد منهم بنفسه.

- جدتي، ما معنى «يضحّي»؟

- يعني أن على أحدهم أن يلقي بنفسه في النار، لكي يُبعث كشمس جديدة في السماء.

- لماذا؟

- كان على أحدهم أن يضحّي، لكي تستمر حياة الآخرين.

معلومة مذهلة.

أرقدته أمه في السرير.

- هل ترقدين إلى جانبي؟

- اليوم لن ينفع، لقد صففت شعري تواً.

كان لفستانها حفيف عندما مضت.

شعر اليوم أنه معتل جداً. في الظلام ظلت الصور تلاحقه، فكر في



twitter @baghdad_library

الإله الذي كان عليه أن يلقي بنفسه في النار. ظهرت كلمة الرأسمالية (Kapitalismus)، وربطها بالحرارة المرتفعة حيث أن «كيبيت» تعني بالروسية «إنها تغلي». تسبح أسماك البيرانا في حساء يغلي. لا تضع إصبعك فيه، قال له أبوه. رقص الأزتك حفاة في رمل الصحراء، وكانت وجوههم مشدودة من الألم. يا فيلهلم، يا فيلهلم، صرخت الجدة، فجاء فيلهلم وأطفأ كل شيء بماء الخيار المخلل، وماما ذهبت بفستانها الأنيق لتوزع الأحذية على الأزتك. كانت أحذية «حريمي» موضة قديمة. تأملها الأزتك بتعجب شديد، لكنهم انتعلوها برغم ذلك. ثم واصلوا ترحالهم عبر الصحراء الغارقة في مياه الخيار المخلل، وغاصت كعوب أحذيتهم في طين أصفر.

استيقظ ألكسندر وتقيأ: بطعم كريمة الليمون. وبعدها أصيب بالحُمّى ثلاثة أيام.

كان عيد ميلاده في نيسان/أبريل وحصل على «سكوتر» (بإطارين هوائيين)، وطوق سباحة وجرار كهربائي.

وحضر الحفلة: بيتر هوفمان، وماتسه شونبيرغ، وكاترين ميليش وريناته الهادئة. أكل بيتر هوفمان ثلاث قطع من الكعكة. ولعبوا «البقرة العمياء»[1].

والآن ولأنه أصبح في الخامسة من عمره تساءل مجدداً:

- ماما، متى سنسافر إلى بابا ناديا؟

(١) وهي لعبة تعصب فيها عينا الطفل ويبدأ البحث عن هديته المخبأة تحت إحدى القدور بواسطة ملعقة خشبية والجميع يحذرونه إذا ابتعد عن الهدف قائلين: «بارد» ويحمسونه إذا اقترب قائلين: «حار». (المترجم)

- مطلع أيلول/سبتمبر.

- ومتى يكون أيلول/سبتمبر؟

- الآن يأتي أيار/مايو وبعدها حزيران/يونيو وتموز/يوليو وآب/أغسطس ثم أيلول/سبتمبر.

غضب ألكسندر:

- لقد قلت لي عندما نكبر، يمضي الوقت أسرع.

- عندما تكبر يا ساشينكا، وتصير كبيراً جداً.

- متى سأكون كبيراً جداً؟

- ستكون كبيراً جداً عندما تتم الثامنة عشرة.

- كم سيكون طولي إذن؟ هل سأكون في طول بابا؟

- أكيد ستكون أطول.

- لماذا؟

- لأن الأطفال في معظم الأحيان يكونون أطول من آبائهم، والآباء عندما يشيخون يصبحون أقصر.

ثم قالت بالألمانية: رطل من لحم البقر المفري من فضلك.

بدأ الصيف.

في البداية، كان عليه أن يساوم من أجل السماح له بارتداء البناطيل القصيرة. لكن بعد أيام قليلة غمرت الأجواء الصيفية على حين غرة كل زاوية في نويندورف وطردت البرودة من الأرض الرطبة، أصبح العشب دافئاً، وامتلأ الجو بأزيز الحشرات، ولم يعد أحد يتذكر القشعريرة التي



twitter @baghdad_library

كان يشعر بها عندما ارتدى في أول أيام الصيف بنطالاً قصيراً، ولم يعد أحد يظن أن الصيف سينتهي أبداً.

التزحلق بالباتيناج. أحذية التزحلق المعدنية كانت موضة. وكانت تصدر رجرجة عالية، فيخرج فيلهلم:

- هذا شيء لا يطاق، هذا الهرج والمرج!

صنع النبال. كانت السهام تُصنع من أغصان دغل مجهول الاسم، وتُلف رؤوسها بسلك نحاسي. أصاب أوفه إيفالد فرانك بتسولد في عينه. مستشفى، توبيخ شديد.

الرسم بالطباشير على أرض الشارع. رسم بيتر هوفمان صليباً معقوفاً، لكنه حوله على الفور إلى نافذة - عبر إكمال الخطوط.

كذلك كان ممنوعاً منعاً باتاً: دخول الملجأ المحصن تحت الأرض، لكن الكبار يفعلون ذلك والصغار أيضاً. عندما دخل ألكسندر الملجأ ظهر شبح من أعماقه: مجرد رأس ذي خدين يشعان حمرة. من فرط هلعه وقف شعر ألكسندر وفر صامتاً باتجاه المخرج.

ما هو ليس ممنوعاً لكنه ليس مسموحاً أيضاً: لعبة الحصان والفارس مع ريناته. كان عليها أن ترقد على العشب على بطنها وترفع تنورتها ويجلس هو فوقها. ولم تحتج ريناته إلى أن تتحرك في هذه اللعبة. يكفي أن تتلامس البشرتان في بعض المواضع.

أكل التفاح الأخضر مع ماتزه. والإصابة بالإسهال.

حشرت كاترين ميليش إصبعها في كرسي البحر.

بناء مدن لحشرات بق النار في صندوق الرمل لدى عائلة هوفمان،

حيث توجد حشود كبيرة منها. تدفئ الشمس الأحجار فتتكدس عليها مجموعات كبيرة منها وتبقى ساكنة من دون حراك.

وفي الوقت الذي يتوقف الصيف تماماً عن الحركة، عندما لا تتحرك الأيام من مكانها، وعندما يتوقف الزمن عن المضي مخالفاً كل وعوده، في هذا الوقت بالذات عندما يكون ألكسندر قد نسي تقريباً، تقول أمه:

- في الأسبوع المقبل سنسافر إلى بابا ناديا.

- في الأسبوع المقبل، يعلن ألكسندر، سأسافر إلى الاتحاد السوفياتي.

لا يظهر أخيم شليبنر انبهاراً كبيراً بذلك.

الاتحاد السوفياتي أكبر بلد في العالم.

لكن آخيم شليبنر يرد:

- أميركا أكبر.

الرحلة: عربة قطار خضراء. عربة نوم، مريحة مثل بيت صغير على عجلات. وكان يمكن المرء أن يطلب شاياً. صورة الكرملين مطبوعة على أكواب الشاي، وحول الكرملين يدور «سبوتنيك».

تغيير عجلات القطار في بريست، لأن السكك الحديد في الاتحاد السوفياتي أوسع منها في أوروبا.

- هل حقيقي يا ماما، أن الاتحاد السوفياتي أكبر بلد في العالم؟

- طبعاً.



twitter @baghdad_library

لم يتذكر شيئاً، لكنه كان يعرف كل شيء، حتى رائحة سيارات التاكسي في موسكو: مزيج من رائحة المطاط المحترق والبنزين. وبدا أن موسكو كلها كان بها شيء من رائحة سيارات التاكسي.

الميدان الأحمر: طابور طويل أمام الضريح.

- لا يا ساشا ليس لدينا الكثير من الوقت.

في المقابل حصل على بوظة «إسكيمو» ولبن رائب بالسكر.

مترو الأنفاق: عملاق. كان خائفاً قليلاً من السلّم المتحرك، لكن خوفه من الأبواب كان أكبر.

وبعد ذلك السفر بالقطار ثلاثة أيام أخرى، وتغيير القطار في سفردلوسك. ثم السفر مدة نصف يوم آخر وأخيراً الوصول إلى سلافا.

محطة القطار موجودة خارج المنطقة. أحضرتهما عربة جيب من المحطة، وسارت بشكل متعرج لتجنب حفر الطريق، لم تكن حفراً عادية بل كالتي تخلفها القنابل.

المنطقة السكنية. بيوت مصنوعة من ألواح خشبية. وكل منها بدا وكأن بابا ناديا تسكن فيه.

ضغط السائق على آلة التنبيه، وخرجت بابا ناديا إلى الباب.

- لماذا تبكي بابا ناديا؟

- لأنها فرحة، قالت ماما.

كان البيت صغيراً. مطبخ وحجرة وفي وسط البيت فرن. وفوق الفرن نامت بابا ناديا. أما ماما وألكسندر فناما في السرير.

في الفناء: غرفة ساونا وحظيرة. كان الكلب الأبيض والأسود المربوط بالسلسلة يدعى دروسبا، ودروسبا تعني الصداقة. نبحت الصداقة، وصلصلت السلسلة. وصاحت بابا ناديا:

- اخرس يا صداقة.

كان في الحظيرة بقرة وخنزير. كانت البقرة بنية واسمها مارفا. أما الخنزير فكان اسمه فقط الخنزير، مثلما كان فيلهلم يدعى فقط فيلهلم.

كان يخاف الخنزير. فعندما كانوا يطلقونه كان ينطلق مسرعاً عبر الفناء ويطلق أصواتاً حادة. وصداقة كان أيضاً يخشى الخنزير. لكن لم يكن ثمة داع للخوف من صداقة.

بل سُمح له أن يذهب للتنزه معه. كان مسموحاً له أن يفعل كل شيء، أن يصعد إلى السطح، أن يخوض في نقر الماء الكبيرة، الشيء الوحيد غير المسموح به هو الذهاب إلى الغابة.

- لا تخطُ ولو خطوةً واحدةً إلى الغابة. قالت بابا ناديا.

لأن المرء يتيه في الغابة ثم تأكله الذئاب.

- ثم لا نجد سوى عظامك، قالت بابا ناديا.

- كفّي عن ذلك، قالت ماما.

مع ذلك لم يسمح له بالذهاب إلى الغابة.

- البعوض أيضاً يمكن أن يأكلك، قالت ماما.

لكنه لم يصدق ذلك، بل صدق أكثر حكاية الذئاب.

مثير جداً: كان الماء يأتي من البئر. كان لبابا ناديا شيء يشبه الحامل



twitter @baghdad_library

تضعه على كتفها وتحمل به دلواً على اليمين وآخر على اليسار وينطلقان. كان الدلو يعلق عند البئر في خطاف ويهبط وحده إلى الأسفل. وكان مسموحاً لألكسندر أن يسحبه إلى الأعلى.

يأتي الخبز مرة في الأسبوع. فيقف الناس في طابور طويل أمام الدكان. يحصل كل شخص على ثلاثة أرغفة. ألكسندر أيضاً. ثلاثتهم يحصلون على تسعة أرغفة، وثمن كل رغيف أحد عشر كوبيكا. كانوا يأكلون ثلاثة أرغفة ويعطون ستة أرغفة إلى البقرة، يبللون لها الخبز في الماء. كانت البقرة تتلمظ، لأن طعم الخبز يعجبها.

كانت الكهرباء متوافرة عند بابا ناديا، لكن لم يكن لديها غاز. كانت تطبخ كل شيء في ركن في الفرن. ويتم تسخين السماور من أجل الشاي. الشاي الأسود يُشرب صباحاً وظهراً ومساءً. كان السماور يصدر أزيزاً. وتلعب بابا ناديا معه الورق، لعبة «الأحمق».

في المساء كان ثمة زائر: بافل أفغوستوفيتش، ببذلة وربطة عنق. إنسان غريب، نحيف وموضة قديمة. يقبل يد ماما.

- إنها لفضيحة، قالت ماما لبابا ناديا: لقد درس بافل أفغوستوفيتش في الكونسيرفاتوار.

- ما باليد حيلة، أجابت بابا ناديا، هذا ما قدره اللّه.

في يوم آخر جاءت نساء عجائز بطرح فوق رؤوسهن، وغنين حتى آخر الليل. في البداية أغنيات مرحة، وكن يصفقن وبعضهن يرقصن. ثم غنين أغاني حزينة وبعدها بكين. وفي الختام تعانقن ومسحن الدموع عن وجوههن.

- خسارة، أننا لا نعيش جميعاً في بيتنا في غرفة واحدة.

العودة إلى ألمانيا. الجمعة الثانية عند الجدة، الآن كان لديه ما يحكيه.

- سافرنا خمسة أيام بالقطار!

- هذا مثير جداً، قالت الجدة، لكن ألا ترغب في قص ذلك في أثناء العشاء، حتى يسمع فيلهلم الحكاية معنا أيضاً.

لم يكن متحمساً جداً، لكن الجدة شجعته:

- دعنا نتفق على الآتي: حينما أقول أنا كلمة معينة تبدأ أنت بعدها في الحكي مباشرة؟

كلمة؟

- مثلاً «الاتحاد السوفياتي»، حينما أقول مثلاً: أود السفر إلى الاتحاد السوفياتي! فتعرف أنت أن هذه هي الإشارة لتحكي.

قذف فيلهلم بالزبد على شريحة الخبز.

- الهنود الحمر هم اليوم أفقر الفقراء، يقمعون ويستغلون وتُسرق أراضيهم.

قالت الجدة:

- لا يوجد في الاتحاد السوفياتي استغلال ولا قمع.

- هذا واضح، يقول فيلهلم.

نظرت الجدة إلى ألكسندر وقالت له مجدداً:

- في الاتـ - حاد - السوـفياتي لا يوجد استغلال ولا قمع!

- أي نعم، قال فيلهلم، لقد كنتَ تواً في الاتحاد السوفياتي. احكِ لنا ما رأيت!



twitter @baghdad_library

فجأة خلا رأس ألكسندر من أي شيء.

- ماذا، قال فيلهلم، ألم تتحدث مع الناس؟

- الماء عند بابا ناديا يأتي من البئر، قال ألكسندر.

تنحنح فيلهلم.

- جيد، هذا ممكن. عندما كنا في الاتحاد السوفياتي يا شارلوته، كان لا يزال هناك آبار في موسكو. تصور، في موسكو! واليوم؟ لقد كنت في موسكو أليس كذلك؟

أومأ ألكسندر.

- أترى، وعندما تكبر لن يحتاج أحد في الاتحاد السوفياتي لأن يحضر المياه من البئر. عندما تكون كبيراً مثل والدك ستكون الشيوعية قد عمت أرجاء الاتحاد السوفياتي منذ زمن طويل وربما غزت العالم كله.

لم يسعد ألكسندر كثيراً بالقضاء على كل الآبار، لكنه لم يرغب في إحباط فيلهلم ثانية ولهذا قال:

- الاتحاد السوفياتي هو أكبر بلد في العالم.

فأومأ فيلهلم راضياً ونظر إليه بتمعن، وكذلك فعلت الجدة، فأضاف ألكسندر:

- لكن آخيم شليبنر يقول إن أميركا هي أكبر بلد في العالم.

- حقاً، قال فيلهلم، شيء مثير.

ثم قال للجدة:

- آل شليبنر لم يذهبوا أيضاً إلى الانتخابات. لكننا سننال منهم.

الحضانة. الآن صار في المجموعة الكبيرة. وآخيم شليبنر ترك الحضانة. وأصبح ألكسندر هو الأذكى. والدليل:

- كنت في موسكو.

حتى السيدة ريمشل لم تذهب إلى هناك.

- وعندما أكبر سأذهب إلى المكسيك.

لأنه عندما يكبر ستسود الشعورية. وساعتئذٍ لن يُستغل الهنود الحمر ولن يقمعوا. لن يحتاج أحد لأن يضحي بنفسه. الحيات ذات الأجراس فقط لا تزال موجودة والعقارب في الأحذية. لكنه يعرف الأمور جيداً: وسينفض حذاءه كل صباح - حيلة بسيطة، باحت له بها جدته.

إنه يوم الأحد. يسير ألكسندر مع عائلته بطول الشارع. إنه شارع تيلمان. الأشجار ملونة. وثمة رائحة دخان. الناس يكنسون أوراق الشجر ويحرقونها في أكوام صغيرة. يمكن المرء أن يضع ثمار الكستناء وسط اللهب، فتفرقع بعد بعض الوقت.

يسيرون في وسط الشارع وأياديهم متشابكة: ماما من اليسار وبابا من اليمين وألكسندر يحكي تصوره للأمور.

- أنا سأكبر وأنتما ستصغران. ثم ستكبران ثانية وأنا سأصير صغيراً، وهكذا.

- لا، قال الأب، ليس تماماً. نحن سنصبح مع الوقت أقصر قليلاً لكننا لن نكون أصغر سناً. سنشيخ وفي وقت ما سنموت.

- هل يموت كل الناس؟

- نعم يا ساشا.

twitter @baghdad_library

- وأنا أيضاً سأموت؟

- نعم، ستموت في وقت ما، لكنك لا تزال بعيداً جداً جداً جداً - بعيداً إلى ما لانهاية - عن ذلك ولست في حاجة لأن تفكر في ذلك.

معلومة مذهلة.

اللانهاية: هناك حيث اختفى كل شيء وسط الدخان وأصبحت الأشجار شيئاً فشيئاً أصغر، لا بد أنها كانت موجودة هناك وراء كل هذه الأشياء. إلى هناك سار هو وأبواه. داعب الهواء المنعش وجنتيه، ساروا وساروا، بخفة مخيفة من دون أن يتحركوا من مكانهم.

وعندما كان يبتسم فقد كان ذلك بسبب الحيرة: لأن تصوره عن الكبر والصغر كان تصوراً أبله.

## ٢٠٠١

بدا المطار وكأنه ملجأ ليلي. أكياس نوم، وطوابير طويلة أمام مكاتب الطيران. امتلأت شاشات العرض بالرحلات الملغاة. وبدا أن الناس يقرأون الصحيفة نفسها. صورة العنوان الرئيس: طائرة تخترق ناطحة سحاب. أم كان ذلك قذيفة صاروخية؟ أم صاروخاً؟

تأخر موعد الرحلة إلى المكسيك أيضاً.

اشترى ألكسندر دليلاً سياحياً (دليل *Backpacker* الشهير، للسياحة اللطيفة)، وقاموساً ألمانياً - إسبانياً ووسادة للرقبة قابلة للنفخ - واستعداداً للدخول في الأجواء - جريدة إسبانية. من الكلمات التي فهمها من دون قاموس كانت كلمة: terrorista.

وأخيراً الدخول إلى الطائرة. في وضع الإقلاع قدمت المضيفات عرضهن الراقص لإجراءات الأمان. ابتسمن بوضوح صارم، إن كان من الممكن أن نسمّي ذلك ابتساماً. حاول أن يتخيل وجوههن في أثناء سقوط الطائرة.

دارت برأسه فكرة في لحظة ارتفاع الطائرة عن الأرض وهي أن ثمة إمكانات عديدة للموت. الغريب أنها كانت فكرة مريحة.

ضبط جلسته في مقعده على أفضل نحو ممكن، بين رجل ثقيل



twitter @baghdad_library

الوزن يضع سلسلة ذهبية وأم شاحبة تحاول السيطرة على ابنها الذي أخذ يعب ويعب من الكولا. لم يقرأ شيئاً، بل حاول تتبع مسار الطائرة والارتفاع المطرد لها ودرجة الحرارة الآخذة في الانخفاض على الشاشة المعروضة أمام أنفه.

قبِل كل ما قُدم له: قهوة، وسماعات، وعُصابة للعينين. أكل كل ما قُدم في وجبة الغداء، حتى هذا الشيء الحلو الغامض الذي قدموه له في علبة بلاستيكية.

بعد ساعتين أو ثلاث ساعات بدأ الفيلم. فيلم عادي من أفلام الحركة. أناس يضربون بعضهم بعضاً، مع أصوات مصاحبة كان يسمعها من سمّاعة جاره. لم يكن ثمة شيء مميز، سوى أنه فجأة لم يعد يحتمل. لماذا يعرضون مثل هذه الأفلام؟ ولمَ يؤذي الناس بعضهم بعضاً؟

وضع عصابة العينين والسمّاعة وأخذ يقلب البرامج الإذاعية.

هيندل. إنها واحدة من هذه المقطوعات الغنائية الشهيرة: بطيئة وذات كآبة خطيرة. استمع بحذر، وكان على استعداد أن يوقف الموسيقى في أي لحظة، إذا ما مسته كثيراً.

لكن الحال لم تكن كذلك. استند بظهره إلى الوراء متعجباً من الصوت السماوي للحن الغنائي - لا في الحقيقة ليس سماوياً بل على العكس. على النقيض من باخ: أرضي، دنيوي، لدرجة مؤلمة. فجأة أدرك أنه ألم الوداع. النظرة إلى العالم مع الوعي بفنائه. كم كان عمر هيندل عندما ألف هذه المقطوعة المعجزة؟ من الأفضل ألا يعرف.

وكم من الوقت خصصه لتأليفها. وكم كان سهلاً وبديهياً عمل ذلك كله.

فكر في آخر مسرحية أخرجها. بالطبع لو شاء المرء لاستراح لأن النقد لم يكن مدمراً تماماً كما كان يخشى. لقد تذكر جلوسه في أثناء العرض الافتتاحي على الدرج، ورؤيته، بوجل ورهبة، للممثلين وهم يرجفون ويصرخون على المسرح وهم يؤدون أدوارهم... وديكور المسرح المركب والملون. وفكرة الإضاءة المعقدة (التي اشترى من أجلها خصوصاً كشافات خاصة بضوء النهار)... كل ذلك كان كثيراً جداً. ومجهداً ومعقداً.

هل كان ذلك هو السبب؟ هذا الجهد وهذا التعقيد. أم كان سرطانه هو السبب؟

ورم الغدد اللمفاوية غير هودجكين... ثم أوضح له هذا الشخص في المستشفى: والكرسي يترجح رغماً عنه يمنة ويسرة، وقد أمسك بمسطرة بلاستيكية في يده، هل أمسك حقاً بمسطرة في يده، هل رسم حقاً دوائر مضحكة في الهواء، عندما حكى له عن خلايا T الليمفاوية التي ستقضي عليه تدريجاً؟ العبثي في الأمر هو أنها خلايا دفاعية، إنها خلايا جهازه المناعي التي تتولى في الأصل التصدي لأي أنسجة غريبة، لكنها وحسبما فهم ألكسندر، تحولت هي نفسها إلى خلايا ضخمة معادية.

في الليلة السابقة، ليلة ما قبل التشخيص، بعد أن سهر ساعات راقداً في سريره وقد أوهن أعصابه دوي جهاز الأوكسجين الخاص بالرجل المسن، الذي اخترق سدادات أذنه بلا هوادة، في وقت ما حوالى الثالثة صباحاً وبعد أن طرح على نفسه كل الأسئلة الممكنة وبعد أن نهض أخيراً من سريره وتسلل إلى الممر وحاول عبثاً أن يحدد مشكلته على لوحة تشريح الجسم - بعدما فكر في كل هذا: بغض النظر عن كنه هذا الشيء وبغض النظر عن مكانه، سيقوم بإزالته، وسيكافح، هكذا



twitter @baghdad_library

فكر، من أجل هذه الحياة، ومع كلمة يكافح تصور نفسه، لاإرادياً، وهو يقوم بدورة جري في متنزه هومبولت، يجري من أجل حياته، حتى لا يبقى منه شيء سوى الجوهر، الأساس، حتى لا يبقى بين البشرة والعروق مكان لأي أنسجة معادية...

لم يكن ثمة شيء لإزالته، ولا شيء يمكن تحديده. لقد جاء المرض من داخله هو نفسه، من جهازه المناعي. لا، لقد كان جهازه المناعي. كان هو نفسه. هو نفسه كان المرض.

رسم الصوت الذي في أذنه بعض العقد الصغيرة، تراقص، قرقر وضحك...

أزاح عصابة النوم، وأيقن من أن أحداً لم يلحظ احمرار وجهه... لكن أحداً لم يهتم به. ركز السمين ذو السلسلة الذهبية (الذي نجح أقله في ألا يصاب بالسرطان) على شاشته. حاولت الأم الشاحبة أن تنام قليلاً. الطفل وحده نظر إليه بعينين مشعتين بلون الكولا.

مكسيكو سيتي، المطار. هواء ساخن لافح. اكتشف بالتزامن مع دخوله المدينة (البلد والقارة) أنه ليس لها رائحة سماد النترات كما كانت الحال في حديقة جدته الشتوية.

مشوار بالتاكسي. قاد السائق محموماً وكأنه خنزير يشوى حياً على النار، جلس معلقاً فوق كرسيه وقد استند بنصف جسده إلى النافذة. طريق متعرج. رجع ألكسندر بظهره إلى الوراء. انطلقت السيارة على طريق أفينداس المتعدد الحارات، تنقل السائق من اليمين إلى اليسار. دار بإطارات مولولة في الاتجاه المعاكس ومر بسرعة جنونية عبر بوابات ضيقة. تزأر حركة المرور في الخارج، انحرافات حادة إلى اليمين،

أصبح بعدها الشارع ضيقاً وعلى اليمين واليسار أناس على الأرصفة. تحرك السائق والإشارة حمراء والآن وللمرة الأولى حرك رأسه ليرى إن كان الشارع خالياً.

فندق بورخيس: أوصى به دليل *Backpacker* في وسط المدينة التاريخي، ٣٥ دولاراً لليلة. في الاستقبال أوضح له وجه حليبي ذو عينين زرقاوين، وبذلة، شيئاً لا يفهمه. El cinco piso، أي الطبقة الخامسة، هذا هو الشيء الوحيد الذي فهمه. الحجرة كبيرة، الأثاث كله مطلي بماكينة رش بلون أحمر نبيذي، أقل حتى من أن يكون عديم الذوق. ألقى ألكسندر بنفسه على السرير. وبعد؟

خرج إلى الشارع. اختلط بالناس. الثامنة مساء. كانت الشوارع مكتظة وهو يسبح وسط الجموع، ويتنفس أنفاس الآخرين. رجال شرطة قصار، ارتدوا برغم الحرارة المرتفعة ستراتهم الواقية وصفروا بصفاراتهم. عندما تعثر في حفرة بحجم غطاء بالوعة سقط بين أذرع القادمين من الاتجاه الآخر. ضحكوا وأوقفوه، هو الأوروبي الضخم المغفل. ثم دخل إلى حديقة. في كل مكان ثمة مساومات على أسعار الأشياء. حُمرت الخضر واللحوم في مقالٍ كبيرة جنباً إلى جنب وبهدوء. ثمة أغطية وحلي وهواتف قديمة ومناشير قرصية وساعات منبهة وجلد خنزير مملح، وأشياء لا يعرفها، كل شيء موجود: أغطية رأس من الريش ودمى وثابة على شاكلة هياكل عظمية ومصابيح وصلبان وأجهزة ستريو وقبعات.

اشترى ألكسندر قبعة. لقد أراد دائماً أن يشتري قبعة. والآن لديه حجة لذلك. الآن يمكنه القول: في المكسيك يحتاج المرء إلى قبعة - بسبب الشمس. لكنه لم يقل ذلك. اشترى القبعة لأنه يحب أن يرى نفسه معتمراً إياها. اشترى القبعة لكي يخرق المبادئ التي تربى عليها.



twitter @baghdad_library

اشتراها لكي يخالف أباه، لكي يخالف حياته كلها التي لم يعتمر فيها قبعة! ولكن لماذا لم يفعل ذلك؟ بالرغم من أنها مسألة بسيطة! شعر بأنه يريد الضحك. بل ضحك. جال هائماً. الآن أصبح ينتمي حقاً إليهم، بالقبعة أصبح واحداً منهم. الآن وعلى حين غرة يستطيع التحدث بالإسبانية... أريد... Taco, Tortilla... Gracias, Señor! انحنى بشكل رسمي مثلما يحدث عند تسليم جائزة شرفية. قهقهت السيدة العجوز، لم تعد لديها سوى سن واحدة. واصل ألكسندر تسكعه. أكل التورتيا. سار، توقف، سيارات. مرة أخرى أسراب من رجال الشرطة، ظن أنهم يصفرون بلا هدف، لكنه الآن فهم فجأة أنهم يصفرون فحسب. مثلما تصفر الطيور. إنهم يصفرون لأنهم هم هم. معلومة مذهلة. إنهم يحركون أجنحتهم، يرفرفون بالأيدي، بلا معنى ولا صلة، فيما يتبع المرور أحد قوانين الطبيعة وينظم نفسه بنفسه.

ثم سمع موسيقى. لم تكن صفارات، بل موسيقى حقيقية. ما زالت غير واضحة تماماً، لكن من حين إلى آخر كان صوت الكمان أو الترومبيت يعلو: الكمان والترومبيت! الآلتان التقليديتان المكسيكيتان على أسطوانة الجدة شارلوته المصنوعة من الشيلاك. ازدادت إثارته وأسرع خطاه. الآن بدا وكأن فريق أوركسترا عملاقاً يضبط آلاته وكأن المغنين يجربون أصواتهم. ماذا يحدث هنا؟ وقف ألكسندر في ميدان بإضاءة قوية، ومكتظ بالناس، وبينهم - يكاد ألا يصدق عينيه - مجموعات صغيرة في زي موحد يسهل التعرف إليه، مئات الموسيقيين: فرق كبيرة وصغيرة، منها مكون من عشرة أفراد ومنها من اثنين فقط، بالقبعات المكسيكية الضخمة أو قبعات القش الخفيفة، بحلية ذهبية الأزرار أو بحواش فضية وكتفيات وشراشيب، وردية أو بيضاء أو بلون أزرق بحري. وكلهم يعزفون الموسيقى! في الوقت ذاته!

حدث يصعب تفسيره. تماماً مثل الظهور المفاجئ لحشرات غامضة؟ موكب؟ إضراب؟ هل كانوا يغنون ليحولوا دون نهاية العالم؟ هل كان هذا هو الميدان الوحيد الذي يمكن لإله ما أن يسمعهم فيه؟

جال ألكسندر وأنصت كالمنتشي، وتنقل من فرقة إلى أخرى وبحث بأذنيه عن موسيقاه: هناك في الخلف... أو لا. لكن هنا... شيء مشابه! وقف فجأة أمام مغن يرتدي بذلة زرقاء فاتحة وقميصاً أبيض لامعاً وشعره أسود فاحم، ويلبس بابيوناً مبهرجاً حول عنقه.

- México lindo، قال ألكسندر.

قال المغني: Sí!

- Jorge Negrete، سأل ألكسندر.

قال المغني: Sí!

سحب الموسيقيون أنفاساً من سيجارتهم، وضعوا الزجاجات جانباً ورفعوا بناطيلهم إلى أعلى وضبطوا وضع قبعاتهم الضخمة وفجأة دارت أسطوانة الجدة القديمة: روم - تاتا - روم - تاتا... *Voz de la guitarra mia al despertar de mañana*

حدق ألكسندر إلى المغني غير مصدق عينيه. البابيون الغريب والشعر الأسود الفاحم اللامع والأسنان البيضاء التي لمعت تحت الشارب، وشكلت أصواتاً تطابق تماماً تلك التي كانت على الأسطوانة المصنوعة من الشيلاك التي تحطمت قبل آلاف السنين آلاف القطع... بالتأكيد من غير الممكن أن يكون ذلك صحيحاً. غالباً ثمة خداع حواس أو حيلة ما.

*México lindo y querido*



twitter @baghdad_library

*si muero lejos de ti*
*que digan que estoy dormido*
*y que me traigan aquí*

انتهت الأغنية. لاحظ أن الدموع تسيل على خديه. ضحك الموسيقيون. وسأله المغني:

- Americano?

- Alemán، قال ألكسندر بصوت خفيض.

- Alemán، كرر المغني بصوت عالٍ للآخرين.

- Ah, Alemán رددوا هم.

توقفوا عن الضحك وأومأوا له بتقدير وكأنه جاء من ألمانيا سائراً على قدميه. ربت المغني كتفه قائلاً:

- Hombre.

مضى ألكسندر، ولوح الموسيقيون له.

سار ببطء. قل عدد المغنين في الشارع. اشترى بيرة. جفّت الدموع على خديه. استنشق هواء الليل الذي صار أبرد. ربما لمجرد غياب حرارة أجساد الجموع؟ صمتت الصفارات. لم تعد رؤية النجوم ممكنة. إنها المكسيك. لكم من الأعوام كان متأكداً أنه لن يطأ هذا البلد؟ والآن هو هنا. الآن يسير عبر شوارع المدينة. هل كل هذا خداع. الجدار. السرطان. من قال إني مريض بالسرطان؟ عندما فكر فجأة في ما مضى، تراءى له كل شيء جنونياً. التشخيص: ادعاء. المستشفى: ماكينة مجنونة تنتج أسماء الأمراض. أي مرض إذن؟ تحليل لدرجة

الحموضة وهراء من هذا القبيل. الانطلاق فحسب، والتخلص من هذا العالم المريض الجالب للمرض...

ها أنذا هنا. أحييك أيتها المدينة العظيمة. أحيي السماء والأشجار والنُقر في الأسفلت. أُحيي بائعات التورتيا والموسيقيين. أحييكم جميعاً يا من انتظرتموني. أنا هنا ولقد اشتريت قبعة. هذه هي البداية.

هل كان عليه أن يعطي نقوداً للموسيقيين؟

هذا الشك كان هو الشيء الوحيد الذي أزعجه قليلاً في أثناء النعاس.

في الصباح أوقظته الكلاب. أي كلاب. نظر من النافذة. فعلاً على سطح البيت المجاور كان ثمة كلبان كبيران مهجنان، أحدهما أهلب والآخر أجرد. ماذا كانا يحرسان هناك؟ المدخنة؟ السطح؟

الاستيقاظ في الخامسة والنصف مبكر جداً (برغم أن الساعة لا بد أن تكون في ألمانيا الآن - يحسب - الثانية عشرة والنصف ظهراً). شد الغطاء فوق رأسه، لكن ذلك لم يجد. كانت النوافذ مصنوعة من طبقة واحدة من الزجاج ما سمح بتسرب ترددات الأصوات. في البداية عواء، ثم نباح. كان أحدهما يعوي والآخر ينبح. يبدأ العاوي ويضبط النابح إيقاعه عليه. أووووه - هوهوهو.

قام من السرير ليرى أيهما يعوي وأيهما ينبح.

الأهلب يعوي والأجرد ينبح.

استراحة. الآن بقي في انتظار: الأووه، وأين الهوهوهو؟

خطر بباله استخدام سدادات الأذن. لديه سدادات أذن في حقيبة الحمّام: من ماريون، لقد أحضرتها له عندما كان في المستشفى.



twitter @baghdad_library

سدادات «أوروباكس» المصنوعة من البلاستيك الطري، موضة مستحدثة. لكنها أفضل من لا شيء.

عندما رقد في السرير ثانية خطرت له: ماريون، لقد نسي أن يتصل بها. لم ينس، بل لم يتمكن... خشخشت «الأوروباكس» في أذنه. المادة شبه البلاستيكية تمددت وسعت للزحف خارج أذنيه... سيكتب لماريون، قال لنفسه. سيكتب: عزيزتي ماريون، ربما ستتعجبين... أنا في المكسيك لأنني... ماذا؟ تقفّي آثار الجدة... شيء رائع... عزيزتي ماريون... وكيف يفسر لها أنه لم يهاتفها؟

عزيزتي ماريون، لا أستطيع الآن أن أوضح أي شيء. أنا الآن فجأة في المكسيك. حسنٌ إن معي «الأوروباكس»، فثمة كلبان على السطح...لكن لا بد من أن أقول بصراحة إنها تخشخش في الأذن، لذا أرجوك أن تحضري في المرة المقبلة إن أمكن أقراصاً منومة... من أجل الكلبين... أوووه... أيهما كان أيهما؟ أحدهما يعوي والآخر لا يزال صغيراً جداً. هل تسمعين؟ في الخلفية. خلف الخشخشة... أوووه. أين اختفت الهوهوهو؟

استيقظ، وهج الشمس في الحجرة. نهض واستحم. وتأمل نفسه في المرآة لبعض الوقت. فكر إن كان سيحلق. اعتمر القبعة الجديدة على رأسه؟ كيف بدا؟

ماذا عساه أن يكون: رجل بقبعة في السابعة والأربعين، شاحب الوجه، غير حليق.

بدا أكبر من سنه.

بدا أخطر مما هو عليه.

كان هذا كافياً بداية.

تبدت له صالة الإفطار في الفندق باردة. أوروبية جداً. أفطر في المقهى المقابل. إنه مقهى قديم بأجواء فيناوية، لكن الغريب فيه فقط كان لمبات النيون الناصعة البياض التي تضيء المكان كله. بدت النادلة الهندية صفراء في هذا الضوء. طلب فطوراً مكسيكياً تقليدياً. وحصل على شيء مبهم، عجيني. أحمر وأخضر. لكن أقله القهوة التي تصب من إبريق معدني، كانت جيدة. وكادت تكون ثخينة. لا بد من شربها مع الحليب.

وبعدها النزول إلى مكسيكو سيتي نهاراً. دائماً تخيل المدينة غنية بالألوان. لكن ما يسمّى بمركزها التاريخي كان رمادياً. لم يختلف كثيراً عن أي مدينة كبيرة في جنوب إسبانيا، بغض النظر عن أن البيوت هنا مائلة. فحسبما قرأ في دليل *Backpacker*، فإن الرطوبة الجوفية كانت تمثل مشكلة كبيرة للأزتيك القدامى.

كما أنه قرأ أيضاً أن المكسيكيين لا يسمون المدينة مكسيكو سيتي بل (District Federal D.F).

وقرأ أيضاً عن فرق المارياتشي الموسيقية التي تعزف في بلازا غاريبالدي مقطوعات موسيقية حسب الطلب. وقيل إن هذه الساحة «سياحية جداً» والأسعار كذلك.

في الساحة الرئيسة «زوكالو» بُنيت صالة مغطاة موقتة، كبيرة جداً لدرجة أنه صار يُخشى من استضافة عرض «هوليداي أون آيس» (Holiday on Ice) الراقص هنا قريباً. زار الكاتدرائية المتروبوليتانية التي يمتدحها دليل *Backpacker* بوصفها إبداعاً فريداً لفن الباروك



twitter @baghdad_library

المكسيكي، تمشى عبر قاعة الكنيسة الفخمة، ووقف حائراً أمام الأبهة المقززة للمذبح الذي يبلغ ارتفاعه عشرين متراً والمكسو بطلاء ذهبي في كل أرجائه.

إلى جانب الكاتدرائية: يوجد المعبد الكبير للمدينة الأزتكية السابقة، أو بمعنى أدق: حطامه البائس. لقد دُمر المعبد ونُهب وسوي بالأرض، إنه شاهد على الصراع بين حضارتين: الحضارة المسيحية المسالمة والحضارة الأزتكية المتعطشة إلى الدماء التي استطاع السيد هيرنان كورتيس بالاستعانة بما يزيد على مئتي جندي بقليل (وبسياسة تحالفات حصيفة، نعم، بالتأكيد) أن يقضي عليها في خلال أشهر قليلة. من وسط حطام المعبد يمكن رؤية الجانب الخلفي للكاتدرائية - وهنا يظهر أنهم قد بنوها بأحجار المعبد.

على أطراف الساحة: وقف هندي أحمر معتمراً قبعة ريش فخمة، وأمامه مكسيكيان في دائرة طبشورية وقد غطاهما بسحابة من دخان البخور فيما كان يتمتم بالتعاويذ. انتظر نحو عشرة أو عشرين شخصاً دورهم: شيوخ وشباب وأزواج. كان الرجل عارياً إلا من إزار حول خاصريه. كان عارياً وقصيراً وسميناً ذا شفتين زرقاوين.

أربعة أطفال في شارع جانبي. كانوا يعزفون الموسيقى. ثلاثة منهم عزفوا: أحدهم الكلارينيت واثنان طبلا بشكل سيئ، وذهبت فتاة صغيرة ترتدي بنطالاً في منتهى القصر إلى المارة لتمد لهم قبعة ليضعوا تبرعاتهم فيها. لم تتعد الفتاة الخامسة من عمرها. كانت نظرتها مرتابة ومفعمة بالخجل. أعطاها ألكسندر بيسوس. وفكر في إعطائها ما كان يظن أنه كان يدين به للموسيقيين في «بلازا غاريبالدي». لكنه لم يفعل. لقد خشي أن يحرج نفسه - ممن إذن؟

أخذ مترو الأنفاق إلى محطة إنسورخينتس. نزل باعة جوالون من القطار وآخرون ركبوا. كانوا يصيحون ويبيعون أسطوانات مدمجة ذات موسيقى سيئة جداً تصدر عن مسجلات تعمل بالبطارية. شعر ألكسندر بالضيق لأنه لم يعط المال للأطفال.

عاد مرة أخرى إلى فوق الأرض: Avenida des Los Insurgentes أي جادة الثوار. شارع يضج بالحياة اليومية، أكثر اعتياداً وقذارة من وسط المدينة، لكنه لم يجد فيه أيضاً تصوره عن مكسيكو سيتي. أناس وحركة مرور صاخبة. بين حارتي الطريق وعلى شريط لم يتعد عرضه متراً واحداً تصارع أشجار نحيلة بائسة من أجل وجودها غير المفهوم. أما البيوت على جانب الطريق فكانت محاكاة سيئة لطرز معمارية، يظن المرء أنه كان يعرفها في وقت ما، شيدها ملاك معتزون بأنفسهم، وصارت في هذه الأثناء مهجورة وقد أبلتها الأحوال الجوية، طُليت مراراً بدهانات تزول من تلقاء نفسها وتغطيها الملصقات الدعائية. وفوق السقوف كان ثمة حوامل نصبت عليها لوحات ضخمة للدعاية لسلع قيمتها ٩٩ بيسوس.

سار في جادة الثوار باتجاه الجنوب.كان العنوان موجوداً خارج نطاق الخريطة الموجودة في دليل *Backpacker*. لقد وجد الطريق على خريطة المدينة الكبيرة في الفندق. لم يسر لا ببطء ولا بسرعة. مر بحانات ومحال ستفتح ثانية بعد استراحة الظهيرة. مر بمتاجر العقاقير ومحال للتصوير الفوتوغرافي، بحفر ملأى بمياه الصرف وورش بناء، بدراجات نارية معطوبة، بدراجات هوائية معطوبة ومواسير معطوبة: في الحقيقة كان كل شيء معطوباً.

اشترى تاكو أو تورتيا أو أي شيء من أحد الأكشاك برغم أنه قرأ أخيراً في دليل *Backpacker* أنه لا ينبغي له أن يأكل من أكشاك



twitter @baghdad_library

الشوارع. بالرغم من ذلك أكل منها، لكن التاكو أو التورتيا أو أي شيء، كان لها طعم مريب. رماها ولم يكن قد أكل حتى نصفها. شعر بالعطش، ودخل مطعماً صغيراً على طراز ماكدونالد وطلب هامبرغر وكولا. الموائد من البلاستيك، وكلها غير سليمة، مكسورة وبها شقوق. تصدر ماكينة للعب القمار نغماتها. دخل إلى المطعم شابان بقلنسوة وجينز متدلي الوسط. غريب، قال لنفسه وهو يمضغ الهامبورغر، إن الشباب يبدون متشابهين في المظهر في كل أنحاء العالم - أقله نوع معين من الشباب. اشترى الاثنان شيئاً ثم انصرفا. تتبعهما ألكسندر بنظراته وهما يتقافزان عابرين الطريق بخيلاء وكأنه ملك لهما.

بعد ثلاثة كيلومترات انحرف ألكسندر يساراً، ثم مرة أخرى يساراً ثم يميناً حتى وصل إلى هدفه: تاباتشولا. شارع ضيق من دون أشجار. عوضاً عن الأشجار، كانت ثمة مصابيح لإنارة الشارع وأعمدة، وبينها دائماً شبكة ممتدة من الأسلاك. المنزل رقم ٥٦ أ: منزل من طبقتين لم يتعد عرضه أربعة أمتار. تعرف إلى السور المسنن لإفريز حديقة السطوح التي كانت جدته تطل منها، لكن في الصورة وبرغم أنها كانت بالأبيض والأسود بدا كل شيء أخضر، بدا كل شيء مدارياً وموسراً.

نظر بحذر عبر النافذة ذات القضبان في الدور الأرضي. كانت فيه كراتين، إنه مخزن على الأغلب. دق الجرس، ولم يفتح أحد. انتقل إلى الجانب الآخر من الشارع وتأمل البيت. حاول أن يستشعر شيئاً. كيف يمكنه أن يستشعر الوجود السابق لجدته هنا؟

الشيء الوحيد الذي أحس به، هو أن كعبيه يؤلمانه. وظهره. وعضلات ساقيه التي ارتخت بوضوح في خلال إقامته في المستشفى.

على ناصية الشارع أشار إلى تاكسي فولكسفاغن من طراز «الخنفساء» بيضاء وخضراء، رغم أنه قرأ في الدليل أنه لا ينبغي للسائح أن يوقف تاكسي في الشارع. كان السائق ودوداً ويرتدي قميصاً أبيض نظيفاً، ولديه أيضاً عداد للأجرة.

انحرف السائق يميناً إلى جادة الثوار باتجاه الشمال وهو تماماً الاتجاه الصحيح. كانت حركة المرور متثاقلة، خشخش عداد الأجرة. ثم انحرف السائق فجأة إلى اليسار، برغم أن مركز المدينة أقرب إلى الجانب الأيمن. غالباً يريد الالتفاف تفادياً للزحام المروري في جادة الثوار، ولكن بدلاً من أن يسير في الشارع الموازي، أكمل السائق في طريق متعرج غير واضح، وبدا أنه يبتعد.

- Adónde vamos، إلى أين نحن ذاهبان؟ سأل ألكسندر.

أجاب السائق بشيء ما وبإشارات من يده وابتسم في المرآة.

- توقف، قال ألكسندر.

- No problem، قال السائق محاولاً الحديث بالإنكليزية. No problem:

لكنه لم يتوقف.

ثم توقف بعد ثلاث دقائق في حارة مهجورة: أسوار، وسقوف من الصفيح، انحطاط. ضغط السائق ضغطة خفيفة على آلة التنبيه ونبه ألكسندر بالكلام والإشارة أن يبقى في السيارة، ثم غاب عن الأنظار.

انتظر ألكسندر بضع ثوان ونزل من السيارة، لكنه ما كاد يلتف بجسمه ليخرج من باب السيارة الواطئ ويقف حتى وجد شخصين في انتظاره. من النظرة الأولى بديا بقلنسوتيهما والجينز الواسع مثل



twitter @baghdad_library

الشابين اللذين رآهما في مطعم الهامبورغر، لكنه لاحظ أنهما أصغر سناً، لا يتعدى عمرهما السادسة عشرة، طويلان وهزيلان. أحدهما، الأطول له شارب أخضر مزغب ويمسك بيده مدية مزخرفة. أشار الآخر وهو الأقصر بعينين ذكيتين ولماحتين، إلى التاكسي وسأل ألكسندر عن شيء.

إلا أن ألكسندر لم يفهمه، لكنه فهم مع ذلك ما معناه: ألا يريد أن يدفع أجرة التاكسي. خدعة بلهاء. قال بالألمانية بصوت عالٍ:

- إنه لا يفهم شيئاً.

- دينيرو، بيسوس، دولار، قال القصير.

أخرج ألكسندر حافظة نقوده من جيبه عازماً على ألا يعطيه أكثر مما حسبه عداد الأجرة. لكنه ما كاد يفعل إلا وكان القصير قد انتزعها منه وأخذ يتفحص محتواها متخذاً مسافة آمنة. لا إرادياً تحرك ألكسندر خطوة باتجاه القصير. لكن ذا الشارب الأخضر رفع مديته وأخذ يلوح بها بحركات عصبية مرتبكة. أخرج القصير المال من حافظة النقود، ثلاثمئة دولار وبعض مئات البيسوس، ثم ألقى بها إلى ألكسندر. بعد ثوان قليلة اختفى الاثنان.

لم يفكر كثيراً. انطلق. يريد الفرار من هنا، ثم سمع شخصاً يناديه. وسمع صوت الفولكسفاغن وهي تنطلق وتقترب منه. ظل السائق يسير بجانبه فترة ويخاطبه. لكن ألكسندر لم يعره اهتماماً. نظر إلى الأمام وأكمل سيره وكأنه يمشي عبر نفق.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى خطرت له كلمة: سرقة بالإكراه. لقد سُرق. من قبل صبيين صغيرين في السادسة عشرة من عمرهما. إنه يشعر بالمهانة، وخصوصاً بسبب العينين الذكيتين اللماحتين أكثر منه بسبب

المدية، فهاتان العينان أفصحتا له عن ماهيته: إنه شخص أبيض سفيه وبليد، لا بد للمرء أن يبتزه. وبعد؟ أليس هو كذلك؟ نعم إنه كذلك. وهو يشعر بذلك. إنه يشعر بالخديعة.

واصل سيره في الاتجاه الذي ظن أنه سيوصله بعد حين إلى جادة الثوار. بدأت الشمس تغرب وعاد الازدحام تدريجاً إلى المنطقة مرة أخرى. اشتعلت الأضواء في البيوت، ووقف الناس في الشوارع وثبتوا نظراتهم عليه هو، هذا الأبيض السفيه البليد:احتيال. نظر إلى المحال والحانات: احتيال. إلى الإعلانات فوق السطوح: احتيال، رأى سيارات التاكسي التي تهدر في أفواج في جادة الثوار. الباعة الجوالون الذين يريدون توريطه في شراء نظارة شمسية أو حلي: احتيال. بل وحتى عند نظره إلى الأشجار النحيلة البائسة في جزيرة الشارع أو إلى البيوت التي تحاكي الطرز المعمارية بشكل سيئ أو إلى الأرصفة المحطمة أو إلى الأسلاك المتدلية من كل مكان، عند نظره إلى اللافتات الممزقة أو إلى أحجار حافة الرصيف المطلية بالأصفر، أو إلى هوائيات شبكات الهواتف المحمولة أو خطوط الكهرباء أو عند النظر إلى مطعم الوجبات السريعة على طراز ماكدونالد أو إلى الرجل الذي يخرج بقميص أبيض براق وخاتم ضخم في إصبعه السمينة أمام باب المطعم الذي تومض لافتته بحروف مضيئة، لقد عرف ألكسندر أنه احتيال. وتعجب من أنه لم يدرك ذلك من قبل. لقد تم الاحتيال عليه طوال حياته. لقد خُدع (قرقر سعادة بهذه المعلومة). في الواقع إن كل شيء احتيال، والحقيقة هي أنه شخص أبيض سفيه وبليد، لا بد للمرء أن يبتزه - هل من خلاف في ذلك؟

ماذا كان يتصور؟ هل كان يعتقد حقاً أن أحداً سيكون في



twitter @baghdad_library

انتظاره؟ هل كان يظن حقاً أن المكسيك ستستقبله بالأحضان مثل صديق قديم؟ هل كان يأمل حقاً أن هذا البلد - ماذا؟ سيشفيه حقاً... نعم نعم، شيء من هذا القبيل. أفلت منه صوت كريه، ضحك وتحشرج صوته. إنه نفسه لا يعرف. بصورة ميكانيكية وضع قدماً أمام الأخرى، والغضب يدفعه إلى الأمام. شعر بالعطش لكنه واصل السير. الخطوة تلو الأخرى. شعر بالجفاف في حلقه. شعر ببحة في صوته من كثرة الكلام - بل من الكلام مع نفسه من دون صوت. الآن تؤلمه قدماه. لكن العطش أسوأ، وهو يعرف ذلك من الماراثون: الألم سيزول لكن العطش ستزداد حدته. بحث في جيوب بنطاله عن بعض ما تبقى له من عملات البيسوس: ليست كافية لشراء زجاجة مياه، تنقصه ثلاثة بيسوس. وثلاثة بيسوس تعني ثلاثة بيسوس، إذن لا جدوى من السؤال. لن يعطيه أحد ثلاثة بيسوس: هذا الأبيض السفيه البليد. حتى ولو عرفوا أنه مريض بالسرطان. جلس على دكة. وقد خفت نشاط ذهنه. إنه يتذكر سباق ماراثون في ر. حيث أخرجوه من السباق وقد أُصيب بجفاف حاد. آنذاك لم يكن يعرف ما الذي فعله خطأ، وحسب فوجد أنه لم يشرب في ذاك اليوم سوى القهوة والكولا. الطقس حار ومن المؤكد أنه قطع عشرين كيلومتراً على قدميه. أحس بإغواء الذهاب إلى أي مقهى وأن يشرب ماءً من الصنبور. لكن دليل *Backpacker* يقول إن ذلك غير مسموح. تحتم عليه أن يواصل السير، يجب ألا يبقى جالساً ولا أن يرقد، إن رقد فسيعني ذلك موته. هذا الأبيض السفيه البليد الميت. تخيل نفسه وقد رقد ميتاً على الدكة. وقد سرقوا قبعته وبنطاله... وفي الحال يسرق أحدهم حذاء التجوال التشيكي الذي ينتعله منذ سنوات والذي لا يزال محتفظاً برباطه الأصلي ولم يغيره.

- ماذا تفعل؟

تدريجاً أدرك ألكسندر أن الرجل المنحني أمامه والذي بدأ ينشغل بحذائه الأيمن كان ماسحاً للأحذية.

- لا، قال ألكسندر، لا.

سحب قدمه إلى الخلف، وأنزله من فوق كرسي التلميذ الصغير إلى الأرض. واصل الرجل التلميذ وقال له، I make verry gutt price وابتسم لألكسندر. نهض ألكسندر لكن الرجل ظل متعلقاً بحذائه. انطلق ألكسندر، لكن الرجل ألقى بنفسه في طريقه، مثل ذبابة سروء لزجة، verry gutt quallitie قالت الذبابة السروء ولم يكن واضحاً إن كان المقصود هو عملها أم نوعية الحذاء. رغب ألكسندر في مواصلة السير وأن ينفض هذه الذبابة عنه، لكن الذبابة اعترضت طريقه، أقصر منه بمقدار رأسين لكن بنيانه صلب:

- you have to pay my work، قالت الذبابة.

وكان جمع من محبي الفرجة قد التف حولهما في دائرة صغيرة. التف ألكسندر وحاول أن يهرب في الاتجاه الآخر.

- you have to pay my work رددت الذبابة.

بسطت الذبابة جناحيها وسدت الطريق وقد حملت كرسي التلميذ في يد وحقيبة الأدوات في اليد الأخرى. هجم ألكسندر عليه وقد استعد لضربه لكنه لم يضربه بل صرخ، صرخ بأعلى صوت في وجهه:

- I have no money!

تراجعت الذبابة إلى الخلف في ذهول:

- I have no money، ثم صرخ ألكسندر ثانية، I have no money!.



twitter @baghdad_library

ثم خطر له أن يقولها أيضاً بالإسبانية:

- No tengo dinero!

رفع يديه وصرخ:

- No tengo dinero!

صرخ في وجه الناس:

- No tengo dinero!

التفت إلى كل الاتجاهات وصرخ قائلاً:

- No tengo dinero!

ابتعد الناس عنه وأخذ يصرخ خلفهم. تفرقوا بعضهم عن بعض مثل الدجاج. وبعد ثوان كان الفراغ يحيط به، وحده ماسح الأحذية ظل واقفاً هناك حاملاً كرسي التلميع في يد وحقيبة الأدوات في اليد الأخرى، هكذا وقف صامتاً يحملق في الأبيض السفيه الذي مسه الجنون.

# ١٩٦١

كالعادة تكون هي الأخيرة يوم الجمعة.

لقد استيقظت منذ الخامسة صباحاً. قبل أن تقوم بالتفريغ الأول لصندوق البريد راجعت مرة أخرى وأخيرة المقال الذي طلبه منها الرفيق هاغر. قبل الظهيرة حصتان مزدوجتان من دروس اللغة الإسبانية. بعد الظهر حلقة دراسية عن الواقعية: الأدب التقدمي في أميركا الشمالية. فجأة وفيما كانت تتكلم، لاحظت أنها خلطت بين جيمس بولدوين وجون دوس باسوس.

ذاتية التثقيف. خطرت الكلمة بذهنها الآن في الساعة الرابعة وربع عصراً، في أثناء ترتيبها لمكتبها: هي كامرأة ثقفت نفسها بنفسها عليها ألا تتدخل في اختصاصات غريبة عليها - هكذا قال هاري تسينك في جلسة الإدارة الموسعة قبل نصف عام، عندما أعلنت شارلوته استعدادها لإعداد حلقة دراسية عن العيد الخمسين للثورة المكسيكية.

جمعت أوراق الاختبارات التي كان عليها أن تصححها، وبحثت بغير تركيز عن قلمها (كان لديها مئات الأقلام، لكن هذا القلم، كان هو المفضل لديها)، وفي النهاية تخلت ساخطة عن البحث عنه. جلبت أكواب الشاي المتسخة إلى مكتب السكرتارية وغسلت يديها - للمرة



twitter @baghdad_library

الخامسة في هذا اليوم - دون أن تتخلص تماماً من الإحساس بأن ثمة آثار طباشير ما بين أصابعها. وأخيراً سحبت باب خزانة الملفات الذي نسيت السكرتيرة ليسي أن تغلقه - بالطبع لم يكن ثمة أثر لليسي، لقد غادرت المكتب منذ فترة. للأسف انحشر باب الخزانة الخشبي الجرار، وضغطت شارلوته بكل قوتها على المقبض لتحريكه لكن المقبض انكسر. ذهبت إلى غرفة السكرتارية وقرعت بالمقبض مكتب ليسي وكتبت عليه ورقة: مسؤول الصيانة. علامة تعجب.

إلا أنه خطر لها في اللحظة ذاتها أن مسؤول الصيانة هرب قبل أيام إلى الغرب. كورت الورقة ببطء وألقتها في سلة المهملات. ثم تركت نفسها تنزلق على مقعد مكتب ليسي وأسندت رأسها بيديها وثبتت نظرتها على بورتريه زعيم الحزب فالتر - أولبريشت الذي ظل محاطاً بظل فاتح رقيق خلّفه بورتريه آخر أكبر في الحجم كان معلقاً من قبل على الحائط.

من المنتظر أن يصبح هاري تسينك نائباً لرئيس الأكاديمية.

شعرت بارتجاع طعم السمك. كانت تكره السمك وتأكله فقط بسبب زيوت السمك.

- كامرأة عليك أن تنجزي ضعف أو ثلاثة أضعاف المجهود كي تفرضي مكانتك، هكذا قالت غرترود شتيلر في أثناء الغداء.

ضعف أو ثلاثة أضعاف.

نهضت شارلوته وأخذت من الخزانة التي لم يعد إغلاقها ممكناً مستندات كُتب عليها «للاستخدام الوظيفي فقط» وأيضاً بعض الصحف الغربية التي تجمعت هنا - تحسباً لأي ظرف - ووضعت كل هذه الأشياء في حقيبة مستنداتها ومضت.

في الممر تردد وميض مصابيح النيون المعطوبة.

ما زالت على الأبواب آثار بقع الحرق التي خلفها الجنود الروس بعد الحرب بسجائر الماخوركا التي كانوا يدخنونها.

أعلنت صحيفة الحائط الانتصارات الجديدة للتكنولوجيا والعلم السوفياتي: قبل أمس صعد مواطن روسي اسمه يوري غاغارين كأول إنسان إلى الفضاء.

كان الجو دافئاً في الخارج. فجأة حل الربيع، ولم تلحظ شارلوته ذلك. قررت أن تقطع الكيلومترين سيراً وأن تريح أعصابها قليلاً في الطريق الذي يمر عبر الغابة الصغيرة المحاذية لجسر القطار، وتستمتع بالجو. لكنها بدأت بعد بضع مئات الأمتار تعرق. وكان وزن حقيبة المستندات ثقيلاً. كانت لا تزال ترتدي الجاكت التريكو تحت المعطف. فجأة مرت برأسها صور من طفولتها: يوم حار والفستان الأبيض الصوفي - الآن تتذكر - الذي كان عليها أن تلبسه دائماً كلما خرجت مع أمها يوم الأحد إلى متنزه تيرغارتن لكي تكون كما يقال في «استقبال» القيصر. ثم عطست شارلوته في وجه القيصر. فجأة استعادت السيناريو برمته: اقترب القيصر بشحمه ولحمه بخطوات حثيثة في صف عريض مع إخوته وخدمهم، الفستان الصوفي الثقيل الذي كان يحك بشكل بشع بشرتها العارية، ويد الأم الغليظة التي ضربتها بكل عنفوان، في أثناء إغلاقها لعينيها.

عقاباً لها حُبست بقية اليوم في غرفة الخزين، حيث كادت تموت بسبب الربو، دون أن تتأثر أمها بذلك على الإطلاق، أكان ذلك لأنها تعتبر أن شارلوته تمثل، أو لأن أمها تمنت لها الموت حقاً في سرها. كنت سأتخلى عن شارلوته، هكذا قالت الأم ذات مرة لجارتها. تذكرت



twitter @baghdad_library

شارلوته سحنتها المضحية والصليب فوق ياقتها المغلقة على آخرها وهي تقول - كنت سأتخلى عن شارلوته لو كان كارل - غوستاف «طبيعياً».

مدرسة الحياة. لو لم تخض هي تجربتها عبر هذه المدرسة - فهل كانت ما هي عليه الآن؟ مدام يلا يلا: هو اسم شهرتها بين الطلاب. كانوا يعتقدون أن ذلك سيضايقها. لكن ذلك ليس صحيحاً إطلاقاً! أمسكت شارلوته حقيبة المستندات بكلتا يديها... لا، هكذا فكرت، مدام يلا يلا لا تستسلم. مدام يلا يلا ستكافح. هاري تسينك نائب لرئيس الأكاديمية، سنرى إن كان ذلك سيحدث.

بالطبع كان فيلهلم لا يزال في القبو، في «المقر الرئيس» كما كان يسمّي قبو نبيذه القديم الذي حوله إلى قاعة اجتماعات. فالبيت كان معتماً، خصوصاً عندما يأتي المرء من الخارج وقد أغشت شمس ما بعد الظهيرة بصره. وحدها القوقعة التي نسي فيلهلم تركيب زر لتشغيلها وإطفائها، كانت تضيء البيت ليل نهار. هذا التبذير حاولت شارلوته أن تواجهه بتجنبها إشعال الضوء عندما تخلع حذاءها ومعطفها. وجدت حذاءها المنزلي في الظلام وصعدت الدرج بسرعة: ففي السادسة سيأتي ألكسندر لدرس الإسبانية.

أحضرت ملابس داخلية نظيفة من غرفة النوم ودخلت إلى الحمّام واغتسلت طويلاً. منذ أن شخّص دكتور زوس الربو الذي تعانيه بأنه ناتج من الغبار المنزلي، اعتبرت شارلوته الاستحمام علاجاً طبياً ولم تكن لديها مشكلة في أن تتمتع بهذه الرفاهية عدة مرات في اليوم - في الصباح بماء بارد، أما بعد الظهر وفي المساء فبماء دافئ. تغسل شعرها وتترك الماء يتدفق طويلاً على وجهها وعينيها، وتنظف بمتعة أنفها وتجويف فمها. أقله كان انتقال كورت وإيرينا من المنزل مزية حقا: إذ إنه لم يعد هناك من يفتح صنبور المياه باستمرار في مكان ما من البيت،

فيكتوي الآخر بلهيب المياه الساخنة أو يصعق مثل بيضة مسلوقة بالمياه الباردة، وذلك نتيجة ضغط المياه المنخفض بأي حال من الأحوال في نويندورف.

بعد الاستحمام لبست سريعاً ملابسها الداخلية القطنية وارتدت فوقها، استشعاراً بالصقيع الذي سيغمرها عند خروجها من باب الحمّام مباشرة، سترتها الكشمير التي لم تعد مناسبة لمقابلة الناس، لكنها دافئة ومريحة، وفجأة واتتها فكرة وهي أن تزيد من رفاهيتها بأن تطلب إلى ألكسندر عدم المجيء وأن ترقد بدلاً من ذلك قليلاً حتى يخرج فيلهلم من القبو لتناول العشاء. ألم تستحق ذلك بعد هذا الأسبوع المجنون؟

نزلت إلى الصالون وهاتفت كورت.

- حسناً، قال كورت، إذن إلى الغد.

- إلى الغد!

- الجولة بالسيارة، قال كورت.

- آه يا إلهي، هذا سيفرحني كثيراً.

كانت الأجواء جيدة في الحديقة الشتوية. نافورة الحجرة تصدر أزيزاً، وتسود رطوبة شبه مدارية. منذ أن كشف لها د. زوس أن الرطوبة العالية جيدة لمكافحة الحساسية صارت تقضي معظم الوقت في الحديقة الشتوية. بمعنى أدق: كانت تقضي معظم وقتها في الحديقة الشتوية لكنها تفعل ذلك الآن بتبرير علمي، بل تنام هناك بمجرد أن يسمح الجو بذلك.

رقدت في السرير ولكن من دون أن تتغطى، حتى لا تنعس. لم ترغب في أن يجدها فيلهلم نائمة. الآن ومع هبوط الدورة الدموية،



twitter @baghdad_library

بدأت رغم درجة حرارة الغرفة المدارية تشعر بالصقيع. لم يزعجها ذلك، بل استمتعت به. لقد ذكرها بنعومة بمشاعر معينة قد طواها الدهر، لكنها اكتفت بذلك. لأنها اعتبرت مواصلة التفكير فيها أمراً غير لائق في سنها. أمر لا لزوم له، شيء عبثي تماماً. هل ما زال فيلهلم يفكر في الأمر؟ لم اشتكى من انتقالها من غرفة النوم؟ على أية حال كانا ينامان منذ زمن طويل منفصلين: حتى داخل الغرفة المشتركة كان ثمة فاصل مترين بين السريرين. ماذا كان يريد إذن؟ هل كان يعاني؟ هل تعود مرة أخرى لأجل خاطره؟ مجرد التفكير في كوب الماء الخاص بفيلهلم على «الكومود» أعادها إلى الواقع: ففي العام ١٩٤٠ في معسكر الاعتقال بفرنيه في فرنسا فقد فيلهلم كل أسنانه بسبب الاسقربوط، وإن لم يفقدها كلها هناك، إذ فقد بقيتها في الطريق إلى الدار البيضاء. يا إلهي! يا له من زمن، يا لها من مخاوف، يا لها من فوضى... شعرت بالكآبة. وخطر لها تسينك مرة أخرى بأسنانه المكتملة البراقة: بالطبع لا، تسينك لم يكن في معسكر اعتقال. تسينك لم يكن في أي مكان، سوى الشبيبة الهتلرية، على الأرجح...

عندما فتحت عينيها كان الظلام قد حل. ساد السكون في المنزل. ذهبت شارلوته عبر المطبخ إلى مدخل الخدم القديم (سد فيلهلم الباب بغباوة بين المطبخ وغرف المعيشة بالطوب، بحيث صار عليهما الآن أن يقطعا الطريق الطويل عبر الردهة من أجل تجهيز مائدة الغداء) ونادت عبر درج القبو:

- فيلهلم؟

سمعت عبر الباب المزدوج المؤدي إلى قبو النبيذ القديم تمتمات وضحكات. كانت الساعة التاسعة والنصف مساء ولا يزالون يجلسون في الأسفل. هبطت شارلوته الدرج وأملت أن يؤدي ظهورها إلى تسريع

فض الجلسة. فتحت الباب بضجيج عال. من وسط دخان السجائر قوبلت بتحايا مرحة جداً، ما أعطاها الانطباع أكثر بأنها دخيلة عليهم. الثلة المعتادة كانت مجتمعة: هورست ميليش وشلينغر وهو رفيق شاب يثير أعصاب شارلوته بحماسته المبالغ فيها، كما كان فاييه الذي لم يكن عضواً بالحزب حاضراً أيضاً، بالإضافة إلى بعض الآخرين الذين كانت شارلوته تعرفهم بدرجة أقل. على الطاولة الكبيرة المصنوعة من البلوط، بين منافض السجائر الملأى إلى حوافها والكراسات، بين القهوة وزجاجات الفيتا - كولا، كان ثمة تصميم للافتة.

قاطرة لكوبا!

وتحتها بإسبانية خاطئة

LA VIVA REVOLUTION![١]

- معذرة، لم أكن أريد الإزعاج، قالت شارلوته، بعد أن عزمت فجأة على الانسحاب من دون اشتباك. لكن قبل أن تغلق الباب، ناداها فيلهلم:

- يا لوتي! ألا تعدين لنا بسرعة بعض الشطائر، الرفاق جائعون.

- سأرى ما يمكنني عمله، همهمت شارلوته، وصعدت الدرج بخطى متثاقلة.

وقفت برهة في المطبخ منزعجة من كل هذه الوقاحة. في آخر المطاف، أخذت وكأن أحداً يحركها، خبزاً طازجاً من الخزانة (لحسن الحظ أن ليسبيت تسوقت) وبدأت بتقطيع شرائح الخبز. لماذا فعلت

---

(١) تحيا الثورة. (المترجم)



twitter @baghdad_library

ذلك؟ هل هي سكرتيرة فيلهلم؟ لقد كانت مديرة معهد!... بالطبع لا، لم تكن مديرة معهد. للأسف قسموا المعاهد إلى أقسام، بحيث لم يعد لمنصبها الوقع الموسيقي نفسه، صارت مجرد «مديرة قسم»، لكن هذا لم يغير شيئاً من الواقع وهي أنها امرأة عاملة، تعمل بكد كالحصان، لقد تقلدت منصباً مهماً في هذه الأكاديمية التي سيتعلم فيها دبلوماسيو المستقبل في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (كانت غينيا أول بلد غير اشتراكي يعترف بألمانيا الديمقراطية لكنها سحبت اعترافها ثانية بناء على ضغط من ألمانيا الاتحادية!). كانت مديرة قسم في أكاديمية - وماذا كان فيلهلم؟ لا شيء، متقاعد، معاش مبكر... وغالباً، هكذا فكرت شارلوته، وقد أعماها الغضب، في أثناء تحديقها إلى الثلاجة بحثاً عن شيء تدهنه على شرائح الخبز. على الأغلب كان مآل فيلهلم هو الضياع بعد أن فشل في منصبه مديراً إدارياً للأكاديمية، لولا أنها هُرعت إلى إدارة المقاطعة وترجت الرفاق أن يعطوا فيلهلم أقله أي مهمة شرفية. وهي نفسها شجعته على تولي منصب أمين عام الحزب في الحي وأقنعته بأن تلك مهمة اجتماعية ذات شأن - لكن المشكلة أن فيلهلم أصبح في هذه الأثناء يؤمن بذلك، والأدهى من ذلك أن الآخرين صاروا يؤمنون بذلك أيضاً!

قررت أن تأخذ علبة من الجبن الطري وبرطماناً من الخيار المخلل وبدأت دهن شرائح الخبز الموضوعة على الصينية بالجبن... أمين عام الحزب في الحي: كان هو الرجل الذي يجمع اشتراكات الحزب من عشرة أو خمسة عشر من مسؤولي الحزب القدامى بين شارع تيلمان وميدان ضحايا الفاشية - ولا شيء غير ذلك. لكن ما الذي كان يفعله فيلهلم؟ كان يعقد اجتماعات سرية، في مقره في الأسفل ويخطط لـ «عمليات» ما. في الانتخابات المحلية الأخيرة جهز فرقة متحركة، تقوم بإرسال

محرضين لملاحقة من لم ينتخب حتى أولى ساعات العصر. لقد دهس هؤلاء الأغبياء كل النجيل بمركباتهم! فكرته الجديدة: قاطرة لكوبا. على سكان نويندورف الذين لم يتعد تعدادهم عشرة آلاف أن يجمعوا مالاً لشراء قاطرة لكوبا تعمل بالديزل من مصنع كارل ماركس. لقد جمعوا التبرعات بصورة محمومة، وقام الرواد الشباب[1] بالتخلص من المواد القديمة في مقابل تبرعات وفي النهاية على الناس أن يساهموا من أجل تنظيم حفلة يانصيب كبيرة، ستقام في نهاية الأسبوع المقبل ويفترض أن تمثل ذروة هذه الفعالية.

شيء لا يصدق، كيف استطاع خداع الناس بكلامه المعسول، فكرت شارلوته وهي تدهن شرائح الخبز بالجبن الطري. بتلميحاته وتصنّعه، بقبعته التي يعتمرها في كل فصول السنة. لقد كاد يصبح شخصية شهيرة في نويندورف، كان عليها أن تعترف بذلك. كانت ثمة أخبار عنه دائماً في الصحافة، حتى ولو كانت صحافة محلية. كان الناس يعرفونه ويحيونه في الشارع. لم يحيوها هي بل يحيونه. ويحكون حكايات غريبة عنه... كيف يمكنه فعل ذلك؟ لا، لا يمكن القول إن فيلهلم كان ينشر مثل هذه الحكايات. لكن من يدري... لقد ثبّت وهقه بمسمار في حائط مقره وظن كل الرفاق الشباب أنه بارع في الصيد بالوهق. كان يدعو الناس لشرب «الكوبا ليبر»، فيظن الجميع أنه يعرف فيدل كاسترو شخصياً. وعندما كان يصنع النسكافيه على الطريقة المكسيكية (وهو ما لم يكن يعني سوى أن يقلب مسحوق النسكافيه أولاً مع الكريمة بحيث تتوج القهوة في النهاية برغوة صغيرة) ويدخن معها سيجارة البابيروسا الروسية، كان واضحاً للجميع عندئذ أن فيلهلم قد أنشأ شبكة الاستخبارات السوفياتية في المكسيك.

---

(١) تنظيم كان يشبه فرق الكشافة في ألمانيا الشرقية. (المترجم)



twitter @baghdad_library

آه لو كانوا يعرفون، فكرت شارلوته. حبست أنفاسها للحظة (كانت في هذه الأثناء تقطع الخيارات الصغيرة حلقات صغيرة). حبست أنفاسها وفكرت في هامبورغ: نشاط فيلهلم «الاستخباراتي».

جلس ثلاثة أعوام في المكتب ودخن السجائر. كان ذاك هو نشاط فيلهلم الاستخباري. ثلاثة أعوام في منصب ضائع. توقف كل شيء. وبدأت الأخبار عن الاعتقالات تتوالى، وفيلهلم جالس هناك ينتظر. ينتظر ماذا؟ ما الذي كانا ينتظرانه؟ من أجل ماذا خاطرا بحياتهما؟ لم تعرف. كل شخص يعرف فقط ما يجب عليه أن يعرفه، قالها فيلهلم. وبدلاً من أن تذهب هي مع أولادها إلى موسكو، وئدت في ألمانيا ولعبت دور الزوجة: للتمويه.كادت تفرح - بالطبع لم تستطع أن تحكي ذلك لأحد - عندما انكشف كل شيء وكان عليهم فجأة أن يهربوا بجوازات سفر سويسرية. برغم لكنة فيلهلم البرلينية. يا إلهي، ياله من جهاز استخبارات. لم يتمكنوا حتى من توفير جوازات سفر مضبوطة.

بائسة كانت شرائح الخبز: تفتت العجين الطازج في أثناء دهنه بالجبن. وزعت شارلوته حلقات الخيار بغضب على شرائح الخبز، برغم أنها كلما اقتربت أكثر من الانتهاء من هذا العمل، ازداد يقينها أنها لن تهبط إلى القبو...

ماذا ستفعل إذن؟ تذكرت هاتف الأكاديمية. قبل فترة قصيرة مد فيلهلم خطاً مما يسمّى بهاتف الأكاديمية الخاص به إلى القبو - خط تليفون داخلي، واظب فيلهلم على استخدامه برغم أنه ترك الأكاديمية منذ ستة أعوام. ذهبت إلى هاتف الأكاديمية الخاص بها واتصلت به عبر هاتف الأكاديمية الخاص به لتقول له إن الشطائر موجودة على طاولة المطبخ - وبرغم أنها شعرت فجأة بجوع قاتل، انسحبت موقتاً من المطبخ لكي لا تكون حاضرة عندما يأتي شلينغر ويأخذ الصينية.

أكلت كثيراً ونامت نوماً سيئاً. حوالى الساعة الثانية والنصف ليلاً بدأ تقطرُ البول، سارت متخبطة في الممر مثل طفلة، خائفة ورهيفة الحس. في ساعة الذئب كما كانت أمها تسمّي هذا التوقيت تصبح عرضة لهجوم مختلف الهواجس. بل حتى القوقعة في الردهة كانت مخيفة، لم تنظر يساراً ولا يميناً، وحاولت ألا تفكر في شيء سيئ. لكنها جلست على مقعد المرحاض وانتظرت حتى سقوط آخر قطرة بول، وفاجأها الشك بأن مقالها قد لا يعجب الرفيق هاغر، قد يكون الصواب قد جانبها تماماً ومقالها في الواقع سيئ ومتواضع ورجعي...

في الصباح ظلت هذه الفكرة عالقة بذهنها، برغم أن ضوء النهار قد خفف من حدتها. مع ذلك قاومت شارلوته إغواء الذهاب بسرعة إلى صندوق البريد بالروب المنزلي لترى إن كانت جريدة «نويس دويتشلاند» قد وصلت أم لا. نهضت كالمعتاد واستحمت بماء بارد، وأعدت لنفسها قهوة الشعير[1] وشطيرة توست بالزبد، وبعد ذلك ذهبت لإحضار الصحيفة، أخذتها مع التوست وقهوة الشعير إلى الحديقة الشتوية، واستطاعت حتى أن تقرأ أهم ما في الصفحة الأولى بسرعة، حيث دار الحديث عن المؤامرات الإجرامية على الحدود بين مناطق الاحتلال في برلين. ثم تصفحت ببطء الصفحة الثقافية - وكان موجوداً هناك!

أكثر من مجرد مسألة ذوق. رواية فولفغانغ كوبن «الليلة المكسيكية» عن دار نشر وسط ألمانيا. بقلم شارلوته بوفيلايت.

لم تكن هي المرة الأولى التي تنشر فيها مقالاً، لكنه لم يكن أمراً

---

(١) مشروب من دون كافيين له طعم القهوة ويصنع من الشعير. (المترجم)



twitter @baghdad_library

روتينياً أيضاً. وبرغم أنها تحفظ المقال عن ظهر قلب، قرأت مجدداً كل كلمة باستمتاع مع التوست وقهوة الشعير. الآن وبعد أن طُبع، يبدو المقال أكثر تماسكاً وأكثر إقناعاً من ذي قبل.

عموماً يتناول المقال مراجعة كتاب، ولكن لأنه يعالج تساؤلات فقد أعطت الصحيفة نصف صفحة كاملة لشارلوته: كل الأعمدة الستة. وهو عن كتاب لمؤلف ألماني غربي صدر كتابه عن دار نشر في ألمانيا الديمقراطية. كان كتاباً سيئاً ومزعجاً، ولم يعجب شارلوته من أولى صفحاته. يتناول الكتاب قصة مهاجر يهودي يعود إلى ألمانيا - إلى غرب ألمانيا - ويتبين له أن الإيديولوجيا الفاشية مازالت موجودة ومستمرة. إلى هذا الحد كانت الأمور على ما يرام - لكن أقله كان أمامه خيار محتمل - وهو أن ينتقل إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وبعد عودته من المكسيك حيث أخذ يتفلسف قليلاً عن الحياة والموت، انتحر. صحيح أن الكتاب مثير ورائع لغوياً، وقد مثل الكاتب أيضاً فكراً معادياً للفاشية - لكن لم يكن ثمة شيء آخر.

تمثل جرمه الأصغر بوصف المكسيك بشكل خاطئ تماماً، وكأن الكاتب لم يكن هناك.

مبدئياً لم يكن لدى شارلوته اعتراض على كون الشخصية الرئيسة مثلية الجنس، برغم أنها - وعليها أن تقر بذلك - تضطر إلى التفكير بشكل غير لطيف في أخيها كارل - غوستاف، عندما يصف راوي الأنا مغامراته الإيروتيكية المثلية مع قُصّر مكسيكيين يعملون في الدعارة: بنفس طويل ومنهك ومقزّز.

لكن اعتراضها الرئيس على الرواية كان ذا طابع سياسي، فالكتاب كان سلبياً، وانهزامياً. يسحب القارئ معه إلى أجواء مظلمة،

يجعله سلبياً وقزماً، يضعه بلا حيلة أمام عالم وحشي وسيئ، ولا يقدم أي سبيل للنجاة - لأن راوي الأنا لا يرى مخرجاً. والغريب أن هذا الشعور المؤكد بعدم النجاة قد غمره عندما نظر إلى تمثال كواتيلكو الضخم.

وبدلاً من أن يتعرف في هذا التمثال إلى جدل الحياة والموت، وبدلاً من أن يراه تعبيراً عن فكرة كبرى وأن يحتفي به كإنجاز لشعب بطل، يرى راوي الأنا فيه «أحد أشجع وأبرد آثار اللاجدوى» و«اعتراف محض بقبح الوجود»، ما يجعله يصل إلى خلاصة فحواها أنه من الأفضل أن يذهب وحده إلى الغابة وأن يختفي هناك.

لا، هذا الكتاب، قرأت شارلوته ورأت نفسها على حق في كل حرف كتبته، لا يصلح لتربية النشء على موقف إنساني منفتح على العالم. لا يصلح لتعبئة الناس للوقوف في وجه الجحيم النووية التي تتهددهم. لا يصلح لدعم الإيمان بالتقدم والإنسانية وانتصار الاشتراكية ولهذا لا يصلح لأن يوضع في رفوف مكتبات جمهوريتنا.

نقطة

شربت قهوة الشعير، وأكلت التوست. تبقى لها إحساس غريب بألم في البطن: لديها في مكان ما بين أوراقها صورة لكواتيلكو، قصتها من صحيفة سيمبرى. أم كانت الصورة من أدريان؟

إغواء أن تختبر تأثير كواتيلكو بعد عشر سنوات.

بدأ الضجيج في الطبقة العلوية: إنها الثامنة، استيقظ فيلهلم. صوت مياه الاستحمام. بالفعل اعتاد فيلهلم أن يستحم في الصباح وفي أثناء جلوسه في حوض الاستحمام يعرّض نفسه ربع ساعة لجهاز



twitter @baghdad_library

تسمير الوجه. أعادت شارلوته الصحيفة مرة أخرى إلى صندوق البريد - تصرف طفولي، صحيح، لكن افتخارها بمقالها كان محرجاً لها وأرادت أن يجد فيلهلم الصحيفة ويكتشف المقال بنفسه.

في الثامنة والربع كان طبق رقائق الشوفان جاهزاً. هبط فيلهلم الدرج في أفضل مزاج، عرفت ذلك من خطوته، وكان مرتدياً بذلة مع ربطة عنق (كان يرتدي بذلة حتى تحت عفريتة العمل الزرقاء). اتجه مباشرة إلى صندوق البريد، أحضر جريدته، قرأ سريعاً كالعادة الصفحة الأولى، لكي يعلق عليها في أثناء تناوله رقائق الشوفان. تعليقه اليوم كان:

- هرج ومرج مع غرب برلين. لذا لا بد من إغلاق حدود البلاد.

كلام ينم عن جهل بالطبع، لكن شارلوته لم ترغب في مجادلته. صمتت وأكلت رقائق الشوفان. فيلهلم لا يفهم شيئاً في السياسة الخارجية. وضع قوى الاحتلال الأربع واتفاقية بوتسدام: إنه يجهل كل ذلك، هكذا فكرت شارلوته، لكنها قالت:

- هرب مسؤول الصيانة أيضاً، قالت شارلوته.

- فولمان؟

- بالضبط هو فولمان.

- فليذهب فولمان في داهية، قال فيلهلم، لكن الشباب! أتدركين، يدرسون على حسابنا ثم يهربون. لذلك لا بد من إغلاق الحدود!

أومأت شارلوته وجمعت الأطباق.

بعد الإفطار ذهب فيلهلم لقراءة الجريدة على المكتب. وكالعادة كما كانت الحال في المكسيك يقرأ كل مقال.

اهتمت شارلوته في غضون ذلك بواجباتها المنزلية، لكنها انتظرت في الواقع أن يكتشف فيلهلم المقال. بدأت بترتيب المطبخ، وقررت بعدئذ أن تتركه لليسبيت. جالت في البيت وفكرت في ما يمكن عمله في غرفة كورت وإيرينا التي أصبحت خالية، شعرت بالضيق مجدداً عندما رأت الأثاث الذي اشترته لكورت وإيرينا عندما جاءا من الاتحاد السوفياتي، وأصرت إيرينا بشكل قاطع عند انتقالها ألا تأخذه معها، وفجأة عادت لتفكر في تسينك. بمعنى أدق، فكرت في كيفية عرض مشكلة تسينك على هاغر، إذا ما اتصل هاغر في الأيام المقبلة أو بمعنى أكثر دقة كيف يمكنها من دون أن تتطرق إلى الأمر مباشرة، أن توضح له بصراحة أنها الأجدر بمنصب نائب رئيس الأكاديمية.

عندما عادت إلى الطبقة السفلية، كان فيلهلم قد ترك مكتبه.

- هل انتهيت من قراءة «نويس دويتشلاند»، سألت شارلوته ببراءة مصطنعة.

- نعم، قال فيلهلم، هل يمكنني أخذ ذلك إلى حفلة اليانصيب.

رفع مفرش مائدة عالياً: بألوان مكسيكية، منسوج يدوياً، وعليه رسم لحية وثعبان.

لا يا فيلهلم، لا يمكنك أخذه إلى حفلة اليانصيب بأي حال من الأحوال.

هل قرأ المقال؟ أم أنه لم يرَ اسمها؟

في العاشرة جاءت ليسبيت. كما هي الحال دائماً اعتادت ليسبيت طرح الأسئلة، حتى التي تم توضيحها خمس مرات... لا يا ليسبيت، لا



twitter @baghdad_library

تكنسي بالمكنسة الكهربائية وأنا في البيت... نعم اليوم يوم الغسل... نعم الغداء في الساعة الواحدة.

- هل تقرئين «نويس دويتشلاند» يا ليسبيت؟

- لقد قرأت «ميركيشيه فولكسشتيمه».

- آه حقاً، «ميركيشيه فولكسشتيمه».

لكن ليسبيت كانت على العموم غبية فلتقرأ «ميركيشيه فولكسشتيمه».

ثم جاء فيلهلم مرة أخرى ممسكاً بنسر من البورسيلين الأبيض، تركه مالك البيت القديم عند هروبه.

تعجبت شارلوته:

- من سيشتري هذا؟

- لن يشتروه، ألا تعرفين ما هي التمبولا؟

ثم سألت ليسبيت:

- سيدة بوفيلايت، هل أعد البطاطا المهروسة أم عصيدة البطاطا؟

عدت شارلوته من واحد إلى خمسة حتى لا تصرخ في وجه ليسبيت.

- هذا لايهمني إطلاقاً يا ليسبيت.

في الساعة الثالثة قرع كورت جرس الباب، منضبط في مواعيده كالعادة. نامت شارلوته بعد الغداء، ثم ارتدت التايير الرمادي واحتفالاً باليوم لبست عقداً مكسيكياً رقيقاً.

انتظر ألكسندر في السيارة، وإيرينا أيضاً - مبهرجة في زينتها كالببغاء، لكن تلك مشكلة تخصها بالطبع.

حبيبتي، قالت لإيرينا، عصفوري، لألكسندر. أما كورت فخاطبته بكورت.

كانت السيارة زرقاء وصغيرة جداً: ماركة «ترابانت». تأملوها أولاً بإعجاب من كل الجوانب، وحتى فيلهلم خرج أيضاً.

- لا تقل شيئاً لفيلهلم، غمغمت لكورت.

بالطبع لا يعرف فيلهلم أنها أقرضت كورت خمسة آلاف مارك لشراء السيارة. قالت لفيلهلم:

- والآن هل تركب معنا؟

- آه، لا ليس عندي وقت لهذه الأشياء.

- ليس بالسيارة سوى أربعة أماكن، قال كورت.

ألكسندر قال:

- بذلتي تحك.

دق فيلهلم هيكل السيارة البلاستيكي وأوضح:

- في المستقبل ستصنع كل السيارات من البلاستيك.

- وكيف يمكن المرء الدخول إلى المعقد الخلفي، أرادت شارلوته أن تعرف.

كان للسيارة بابان فقط.

- يمكنك الجلوس في الأمام، قال كورت.



twitter @baghdad_library

لكن شارلوته عارضت (ليس لمخاوفها المتعلقة باحتياطات الأمان فقط، فعلى كل حال كان كورت مبتدئاً)، ثم قلب كورت المقعد الأمامي حتى تتمكن شارلوته أن تزحف على أربع لتدخل إلى المقعد الخلفي للسيارة. التوفير في الأبواب فكرة غريبة.

أكثر ما فاجأها هو أن كورت جلس في المقعد المجاور للسائق، بينما احتلت إيرينا مقعد القيادة.

- من سيقود إذن؟ سألت شارلوته.

- أنا سأقود، قالت إيرينا.

قالتها بلكنتها الروسية الحادة، فبعد خمس سنوات من الإقامة في ألمانيا لا تزال إيرينا تتحدث ألمانية غير سليمة. عجيب أن تنجح برغم ذلك في امتحان القيادة.

- بذلتي تحك، قال ألكسندر.

كانت تلك هي البذلة التي أهدتها إليه شارلوته في عيد الميلاد.

- كيف يمكن لبذلة أن تحك، أرادت شارلوته أن تعرف.

- تحك في الرقبة، قال ألكسندر.

- لكنك ترتدي قميصاً حول رقبتك، ردت عليه شارلوته.

- لكنه مع ذلك يحك.

- حسناً فلنمر على البيت، وترتدي شيئاً آخر.

شيء مزعج بعض الشيء أن يدلل الطفل إلى هذه الدرجة. طفل ذكي ومنفتح، لكن بالطريقة التي رُبي بها، يمكن التنبؤ بتعاسته.

عندما كنت صغيرة في سنك، أرادت شارلوته أن تحكي له عن

الفستان الصوفي الأبيض الذي كان يحك بشرتها وكان عليها أن ترتديه دائماً عندما تذهب مع أمها يوم الأحد إلى متنزه تيرغارتن، لكن في تلك اللحظة دار المحرك وخشخشت العربة مثل مطحنة قهوة.

توقفت إيرينا في شارع فوكسباو. كان البيت محاطاً بسقالات البناء. من أجل ترميم البيت اقترض كورت من شارلوته أيضاً مبلغاً أكبر.

- إذن السيارة لإيرينا، تساءلت شارلوته بعدما نزلت إيرينا وألكسندر من السيارة.

- أنت تعرفين يا أمي أنني لا أستطيع قيادة السيارات لأنني أرى بعين واحدة.

صمتت شارلوته. في الحقيقة لم تفكر في ذلك. لكن من جانب آخر. لماذا تحتاج إيرينا إلى سيارة؟

- بخلاف ذلك سأرد لك النقود، قال كورت، سأدفع لك مئتي مارك شهرياً ومع زيادة الراتب ثلاثمئة.

- الأمر كذلك إذن، قالت شارلوته ثم منعت نفسها من أن تضيف: أنت تدفع وإيرينا تقود. مع ذلك قال كورت:

- لا أعرف يا أمي لماذا أنت عدائية هكذا.

- أنا لست عدائية.

- أنا أرى، قال كورت، إنه ينبغي لنا أن نتخذ من كوننا لم نعد نسكن معاً مناسبة لبدء فصل جديد في علاقتنا.

- إنني أرى ذلك أيضاً، قالت شارلوته.



twitter @baghdad_library

لم ترغب في التوسع في الموضوع. لقد آلمها أن كورت لم يكن منصفاً في هذا الأمر. وكأنها هي سبب المشاكل! إنها تسعى جاهدة منذ وقت طويل لتحسين العلاقات، وقد تأذت من كون كورت لم يلحظ ذلك قط. لم تسمح لنفسها أبداً بكلمة نقد واحدة بحق إيرينا: لا عن سلوكياتها المفتعلة ولا عن إدمانها التبذير، بل على العكس لقد أعطتهم المال من أجل مشروع إيرينا للانتقال إلى بيت آخر، برغم أنها كانت بصراحة تجد في هذا المشروع ضرباً من الشطط. والآن احتاجت إيرينا أيضاً إلى سيارة... وإنجازها يساوي صفراً. لقد كد كورت، وكتب أطروحة دكتوراه وألف كتابه الأول - كتاب رائع - فيما لم تكمل إيرينا تأهيلها كأخصائية توثيق. كيف يمكنها ذلك وهي لم تتعلم الألمانية بشكل صحيح.

لم تقل شارلوته هذا كله. بدلاً من ذلك تساءلت:

- هل قرأت «نويس دويتشلاند»؟

- نعم، قال كورت، لقد قرأت مقالك.

ثم صعدت إيرينا وألكسندر إلى السيارة، ارتدى ألكسندر سترة صوفية وحاولت شارلوته أن تحكي له مرة أخرى:

عندما كنت في مثل سنك...

ومرة أخرى انطلقت مطحنة القهوة، غريبة كانت تلك السيارة التي لا يستطيع المرء أن يجري حديثاً فيها. وفي المقعد الخلفي يتطوح المرء إلى الأمام والخلف. وفوق كل ذلك قادت إيرينا بسرعة مخيفة وعبرت التقاطعات كالعصف المدوي من دون أن تنظر إلى اليمين أو الشمال.

ألا يجب مراعاة من له الأولوية عند التقاطعات. تساءلت شارلوته بأدب.

لم يجبها أحد، ربما لم يعرفا إلى أي منهما وجهت شارلوته سؤالها، أو ربما لم يسمعا السؤال بسبب الضجيج. واكتفت شارلوته بذلك.

ذهبوا إلى متنزه سانسوسي، وقالت إيرينا: انزلوا.

لكن ألكسندر قال:

- لكني أريد ركوب السيارة ثانية!

- من بعد سنعود بالسيارة إلى البيت، قال كورت.

لكن الطفل لم يرد أن يغير رأيه: ركوب السيارة!

- إذن فلنذهب إلى سيسيلينهوف.

- هذه مسافة قصيرة، لقد قلتم إننا سنقوم بجولة بالسيارة!

غير معقول ما يحدث هنا، لقد فكروا في أن تمتد الرحلة إلى بورنيم أو نويفارلاند. في النهاية اتفقوا على الذهاب إلى سيسيلينهوف ولكن عبر طريق أطول. وشعر ألكسندر بالرضا.

- سيارتنا بها خزان وقود احتياطي، قال ألكسندر.

وأومأت شارلوته.

وأخيراً سيسيلينهوف. مغامرة في صف السيارة وكأنها سفينة. ساعدها كورت على الخروج من السيارة، مغامرة تسلق، ثم سألها:

- ما رأيك في سيارتنا؟

- عظيمة، قالت شارلوته.



twitter @baghdad_library

مسح ألكسندر بكمه سلح طير عن هيكل السيارة. امتنعت شارلوته عن أي تعليق. التفت ألكسندر عدة مرات إلى السيارة، وانتظرت شارلوته حتى ابتعدوا عنها.

عندما كنت صغيرة في مثل سنك، بدأت شارلوته تحكي للمرة الثالثة، كان علي كل أحد أن أذهب مع أمي إلى متنزه تيرغارتن، لأنها كانت مهووسة بأن تكون في «استقبال» القيصر الذي يتنزه أحياناً هناك.

اتسعت عينا ألكسندر:

- القيصر؟

- أي نعم، القيصر فيلهلم، وكنا أحياناً ننتظر ساعات. هل سيأتي القيصر أم لن يأتي؟ وكان علي دائماً أن أرتدي فستاناً قطنياً، يحك بشكل فظيع، كان فستاناً حكاكاً بحق - قالت شارلوته وتفحصت أثر الكلام على وجه ألكسندر.

لم يكن ثمة أثر، وبدلاً من ذلك سأل ألكسندر:

- وهل جاء القيصر؟

قالت إيرينا:

- كفى يا أمي، إذا حدث لك شيء سيئ في حياتك، فعليك ألا تتمني أن يحدث ذلك أيضاً للآخرين.

- وهل جاء القيصر؟ أراد ألكسندر أن يعرف.

- نعم، قالت شارلوته، لقد جاء القيصر، وقد كرهته.

عند منطقة الاستحمام في نهاية البحيرة المقدسة ذهبت إيرينا

وألكسندر لإطعام البجع، فيما جلست شارلوته مع كورت على دكة. هبت ريح لطيفة خفيفة. وسمع صوت حفيف البوص.

- والآن، ما رأيك في مقالتي؟ سألت شارلوته، ثم أضافت لكن لا تكن قاسياً علي.

- أنا لا أفهمك، لماذا تشاركين في شيء كهذا؟

- كيف أشارك؟ فيم أشارك إذن؟

نظر كورت إليها. فجأة رأت أنه يرى فقط بعين واحدة، وللحظة أحست بشيء يشبه الذنب. وكأنها كأم مسؤولة عن هذه العاهة.

- المسألة هنا متعلقة بحملة سياسية، قال كورت، وثمة أناس يحاولون فرض نهج سياسي أكثر تشدداً.

- لكن الكتاب سيئ، احتجت شارلوته.

- لا تقرئيه إذن!

قال كورت فجأة بغلظة غير معهودة.

- لا يا كورت، لا يمكن أن تسير الأمور هكذا، من حقي أيضاً أن أقول رأيي. من حقي أيضاً أن أعتبر أن كتاباً ما سيئاً ومضراً. وأنا أرى أنه سيئ ومضر، وأنا مصرة على ذلك.

- المسألة ليس لها علاقة بهذا الكتاب.

- بل لها علاقة بهذا الكتاب.

- لا، المسألة تتعلق بصراع حول التوجهات. تتعلق بالإصلاح أو الركود، الدمقرطة أو العودة إلى الستالينية.

وضعت شارلوته يديها على فوديها وقد فقدت أعصابها.



twitter @baghdad_library

- الستالينية، الجميع يتحدثون فجأة عن الستالينية!

- أنا لا أفهمك، وبرغم أنه تحدث بصوت خفيض، إلا أن وقعه كان حاداً، ونطق كل كلمة بوضوح تام عندما قال: لقد قُتل ابنك في فوركوتا.

قفزت شارلوته من مكانها، وأشارت إليه بيدها أن يصمت.

- لا أريدك أن تقول شيئاً كهذا، لا يا كورت، لا أريدك أن تقول شيئاً كهذا.

جاء ألكسندر يعدو وقال إن النوارس سرقت القوت من البجع - ثم انصرف.

صمت كورت وصمتت شارلوته أيضاً.

على ضفة البحيرة علا صوت حفيف البوص.

أول شيء أحست به في البيت كان الهواء الخانق الذي كان أشبه بخرقة قديمة تقبع فوق رئتيها. وقد عرفت سبب ذلك عندما صعدت الدرج إلى الحمّام: أمسك كل من ميليش وشلينغر بفرشاة في يده وبدءا يعملان في الطبقة العلوية على إنجاز لافتة دعائية - ولكي يضعا فرشة مستوية تحت اللوحة التي يرسمانها أزاحا السجادة الطويلة، وهكذا أصبح الجو مغبراً.

- ماذا تفعلان هنا؟ دمدمت شارلوته.

- فيلهلم قال... شرع ميليش في الحديث.

- فيلهلم قال... فيلهلم قال، قالتها شارلوته بغيظ.

في الحمّام تناولت حبة بردنيسولون. وبعد الاستحمام وضعت

فوطة مبللة في فمها لكي تعبر الممر. في غضون ذلك أحضر الاثنان فيلهلم ليعضدهما.

- ما الأمر؟ استفسر فيلهلم.

لم تجب شارلوته، وفسحت لنفسها في الطريق عبر الممر الضيق ولكزت شلينغر من غير قصد، ففقد توازنه ودهس بقدميه اللافتة التي لم تجف ألوانها بعد: داس مباشرة كلمة revolution[1] التي لا تزال مكتوبة بشكل خاطئ.

- ماذا دهاك؟

واصلت شارلوته سيرها من دون أن تلتفت وهبطت الدرج، ونزل فيلهلم وراءها واعترض طريقها إلى الحديقة الشتوية.

- هل لك أن تشرحي لي ما الأمر؟

- فيلهلم، قالت شارلوته بهدوء، من المفترض أنك تعرف أنني أعاني حساسية ضد التراب.

- ماذا؟

- حسا-سية - ضد - التر-اب. قالت شارلوته.

- أنت وأمورك الغريبة دائماً. قال فيلهلم.

أغلقت شارلوته الباب المزدوج للحديقة الشتوية في وجهه وأغلقت الستائر.

رقدت على السرير وسمعت نبض قلبها. استمعت إلى الهدير

(١) بالإسبانية Revolución. (المترجم)



twitter @baghdad_library

الخفيف لأنفاسها، وشعرت بأثر المرارة الخفيفة للبردينسولون في لسانها.

رقدت بعض الوقت.

أزت نافورة الحجرة.

خطرت لها نبتة ملكة الليل التي أعادتها إلى تاجر الزهور، دون أن تراها تزهر.

بالمناسبة: في المكسيك لم تكن تعاني الربو.

في الليل حلمت ثانية بكوابيس، لكنها لم تتذكرها في الصباح، ولم ترغب في ذلك أيضاً.

قضت الصباح في إزالة النبتات الضارة.

يوم الاثنين، سمعت في الراديو أن جيش احتلال جهزته الولايات المتّحدة قد غزا كوبا.

يوم الأربعاء، كان جيش الاحتلال قد دُحر.

لم يتصل الرفيق هاغر.

حققت حفلة «التمبولا» التي نظمها فيلهلم نجاحاً كبيراً، وألقى أمين عام الدائرة كلمة بهذه المناسبة، ومنح ممثل الجبهة الوطنية فيلهلم دبوساً ذهبياً تكريماً له.

# ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩

لم تدر كم من الوقت جلست هكذا على سريرها، حيث كانت تجلس دائماً وقد عقدت رسغي قدميها الواحد فوق الآخر ويداها في حجرها، وكأن أطرافها هذه تخص شخصاً آخر. لم تعد تبكي. كانت دموعها قد جفت، ودغدغت قشور الملح الخفيفة التي خلفتها الدموع وجهها.

عندما رفعت رأسها كان نور النهار بازغاً بقوة، كان الضوء قوياً لدرجة مؤلمة. عكست أشجار البتولا ضوءاً أصفر، خريف دافئ هذا العام، جيد للحصاد، هكذا فكرت ناديجدا إيفانوفنا. في سلافا يجمعون البطاطا الآن، وتشعل النيران الأولى التي تحرق فيها أوراق البطاطا. وبعدها يأتي بلا رجعة: زمن تلاشي الضوء.

تمخطت ناديجدا إيفانوفنا وأمسكت بأدوات التريكو التي وضعتها هذا الصباح على الوسادة، زوج جوارب لساشا، وبعده أيضاً زوج لكورت، انتهت من أحد الجوربين، وتعمل على كعب الآخر، لديها فكرة جيدة عن صنع الجوارب، لقد حاكت الكثير منها، أولها كان صغيراً بحجم بيضة، كان ذلك قبل ثلاثين عاماً، لكن رائحة شعر قفاه تبقى إلى اليوم في أنفها عندما تتذكر جلوسه في حجرها وهما يلعبان «ماتشيك، بلاتشيك» لساعات، أو عندما كانت تغني له أغنية العنزة



twitter @baghdad_library

الصغيرة التي لم تسمع كلام جدتها، وكان يحب أن يسمعها مراراً وتكراراً. تُرى هل نسيها الولد، برغم أنه قد حفظها عن ظهر قلب وهو في الثانية من عمره: العنزة... دخلت ف الغابة وبسرعة أكلتها ديابة! جدتها نادت عليها، ومشيت في أثر رجليها، ع الشجرة لاقت قرنيها وكمان حوافرها وعينيها...

ربما سيرسل في وقت ما بطاقة بريدية، برغم أنه سيكون على الأرجح مشغولاً، عليه أن يعتاد أولاً الحياة هناك، في أميركا، كانت تعرفها من التلفزيون، من القناة الأخرى، عليها أن تقلب القنوات مرتين، في الحقيقة، كانت تشاهد القناة الأخرى معظم الوقت، لقد شاهدت بريجنيف بما فيه الكفاية، أميركا كانت بشكل ما أظرف، رغم أن المرء لا يجرؤ دائماً على مشاهدة كل ما يعرضونه، كي لا يرتكب معصية، هكذا ظنت ناديجدا إيفانوفنا، أم أن ما يعرضونه في التلفزيون، مجرد صور تلفزيون، والوضع هناك ليس مختلفاً عن هنا. يكاد المرء يطل من هنا على هناك، أم أن هذه كانت ألمانيا أيضاً تلك التي يراها المرء عبر البحار، أم أن ألمانيا هي أميركا، أو جزء منها أو هذا الجزء من ألمانيا الذي كان جزءاً من أميركا، هذا الخلط يبعث على الجنون، وما الجدوى إذا كان الوضع متشابهاً هنا وهناك كما تدعي إيرا، الفرق أن المرء يستطيع هناك أن يشتري كل شيء، كما قالت إيرا، في ألمانيا الأخرى التي كانت أميركا. لكنها لم تفهم: في الساحة التي كانت تصل فيها الحافلة، حيث كان ساشا يذهب إلى المدرسة، كان بإمكان المرء أن يشتري كل شيء، ومن دون حصص، كل ما يمكنك حمله، كان يمكنك شراء الحليب، في أكياس، لم يصدقها أحد في سلافا. لكنها لم تعرف بصراحة، أكان ذلك بسبب الأكياس أم لأن الأبقار حكومية

تحلب آلياً، لكن الحليب لم يكن يتخثر إذا ما تركه المرء، كان يفسد فقط، حليب الأبقار الحكومية هذا كان شيئاً مختلفاً عن حليب بقرتها في الحظيرة. كان ساشا يحب اللبن الزبادي بالسكر، وكان لديها أيضاً اللبن الرائب والزبد وكل ما كانت تحتاج إليه.

من أجل كعب الجورب كان عليها أن تقسم عدد الغرز ثلاثة أجزاء، لكنها لم تتحقق قط من العدد، لأن ذلك كان يحدث دائماً تلقائياً، ثم تتعاقد الغرز وتسير بشكل مستقيم، دائماً وراء الإبرة، كان لكورت القياس نفسه، لكنه في الحقيقة لم يلبس الجوارب قط. دائماً كان يشكرها بأدب، عندما تهدي إليه الجوارب، لكن ماذا عساها أن تفعل، أرادت يداها دائماً أن تصنعا شيئاً ما. في مطلع العام سيكون الدور على الحديقة، لو عاشت حتى هذا الوقت، لكن حتى هذا الحين كان عليها أن تنشغل بشيء ما، لو بقيت فقط أمام التلفزيون فستصاب بالبلادة. أحياناً كانت تقرأ الكتاب الذي أعطاها إياه كورت، كانت تستطيع القراءة، لقد محت أميتها، عندما انتقلوا إلى سلافا، حيث كان السوفيات. لكن الكتاب كان ضخماً، الحرب والسلام، عندما تصل إلى منتصفه، تكون قد نسيت أوله، يتحدث الكتاب عن حصاد القش، هكذا تتذكر، كان عملاً صعباً، لقد حصدت الكثير من القش في حياتها، بعد عودتها من ورشة نشر الخشب، حصاد القمح كان في آب/أغسطس، وفي أيلول/ سبتمر كان وقت قلع البطاطا، هكذا كانت تسير الأمور في سلافا. والآن لديها الخيار، لكنه كان ينمو عملياً من تلقاء نفسه، لم تحتج سوى لأن تسقيه من حين إلى آخر، كانت تفتح الخرطوم فقط وينتهي الأمر، كم سهلة هي الحياة في ألمانيا، لم يصدقها أحد في سلافا، سهلة لكنها تبقى مع نفسها دائماً، وإيرينا تتبرم دائماً، أحياناً كانت تسأل نفسها إن كان تخليها عن بيتها في سلافا خطأ، لكن ماذا تفعل العظمة العجوز إن



twitter @baghdad_library

كانت لا تستطيع تسلق السلّم لتزييت طاحونة الرياح. لا، هي لم تشتكي. لكنها تشعر نوعاً ما أنها بدأت تشعر بالسأم، إنها في الثامنة والسبعين، أختاها لم تتخطيا العشرين، لقد دفنتا في مكان ما بين غريشكين ناغار وتارتارسك، أما هي فباقية في ألمانيا هذه بل تتلقى راتباً تقاعدياً، ثلاثمئة وثلاثين ماركاً في الشهر. في البداية كانت تدخر لجنازتها، لأنها كانت تخشى أن تموت قبل أن يكون المال كافياً للجنازة، ومن يعرف ربما تُحرق جثتها، فهم يفعلون ذلك هنا، لكن حالياً أصبح المال كافياً لثلاث جنازات، وما زالت على قيد الحياة وما زالت تدس المال في وسادتها، ودائماً كانت تعطي ساشا مئة مارك على الفور، لم تأخذ إيرا منها مالاً، لم تكن بحاجة، متكبرة كما كانت في السابق، كان هذا مزعجاً لناديجدا إيفانوفنا.

الآن دق الباب، إنه كورت يسأل إن كانت ستذهب معه بعد ذلك إلى عيد ميلاد فيلهلم، ياه لقد فكرت في ذلك صباح اليوم ولكن المخ الهرم نسي، إلا أن عليها أن تعترف أنها لم ترغب في الذهاب.

- طبعاً سآتي معك، من دون شك.

لكن محل الزهور الموجود في المقابر قد أغلق منذ بعض الوقت، ماذا كان لديها بخلاف ذلك علبة من الشوكولاتة المحشوة، عسى ألا تكون مهداة من شارلوته وفيلهلم، فقد كانا يهديان إليها دائماً شيكولاتة محشوة، برغم أنها لا تأكلها، لكنها لم تضر، لأنها كانت تستطيع دائماً أن تقدم شيئاً عندما يأتي ساشا مع صديقته كالينكا، أم ما اسم صديقته الجديدة، وهل ذهبت معه إلى أميركا أم بقيت في ألمانيا؟ لم تكن سيئة، ذراعاها نحيفتان بعض الشيء، لا تصلحان للعمل، لكنها لم تكن تعمل، كانت ممثلة. إنهم يحتاجون في الأفلام إلى النحيفات. هل تهدي إلى فيلهلم خياراً، خياراً جيداً، مخللاً على

الطريقة الأورالية بالثوم والشبت، كان ساشا يحب خيارها كثيراً. لكن هل الخيار هو الهدية المناسبة لعيد الميلاد، ستسأل كورت، عموماً بلوغ التسعين، مناسبة مهمة، ومع ذلك ما زال يبدو في حال جيدة، وكأنه في الثمانين ويرتدي بذلة وكأنه وزير ويتحدث أيضاً بأهمية، ويلاحظ المرء أنه جاب الدنيا، لقد ركب مع شارلوته السفينة وعبرا البحر، يا حفيظ يا رب، لقد رأت البحر مرة واحدة في حياتها، الماء وصل إلى السماء، لم يصدقها أحد في سلافا حين حكت ذلك، وفي الآخر عند الطرف القصي للمياه زحفت سفن ضئيلة جداً وكأنها تسير على حافة سطح أحد البيوت، تصور مريع، القطار كان بالنسبة إليها أفضل كثيراً، أقله يبقى المرء على أرض اللّٰه، وبعدما ينطلق لا يكون الأمر صعباً، وإذا ما تعوده المرء، يمكنه حتى النوم، لقد نامت هي أيضاً فيه واستيقظت ووجدت نفسها فجأة في ألمانيا. ولم تعرف حتى كم كانت المسافة التي قطعتها، أراد ساشا أن يريها ذلك على الخريطة وكأنه من الممكن للمرء أن يرى طول المسافة على الخريطة. بين تارتارسك وغريشكين ناغار كانت المسافة على الخريطة بعرض أربع أصابع، وفي الواقع كانت أربعة أعوام أو أكثر قطعوها على الأقدام، لا تعرف بالضبط، لقد استغرق ذلك دهراً، منذ أن وعت الدنيا، كانت الحياة مجرد مسيرة.

بصراحة هي لا تتذكر تارتارسك حيث وُلدت، لا تتذكرها إطلاقاً، الأب الذي لم يعد من عمله من نقل الأخشاب عبر النهر، وبعدها قالت الأم مارفا إنه قد مات في الحرب، لقد أتت، حسبما تتذكر، من ظلام دامس، وأول ما رأته كان الطريق، صورة ضعيفة ومهزوزة: الطريق الذي لا نهاية له وكانت كلما نظرت إلى أسفل لا ترى سوى قدميها المتسختين، كان هذا أول شيء تتذكره، وتتذكر أيضاً العطش اللانهائي



twitter @baghdad_library

ويدها التي احمرت من الدم من شدة ما ضربت جبهتها بسبب البعوض الكثير.

ارتدت الفستان البنفسجي الجيد الذي تتخلله خيوط ذهبية، شيء مبالغ فيه بعض الشيء بالنسبة إلى سنها، شيء كهذا لم يكن يمكنها ارتداؤه في سلافا، لكن الناس هنا كانوا يرتدون كل شيء، حتى العجائز، عندما كن يذهبن للرقص في نادي «التماضن العشبي»[1]، مرة في العام يكون الدخول مجاناً، كانت تحب الذهاب إلى هناك عندما كانت ساقاها لا تزالان تساعدانها على ذلك، برغم أنها كانت لا تتقن قواعد الرقصات المطلوبة، كانت ترقص رقصات أورالية من موطنها وتشرب ليكيرا، ثم يرقصون معها بشكل أو بآخر رقصاتها الأورالية. الآن عليها أن تنتعل حذاءها. اشترت لها إيرا حذاءً جيداً، لكن الدولة هي التي دفعت ثمنه، الناس في سلافا لن يصدقوها أيضاً لو حكت لهم ذلك، مثل هذا الحذاء الجلدي الجيد، كانت وهي طفلة تبحث دائماً عن حذاء كهذا، عندما يصلن إلى أي قرية وتجلس هي أمام الكنيسة، لكنها كانت تكره أن تذهب الأختان الكبيرتان للبحث عن عمل في القرية ويكون عليها هي الصغرى أن تتسول، تجلس طوال اليوم بيد مرفوعة ورأس خفيض، لكن مادام لم يكن ثمة أمل في الحصول على حذاء، كان يمكنها أيضاً أن تخفض يدها، لقد فهمت ذلك بسرعة، لم تُجد تلك الخرق التي كانت تلبسها في قدميها، ولا أحذية الخوص، لكن بمجرد ما أن يظهر حذاء، فمعنى هذا أنه حذاء حقيقي جلدي كهذا الذي تنتعله، إنهم يسمّونه حذاءً طبياً، مثل هذا الشيء غير معروف لديهم في سلافا، به اثنا عشر ثقباً في كل جانب، خسارة أنها لم تذهب إلى سلافا، برغم أن نينا قد دعتها، والتأشيرة كانت موجودة أيضاً، ولكن ما جدوى ذلك،

(١) التضامن الشعبي كما تسميه السيدة العجوز. (المترجم)

إذا كانت لا تستطيع الذهاب إلى الكنيسة بقدميها هاتين، وما كان لحذائها الطبي أن ينفعها أيضاً، لقد قُضي أمر هاتين القدمين، لقد جالتا كثيراً في هذا العالم من تاتارسك إلى غريشكين ناغار، أربعة أعوام أو أكثر، كانت تسير وتسير فقط، كل صيف من وقت ذوبان الجليد حتى الحصاد، وكان بتيسير اللّه أن يعطف أحد إقطاعيي الكولاك عليهن، فيعطيهن ولو مكاناً في الزريبة ليقبعن فيه في الشتاء.

حتى تُدخل قدمها في الحذاء عليها أن تفك الرباط على آخره تقريباً، والآن تُدخل الرباط بصعوبة في الاثني عشر ثقباً ثانية وتعقد ربطة وبعدها عقدة أخيرة لضمان ألا تنفك، وبهذا تكون انتهت من انتعال الحذاء. سرحت شعرها، لكنها لم تدخل الحمّام خصوصاً لذلك، فشاشة التلفزيون كانت تكفي لخصلاتها القليلة. فحسب رأي ناديجدا إيفانوفنا، أنه من الأفضل ألا يتفحص المرء نفسه بدقة في المرآة، ثم ارتدت المعطف الصيفي، في الخارج كان الجو لا يزال دافئاً. بدلاً من حقيبة يدها التي تحملها معها في هذه المناسبات - لماذا تأخذها في الحقيقة؟ فالمفتاح معلق في سلسلة في رقبتها وحافظة النقود مخبأة في جيب تمت خياطته إضافياً في إحدى التنورات - أخذت بدلاً من الحقيبة برطمان الخيار الذي كان موضوعاً منذ الصباح، جلست ثانية على السرير وانتظرت أن يأتي كورت لإحضارها. لم يُضرها أن تنتظر، بل على العكس، كانت تحب الانتظار. ثم خطر لها أنها لم تأكل بعد شطيرة الخبز التي ألقت لها به إيرا على المائدة، بقيت على المائدة دون أن تقضم منها قضمة واحدة ولكنها قررت أيضاً ألا تمسها، فهي ليست كلباً، في آخر المطاف ظلت جالسة وبرطمان الخير في حجرها وانتظرت، لم تفكر في شيء محدد، الغريب في الأمر فقط أن ما فكرت فيه اليوم، كانت تفكر فيه وهي صغيرة في أثناء وقوفها أمام الكنيسة



twitter @baghdad_library

بحثاً عن حذاء، لم تتذكر ذلك منذ زمن بعيد، لكن أين كان هذا، لا تدري، القرية والوجوه، لا شيء من كل هذا، لقد نسيته مثل بداية هذا الكتاب الذي يدعى «الحرب والسلام». إنها تتذكر فقط اليوم الذي عثروا فيه على ليوبا، هذا اليوم تتذكره بالطبع، وكيف كانت راقدة وسط الجليد وكأنها مجرم مجمد. قالوا إنها هددت أحد الرجال ببلطة. ثم كان عليهن هن «مثيرات الشغب» أن يكملن مسيرتهن في عز الشتاء، لكن أقله أعطاهن أحد الكولاك ربع رغيف خبز، ما زالت تذكر ذلك، وتذكر كيف وقف الناس يشاهدون من وراء النوافذ - وبعدها لم تعد تذكر ما حدث، لا دراية لها. بشكل ما أكملن طريقهن ووجدن مأوى في وقت ما - هل كان ذلك في ذاك الصيف أم الصيف التالي؟ لقد وصلن ثلاثتهن إلى غريشكين ناغار: الأم مارفا وفيرا وناديجدا.

ما زالت تذكر فيرا جيداً. كانت ليوبا الأجمل، هكذا كانت الأم مارفا تقول، لكن فيرا هي الألطف، وهكذا احتفظت بها ناديجدا إيفانوفنا في ذاكرتها، تقية وهادئة، وإلى اليوم تتساءل لماذا لاقت فيرا بالذات هذه النهاية الوحشية. لم تعش في غريشكين ناغار سوى شتاء وحيد، كانت المرة الأولى التي يكون لهن فيها بيت، ترك لهن أحد أبناء الخال كوخاً صغيراً، غطت الطحالب شقوقه بشكل جميل، والفرن كان بالكاد كافياً لأن تنام الثلاثة على سطحه، في المساء كن يحرقن جذاذت خشب الصنوبر للتدفئة وكانت تصدر عنها رائحة صمغية، فيما كن يجلسن حول المائدة ويتسلين، كان السماور يهدر، والريح تعوي في الخارج، أو إذا سكنت، تعوي الذئاب بعيداً جداً، هكذا بدا الأمر، لكن عندما طال الشتاء كثيراً، راحت تتسلل بين بيوت غريشكين ناغار، وعندما كان المرء يصحو في الصباح، كان يجد آثارها في الثلج. في الصيف كانت جبانة، وكان من المحتمل أن يُفترس المرء من البعوض

أكثر من الذئاب، ولم تكن تهاجم الناس عادة إلا إذا كانوا شبه ميتين، هكذا قال الرجال، لكن ربما أصاب العطش فيرا بالجنون، من يدري كم من الوقت سارت هائمة تائهة، ومن يته كما يقولون يلف في دائرة. لقد عثروا عليها على بعد اثني عشر أو خمسة عشر فِرست، وذلك بعد عامين من اختفائها، وجلبوا الدلو الزنك الذي ذهبت به لجمع التوت، وفي الدلو، من الأفضل عدم السؤال عن محتواه، إلى الآن مازالت تشعر بالقشعريرة عندما تفكر في ما تبقى منها، إذ لم يتبق سوى القرون والحوافر مثل العنزة الصغيرة، والآن تعرف لماذا؟ إذا ما استدرت مرتين وإذا شببت بجسمك مرتين لتلتقط التوت ستجد أنك تهت، غابات التايغا كبيرة جداً وسرعان مايفقد المرء فيها الاتجاه، وعليك أن تتذكر ما بقي من العنزة الصغيرة، قرناها وحوافرها الصغيرة، نادت جدتها ونادت بلا جدوى... لا يهم القصة سينساها الولد، وما الحاجة إليها، لم تكن ثمة ذئاب في ألمانيا، كل شيء في ألمانيا مرتب، حتى الغابة، ومن يدري إن كانت ثمة غابة في أميركا.

والآن طرق كورت الباب.

- سأهدي إليه برطماناً من الخيار، قالت ناديجدا إيفانوفنا. أم أن هذه ليست هدية جيدة بالقدر الكافي؟

كورت رجل طيب، دائماً مهذب يكلمها باسمها وباسم والدها، يمكن لإيرينا أن تقول إنها محظوظة، أنها وجدت رجلاً مثله، فكرت ناديجدا إيفانوفنا وهي تلملم شتات نفسها، صحيح أنه أكل من طعام المعسكر، وكان من المعتقلين السابقين، لكنها لاحظت في سلافا أن المعتقلين السابقين كانوا أكثر احتراماً حتى من إدارة المعسكر، هذه الحثالة المخمورة، لكن المثير هو أنه حقق نجاحاً كبيراً وصار بروفيسوراً، يذهب كل يوم إلى برلين حاملاً حقيبة مستندات ويفعل



twitter @baghdad_library

شيئاً ما هناك، لا تعرف ما هو بالضبط، لكنه تابع للدولة وكان يكسب مالاً، اشترى سيارة لإيرا، ولن يصدقها أحد في سلافا لو قالت لهم إن المرأة هي التي تقود السيارة والرجل يسير على قدميه، لكن على أي حال، أين ذهبت إيرا؟

- أين إيرا؟ سألت ناديجدا إيفانوفنا.

- لن تأتي، قال كورت.

-لم لن تأتي؟ لن تذهب إلى عيد ميلاد فيلهلم؟

أشار كورت بإصبعه إلى أعلى. الآن سمعت ناديجدا إيفانوفنا الموسيقى الآتية من غرفة إيرا، كانت تعرفها، تسمعها إيرا في الفترة الأخيرة كثيراً، كانت موسيقى روسية، مغن روسي، يصرخ بكل ما أوتي من قوة، لكن الموسيقى لم تكن هي الشيء الذي أقلق ناديجدا إيفانوفنا.

- هل هي بحال سيئة؟ سألت ناديا إيفانوفنا.

- نعم ليست بحال جيدة، قال كورت.

- بسبب ساشا، سألت ناديا إيفانوفنا.

- بسبب ساشا، قال كورت.

مع ذلك رأت ناديجدا إيفانوفنا أن ذلك ليس سبباً للشرب. هذا لا يليق بامرأة، فأين يوجد شيء مثل هذا، الزوجة تسكر وزوجها لا، لقد شعرت بالخجل من أجلها، كانت تدخن أيضاً، كل هذا لم يكن جيداً، أن تسكر في عيد ميلاد فيلهلم، وكأن ساشا سيعود إذا ما جلست بأعلى وسكرت.

- ضعي ذراعك في ذراعي يا ناديجدا إيفانوفنا وإلا سقطتِ.

وضعت ذراعها في ذراع كورت وهبطت الدرج الموجود أمام البيت درجة درجة. لا بد من إزالة الأعشاب الضارة ما بين بلاطات المدخل، هكذا فكرت وهما في طريقهما إلى باب الحديقة، لكن هذا لم يكن من شأنها.

- المهم أن يكون هو بخير، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

- نعم هذا هو المهم، قال كورت.

سكنت شارلوته وفيلهلم الشارع نفسه، غير بعيد جداً، ولكن بيتهما مع ذلك لم يكن قريباً للأقدام المنهكة. لحسن الحظ أن الأرصفة في ألمانيا معبدة، أمسك كورت ببرطمان الخيار في يده، وسارا بذراعين متشابكين وبخطوات صغيرة. فكرت ناديجدا إيفانوفنا، بأن كورت ربما لم يكن حازماً بالقدر الكافي مع إيرينا. إنها لا تسمع منها أي كلام، تدعي دائماً أنها تعرف ما هو أفضل في كل شيء سواء أكان الخيار أم عجينة البلميني، حيث لا يجوز وضع بيض فيها، أو حاولت أن تقنعها بأن تشرب أقل. عندئذٍ تدمدم وتزمجر كالرعد، وتقول لماذا تتدخلين في حياتي، لسنا هنا وراء الأورال. وإذا كانوا هكذا وراء الأورال، عفواً وراء الأورال، فليس أمامك سوى أن تغلقي بابك وتصمتي. غالباً كان السبب في ذلك هو أنه لم يكن لها أب، وبالطبع دللتها جدتها مارفا: في البداية كانت تقول يا للفضيحة يا للفضيحة، طفل من رجل أسود، كانت تقول دائماً الأسود أو «الغجري»، برغم أنه لم يكن غجرياً، كان تاجراً. كانتا تشتريان منه النفط، كان رجلاً طيباً. بيوتر إغناتيفيتش، لم يكن سكيراً كالقرويين في غريشكين ناغار، كاد يكون سيداً بمعطفه وسلوكه وعربته الكارو التي تجرها ثلاثة خيول، لم يكن هناك في القرية



twitter @baghdad_library

من يملك عربة بثلاثة خيول، وبرغم أنهما وقعا في الخطيئة وأنها طلبت المغفرة من الرب، لكنها كانت تشعر في سرها ببراءتها، لأنها لولا الأم مارفا، لتزوجا أمام الرب والكنيسة، لقد وعد بذلك، كلمة شرف.

- كان يريد أن يتزوجني، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

- من، سأل كورت.

- بيوتر إغناتيفيتش.

- آه، طبعاً.

لكنها شعرت أنه لا يصدقها فعلاً.

- كان سيتزوجني، كررتها، لولا لم تحل مارفا دون ذلك، وبعد ذلك انتقلنا من غريشكين ناغار، لاحقاً عندما كبرت إيرا، إلى سلافا.

- في أي عام كان ذلك؟ سأل كورت.

- عندما أتى السوفيت.

- عندما أتى السوفيات يا ناديجدا إيفانوفنا كنت أنت بالكاد في العاشرة من عمرك.

- لا، لا، صححت له ناديجدا إيفانوفنا، ما زلت أذكر، عندما ذبح ابن الخال البقر، لأنهم قالوا إن من يملك أكثر من ثلاث بقرات سيجرد من ملكيته، ومع ذلك جردوه من ملكيته لأنه ذبح البقرات.

- تقصدين أنهم قتلوه.

- على الأرجح قتلوه، كان ذلك منذ زمن بعيد.

- وحينها ذهبت إلى سلافا.

- إيه نعم، في البداية لم ترغب مارفا في الذهاب إلى سلافا، لأن السوفيات كانوا هناك.

- لكن في غريشكين ناغار كان ثمة سوفيات أيضاً، هذا ما حكيته الآن.

- نعم ولكن في غريشكين ناغار لم يكن ثمة عمل كثير للسوفيات، ستة بيوت، ولم تكن ثمة كنيسة حتى ليهدموها. في سلافا هدموا الكنائس. ثم أدخلوا الكهرباء. وأمي لم تكن تريد أن يكون لديها أي علاقة بذلك، كانت ضد التقدم، أما أنا فلم أكن ضد التقدم. لكن هدمهم للكنائس كان عاراً. لكن ما المانع في الكهرباء؟ وقد قيل إنهم سيبنون مدرسة في المدينة ولذلك ذهبنا إلى المدينة من أجل إيرينا.

- في أي مدينة إذن؟ سأل كورت.

- ماذا تقصد بأي مدينة؟

- قلتِ إنكن انتقلتن إلى المدينة؟

- أجل، أنت تعرف بالطبع أي مدينة، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

- إذن تقصدين سلافا.

- بالطبع سلافا، وهل ثمة غيرها؟

- طبعاً، قال كورت، وهل ثمة غيرها.

انتقلا إلى الجانب الآخر من الطريق. بزغت الشمس بين قمم الأشجار الخفيفة الأوراق، وأدفأت الملابس حتى العظام. استمتعت ناديجدا إيفانوفنا بالمشي بجوار كورت، بذراعين متشابكين، غمرها شعور أقرب إلى الفخر، وكادت تنسى ألم قدميها في أثناء الحديث.



twitter @baghdad_library

ربما تذهب إلى الكنيسة مرة أخرى، إلى الكنيسة الأرثوذكسية، كان يمكن قطع جزء من المسافة بالترام، وتوقد شمعة من أجل ساشا، برغم أنه لم يكن مؤمناً، لكن ربما يساعده ذلك على أن يجد أخيراً سكينته، أو تتبرع ببعض النقود، لو توقف الأمر على ذلك. فالمال متوافر لديها على كل حال.

كان بيت شارلوته وفيلهلم جميلاً. أكسبه البرج الصغير البارز من أحد جوانب السطح شيئاً من طابع الكنيسة، كانت أمها مارفا ستظنه كنيسة، عموماً هي كانت تعتبر أي بيت حجري كنيسة. كان المدخل مساوياً للأرض تقريباً، وهذا الوضع بدا لناديجدا إيفانوفنا فخماً، فيه تحتاج إلى صعود درجة واحدة لتقف أمام باب مزدوج من الخشب المتين، بل عليه نقوش ورأسا سمكتين مذهبتين.

فتح لهما شاب يرتدي بذلة، كانت ناديجدا إيفانوفنا تعرفه، لقد رأته كثيراً لدى شارلوته وفيلهلم. إنسان مرح يضحك كثيراً ويحييها بحيوية وحماسة، يقول لها بابوشكا بابوشكا أي يا جدة يا جدة! وترد هي عليه، ليكن اللّه معك يا بني.

في البداية يدخل المرء إلى الدهليز الصغير، ثم عبر الباب الزجاجي إلى ردهة أوسع فيه حتى ركن لخلع المعاطف له باب يشبه باب البيت بالضبط، من خشب منقوش، الفرق أن فيلهلم طلاه، ولكن بذوق، ليس كإيرا التي طلت أثاثها بالأبيض فبدا وكأنه أثاث مستشفى.

الآن جاءت شارلوته مندفعة، هي أيضاً كانت أكبر سناً من ناديجدا إيفانوفنا، لكنها ما زالت نشيطة وفي صحة جيدة، وتسريحة شعرها تشبه تسريحة فتاة. وبرغم أن الحوار بين كورت وشارلوته دار بالألمانية، فقد فهمت ناديجدا إيفانوفنا أن شارلوته سألت عن إيرينا وساشا،

وقرأت من تعبيرات وجهها أنها لم تكن سعيدة بما قاله لها كورت: تحديداً، وحسبما خمنت ناديجدا إيفانوفنا، أن ساشا ذهب إلى أميركا. على العموم تماسكت شارلوته وقالت إن فيلهلم يجب ألا يعرف شيئاً، وكررت ذلك بالروسية ني سلوفا فيليلمو:

- أتفهمين يا ناديجدا إيفانوفنا، إنه شيء ليس...

وقامت بإشارات باليد يصعب فهمها. ما الذي وقع لفيلهلم؟ هل هو على غير مايرام؟

في الحقيقة لقد أصبح فيلهلم أنحف، منذ أن رأته ناديجدا إيفانوفنا آخر مرة، لقد اختفى تقريباً في مقعده الضخم. كانت نظرته قاتمة وصوته واهناً عندما حياها.

- هذا لك يا بابا، قالت ناديجدا إيفانوفنا وقدمت له برطمان الخيار.

أشرق وجه فيلهلم، ونظر إلى ناديجدا إيفانوفنا وقال ناظراً إلى الخيار:

- غاروخ!

لكن ذلك لم يكن بازلاء.

- إنه خيار، أوضحت ناديجدا إيفانوفنا: أوغورزي!

- غاروخ! قال فيلهلم.

- أوغورزي! قالت ناديجدا إيفانوفنا.

لكن فيلهلم، وكأنه يريد أن يثبت لها أن بداخل البرطمان بازلاء، فتح البرطمان والتقط خيارة. وبرغم أنه كان من الواضح فعلاً أن ما كان يقضمه كان خياراً، إلا أنه قال:



twitter @baghdad_library

- غاروخ!

أومأت ناديجدا إيفانوفنا - هكذا كان حاله إذن. فيلهلم الهَرِم - إنه في الطريق - الآن فهمت هذه القتامة في عينيه، لقد رأتها قبل ذلك لدى المحتضرين.

- فليكن الرب معك، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

ثم بدأت بتحية الضيوف. كانت تعرف كثيرين منهم، تعرف هذا الرجل الصموت ذا العينين الحزينتين بجانب فيلهلم، تعرف أيضاً زوجته الشقراء التي تبدو أطول منه بمقدار رأس - إلا إذا وقفا متجاورين. وتعرف بائعة الخضر من الدكان المجاور للبريد، سيدة لطيفة، اعتادت ناديجدا إيفانوفنا أن تتركها باطمئنان تأخذ من حافظة نقودها ثمن مشترياتها. كما تعرف رجل الشرطة وهذا الجار ذا اليد الرطبة دائماً والذي يقول لا دائماً دا سدرافستفويت أي يعيش! ولكنه لا يقول أبداً ما أو من الذي ينبغي أن يعيش. عموماً كان الجميع ودودين، حتى من لم تعرفهم. لقد وقف الرجال خصوصاً ليصافحوها باليد ويربتوا كتفها، لدرجة أن الأمر صار محرجاً بالنسبة إليها، لكن هذا الرجل اللطيف الذي ارتدى بذلة رمادية فاتحة والذي تحدث معها في العام الماضي بالروسية، كان هو الوحيد الذي نظر إليها وكأنه لا يعرفها، ارتعشت يده وتصلب وجهه وأصبح فجأة يشبه بريجنيف.

جلست في نهاية المائدة الطويلة، سحبوا لها خصوصاً مقعداً صغيراً، غاصت فيه لدرجة أنها لم تكد تصل إلى طرف المائدة، قدُمت لها القهوة مع الكاتو، حمداً للّه أن القهوة لم تكن قوية جداً، وأن الكاتو كان لذيذاً، أكلت منه قطعتين، وضعت الطبق بتوازن على ركبتيها فيما انشغل الضيوف الآخرون بمحادثاتهم. تحدث الألمان

كثيراً، لم يكن هذا بجديد، فكلهم كانوا متعلمين، ولديهم الكثير ليحكوه، أما بالنسبة إلى ناديجدا إيفانوفنا فلم يكن ذلك سوى سيل عارم من أصوات الحنجرة الخشنة. بالطبع كانت تريد تعلم الألمانية، عندما جاءت إلى ألمانيا، كانت تجلس يومياً وتتعلم الحروف الألمانية، لكن بعدما تعلمت كل الحروف عن ظهر قلب، كل الأبجدية الألمانية، اكتشفت اكتشافاً مذهلاً: وهي أنها بالرغم من ذلك ما زالت لا تستطيع التحدث بالألمانية - عندئذ توقفت عن تعلمها، فالأمر بالنسبة إليها كان بلا جدوى، لغة صعبة وملأى بالغموض، الكلمات تحك في الحلق مثل الخبز الجاف، (Chuttentak) للتحية و(Affidersin)[1] للوداع أو العكس، يا له من جهد كي تحيي شخصاً ما.

قدم الرجل ذو العينين الحزينتين كوباً معدنياً صغيراً أخضر إلى ناديجدا إيفانوفنا ورفع كأسه.

- ناديجدا إيفانوفنا، قال الرجل.

- دا سدرافستفويت! قال ذو اليد الرطبة ورفع أيضاً كأسه إلى أعلى.

- نو، ساتشيم؟ أي لأجل ماذا أشرب؟ قالت ناديجدا إيفانوفنا.

في الحقيقة لم تكن ترغب في الشرب، لكن فجأة قرع الجميع أنخابهم معها وطلبوا منها أن تشرب، لا يهم، فكرت ناديجدا إيفانوفنا، يمكن أن تسمح لنفسها بكأس واحدة في عيد ميلاد فيلهلم، شربت الكأس دفعة واحدة، ثم خطر لها أنهم في ألمانيا لا يفعلون ذلك، في ألمانيا يرشفون رشفات صغيرة من الكؤوس، شعرت بالحرج لأنها

(١) Auf Wiedersehen أي إلى اللقاء، و Guten Tag أي نهارك سعيد، تنطقهما ناديجدا إيفانوفنا بلكنتها الروسية وتخلط بين معناهما. (المترجم)



twitter @baghdad_library

أخطأت التصرف، فضلاً عن أن طعم المشروب فظيع، لم تعد معتادة الشرب، وأحست بصعود الكحول إلى رأسها، وبعد فترة تراءى لها وكأن الناس يتحدثون أسرع وأسرع، الأصوات الألمانية الخشنة خشخشت في أذنيها، وكادت تشعر بشيء من الدوار من فرط رغبتها في الإدلاء بشيء، لكن لم يحدث الكثير منذ العام الماضي، الشيء الوحيد الذي خطر لها هو أن ساشا في أميركا.

ساشا فه أميركا! قالتها للرجل ذي العينين الحزينتين.

ناديجدا إيفانوفنا، قال الرجل.

وأمسك بزجاجة البراندي لكي يصب لها كأساً أخرى، لكن ناديجدا إيفانوفنا رفضت بحزم. كانت مخمورة تماماً من كأس واحدة بحيث سمعت وسط الأصوات الألمانية كلمات روسية، وبتحديد أكثر اسماً روسياً غورباتشوف. لقد عرفته في وقت ما من التلفزيون أم أنها تخيلت ذلك فقط، الرجل ذو الوحمة على الجبهة، ثمة شخص بهذا الوصف، ولكن لماذا كان يظهر دائماً في التلفزيون الأميركي، لم يتضح لها الأمر، ألم يكن رجلاً من بلادنا - أم ماذا؟

الآن جاءت ميليتا، زوجة ساشا القديمة، تعرفت إليها ناديجدا إيفانوفنا على الفور، برغم أنها كانت مفرطة في زينتها وكأنها من طبقة البويار[1] الروس. منذ طلاقها من ساشا صارت ناديجدا إيفانوفنا أقل لطفاً معها، عليها أن تعترف بذلك، كان شيئاً تعيساً جداً، أن يفقد الولد كثيراً من وزنه. ومن ساعتها أيضاً صار من النادر أيضاً أن يأتي ماركوس ابن حفيدها لزيارتهما. عندما كان صغيراً كان يجلس في حجرها مثل

(١) حاشية الأمراء في روسيا القيصرية. (المترجم)

ساشا في الماضي وكانت تغني له أغنية العنزة، لكنه لم يفهم الروسية، فهي لم تعلمه إياها. ظل فترة طويلة يأتي من حين إلى آخر إلى حجرتها ليأخذ قطعة من الشوكولاتة المحشوة، لكن لم يكن مسموحاً لها أن تعطيه، كانت تلك تعليمات ميليتا وكأن في الشوكولاتة سماً، ثم انقطع تماماً. لم تعد حتى تتذكر متى رأت ماركوس آخر مرة، لقد كبر وصار طويلاً لكنه كان نحيفاً كعصا المقشة وشاحباً مثل يسوع على الصليب، لا عجب في ذلك - مادام لم يذق قط طعم الحلوى.

رأت ماركوس وهو يقدم لجده الأكبر هدية، تبادلوا بعض الكلمات، ثم بدأ الصبي يحيي الجالسين إلى المائدة، وبينهما كان يقترب شيئاً فشيئاً، جمعت ناديجدا إيفانوفنا قواها اللغوية لكي تتمكن أقله من تحية ابن حفيدها بالألمانية، وكي تتأكد رددت الكلمة عدة مرات مع نفسها، حتى جاء ومدّ لها يده بأدب، كانت ناعمة وهشة، وضغطة يده كانت ضعيفة، لكن وجهه لطيف، جبهته عالية وخصلاته الدكناء ذكرت ناديجدا إيفانوفنا بوضوح بساشا:

- Affidersin، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

نظر ابن حفيدها إليها مندهشاً ثم نظر إلى أمه وضحك.

- Auf wiedershen، قال ماركوس.

ثم سرعان ما ذهب. سحب بحذر ولكن بحسم يده الناعمة من يدها واختفى.

تأملت ناديجدا إيفانوفنا يدها وتراءى لها وكأنها قد آلمته، بهذه اليد الغليظة المنهكة من قلع البطاطس ومن العمل في ورشة نشر الخشب، تأملت الشرايين المثيرة للفزع البارزة على ظهر يدها والبشرة الذابلة التي تغطي براجم أصابعها وأظفارها التي عرفت جروحاً صغيرة وكبيرة



twitter @baghdad_library

والندوب والمسام والتجاعيد ومئات الخطوط التي شققت كفها. لقد فهمت نوعاً ما أنه لم يرد أن يمسه شيء كهذا.

ثم صمتت الأصوات الألمانية الخشنة، ورفعت ناديجدا إيفانوفنا رأسها فرأت ظهور رجل يمسك بملف أحمر، وعرفت على الفور أنه مانح الوسام، ففيلهلم يحصل كل عام تقريباً على وسام من الدولة ومعه ورقة يُكتب عليها سبب حصوله على الوسام، والآن قرأ الرجل من الملف الأحمر الذي أمسك به مفتوحاً. واستمعت ناديجدا إيفانوفنا في خشوع، برغم أنها لم تفهم التفاصيل، كل ما فهمته أن الأمر يتعلق بأمور مهمة استندت إلى ظهر مقعدها وجالت نظرتها بين النوافذ، في أثناء ما كان المتحدث يروي قصة حياة فيلهلم، حل الغروب، ولم يكن ثمة ضوء إلا عند براعم الأشجار، تراقصت قمم الأشجار بعضها مع بعض من دون صوت، وظنت ناديجدا إيفانوفنا أنها تستشعر أنفاس المساء، البرودة في الوجه، فبعد أن يكون المرء قد أطفأ الجمرات ومضى بخطوات متثاقلة من حقل البطاطا الذي غرق في الظلام إلى البيت... بعدها بقليل، بعد انتهاء موسم القلع كان يأتي عيد ميلاد نينا في منتصف تشرين الأول/أكتوبر، وأحياناً يكون الثلج قد سقط، لكن الطقس لم يكن بارداً جداً والأجواء جيدة. كان الجميع يخزنون محصولهم من البطاطا، لقد كان الوقت المناسب للاحتفال، في أثناء النهار يصنعون البلميني معاً، ثم يغنون ويرقصون ويغنون ثانية عندما يكون الجميع قد شربوا كأساً صغيرة، يغنون الأغاني الحزينة فيبكون جميعاً ويتعانقون، ثم يعاودون الرقص، هكذا كانت الحياة في سلافا، فكرت ناديجدا إيفانوفنا، وكادت تنسى التصفيق عندما انتهت الكلمة وعلق مانح الوسام الوسام لفيلهلم.

ثم خشخشت الأصوات الألمانية مجدداً، خشخشت وخشخشت

خارج أذنيها، فلم تعد تزعجها، لقد فعل البراندي مفعوله، شعرت بدفء في الجسم وخفة في الروح، كانت بأفكارها في سلافا. وبأفكارها كانت تسير بطول طريق الغابة وترى كل شيء بوضوح شديد: ترى حمرة عروق الحديد التي تصبغ حصى الطريق المستقيم، والتي إذا ما نظر المرء إلى آخر الطريق يراها تصب على البعد في الاصفرار الواضح لأيكة البتولا. حفر الطريق الذي كانت الخنازير تتمرغ فيه، بئر الماء والأرصفة الخشبية، الأسوار الخشبية بطول شخص بالغ كانت تخفي وراءها بيوتاً من الخشب من طبقة واحدة، وأحد هذه البيوت كان في يوم من الأيام بيتها. نعم كان ذلك قبل وقت طويل جداً، تذكرت عندما كانت يدها لا تزال صغيرة وناعمة، مثل يد حفيدها ماركوس، وقرأت لها عرافة مستقبلها من هذه اليد الناعمة التي يصعب قراءة خطوطها وتنبأت لها بالرخاء والسعادة - وهذا ما كان فعلاً. كان لها بيت ملك ومزرعة صغيرة، بل كان عندها في النهاية بقرة، لونها مزيج بين البني والأبيض وأسمتها مارفا تكريماً لأمها التي لم تعش لترى ذلك.

نعم كان كل شيء سهلاً. لو استطاعت ستسافر إلى سلافا لحضور عيد ميلاد نينا، فلديها تأشيرة. ستجلس مع نينا في المطبخ وسيأكلان اللبن الرائب، وسيصنعان بيلميني معاً، ويحتفلان مع من تبقى هناك على قيد الحياة. ثم بعدها يموتان بكل بساطة، إنها تريد أن تُدفن هناك، وهل ثمة شيء غير ذلك، فكرت فيما خشخشت الأصوات الألمانية في أذنيها، أن من حظها أنه خطر لها الآن، هنا في عيد ميلاد فيلهلم، - لكنها لن تقول لأحد، فهي ليست بهذه الغباوة - أن تقوم بتغيير المال الذي تحتفظ به في الوسادة إلى روبلات.

نو دافاي، أي هيا! قالتها للرجل ذي العينين الحزينتين ومدت له الكأس المعدنية الخضراء.



twitter @baghdad_library

صب الرجل ذو العينين الحزينتين لناديجدا إيفانوفنا وضحك.

- ناديجدا إيفانوفنا، قال الرجل.

- دا سدرافستفويت! صاح ذو اليد الرطبة.

- فليكن الرب معكم قالتها ناديجدا إيفانوفنا وأفرغت كأسها برشفة واحدة.

# ١٩٦٦

قبل عشر سنوات وفي الشهر ذاته بالضبط أتوا من روسيا. كانت السماء الحليبية نفسها عالقة فوق الحقول، وفسائل منتشرة هنا وهناك، أينما ذهب المرء ببصره، وبراعم نامية، لكن من على البعد كانت الطبيعة تبدو شاحبة كما هي اليوم، المناطق خالية من البشر، لقد تذكر كورت كيف كان يحدق من نافذة الحافلة الصغيرة إلى ما هو في الخارج: ما يقال إنه وطنه.

قاما بتركيب سنين ذهبيتين بآخر ما تبقى لهما من مال، سن من القواطع لكل منهما، لكي يظهرا بمظهر محترم في ألمانيا. حشرا ملابسهما الجيدة في حقيبة إضافية صغيرة، لكي يرتدياها قبل وصولهما من رحلة القطار التي استغرقت عدة أيام. لكن عندما نزل كورت من القطار ورأى شارلوته وفيلهلم على رصيف المحطة، شعر برثاثة ثيابه بسترته المرقعة بعناية وبنطاله الواسع، الذي لا يزال يعتبره مناسباً جداً. طلب فيلهلم حافلة صغيرة، توقعا منه على ما يبدو أن لديهما كمية كبيرة من الحقائب، لكنهما عندما قاما بتصنيف أشيائهما في سلافا، بدا لهما أنه لا يوجد شيء تقريباً يصلح لحياتهما في ألمانيا، وتقلصت ممتلكاتهما إلى حقيبتي يد صغيرتين وحقيبة ظهر - وفي نهاية الأمر



twitter @baghdad_library

جاء كورت من الاتحاد السوفياتي بأشياء أقل من الأشياء التي ذهب بها قبل عشرين عاماً عندما كان في الخامسة عشرة من عمره.

كان في الخامسة والثلاثين من عمره عندما عاد، وبرغم أنه حصل - على سبيل التعويض - فوراً على وظيفة في أكاديمية العلوم (أي في الأكاديمية «الحقيقية»، كما يحب كورت أن يؤكد دائماً، ليفرق بوضوح بينها وبين أكاديمية نويندورف)، لم تكن البداية سهلة على الإطلاق. على الأغلب كان هو أكبر طلاب الدكتوراه سناً في المعهد. ولغته الألمانية كانت مصبوغة بلكنة بعد قضائه عشرين عاماً في روسيا. لم يكن يعرف ما هو المسموح ومتى يجوز للمرء أن يضحك. لقد أتى من عالم يُحيا فيه المرء صباحاً بسباب أمه، لم يكن لديه حس بكيفية التعامل مع أصحاب المراكز العليا، ناهيك بالتشابك الدقيق للتحالفات والعداءات في المؤسسة العلمية الاشتراكية. لعام كامل اعتقد رئيس له - أظهر تعاطفاً تاماً معه - أن عليه أن يشغله بترجمة نصوص عن الروسية. وبعد ثلاث سنوات سافر إلى موسكو مترجماً فورياً لرئيسه في الدرجة الأولى.

ذهب الآن إلى موسكو مرةً أخرى. وبرغم أن المدينة لم تبد له قط على هذه الدرجة من القذارة، والخشونة والإرهاق، كما هي الحال في هذه الزيارة - الطرق الطويلة والسّكارى و«الموظفون» مدعو الأهمية الحاضرون في كل مكان بوجوههم الغليظة، بل حتى المترو الشهير الذي كان دائماً فخوراً به بعض الشيء لأنه تطوع كشاب بالمشاركة في بنائه في أيام السبت، شعر بالانزعاج من كل شيء فيه: الزحام والضجيج والأبواب الأوتوماتيكية التي تغلق بسرعة كالمقصلة (ولماذا يوجد المترو هذا على عمق مئة متر تحت الأرض، وما أدهشه أكثر، لماذا لم يطرح هذا التساؤل آنذاك). سقطت الكاميرا من يده

في الميدان الأحمر، وفي مقابر نوفوديفيتشي، التي زارها لإحساسه بالواجب، لأنه كان قد زارها مع إيرينا مرة لكي ينحني أمام قبر تشيخوف وماياكوفسكي، هطلت عليه أمطار باردة، أمطار نيسان/أبريل التي لا يوجد مثيل لها إلا في موسكو والكفيلة بأن تقتل إنساناً - وبرغم أن كل شيء كان منغصاً ومثيراً للقرف، لم يستطع أن ينكر الشعور بالرضا للاحترام الذي أبدوه له فجأة في هذا البلد بعد عشر سنوات: المعتقل السابق و«المنفي مدى الحياة».

في المرة الماضية كان عليه أن يقتسم غرفة الفندق مع زميل روماني. أما في هذه المرة فأحضروه من المطار وحصل بمفرده على غرفة مزدوجة في فندق بكين، برغم أنها ويا للغباوة من دون حمّام (شيء نمطي في فنادق العهد الستاليني الفخمة). وأعرب الأستاذ يوروزاليمسكي الشهير عن تحمسه لكتابه الجديد وقدمه باستمرار بوصفه خبيراً في مجاله بل قام معه شخصياً في النهاية بجولة في المدينة وشعر كورت بفرحة شيطانية بعدم إظهاره أنه يعرف جيداً كل هذه الأماكن: شارع مانييشنايا وفندق متروبول، ياه، وماذا أيضاً مقر المخابرات لوبيانكا...

ربما كان ينبغي له فقط أن يتخلى عن هذه المغامرة الغرامية مع طالبة الدكتوراه، هكذا فكر كورت في أثناء ما كانت السيارة الـ «ترابانت» تقطع طريقاً متعرجاً عبر منطقة لا يعرفها مصدرة خرخرة ملحونة (لأن كورت كان عادة يركب القطار، لم يكن في استطاعته التمييز بين المناطق الواقعة على تفريعات الطرق جنوبي برلين). كان ذلك شيئاً غبياً، مثل هذه المغامرات في أوساط الزملاء. بالإضافة إلى أن السيدة لم تكن ذات جاذبية خاصة، بل بالمقارنة بإيرينا - غير جذّابة لدرجة مخجلة، لكن مع هذه النظرة المعينة وبغمزة العين المثيرة،



twitter @baghdad_library

قُضي الأمر، لم يكن ثمة مجال للفكاك. تساءل كورت مراراً، إن كان ضعفه أمام النساء - وهو التفسير الذي يميل إليه كماركسي - أقرب إلى أن يكون نتاجاً للظروف الاجتماعية (تحديداً لكونه قضى جزءاً كبيراً من حياته في معسكر الاعتقال) أم أنه كان موروثاً فعلاً من والده الذي وصفته شارلوته بأنه زير نساء لا يرحم.

- احكِ لي إذن، كيف كانت رحلتك؟ سألته إيرينا.

- متعبة، قال كورت.

وكان هذا مطابقاً للحقيقة.

وكان مطابقاً للحقيقة أيضاً أنه كان يومياً في الأرشيف، وأنه كان عليه أن يلقي محاضرة لم يخطّط لها في خلال المؤتمر. وأن دار النشر دفعت له دفعة مقدّمة، وأن هيئة تحرير المجلة طلبت إليه كتابة مقال وأن يوروزاليمسكي دعاه إلى الطعام وقام معه بجولة في المدينة - كل هذا كان مطابقاً للحقيقة - وبدا يتضح له نفسه في أثناء الحكي أنه لم يكن أمامه فعلياً وقت لمغامرته العاطفية في خضم كل هذه الأشياء.

كما أن ما قاله عن اشتياقه إليها كان مطابقاً للحقيقة، وأنه كان وحيداً وسط جميع هؤلاء الناس اللطفاء، الذين لم يعرف منهم أحداً معرفة جيدة، لدرجة أنه كاد يجرؤ ويتطرق من بعيد إلى أسئلة كانت تقلقه، على سبيل المثال إلى أي مدى يرى زملاؤه أن الاتحاد السوفياتي مهدد بالعودة إلى الستالينية، بعد أن ترك نيكيتا خروتشوف، السياسي الأخرق والإصلاحي اللطيف في الوقت ذاته رئاسة الحزب (علماً أن من دونه لظل كورت «منفياً مدى الحياة» وراء جبال الأورال).

- وكنت في مقابر نوفوديتشي.

وردّت إيرينا بلكنتها الروسية:

- هل تشعل لي «زيغارييته»؟

قال كورت متهكّماً باللكنة نفسها:

- سأشعل لك «زيغارييته».

أشعل سيجارتين، واحدة له والأخرى لإيرينا. استنشق الدخان وشعر فعلاً بالإرهاق الذي شكا منه في موسكو المجهدة. شعر بالصقيع. تأمل زوجته الجذابة لدرجة مخجلة وفكر وقد شعر ببعض الإثارة، في ما ينتظره في هذه الليلة.

فضل ساشا البقاء في البيت. في الماضي لم يكن يفوت فرصة للذهاب إلى المطار، لكن المرحلة التي كان يرغب فيه أن يصبح مصمّم طائرات قد ولت. بدلاً من ذلك يقوم الآن بتسجيل موسيقى حديثة من إذاعة (RIAS)[١] على المسجل، ويقضي الوقت حتى المغرب مع أصدقاء مريبين من بينهم فتاة نضجت مبكراً من صف مواز له وتنتمي إلى أسرة شبه منعزلة اجتماعياً، في الثانية عشرة من عمرها ولديها نهدان جذّابان تحت البلوفر الأزرق البالي.

كذلك كان ساشا متحفّظاً إزاء الهدية الصغيرة التي أحضرها له كورت من موسكو - لقد كان كتاب يوري غاغارين بالروسية «طريقي إلى الفضاء».

- شكراً جزيلاً، قالها برتابة، من دون أن ينظر إلى الكتاب.

(١) إذاعة أنشأها الجيش الأميركي في القطاع الذي كان واقعاً تحت سيطرته في غرب برلين. (المترجم)



twitter @baghdad_library

قرر كورت أن يهتم بابنه أكثر، فلغته الروسية صارت أكثر تعثراً. كما أن أداءه في المدرسة لم يعد مرضياً إطلاقاً. باختصار لقد حصل على درجة مقبول، مقبول! لا يذكر كورت أنه حصل على درجة مقبول أبداً. فحسب رأي كورت، مثل هذه الدرجة تدخل في نطاق قلة الأدب.

لقد بحث عن هدية لإيرينا في موسكو. ماذا يمكنه أن يحضر لها؟ كانت لديها حساسية ضد أي نوع من الفولكلور الروسي، وبخلاف ذلك، تيقن كورت أنه لا يوجد في بلاد ثورة أكتوبر الاشتراكية سوى أشياء عديمة القيمة، وهكذا اشترى لها في آخر لحظة زجاجة من الشّمبانيا السوفياتية، أخرجها لها بعد أن ذهب ساشا للنوم، مقدّماً اعتذارات مستفيضة. ثم استحم بماء ساخن، وفتحت إيرينا زجاجة الشّمبانيا، وبعد أن ثملا قليلاً كشفت له عن المفاجأة: غرفة النوم صارت جاهزة. لقد أدرك ذلك ولكنه اندهش - مرةً أخرى - شعر بالذنب إزاء إيرينا. كان أمراً غامضاً: ظل خمس سنوات كاملة مقتنعاً بأن إيرينا تبالغ في إصلاحاتها في المنزل. ظل خمس سنوات يحاول قصر الإصلاحات على ما هو ضروري. وبصراحة كان يفضّل ببساطة لو طُلي البيت بشكل جيد وكفى. أجل قد كان متعجلاً! فالوقت كان ينسل من حياته التي بدأها متأخراً. كان يصاب ليلاً بنوبات فزع. كان يشعر بالخوف من هدم إيرينا لبعض الجدران وعندما يرى المواسير وأسلاك الكهرباء المتدلية، وكل هذه الأشياء التي يجب أن تعود ثانية إلى ثنايا الجدران. كان يحدث أيضاً أن يترك البيت غاضباً وصافقاً الباب وراءه، كلما عرف أن إيرينا قد أنفقت مبالغ ضخمة، لأنها كانت تريد بأي حال من الأحوال هذا الباب أو هذا النوع من الخشب أو هذا اللون الأحمر. لكن كان عليه أن يقر في النهاية أن إيرينا كانت على حق، برغم أنها وهذا هو الشيء الغامض، كانت دائماً على غير حق فيما يتعلق بالتفاصيل.

كانت غرفة نوم رائعة. عموماً بسيطة جداً. لم يكن فيها سوى السرير، سرير بسيط، مزدوج وغير مقسوم، لا يمكن شراء مثله في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، إضافة إلى الخزانة القديمة، التي ضحك عليها كورت في البداية. والسجّادة كانت بيضاء والجدران أيضاً، ما عدا الجدار عند رأس السرير كان ذا لون أحمر ناري. وعُلقت على هذا الجدار مرآة بيضوية عريضة وضخمة ذات إطار ذهبي مزخرف يحيطها من الجانبين مصباحان، ولا يدع ميلانها الزائد عن الحد مجالاً للشك في الغرض منها.

- ترى ماذا دار في ذهن العمال عندما ركبوا المرآة؟ همهم كورت.

- لقد فكروا في ما هو صحيح، قالت إيرينا وسحبت يد كورت أسفل تنورتها، حيث تحسس بين لباسها الداخلي والكولون قطعة من البشرة العارية المنتفخة الناعمة والمترهلة قليلاً.

- هذا شيء مجنون، قال كورت بعدما رقدا معاً الواحد جنب الآخر. فمع أثر الشّمبانيا وعندما كان أحدهما فوق الآخر أو كلاهما داخل الآخر شعر للحظات وكأنه أصبح اثنين - ليس مجازياً فقط وإنما فعلياً. للحظات، هكذا أوضح لإيرينا، تراءى له أن له أكثر من يدين وأكثر من ساقين وأكثر من «خُوي» هذه الكلمة غير المهذبة يقولانها بالروسية.

وإيرينا وهي مازالت في خضم نشوتها لفت جسمه بساقيها وهمست له:

- أعتقد أنه ينبغي لي أن أدعو صديقتي فيرا...

في الصباح التالي استيقظ كورت في الثامنة. كان يوم الأحد وقد تعود بمرور السنين - ووفقاً لنظامه الصارم - ألا يعمل يوم الأحد، بل تعلم أن يسعد بيوم الأحد الخالي من العمل.



twitter @baghdad_library

دخل المطبخ مرتدياً البيجامة وبرنس الحمّام وتلا وهو واقف بحماسة شديدة الرباعية التي اعتاد أن يؤلفها كل أحد لكي يبهج أسرته. ورباعية اليوم كانت كالآتي:

جئت من موسكو متقافزاً
بقوة مضاعفة متحفزاً
بمرح وسرور حتى قبل الفطور
وأريد أن أصيبكم بالحبور.

قلب ساشا وجهه، فيما ابتسمت إيرينا في سكون وهي تصب لكورت شاي البابونج. كانت تصر على أن يشرب فنجاناً من البابونج قبل القهوة بسبب معدته، وكورت كان يقبل ذلك من أجلها.

في أثناء الإفطار فاتحته إيرينا بأن عليها أن تخرج اليوم مرة أخرى: لأن الممثل اليوغسلافي غيوكوفيتش، الذي يؤدي الدور الرئيس في أفلام الهنود الحمر التي تنتجها استوديوهات ديفا، سيأتي.

ازدرد كورت طعامه وخشخش فتات الخبز الأبيض في حلقه. منذ أن بدأت إيرينا بالعمل - لا يعرف ماذا تعمل بالضبط - في استوديوهات ديفا، حدث مراراً أن أحبطته بهذه الطريقة. غالباً كانت وظيفة لنصف يوم، لكن في الواقع كثيراً ما كانت تعمل حتى الليل، وفي نهاية المطاف كانت تنفق أموالاً أكثر مما تكسب، هكذا فكر كورت. لكنه لم يقل شيئاً. أخذ رشفة من القهوة لتذيب فتات الخبز في حلقه. بالطبع كان لإيرينا الحق في العمل. بالرغم من أنه كان عملاً غريباً، أن تجلس مع بعض الممثلين في نزل الضيوف الخاص بديفا وتشرب معهم الفودكا، أو أن تخرج مع هذا الهندي الأحمر في جولات

هنا وهناك. لقد رأى كورت صورته: رجل مفتول العضلات. يلتقطون له الصور بصدر عار، شيء غير معقول.

- الطعام على الموقد، قالت إيرينا، سأعود في الرابعة.

بعد أن انطلقت إيرينا ذهب كورت وهو لا يزال مرتدياً البيجامة وبرنس الحمّام إلى غرفته. فتح المدفأة، وجلس عليها، وتأمل وهو يستشعر ازدياد الحرارة على مؤخرته (نعم، أيضاً تدفئة الغاز كانت فكرة جيدة) المكتبة السويدية المستوردة التي حصلت عليها إيرينا عبر عمليات غامضة (عسى ألا تكون إجرامية). ظل خمس سنوات ينقل صناديق كتبه من حجرة إلى أخرى. والآن صارت موجودة في الرفوف بترتيب كامل، منظر كان يُشعر كورت في كل مرة بالرضا مجدداً. فجأة لم يعد واضحاً لكورت لماذا وضع كتاب تعليم اللاتينية «كريخاتزكي» الصغير المهلهل الذي ظل معه طوال سنوات معسكر الاعتقال العشر، ضمن مؤلفاته. سحب الكتاب من الرف ولم يعرف أين يضعه (ليس قاموساً أو موسوعة، ولا يمكن تصنيفه وفق فترة زمنية معينة) - أعاده إلى مكانه.

ثم أخرج المحاضرات والمجلات الخاصة بزملائه من موسكو، والأوراق التي عليها أرقام هواتفهم والعناوين، وهذه الأشياء المعتادة التي يجلبها المرء معه من رحلة ما. معظمها كان لا قيمة له، بعد أن يدون معظم الأرقام في دفتر الهاتف الخاص به، لن يتصل أبداً. ستبقى معظم نصوص المحاضرات في غرفته على سبيل التقدير حتى يرميها بعد مرور فترة ما. وضع كورت النسخ التي حصل عليها من الأرشيف جانباً - وألقى ببقية الأوراق في سلة المهملات. ثم أخرج الأوراق التي توجد بها أرقام الهواتف وبدأ يصنفها. أمسك فجأة برقم من دون اسم واحتاج فقط إلى ثوانٍ لكي يدرك من هو الشخص صاحب الرقم...



twitter @baghdad_library

وراودته للحظة رغبة في الاحتفاظ به، انتقاماً من غيوكوفيتش - ثم فكر في الليلة الماضية وفي المرآة الذهبية وفي ازدواجه الرائع والوعد الذي همست له به إيرينا في أذنه، والذي ارتبط على الفور بالصورة التي بزغت أمام عينيه - في هذه اللحظة التي دق الباب فيها.

وضع الورقة بسرعة في جيب برنس الحمّام وتوجه إلى باب البيت، ما زالت الصورة أمام عينيه، كانت صورة من الصيف الماضي في خلال الإجازة على البحر الأسود حيث كانوا مع فيرا، بالمناسبة كان ذلك مصادفة، لأنهم قابلوا فيرا بشكل مفاجئ في صالة الترانزيت. كان كورت يعرفها بشكل عابر، كانت زميلة لإيرينا في أثناء عملها في أرشيف أكاديمية نويندورف، وتبين أنها ضمن مجموعتهم السياحية، كما تبين أيضاً أنها كانت مطلقة حديثاً ولذلك جاءت بمفردها إلى نيسبار - وتلك الصورة التي شغلت ذهن كورت في خلال خطواته العشر أو الاثنتي عشرة أو الأربع عشرة التي قطعها من مكتبه إلى الباب، التقطت على الشاطئ في نيسبار. كلهم كانوا للمرة الأولى على شاطئ بحر جنوبي وثلاثتهم فوجئوا عند نزولهم إلى الشاطئ من سخونة الرمال في نيسبار، بدأ كورت يتقافز بقدميه وفعلت المرأتان الشيء نفسه، ثم تقافز ثلاثتهم في رقصة بلهاء. وأما الذي رقص معهم في هذه الرقصة فكانت أشياء فيرا التي برزت للعيان بشكل عجيب بسبب حزام المايوه الذي أخذ ينفك، فكورت لم يكن يعرف كلمة أخرى لهما، كانا حقاً أشياء ثقيلة بيضاء تتخللها عروق زرقاء، ظلا يتراقصان أمام أنف كورت وهو يفتح باب البيت وينظر إلى وجه مدور بابتسامة معوجة تعرف فيه بعد أجزاء من الثانية على أمين عام حزبه غونتر هابيزات.

- هلا! قال كورت.

- معذرة، قال غونتر وأخذ يرفع ساقاً وينزل أخرى وكأنه يريد البول.

لكن غونتر لم يكن محصوراً. وقف لبعض الوقت في منتصف حجرة كورت وظل يبدل ساقيه أيضاً، وأعرب عن إعجابه بالبيت وبالحجرة وبالمكتبة السويدية المستوردة، ورفض شرب القهوة، لكنه طلب كوباً من الماء وجلس في مقعد بيضوي باهت كان في السابق في بيت شارلوته، واستوعب جسم غونتر الضخم مثل حوض الاستحمام. كان كورت يحتقر في سره البدناء. وغونتر كان بشكل عام شخصاً لطيفاً ومتعاوناً وغير متآمر، لكنه أقرب ما يكون إلى الضعف، شخص سهل القياد، هذا على كل حال ما استخلصه كورت من تولي غونتر منصب أمين عام الحزب، بالرغم من عدم رغبته في ذلك (أو أقله تظاهر بعدم رغبته). لقد عرضوا المنصب على كورت وبالطبع رفض.

بعد أن ترك كوب الماء يختفي في جسمه الكبير - غالباً من دون أن يبلع، جال غونتر ببصره في الحجرة وكأنه قد غفل عن رؤية شخص ما، وبدأ بصوت خفيض ورأس متمايل وعينين حائرتين يتحدث عن سبب حضوره. المسألة بسيطة وسخيفة أيضاً. لقد قام باول روده وهو أحد الباحثين المستهترين وغير المنضبطين بمجموعة العمل التي يرأسها كورت بمراجعة كتاب لزميل من غرب ألمانيا في «المجلة التاريخية» يسلط فيه الضوء بشكل نقدي على ما يسمّى سياسة جبهة الوحدة الخاصة بالحزب الشيوعي الألماني[١] في نهاية العشرينيات (التي كانت في الواقع وكما هو واضح للجميع سياسة انقسامية حطت من قدر الاشتراكية الديمقراطية، ودعمت زيادة قوة الفاشية على أسوأ نحو)، ثم

(١) السياسة التي أدت عملياً إلى إقصاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي بوصفه حزباً إصلاحياً وليس ثورياً من الجبهة التي تضم الأحزاب اليسارية الثورية في ألمانيا في العشرينيات. (المترجم)



twitter @baghdad_library

قام روده بإرسال مراجعته إلى الزميل الألماني الغربي شخصياً، مرفقة بملحوظة يعتذر فيها عن أنها سلبية إلى هذه الدرجة. فمعظم أعضاء المجموعة البحثية يجدون الكتاب ذكياً ومثيراً للاهتمام، لكن الوضع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ما زال ويا للأسف غير مهيأ تماماً لمناقشة موضوع سياسة جبهة الوحدة مناقشة صريحة...

بالطبع كان من الغباوة كتابة شيء كهذا لزميل من غرب ألمانيا... لكن ثمة شيئاً ما لم يفهمه كورت. استمع بعدم ارتياح إلى غونتر وهو يروي تطور المسألة التي تتلخص باختصار في أن القسم العلمي للجنة المركزية لحزب الوحدة الاشتراكي الألماني قد طالب بإنزال عقوبة قاسية بالرفيق روده، وينتظر إقرارها غداً في اجتماع الحزب، وبهذه المناسبة - أنت تعرف كيف تسير الأمور - يُتوقع من زملاء روده وخصوصاً من زملائه في المجموعة البحثية وعلى الخصوص من كورت كرئيس لمجموعة العمل، اتخاذ موقف «تلقائي» ولهذا أراد غونتر أن يُعلم كورت مسبقاً، أن يبقى هذا الأمر بينهما كما هو مفهوم...

- عفواً، وكيف عرفت بمضمون الرسالة؟

- من اللجنة المركزية!

- ومن أين عرفت اللجنة المركزية؟

أظهر غونتر دهشته ورفع ذراعيه السمينتين وقال:

- هكذا.

بعد أن غادر غونتر ارتدى كورت ملابس العمل وذهب إلى الحديقة. كان الجو جيداً ولا بد للمرء أن يستفيد من الجو الجيد. أخرج مقشة العشب، لكن لم تكن ثمة أوراق شجر كثيرة، لذا فكر في تقليم بعض

النباتات، لكنه لم يكن واثقاً إن كانت البراعم قد خرجت، ما يجعل عملية التقليم متأخرة. وبرغم أنه قد تخلى عن فكرة التقليم، ظل لبعض الوقت يبحث عن مقص الحديقة، لكنه لم يعثر عليه. بدلاً من ذلك وجد بعض بصيلات الزنبق وقرر أن يزرعها. ظل وقتاً طويلاً يدور في الحديقة ويبحث عن مكان مناسب، لكنه لم يستطع أن يقرر. لكن معدته سجلت حضورها: صوت غمغمة قرر كورت أن يعتبره جوعاً. أعاد بصيلات الزنبق إلى المخزن ثانية.

عندما دخل البيت، خرجت موسيقى عالية من حجرة ساشا: موسيقى البيت التي صار يسمعها أخيراً. طرق كورت بابه، خفض ساشا الموسيقى قليلاً. كان جالساً إلى المكتب وجهاز التسجيل موضوع أمامه مباشرة وكتاب المدرسة مسند إليه. كان ساشا بصدد كتابة شيء في كراس المدرسة.

- لا يمكنك إنجاز واجبات المدرسة مع هذا الضجيج، قال كورت.

- إنها فقط مادة الأحياء، أخبره ساشا وهو يلعب بصليب فضي صغير في سلسلة صغيرة معلقة في رقبته.

- هل أنت مسيحي إذن؟ سأل كورت.

- لا، قال له ساشا بلهجة العارف بالأمور، هذا مجرد صليب هيبي.

هيبي- كان كورت يعرف الكلمة من التلفزيون - من التلفزيون الغربي. أخيراً جرى الحديث عنهم كثيراً: أشخاص ذوو شعر طويل ربطهم كورت بشكل ما بهذه الموسيقى الجديدة وهم حسبما هو واضح يرفضون العمل رفضاً مبدئياً.

- هكذا إذن، قال كورت، أتريد أن تكون هيبياً.



twitter @baghdad_library

ابتسم ساشا.

استدار كورت وكان بصدد مغادرة الحجرة، لكنه بقي واقفاً ثانية.

- طوال حياتي أحاول أن أربيك على العمل وأنت...

وفجأة سمع نفسه يصرخ:

- وأنت تريد أن تصبح هيبياً! ابني سيصبح هيبياً!

انتزع المسجل الذي صمت بتجشؤ مرير، ثم أكمل طريقه. ولم يلحظ أنه قطع سلك المسجل إلا عندما وصل إلى غرفته.

في أثناء استحمامه - صحيح أنه لم يتسخ، لكن بعد العمل في الحديقة لا بد للمرء أن يستحم - مر المشهد برمته في ذهنه. أحس بالضيق وذلك كان مدعاة أكثر لتبرير غضبته. من المؤكد أنه لم يكن ثمة خطر محدق بأن يتحول ساشا إلى «هيبي». لكن وقفته المتراخية وكسله وعدم اهتمامه بكل ما يعتبره كورت مفيداً... كيف كان يمكنه أن يوضح للصبي ما هو مهم؟ لا شك أنه ذكي لكن شيئاً ما ينقصه، هكذا فكر كورت، شيئاً ما بداخله.

فكر في كريخاتزكي للمرة الثانية في هذا اليوم: كتيب اللغة اللاتينية الذي اصطحبه معه طوال فترة معسكر الاعتقال، وفكر إلى أي مدى سيتقبل ساشا هذه المسألة تربوياً: استعداده لامتحان اللغة اللاتينية حتى وهو في معسكر الاعتقال - دار شيء من هذا القبيل بذهن كورت لكنه اضطر إلى الاعتراف بأن ذلك هراء. لم يستعد في المعسكر لامتحان اللاتينية. بل جاع. وأصابه الجوع بالبله الشديد لدرجة أنه تساءل أحياناً، إن كان لا يزال من الممكن إصلاح هذا الضرر. لم ينقصه الكثير على أي حال لكي يصاب بالبله التام، فكر كورت وتذكر بشكل غائم،

وهو يدعك ساقيه بفرشاة الاستحمام، الأوضاع الغريبة شبه الجنونية، تذكر تدريجاً ذاك الصوت الذي تولى القيادة، كان يخاطب المعتقلين بحيادية وغير اكتراث ودائماً ويا للغرابة بضمير الغائب: الآن يشعر بالصقيع.. الآن بالألم... الآن عليه أن يستيقظ...

قف. البرنامج الخاطئ. كان تسريح الشعر بالفرشاة بعد حمام الماء البارد من الطقوس الصباحية التي تورط فيها عن غير قصد. وضع كورت الفرشاة جانباً وتأمل نفسه في المرآة. أحياناً كان يصعب عليه تصديق أنه لا يزال على قيد الحياة، ثم بدا الماضي كحفرة يمكنه أن يسقط فيها لو لم ينتبه. سيأتي وقت يكتب فيه كل ذلك، هكذا فكر، عندما يأتي أوانه.

ارتدى ملابسه وبدأ تسخين الغداء. كان عبارة عن مكعبات من اللحم البقري مع الكرنب الأحمر. جاء ساشا من دون صليب الهيبي. جلس إلى المائدة منحنياً، ونظرته تثقب الطبق. أخذ يغرز الشوكة في الكرنب الأحمر. ويضع أوراقه ورقة ورقة في فمه. ما زال وهو في الثانية عشرة من عمره يحتفظ بعادة أكل كل شيء منفصلاً: اللحم وما معه من خضر. لكن كورت قرر غض النظر عن كل شيء. بدلاً من ذلك حاول كورت مجدداً أن يكون «عقلانياً»:

- لقد سمحت لك دائماً، قال كورت، بالاستماع إلى موسيقاك - أليس كذلك؟

يغرز ساشا الشوكة في الكرنب الأحمر.

- أليس كذلك؟ كرر كورت.

- نعم، قال ساشا.



twitter @baghdad_library

- لكن إذا قاد شغفك بموسيقا البِيت إلى أن تصبح هيبياً، فعلي أن أقول لك إن معلميك على حق، عندما يمنعون ذلك. هل تضع أيضاً هذا الشيء في المدرسة؟

يغرز ساشا الشوكة في الكرنب الأحمر.

- سألتك: هل تضع الصليب في المدرسة؟

- نعم، قال ساشا.

لاحظ كورت تصاعد الغضب داخله مجدداً.

- هل أنت حقاً على هذه الدرجة من الغباوة؟

مضغ كورت اثنتين وثلاثين مرة، كما نصحه طبيب الأمراض الباطنية، ثم ترك الشوكة والسكين وتأمل ابنه الذي ما زال يقضم الكرنب الأحمر. تأمل رسغي اليدين النحيفتين (بمعنى أدق: رسغ اليد اليمنى، فاليسرى كانت مختفية تحت المائدة) والرموش المقوسة التي ورثها من إيرينا (والتي تزعج ساشا لأنها تبدو أنثوية) وخصل الشعر الجعد التي يصعب تسريحها والتي ورثها منه هو (وسببت له مراراً مشاكل في المدرسة لأن مديرها يدين بولاء تام للنظام ويشتم في كل ميليمتر من الشعر يتجاوز الأذنين تأثير الثقافة الشبابية الغربية المنحطة). فجأة شعر كورت بحاجة ماسة ومؤلمة تقريباً لحماية هذا الصبي من كل مجهول سيواجهه لاحقاً.

ضجت معدته في الليل. وفي الصباح وصفت له إيرينا غسلاً للمعدة شاي البابونج. حاول كورت أن يعمل قبل الظهيرة على كتابه عن هندنبورغ مستعيناً بوسادة تدفئة تحت البلوفر. ثم غادر البيت ولم يكن قد تناول سوى مرقة دجاج.

صار الطريق إلى المعهد أطول منذ بناء الجدار. في الماضي كانت القطارات السريعة تمر مباشرة عبر غرب برلين، وكانت ثمة قطارات خاصة بهؤلاء الذين لديهم تعليمات بعدم دخول المناطق الغربية، لا تتوقف في المحطات الواقعة ما بين محطتي فريدريش - شتراسه وغريبنتس - زيه. والآن هناك أيضاً قطار «سبوتنيك» الذي يقوم بدورة واسعة حول غرب برلين. لكن لكي يلحقه كورت، كان عليه أن يأخذ حافلة توصله إلى محطة دريفيتز ويركب من هناك محطة إلى بيرغهولتس الواقعة على خط قطار «سبوتنيك». وبقطار «سبوتنيك» كان يصل إذا سارت الأمور على ما يرام، إلى محطة شرق برلين، ثم يركب بعدها القطار السريع لخمس عشرة دقيقة إلى فريدريش - شتراسه. لحسن الحظ لم ينبغ له القيام بهذه الجولة إلا أياماً قليلة، فمن بين الجوانب المفرحة للنقص في الإمكانات الذي اشتهرت به جمهورية ألمانيا الديمقراطية، كان وجود نقص في حجرات العمل، لذلك كان مطلوباً من العاملين في معهد الدراسات التاريخية أن يستفيدوا، حسبما قيل، من أماكن العمل المنزلية. حدد كورت الاثنين موعداً ثابتاً للاجتماع مع مجموعة العمل. أما بخلاف ذلك فكان يتقاعس عن المجيء كلما كانت ثمة فرصة لذلك، فكان يعتذر عن حضور الفعاليات الثانوية بحجة أنه يسكن نويندورف ويقطع أطول طريق إلى الأكاديمية، بل أحياناً يتهرب من الحضور ويحتج بتأخر الحافلة الذي يصعب إثباته أو يبرر غيابه بصحته المعتلة: مشاكل المعدة التي استطاع أن يصفها بصورة غير مباشرة بأنها نتيجة لحياته في المعتقل، كانت تقابل بازدراء من مديريه الذين لم تكن لديهم سوى فكرة عابرة عن تجربته في المعتقل - لكنه لم يكن يشعر في خلال كل ذلك بأي تأنيب للضمير، بل على العكس، كان يعتبر الاجتماعات



twitter @baghdad_library

التي يتجنبها وقت عمل مكتسباً. ما كان كورت يعتد به هو الصفحات المكتوبة - ومن هذا المنطلق - أي فيما يخص عدد المؤلفات العلمية المطبوعة- فقد سجل رقماً قياسياً لا يبارى.

كان يحتاج لأن يمشي إلى خمس دقائق فقط من محطة فريدريش - شتراسه. كان المعهد في المبنى المواجه لمبنى الجامعة في شارع كلارا - تسيتكين، وكان في السابق مدرسة للبنات بُنيت في فترة الانتعاش الاقتصادي في القرن التاسع عشر، ذات واجهة من الحجر الرملي اسودت على مرّ السنين من جراء سخام الفحم، ومازالت بها حتى بعد انقضاء عشرين عاماً، آثار طلقات رصاص من الأيام الأخيرة للحرب. يقود سلّم خارجي فخم مروراً بالبواب إلى الدور الأرضي العالي الذي احتلته إدارة المعهد، أما قسم كورت فكان في الطبقة الأخيرة. كانت قاعة الاجتماعات المتواضعة مزدحمة جداً عندما وصل كورت وكان عليهم إحضار كَراسٍ إضافية من مكتب السكرتارية، لكن الحضور تكدس على الكراسي الإضافية التي أحضروها في الجزء الخلفي للقاعة، فيما تقلص عدد الجالسين في الأمام حيث مكان رئاسة الجلسة.

تكونت رئاسة الجلسة من غونتر هابيزات، ورئيس المعهد وضيف من القسم العلمي للجنة المركزية لحزب الوحدة الاشتراكية الألماني الذي قدمه غونتر باسم الرفيق إرنست. كان الرجل في عمر كورت تقريباً، لم يكن طويلاً، كان بلا شك أقصر من غونتر والمدير، ذا شعر قصير ووجه يبدو وكأنه مبتسم دائماً.

بعد أن افتتح غونتر - بنبرة جافة وبعينين غير حائرتين - الاجتماع وقراءة الموضوع الوحيد على جدول الأعمال انتقلت الكلمة إلى الرفيق إرنست الذي بدأ، محاطاً بوجه غونتر الجنائزي من جانب وهز الرأس ذي المغزى من قبل مدير المعهد من جانب آخر، بالحديث

عن الوضع الدولي الذي يزداد تعقيداً والصراع الطبقي الذي يزداد احتداماً. وبعكس غونتر تحدث الرفيق إرنست بسلاسة، تكاد تكون بليغة وبصوت رفيع لكنه حاد يخترق الأذن، يخفضه بلطف حينما يرغب في التأكيد على شيء ما. وهذه الطريقة التي تحدث بها بدت لكورت فجأة معروفة، أم كان لذلك علاقة بعادة المتحدث الغريبة في تصفح دفتره دون أن ينظر إليه، فيما كان يتكلم عن القوى الإصلاحية الانتهازية التي يجري البحث في أوساطها حسب الرفيق إرنست عن العدو الرئيس ومع كلمة العدو الرئيس خفض صوته واكتشف كورت باول روده الذي جلس طوال الوقت بالقرب جداً من مائدة الرئاسة، شاحباً ومنكمشاً، وناظراً إلى الفراغ. لقد انتهى باول روده، طردٌ من الحزب وتسريحٌ نهائي من العمل. فجأة اتضح لكورت أن الأمر لم يعد يتعلق بباول روده. ولا بأي رسالة ملعونة. ما يحدث هنا هو ما كان يخشاه كورت منذ زمن، وبالضبط منذ تنحية خروتشوف (ولكن حتى قبل تنحية خروتشوف)، كانت ثمة بوادر لذلك، لكن كورت أدرك الآن أن هذه البوادر لم تكن بوادر بل كانت الشيء عينه: الاجتماع العام الأخير للحزب الذي شهد تمزيقاً وسحقاً للكتاب النقديين، وإقالة وزير الثقافة والقطيعة مع عالم الكيمياء المعارض روبرت هافيمان، كان هذا هو الأمر، كان قائماً، كان في المعهد في شخص هذا الرجل ذي الوجه الذي يبدو مبتسماً دائماً، والصوت الذي ينخفض بلطف والدفتر الذي يتصفحه من دون أن ينظر إليه، في أثناء توعيته للحضور بدور علم التاريخ في معارك عصرنا وبالعلاقة بين الانحياز والحقيقة التاريخية.

ساد السكون في القاعة. سكون لم تخرقه نحنحة ولا حفيف ملابس، حتى بعد انتهاء المتحدث من الكلام. ثم جاء الدور على روده لكي يتحدث ويمارس النقد الذاتي. استمع كورت إلى روده وهو



twitter @baghdad_library

يعتصر من داخله على دفعات هذا النص الذي حفظه عن غيب، لقد ناقشوه معه قبلها كلمة كلمة، بالطبع، سمعه كورت وهو يبتلع ريقه، وامتدت الوقفات بين كلماته بصورة لا تحتمل، إلى أن شكلت كلمات مثل تصرفت... معادٍ... لا مسؤول... تدريجاً ما يشبه الجملة المفيدة.

ثم دعا غونتر الزملاء إلى إعلان مواقفهم، فطلب رئيس القسم الكلمة «تلقائياً» ودان الزميل روده الذي خيب ظنه كثيراً واعتذر، وسط إيماءات استحسان من الرفيق إرنست، عن قلة يقظته.

ثم كان الدور لكورت حسب الترتيب. شعر كورت بهذا الاهتمام الذي تركز عليه. كان حلقه جافاً وذهنه خاوياً. لقد فوجئ هو نفسه بالجملة التي صدرت عنه:

- لست متيقناً، إن كنت قد فهمت ما يدور هنا. قال كورت.

حملق الرفيق إرنست في كورت وكأنه لا يستطيع رؤيته جيداً. وبرغم أنه كان ما زال من الممكن الاعتقاد بأنه يبتسم إلا أن وجهه قد تحول إلى شيء خبيث، شيء يشبه وجه الخنزير.

للحظة ساد الصمت، ثم انحنى غونتر مخاطباً وجه الخنزير. كان السكون بالغاً في القاعة لدرجة أن كورت سمع ما همس به غونتر للمسؤول:

- الرفيق أومنيتزر كان في زيارة إلى موسكو في خلال الأسبوع الماضي.

نظر وجه الخنزير إلى كورت وأومأ.

- يا رفيق أومنيتزر، لا أحد يرغمك على إعلان موقفك.

ثم متوجهاً إلى الجميع:

- إننا لا نجري محاكمات علنية هنا، أليس كذلك يا رفاق؟

ثم ضحك، وضحك بعضهم معه. ولم يلحظ كورت أن يديه ترتعشان إلا عندما بدأ الزميل التالي الحديث.

ظلت يداه ترتعشان أيضاً عندما رفع يده للتصويت على طرد روده من الحزب.

ثم أصابه العطش. بعد الاجتماع نزل الدرج لتفادي الهجوم على دورة المياه في الطبقة العلوية، وعندما فتح باب دورة المياه الخاصة بالرجال في الطبقة السفلى وجد روده أمامه. نظر روده إليه ومد يده إليه ليصافحه.

- شكراً، قال روده.

- على ماذا؟ سأل كورت.

تردد في مصافحته، وعندما أمسك يده كانت باردة ومبللة. ولكن آمل أن تكون مغسولة، هكذا قال كورت في سره.

قبيل الساعة السادسة كان كورت قد وصل إلى محطة شرق برلين، أي في وقت مبكر عن المعتاد. تحرك القطار في موعده بالضبط، لكنه توقف في محطة قبل بيرغهولتس: لعطل في الخط. ورجاهم المحصل أن يتحلوا بقليل من الصبر.

لم ينزعج كورت لأن حدوث عطل فني على هذا الخط يعد شيئاً غير معتاد، ولكن الثرثرة شبه الصاخبة للركاب الآخرين أثارت أعصابه فجأة. أراد أن يتأمل، لكن أفكاره بدت معطلة في القطار المتوقف. هبط من القطار دون حذر القضبان وسار في طريقه. صحيح أن الشمس



twitter @baghdad_library

قد بدأت تغرب، إلا أن المسافة إلى نويندورف لم تكن تتعدى عشرة كيلومترات. كان يعرف المنطقة لأنهم بحثوا ذات مرة في الخريف عن الفطر هنا. وبدلاً من أن يسير في الطريق الذي يرسم منحنياً معقداً عبر القرية التالية، أخذ كورت انطلاقاً من شينكنهورست طريقاً للسيارات يقوده بعد فترة مجدداً إلى الجزء الشمالي الغربي من الشارع، معتمداً على قدرته على تحديد الاتجاهات.

سار بسرعة، برغم أن ركبتيه كانتا واهنتين بسبب الجوع. كان قد فكر في أكل السجق بالكاري في محطة شرق برلين، لكنه خشي من مشاكل المعدة وتخلى عن ذلك. والآن بدأ الشعور بالجوع يهبط تدريجاً إلى باطن ركبتيه، كان هذا ما يسمّى نقص سكر الدم. لا داعي للقلق. كان كورت يعرف إلى أي مدى يمكن وظائف الجسم أن تعمل برغم الجوع: مدة طويلة. تلبدت السماء بالغيوم. وتسارعت خطى كورت لا إرادياً. تدريجاً ارتسم مشهد اجتماع الحزب أمام عينيه مرة أخرى... وجه الخنزير. عيناه. هذا الصوت الرفيع الحاد كالمنشار: إننا لا نجري محاكمات علنية هنا... بمن يذكره هذا الشخص؟

قاده الطريق مباشرة إلى الغابة. كانت أكثر حلكة من الحقل المفتوح، وتردد كورت، في دخول الغابة أو الالتفاف حولها. لكن أي غابة تلك، إنها دغل صغير. كم من المرات جال في التايغا. وكم من مرة بات هناك! مع ذلك اندفع متقدماً بالخطوة السريعة. لكن الطريق انعطف باتجاه الشرق ولكي لا يتيه، انحرف كورت بشكل حاد إلى اليسار وسار بشكل مستقيم في الظلام فوق الأرض الطحلبية، وفجأة تذكر:

لوبيانكا، موسكو ١٩٤١

الآن رآه أمام عينيه. تشابه خارق: العينان الضيقتان، وقصة الشعر القصيرة بل حتى الطريقة التي كان يفتح بها الملف، وكيفية تصفحه له من دون أن ينظر إليه:

- لقد صرحت بانتقاد السياسة الخارجية للرفيق ستالين.

القضية: لمناسبة «اتفاقية الصداقة» بين ستالين وهتلر، كتب كورت آنذاك إلى أخيه فيرنر قائلاً إن المستقبل سيبين إن كانت الصداقة مع مجرم مفيدة.

عشر سنوات في معسكر الاعتقال.

بسبب البروباغندا المعادية للاتحاد السوفياتي وتكوين تنظيم تآمري. كان التنظيم يضمه هو وأخاه.

فجأة شعر بأن أرض الغابة الرطبة تحت قدميه غير مريحة. ظن أنه يسمع على البعد نباح مناشير الأشجار، وزئير الأشجار الضخمة عندما تبدأ ببطء بالسقوط على الأرض ملتفة حول محورها. وبعد وقت قصير تداعت الصور عابرة وغير مترابطة: طوابير التمام في ظل ثلاثين درجة تحت الصفر، المنظر الصباحي لسطوح الثكنات المتجمدة، منظر مرتبط بتذكر انهماك مئتين من سكان هذه الثكنات بالاستعداد ليومهم، روائحهم، النفس الكريه بسبب الجوع، والرائحة الشنيعة للخرق التي يلبسونها في أقدامهم، وعرقهم الليلي، وبولهم... من الصعب تصديق أنه قد مر بكل ذلك وبقي حياً. خطر له كتاب كريخاتزكي مجدداً، لأنه كان يصحبه معه في جيب صدره للعمل - كان آخر شيء خاص يملكه، بخلاف الملعقة. كان آخر دليل على أن ثمة عالماً آخر موجوداً في الخارج. لذلك لم يقايض كريخاتزكي (كورق سجائر) في مقابل الخبز، ظل محتفظاً به في هذا الشتاء الأسوأ، عامي ١٩٤٢-٤٣، عندما



twitter @baghdad_library

لم يعد ثمة شيء يمكن مقايضته. ولم يكن ثمة خبز يأكله المرء. كان المعيار للحصول على ستمئة غرام خبز أن يسقط شخصان يومياً وفي ظل كل الظروف الجوية الصعبة أربع عشرة شجرة، وكلها باليد وتجهيز لوح خشبي طوله متر منزوع الأغصان، وعند تحقيق ٩٠ في المئة من المطلوب لا يوجد سوى ٥٠٠ غرام من الخبز السيئ المبلل، وأقل من ذلك كان يعني أن تجوع: أما بالنسبة إلى أربعة غرامات خبز فهو معيار لا يمكنك تحقيقه، لأن الوضع يتدهور وفي وقت ما تصبح لك تلك النظرة التي يصابون بها قبل أن يرقدوا متصلبين على نقالة ويحملوك إلى الخارج، كما حملت أنت الآخرين مارين بالحرس، حيث يتوقفون قليلاً ويطفئ صاحب نوبة الحراسة سيجارته الماخوركا ويتناول مطرقة - التعليمات هي التعليمات - ويهشم بها جمجمتك أنت الميت.

استند كورت إلى شجرة - كانت شجرة صنوبر، تعرف إليها من الرائحة. أغلق عينيه، ولامس جبينه لحاءها. ما زالت بعض الصور المنفردة تومض، لكن الهدوء عاد تديجاً إلى رأسه. عوضاً عن ذلك سمع ضجيجاً آخر. نوعاً من الأنين. لحيوان، حيوان كبير؟ كان كورت يعرف قواعد التصرف: أن تتصرف كميت، ترقد على الأرض وتمثل أنك ميت، وإذا قلّبك (هذا ما كانت تفعله الدببة) عليك أن تحبس نفسك. أن تتوقف عن التنفس.

توقف كورت عن التنفس ومال برأسه يميناً ويساراً ورأى عبر شجرة الصنوبر منطقة جرداء صغيرة وقفت فيها على بعد عشرة أو خمسة عشر متراً سيارة ترابانت زرقاء تهتز صعوداً وهبوطاً في حركة سريعة منتظمة.

فكر كورت بالروسية: إنهما يتضاجعان.

أخرج نظارته وتحقق من رقم السيارة، ليست إيرينا. وليس الهندي

الأحمر. تنفس الصعداء. دغدغته أنفاسه في حلقه وخرج زفيره مصحوباً بقرقرة مكتومة وخافتة. ثم سار في منحنى واسع مبتعداً عن السيارة المتراقصة وانطلق في طريقه.

سقطت بضع قطرات قليلة من المطر لكنه لم يشتد. ربما تعثر البرق والرعد فوق نهر الهافل. استعاد كورت مجدداً الاتجاه الذي يسير فيه وسار بخطوات منتظمة. لا، لم يكن هنا في التايغا. ولم توجد هنا معسكرات للعمل القسري أو دببة بنية، عوضاً عن ذلك كان ثمة سيارات ترابانت زرقاء في الغابة يتضاجع الناس فيها. إذا لم يكن هذا هو التقدم فماذا إذن، فكر كورت. ألم يكن تقدماً أيضاً أنه بدلاً من أن تقتل الناس رمياً بالرصاص أن تطردهم من الحزب؟ ماذا كان يتوقع؟ هل نسي كيف يسير التاريخ بخطى وئيدة؟ حتى الثورة الفرنسية جلبت معها فوضى لانهائية. لقد قُطعت رؤوس كثيرة. وجر جنرال ثوري نصب نفسه أمبراطوراً كل أوروبا معه إلى الحرب. لقد احتاجت هذه الثورة البرجوازية إلى عقود لتحقق أهدافها. فلماذا تكون حال الثورة الاشتراكية مختلفة؟ لقد نحوا خروتشوف. وفي وقت ما سيأتي خروتشوف جديد. في وقت ما ستأتي الاشتراكية التي تستحق اسمها - حتى ولو لم يكن ذلك في حياته، في هذا الجزء البسيط من تاريخ العالم الذي كان هو شاهداً عليه بمحض المصادفة - أقله ما تبقى منه بعد عشر سنوات من الاعتقال وخمس سنوات من المنفى.

سمع طقطقة من خلفه: مرت السيارة الترابانت. تنحى كورت جانباً ورفع على غير عادته يده لتحية راكبيها وقد أغشى ضوء السيارة عينيه. وشعر برغم أنه لم ير أحداً بتواطؤ مبهج مع الغريبين في السيارة - اللذين على الأغلب يخونان شخصاً ما.

الآن أمطرت فعلاً. واشتم رائحة المطر والغابة وشيئاً من عادم



twitter @baghdad_library

المحرك ثنائي الشوط.أخذ نفساً عميقاً. استنشق كل شيء، وشم آثار عادم السيارة الترابانت وتراءت له هذه الرائحة السكرية فجأة مثل رائحة الخطيئة. البقاء حياً كان إحساساً رائعاً. وكما كان يحدث كثيراً في هذه اللحظات، عندما لا يصدق أنه يعيش فعلاً، كان يفكر على الفور في أن فيرنر لم يعد على قيد الحياة: أخوه الصغير الضخم، والأقوى، وكان دائماً الأجمل... ولكن فيما يرتبط تفكيره في فيرنر عادة بشعور عابر بتأنيب الضمير، شعر كورت هذه المرة بشيء جديد لم يقبع مثل تأنيب الضمير في البطن، بل في مكان أعلى الصدر أو في الحلق، كان شيئاً ضيّق الحلق وسّع الصدر، شخّصه كورت بعد بعض الوقت على أنه الحزن. كان أقل سوءاً، مما يظن، وللغرابة أيضاً كان لا يمكن فصله عن السعادة التي شعر بها، بل امتزج بها ليصنع إحساساً عظيماً يضم العالم. لم يكن الموت هو ما يؤلمه، بل هذه الحياة التي لم يعشها فيرنر. وفي الوقت ذاته شعر فجأة بالمواساة لأنه فكر في فيرنر واستطاع أن يتذكره، وأن أخاه لن يختفي تماماً طالما ظل هو، كورت، على قيد الحياة، وأنه - على عكس أمه التي تسد أذنيها عندما يتحدث أحد عن فيرنر - ظل يحفظ أخاه داخله، ويحميه من الإفناء التام. بل توصل في أثناء تساقط المطر على وجهه إلى تصور (غير علمي) بأنه يستطيع أن يعيش من أجل أخيه وأن يتنفس ويشم من أجله، بل خطر له الآن مع ازدواجه العجيب أنه يضاجع من أجله، هكذا فكر كورت وظهرت له أشياء فيرا في ضوء جديد: المضاجعة، هكذا فكر كورت، باسم أخيه المقتول.

# ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩

أحياناً كان ينسى ما يجب عليه أن يفعله.

لقد تراءى له وكأنه قد تصلب طوال الليل.

حرك عينيه على سبيل التجربة.

ارتعشت يده اليسرى.

أدار رأسه إلى اليمين أولاً ثم إلى اليسار.

رأى شيئاً يبتسم له وسط الغرفة شبه المظلمة.

أخذ فيلهلم طقم أسنانه من الكوب ونهض.

ذهب إلى الحمّام. فتح صنبور حوض الاستحمام، وقام بتشغيل جهاز تسمير الوجه من طراز «سونيا» متحصناً بنظارة قاتمة لحماية عينيه من الإشعاع. كان رأسه فارغاً. لم يكن به سوى صوت رجرجة ماء الاستحمام. وكانت بهذه الرجرجة نغمة ما. نغمة يعرفها، لأغنية نضالية، لكنها تصيبه بالحزن في الوقت ذاته. للأسف لم تخطر له كلماتها.

أومأ قائلاً: فوضى - هذا هو كل شيء. ضغط على أسنانه التي



twitter @baghdad_library

يطلق عليها أسنان الشعب، ليتغلب على هذه الكآبة الطفيفة التي أصابته. وهكذا جلس حتى وصل الماء إلى سُرّته.

لم يزعجه أن يبقى ظهره أبيض في خلال عملية التسمير هذه، فلم يكن ثمة من يرى ظهره.

بعد الاستحمام، حلق ذقنه واضعاً إصبعين على موضع الشارب فوق الشفتين. كان يعاني باطراد المياه الزرقاء. وكثيراً ما حلق جزءاً من الشارب من غير قصد، حتى تحول إلى طريقة الإصبعين، كي يستطيع على أقله المحافظة على ما تبقى من الشارب.

ارتدى اللباس الداخلي الطويل فوق اللباس القصير ووضع بالداخل حاشية من عدة لفافات من ورق التواليت. ولبس جوربيه وثبتهما برباط الجوارب، لكن حجم ساقه كان ويا للأسف أنحف من رباط الجوارب، بحيث لم يكن أمامه سوى أن يحشر رباط الجوارب داخل الجوربين حتى لا ينزلقا.

هبط الدرج وتردّدت النغمة في رأسه مرةً أخرى: نضالية وحزينة. ضغط على أسنانه. آلمته مفاصل ركبتيه في أثناء هبوط الدرج، ولم تستطع قدماه مجاراة إيقاع الأغنية.

عندما رأى كل المزهريات الخاوية، تذكر أن اليوم عيد ميلاده. وبدلاً من أن يذهب أولاً كالمعتاد إلى صندوق البريد، ذهب إلى المطبخ قبل أن ينسى سؤاله:

- هل كُتبت الأسماء على المزهريات؟

- كل عام وأنت بخير، قالت شارلوته.

نظرت إليه وقد استندت بذراعيها إلى خصريها ورأسها مائل كما هو معتاد.

كانت تبدو كطائر.

- أعرف أن اليوم عيد ميلادي، قال فيلهلم.

جلس وتناول رقائق الشوفان. لم يكن لها طعم. أبعد الطبق وأخذ القهوة.

- لا تنس أن تأخذ أقراص دوائك. قالت شارلوته.

- لن أتناول أية أقراص، قال فيلهلم.

- لا بد أن تأخذ أقراصك، قالت شارلوته.

- هراء، قال فيلهلم.

ذهب إلى صندوق البريد، لكنه وجده خاوياً. كان يوم الأحد. ويوم الأحد لم تكن ثمة طبعة من «نويس دويتشلاند». في الماضي كانت ثمة طبعة من «نويس دويتشلاند» يوم الأحد، أما الآن فقد أوقفوها. فوضى.

ذهب إلى غرفته وأغلق الباب. ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل - مرة أخرى تتكرر هذه اللحظة. غالباً كانت الأقراص هي السبب. لقد شك في ذلك منذ فترة. هذا التصلب في المفاصل والفراغ في الرأس. من يدري، أي شيء كانت تعطيه إياه. هذه الأقراص أصابته بالغباوة. جعلته نسّاءً جداً لدرجة أنه ما عاد يذكر في الصباح أنه اعتزم في الليل ألا يأخذ الأقراص مرة أخرى.



twitter @baghdad_library

الخوف من فقدان الذاكرة. حاول فيلهلم التذكر على سبيل التجربة: لكن ما الذي عليه أن يتذكره؟

ذهب إلى الخزانة وأخرج علبة الأحذية التي وضع فيها إلى جانب الميداليات والأوسمة وثائق مختلفة عن حياته. أخذ من العلبة مقالاً، ممزقاً بعض الشيء من كثرة طيه. أخذ العدسة وقرأ:

حياة من أجل الطبقة العاملة.

وتحت ذلك صورة لرجل أصلع ذي أذنين كبيرتين ينظر بتفاؤل إلى المستقبل. نزل فيلهلم بالعدسة إلى منتصف المقال. انزلقت تحت العدسة الكلمات منتفخة:

دخل الحزب الشيوعي الألماني في كانون الثاني/يناير عام ١٩١٩

فكر فيلهلم. كان بالطبع يعرف أنه دخل الحزب في العام ١٩١٩ لقد كتب عشرات من السير الذاتية. وحكى ذلك مئات المرات لرفاقه في مصنع كارل ماركس، وللرواد الصغار، لكن عندما كان يسترجع ذكرياته، ويحاول فعلاً تذكر هذا اليوم، لا يتذكر سوى أن كارل ليبكنيشت قال له:

- يا فتى، نظف أنفك من المخاط!

أم لم يكن هذا كارل ليبكنيشت؟ أم أن ذلك لم يكن في يوم دخوله الحزب؟

جاءت شارلوته بالماء والأقراص.

- أنا مشغول، قال فيلهلم وشطب لكي يؤكد كلامه بقلم أحمر على المقال - كما هو معتاد مع كل المقالات التي قرأها، كي لا يقرأ مقالة

مرتين. لحسن الحظ أدرك خطأه على الفور وقلب الصفحة قبل أن تصل شارلوته إلى مكتبه.

- إذا لم تتناول أقراصك، فسأتصل بالدكتور زوس.

- لو اتصلت بالدكتور زوس، سأقول له إنك تريدين أن تُسمّميني.

- إنك مخبول تماماً.

مضت شارلوته بكوب الماء والأقراص.

بقي فيلهلم جالساً وتأمل حياته التي انقضت سهواً. ماذا يفعل الآن؟ يتخلص منها، هكذا قالت له غريزته التآمرية. مزق الجريدة وألقاها في سلة المهملات... في داهية. لم يكن بها الأشياء المهمة. لم ترد الأشياء المهمة في أي عشرات السير الذاتية الخاصة به. لقد شُطب المهم بأي حال من الأحوال.

حياته الأخرى. شركة لودكه للاستيراد والتصدير، إنه يتذكرها من دون أي عناء:

مكتبه في الميناء

والريح في الليل

ومخبأ مسدسه الـ «كوروفين» عيار ستة ملم، ٣٥ - لو بحث عنه اليوم لوجده.

الآن عادت النغمة مرةً أخرى. نظر من النافذة. سطعت الشمس. والسماء كانت زرقاء وبين الأوراق المصفرة لشجرة الغبيراء تدلت ثمار التوت في عناقيد حمراء. يوم جميل، فكر فيلهلم، وضغط على أسنانه، محاولاً أن يزيح الحزن.



twitter @baghdad_library

لأجل ماذا؟

لأجل ماذا خاطر بحياته؟ من أجل ماذا فعل الناس ذلك؟ من أجل أن يأتي مثل هذا الوصولي المتسلق ويدمر كل شيء؟

تشوف، فكر فيلهلم، كما كان خروتشوف في الماضي. غريب على كل حال إن الاثنين ينتهي اسمهما بـ «تشوف».

أخذ علبة الحذاء وذهب بها إلى الخزانة. قرقعت الأوسمة داخلها وهو يضعها في الخزانة. ذهب إلى الردهة. فكر للحظة في ما كان عليه أن يفعل. وعندما رأى المزهريات تذكر، عاد إلى حجرته وأحضر العدسة. ثم أمسك بمزهرية، وكانت عليها ثمة بطاقة لاصقة، لكن لم يُدوّن عليها شيء. أمسك المزهرية الثانية ولم يكن عليها شيء، ثم فحص الثالثة...

توجه فيلهلم إلى الصالة.

- لم يُكتب عليها شيء.

- على أي شيء؟

- على المزهريات.

- اسمع، لدي فعلاً إنجاز أمور كثيرة. قالت شارلوته.

- اللعنة، لقد قلت إن الأسماء غير مدونة على المزهريات.

- فلتكتب أنت عليها الأسماء، قالت شارلوته وسحبت مفرشاً من الخزانة، دون أن تولي اهتماماً بفيلهلم.

كان يرغب في أن يقول لشارلوته إن ذلك هراء: لم يعد ممكناً كتابة الأسماء على المزهريات الآن.كان من الممكن قبل ذلك كتابة

الأسماء على المزهريات، لكي يحصل كل واحد فيما بعد على مزهريته الصحيحة ولكن لا جدوى من الجدال مع شارلوته. لقد أصبح لسانه ثقيلاً جداً بحيث لم يعد في استطاعته مجادلة شارلوته كما أن رأسه صار يحتاج إلى وقت طويل جداً لكي يجد كلمات تعبر عن أفكاره.

عاد إلى الردهة. ماذا عليه أن يفعل الآن؟ ظل واقفاً. تأمل في حيرة المزهريات التي كانت مصفوفة في ركن خلع المعاطف.

فجأة بدت له المزهريات مثل شواهد القبور.

انفتح باب البيت وجاءت ليسبيت مصدرة حفيفاً بملابسها، ودخلت معها رائحة الخريف. وأمسكت في يدها باقة من الورود.

- كل عام وأنت بخير.

- لا ينبغي لك يا ليسبيت أن تنفقي مالاً من أجلي.

قدمت ليسبيت الورود له وقد أشرق وجهها. كانت أسنانها معوجة بعض الشيء. لكن ردفيها كانا متماسكين وتماوج ثدياها عبر فتحة الصدر مثل الأمواج التي تتقافز عبر طرف المسبح.

- لكنك ستأخذينها معك ثانية، أمرها فيلهلم، والآن أعدي لي قهوة.

- لكن شارلوته منعتني أن أصنع لك قهوة، همست له ليسبيت، بسبب ضغط الدم.

- هراء. قال فيلهلم. ستصنعين لي الآن قهوة.

دخل الحجرة وجلس إلى مكتبه. ما الذي كان عليه أن يفعله؟ لم



twitter @baghdad_library

يعرف، ولكن لأنه لم يرغب في الاعتراف أمام ليسبيت أنه لم يعرف، أمسك بعدسته وبحث عن كتاب في الرف. لقد تصرف وكأنه يبحث عن كتاب في الرف. لكنه عثر على إغوانة. كانت إغوانة صغيرة قتلها قبل وقت طويل بالمنجل ثم حنطها. كان تحنيطها جيداً. لقد بدت وكأنها حية. لكنها ميتة. كانت ميتة ومغبرة في رف الكتب وشعر فيلهلم فجأة بالأسف لأنه قتلها بالمنجل. من يدري، ربما لظلت إلى اليوم على قيد الحياة. كم عاماً تعيش الإغوانات؟

سحب موسوعة «ماير» الجزء الأول وبحث حتى «إعانة».

ثم جاءت ليسبيت ووضعت القهوة على مكتبه.

- بسست!

- تعالي، قال فيلهلم.

أخذ ورقة من مئة مارك من حافظة نقوده.

- هذا كثير، قالت ليسبيت.

لكنها ذهبت إليه مع ذلك وجذبها فيلهلم إليه ووضع المئة مارك في فتحة صدرها.

- أيها الشقي! قالت ليسبيت.

احمرّ خداها وانتفخا. انسحبت من بين ذراعيه بلطف، وأخذت الصينية الصغيرة التي أحضرت عليها القهوة وذهبت.

- ليسبيت؟

- نعم؟

ظلت واقفة.

- لو مت، ستكون هي قد سمّتني.

- لكن كيف يمكنك أن تقول شيئاً كهذا يا فيلهلم؟

- أقول ما أقول، قال فيلهلم، أريدك أن تعرفي.

لوهلة ظن أنه لا يزال يشعر بأثر صدرها الرجراج في جسده.

رن جرس الباب. سمع فيلهلم شخصاً يدخل. ثم لم يسمع شيئاً. ثم جاء شلينغر بباقة من القرنفل.

- سأذهب على الفور، قال شلينغر. كنت أريد أن أكون أول المهنئين.

كان فيلهلم يقرأ في الموسوعة. يصل طول الإغوانة، هكذا عرف في هذه الأثناء، إلى مترين وعشرين سنتمتراً. لكنه لم يعرف ويا للأسف كم تعيش.

- عزيزي فيلهلم، أهنئك بمناسبة عيد ميلادك وأتمنى لك القدرة على إنجاز الكثير.

- اذهب بالخضر إلى المقبرة. قال فيلهلم.

ضحك شلينغر.

- دائماً أنت في مزاج رائق. ودائماً لديك نكتة على طرف لسانك.

- قل لي، ماذا قالت لك؟ سأل فيلهلم.

- من؟

- شارلوته.

أظهر غونتر عدم الفهم، ومالت زاوية فمه إلى أسفل فيما رفع حاجبيه. وتغضن جبينه بتجاعيد غليظة بحجم قطع السجق.



twitter @baghdad_library

- قاق قاق فوق عش الوقواق! أنا أعرف، قال فيلهلم، لقد قالت إن العجوز مخبول.

- لكنك يا فيلهلم في كامل...

- ماذا؟

- أعني أنك بالنسبة إلى سنك ما زلت في كامل...

- قاق قاق فوق عش الوقواق! قال فيلهلم.

- لا، أنت بكامل عقلك...

- أنا عقلي قاق قاق قليلاً، لكني ليس تماماً.

- لا طبعاً، هذا ليس صحيحاً، قال شلينغر.

- ما زلت أدرك إلى أين تسير الأمور.

- طبعاً، قال شلينغر.

- تسير إلى الأسوأ.

شهق شلينغر ولكنه لم يقل شيئاً. تمايل برأسه لكنه لم يعرف إن كان عليه أن يومئ موافقاً أم يهزّ رأسه نافياً. ثم اتخذ فجأة سمة الجدية وزرّ عينيه:

- لا بد من الاعتراف أن ثمة مشاكل، لكننا سنحلها.

- هراء، قال فيلهلم.

كان يرغب في أن يوضح له أن المشاكل - تلك المشاكل - لن تحل في إدارة دائرة الحزب في بوتسدام. كان يرغب في أن يوضح له أن هذه المشاكل - تلك المشاكل - ستحل في موسكو والمشكلة

تكمن في أن موسكو نفسها هي المشكلة. لكن لسانه كان ثقيلاً ورأسه كان خاملاً، لكي يعبر عن هذه الأفكار في كلمات. لهذا فقط قال:

- تشوف.

تغضن جبين شلينغر بتجاعيد في حجم قطع السجق. وتوقف ذهنه عن التفكير. وتطلعت عيناه بميل إلى أعلى متخطيتين فيلهلم.

فجأة صار يشبه الإغوانة.

- كم تعيش الإغوانة؟

- عفواً، ماذا؟

- الإغوانة، قال فيلهلم. ألا تعرف الإغوانة؟

- إنها حيوان زاحف، أليس كذلك.

- نعم، قال فيلهلم، حيوان زاحف.

- أعتقد أنها تعيش طويلاً، قال شلينغر. وتمايل رأسه وأعطى بوجهه تعبيراً يظهر وكأنه قال شيئاً ذكياً.

عندما غادر شلينغر، خطر لفيلهلم أن ثمة شيئاً ليفعله. ذهب إلى الصالون.

- سأوسع المائدة. قال فيلهلم.

لكن شارلوته قالت:

- سيقوم ألكسندر بذلك.

- سأفعل أنا ذلك، قال فيلهلم.

- لا تستطيع عمل ذلك، قالت شارلوته، سيقوم ألكسندر بذلك.



twitter @baghdad_library

- ألكسندر، منذ متى يستطيع عمل أي شيء؟

- هذه المائدة لا يستطيع سوى ألكسندر توسيعها، لقد حاولنا ذلك عشرات المرات.

- هراء، قال فيلهلم.

بالطبع يستطيع توسيع المائدة، فقد تأهل كعامل في الصناعة المعدنية. ماذا تعلم ألكسندر؟ ماذا كانت وظيفته؟ لم يخطر ببال فيلهلم أي شيء عن ألكسندر سوى أنه مغرور ولا يمكن الاعتماد عليه. بل إنه حتى لم يدخل الحزب. لكن لسانه كان ثقيلاً ورأسه كان خاملاً فلم يكن قادراً على مجادلة شارلوته.

من يدري، ما الذي تعطيه إياه ليتناوله. لقد سمّوا ستالين أيضاً.

ذهب فيلهلم إلى الردهة حيث تصطف شواهد القبور. بزغ من بطاقاتها اللاصقة الفارغة ضوء ضعيف انعكاساً للضوء المحمر. لأجل ماذا، فكر فيلهلم. راودته فكرة أخذ القلم الأحمر وكتابة الأسماء - كبح فيلهلم جماح نفسه. على أية حال لم يكن يعرف إلا الأسماء الحركية. هذه الأسماء يعرفها من دون شك. كلارا كيمنيتزر. فيلي بارتل. زيب فيشر من النمسا... ما زال يعرفها كلها. لن ينساها أبدا، سيأخذها معه إلى القبر، قريباً.

دق جرس الباب، في الخارح وقف كورال الرواد الصغار. وقالت قائدة الرواد: ثلاثة أربعة ثم غنى الكورال أغنية عازفي الترومبيت الصغار. أغنية جميلة ولكنها ليست تلك الأغنية التي يعنيها. ليست تلك التي دارت في رأسه طوال الوقت.

دندن لقائدة الرواد لحن الأغنية لكنها لم تعرف ما يقصده.

- لا يهم، قال فيلهلم.

كانت قائدة الرواد شابة، وتكاد نفسها تكون من الرواد الصغار. أخرج فيلهلم مئة مارك أخرى من حافظة نقوده.

- لكن يا رفيق بوفيلايت، لا يمكنني أن أقبل هذه النقود بأي حال من الأحوال!

- هراء، قال فيلهلم. اشترِ بوظة للأطفال، إنه عيد ميلادي.

وضع المئة مارك في فتحة صدر قائدة الرواد.

- إذن سنأخذ النقود لخزينة الفصل، قالت قائدة الرواد.

اكتسى وجهها ببقع حمراء. وقادت مجموعة الأطفال إلى خارج الحديقة، ثم استدارت عند بوابتها مرة أخرى. ضغط فيلهلم على أسنانه ولوّح لها بيده.

ثم توجه إلى الصالون. لأن النغمة ما زالت تدور في رأسه. كانت شارلوته واقفة عند الهاتف. عندما جاء، وضعت السماعة.

- لا أحد يرد.

رأى فيلهلم أن شارلوته متوترة. فسألها بحدسه.

- وأين ألكسندر الآن؟

- لا أحد يرد، كررت شارلوته. كورت لا يرد.

- انظري إذن، قال فيلهلم، ها نحن أمام الشيء نفسه مرة أخرى.

- ما الذي نحن أمامه؟

- فوضى، قال فيلهلم.



twitter @baghdad_library

- لا بد أن شيئاً ما وقع، قالت شارلوته.

- سأقوم بتوسيع المائدة، قال فيلهلم.

- لن توسع شيئاً الآن، عليك أن تتركني أفكر.

- هراء، قال فيلهلم، من سيقوم إذن بتوسيع المائدة؟

- لن تقوم أنت بتوسيع المائدة، قالت شارلوته. لقد أعطبت أشياء كثيرة في هذا البيت.

ادعاء وقح، كان يمكن فيلهلم أن يفقده مصداقيته عندما يحكي لها عن الأشياء التي أنجزها فيما يقرب من أربعين عاماً، الأجهزة الكهربائية التي أصلحها والتعديلات التي قام بها والإصلاحات التقنية المنزلية التي أنجزها - كلمات كثيرة صعبة ومعقدة جداً وطويلة وهكذا اقترب فيلهلم من شارلوته خطوة مستعرضاً طوله وقال أمامها:

- أنا عامل متخصص في الصناعات المعدنية، وأنا في الحزب منذ سبعين عاماً، كم عاماً لك في الحزب؟

صمتت شارلوته. نعم لقد صمتت!

استدار فيلهلم وغادر الحجرة لكي لا يفسد على نفسه الانتصار الصغير الذي حصده.

في الردهة وقف رجلان.

- وفد، قالت ليسبيت.

- آه!

- السيدة... السيدة قال الرجل وأشار إلى ليسبيت.

- مساعدة التدبير المنزلي، أضافت ليسبيت.

- لقد أدخلتنا (مساعتة التبيير المزلي)، قال الرجل.

- سمكة جميلة قال الآخر مشيراً إلى القوقعة التي ركب فيها فيلهلم مصباحاً.

وقفا جنباً إلى جنب، كلاهما قصير ويكادان يكونان معوجين، وكلاهما ارتدى معطفاً فاتحاً جداً وشديد النظافة. وقد أمسك الرجل الذي قال (مساعتة التبيير المزلي)، بطبق في يده.

تجشأ وبدأ يتكلم بصوت خفيض وبشكل معقد، كانت الكلمات تخرج منه بشكل بطيء جداً لدرجة أن فيلهلم كان ينسى آخر كلمة قالها قبل أن يقول الكلمة التالية.

- ادخل في الموضوع يا رفيق، نبهه فيلهلم، لدي عمل أقوم به.

- باختصار يا رفيق بوفيلايت، قال الرجل، إنك تتذكر حملة تبرعاتنا باسم كوبا آنذاك، ونحن فكرنا أنه سيعجبك لو عرضنا الموضوع مجسّداً في صورة قاطرة كتلك التي تنتج في مصانعنا.

ووضع الطبق أمام فيلهلم. آه هكذا إذن، قال فيلهلم لنفسه وأخرج حافظة نقوده وضرب بورقة من فئة المئة مارك الطبق.

نظرا مندهشين. حقاً لم يبخل بشيء في يوم عيد ميلاده.

ثم جاء ميليش، في الحادية عشرة بالضبط.

- فيلهلم، قال ميليش، وصافحه.

هذا ما كان يعجبه في ميليش، أنه كان لا يتكلم كثيراً.

- اذهب بالخضر إلى المقبرة، قال فيلهلم، سنقوم بتوسيع المائدة.



twitter @baghdad_library

ذهبا إلى الصالون وقربا المائدة إلى النافذة.

- لكن ألكسندر سيأتي في أي لحظة، احتجت شارلوته.

- هراء، قال فيلهلم، هراء!

غادرت شارلوته الغرفة.

سحبا الأجزاء الجانبية للمائدة حتى السقّاطة. ثم سأل ميليش:

- كيف تقوّم الوضع السياسي يا فيلهلم؟

نظر إلى فيلهلم. نظر من تحت حاجبيه الضخمين وكأنه ينظر من داخل مغارة. كان هذا يعجبه في ميليش. كان رجلاً جاداً. شعر فيلهلم أنه قد تشجع ليقدم تحليلاً:

- المشكلة هي، المشكلة هي... المشكلة هي.

قلب لوحاً في منتصف المائدة وقام ميليش بالشيء نفسه من ناحيته. لكن للمفاجأة لم يظل اللوحان في المنتصف ثابتين بل انثنيا وانزلقا عبر الإطار.

- لا أفهم ما حدث، قال ميليش.

- مطرقة ومسامير، قال فيلهلم، أنت تعرف مكان الأشياء.

ذهب ميليش إلى القبو وعاد بمطرقة ومسامير. حمل فيلهلم اللوح الأوسط وقاس بإبهامه وسبّابته المسافة إلى الإطار، ووضع مسماراً ليدقه في الإطار لكنه رفعه مرة أخرى لأنه شعر بأن تحليله لم يقنعه مئة في المئة وقال:

- المشكلة هي الـ «تشوف» هل تفهم: تشوف - تشوف.

أومأ ميليش ببطء. ودقّ فيلهلم بالمطرقة.

- الوصوليون المتسلقون.

- دقّ بالمطرقة.

- الانهزاميون.

حبس أنفاسه قليلاً ثم قال:

- في الماضي كانوا يعرفون ماذا يفعلون بمثل هؤلاء.

المسمار التالي. دخلت شارلوته:

- ماذا تفعلان بحقّ السماء؟

- نوسع المائدة.

- لكن لا يمكن لكما أن تدقا المسامير بها.

- لم لا؟ سأل فيلهلم.

غرس المسمار بضربة واحدة في لوح المائدة.

- يا لها من ضربة! قال ميليش.

وقال فيلهلم:

- ما يتعلمه المرء لا ينساه.

في الثالثة والنصف عصراً فُتح الباب الجرار الكبير ما بين الحجرتين وبدأت الحفلة. كان فيلهلم قد تناول في هذه الأثناء الغداء واستراح قليلاً، أعدت ليسبيت له القهوة وقامت بقص شعر أنفه وأذنه وفي أثناء ذلك وكزت كتفه عدة مرات بصدرها الرجراج.

وصل البوفيه البارد ووضع على المائدة القابلة للتوسيع. في المقابل



twitter @baghdad_library

لم يكن ألكسندر قد وصل بعد - وهو ما أسعد فيلهلم. سألت شارلوته مرات عديدة عن حفيدها الذي يعتبره هو حفيدها وحدها كما يعتبر كل العائلة عائلتها. عائلة انهزامية، باستثناء إيرينا. أقله كانت في الحرب. على النقيض من كورت الذي كان في معسكر الأشغال الشاقة - ويصور نفسه على أنه ضحية. عليه أن يفرح أنه كان في المعسكر ولم يكن في الحرب. لم يكن لينجو بعينه العمياء.

لم ينقطع رنين جرس الباب. وظلت شارلوته تجري غدواً ورواحاً مثل دجاجة، فيما جلس فيلهلم في كرسيه المجنح يرشف من حين إلى آخر رشفة من الكوب الألومنيوم ذي اللمعة الخضراء، ووجد متعة رهيبة في إحراج مهنئيه واحداً تلو الآخر بتكرار جملة واحدة:

- إذهب بالخضر إلى المقبرة.

جاء الزوجان فاييه، بخطوات منتظمة متسقة وتحدثا بالصوت المنُعّم ذاته.

والآن جاء ميليش مع زوجته، عاهرة تصبغ شعرها باللون الأشقر وتشكو دائماً من آلام الروماتيزم، برغم أنها لم تبلغ الستين.

وشتيفي صارت دائماً في أحسن زينة منذ أن وُوري زوجها في الثرى.

- اذهبي بالخضر إلى المقبرة!

الآن حضر بونكه منتوفاً مثل باقة زهوره، بربطة عنق منكسة كالعلم وطرف من ياقة القميص يغطي ياقة الجاكيت. وقد بدأ منذ دخوله المكان يجفف عرق جبينه. شخص كهذا أصبح الآن عميداً في أمن الدولة، فيما لم يقبلوا فيلهلم آنذاك باعتباره كان مهاجراً إلى الغرب. لا

يزال ذلك يزعجه إلى اليوم. كان يفضل أيضاً أن يذهب إلى موسكو، لكن الحزب أرسله إلى ألمانيا، وقد فعل ما طلبه منه الحزب. لقد فعل طوال حياته ما كان الحزب يطلبه منه ثم يقولون له: مهاجر إلى الغرب!

- اذهب بالخضر إلى المقبرة.

جفف بونكه عرقه وقال:

- إذن يمكنني أن أبقى هناك أيضاً.

ظهرت وجوه لا يعرفها فيلهلم.

- من أنتِ؟

السيدة بيكر، بائعة الخضر.

هاري تسينك، رئيس الأكاديمية: لم يأت قط إلى عيد ميلاده.

تيل إيفرتس بعد الجلطة الدماغية.

- اذهب بالخضر إلى المقبرة!

آه... الرفيق كروغر، رئيس شرطة الحي.

- لم أكن لأتعرف إليك في الزي الرسمي يا رفيق، اذهب بالخضر إلى المقبرة!

عائلة زوندرمان التي يقبع ابنها في الحبس بسبب محاولة الهروب من الجمهورية.



twitter @baghdad_library

- أنا لا أعرفكم، قال فيلهلم.

- لكنها عائلة زوندرمان، أوضحت شارلوته.

- أنا لا أعرفكم!

خفت الضجيج في القاعة للحظة.

- حسناً، قال السيد زوندرمان ووضع الزهور في يد شارلوته واختفى مع زوجته.

جاء كورت مع ناديجدا إيفانوفنا، ولكن من دون إيرينا.

- إيرينا مريضة، قال كورت.

- وألكسندر؟

- ألكسندر مريض أيضاً. تدخلت شارلوته.

عائلة انهزاميين. بغض النظر عن إيرينا، وبالطبع أيضاً عن ناديجدا إيفانوفنا.

قدمت له ناديجدا إيفانوفنا برطماناً من الخيار المخلل.

قلب فيلهلم في ذاكرته. مضى وقت طويل على آخر مرة زار فيها موسكو، كان تدريباً آنذاك لدى قسم العلاقات الدولية، والكلمة الوحيدة التي انتشلها من بين حطام لغته الروسية كانت غاروش، جيد، رائع.

- غاروش!

- أوغورزي، ردت ناديجدا إيفانوفنا.

أومأ فيلهلم:

- غاروش!

طلب أن يُفتح البرطمان (طلب إلى ميليش - كورت لن يتمكن بأصابعه المثقفة أن يفتحه) وأكل علناً خيارة روسية. في الماضي كان يدخن سجائر البابيروسي الروسية والآن يأكل أقله خيارة روسية.

- غاروش، قال فيلهلم.

- إنك تلوث ملابسك، قالت شارلوته.

- هراء.

أين غاب أمين عام المقاطعة؟

في المقابل جاء طفل. ومعه صورة في يده.

- ماركوس ابن حفيدك، قالت شارلوته.

منذ متى؟ قرر فيلهلم ألا يسأل. تأمل الصورة، كما يتأمل المرء الصور التي يهديها إليه الأطفال وكان مندهشاً عندما تعرف إلى الصورة:

- إنها إغوانة!

- إنها سلحفاة مائية، قال الطفل.

- ماركوس يهتم بالحيوانات، قالت المرأة الواقفة بجوار الطفل، غالباً أمه. قرر فيلهلم ألا يسأل، بدلاً من ذلك قال:

- عندما أموت يا ماركوس، سترث أنت الإغوانة الموجودة على الرف.



twitter @baghdad_library

- رائع، قال الطفل.

- أو من الأفضل أن تأخذها الآن معك.

- الآن! سأل الطفل.

- خذها معك، قال فيلهلم، فأنا لن أبقى طويلاً بأي حال من الأحوال.

تابع الطفل بعينيه وهو يقوم بجولة لمصافحة كل الحاضرين بأدب، بعدها ذهب إلى المكتبة وتأمل الإغوانة من كل الجوانب من دون أن يأخذها... ضغط فيلهلم على أسنانه.

جاء رجل في بذلة بنية ونظارة ذات إطار ذهبي. لماذا لم يقترب منه؟ لماذا بقي واقفاً هناك؟

- من أنت، لماذا لا أعرفك؟

تبين أنه نائب أمين عام المقاطعة، لماذا النائب؟

- للأسف تعذر على الرفيق يون المجيء شخصياً، قال النائب.

- آه هكذا، قال فيلهلم، أنا أيضاً تعذر عليّ ذلك شخصياً.

ضحك الجميع، وانزعج فيلهلم.

فتح الرجل ملفاً أحمر. وبدأ يتكلم. كانت عيناه زرقاوين. وكان لصوته تقريباً الاستجابة الترددية نفسها لسماعة هاتف. لم يفهم فيلهلم ما الذي يقوله الرجل، وانزعج. كان الرجل يتحدث وكلماته تقرقع، تقرقع فوق رأس فيلهلم من دون أن تشي بمعناها. ضجيج، هراء. فكر فيلهلم. التأهل كعامل للصناعات المعدنية، دخول الحزب... الهجرة

إلى باريس. فجأة فهم. كانت تلك سيرته الذاتية. هذا الذي خرج من فم النائب وقرقع فوق رأسه بلا معنى - كان سيرته الذاتية. السيرة الذاتية التي كتبها عشرات المرات التي حكاها مراراً لجنود الحدود ولعمال مصنع كارل ماركس وللرواد الصغار، وكالعادة يغيب عنها دائماً الشيء الأهم.

صفق الجميع. أقبل النائب على فيلهلم وفي يده وسام، يشبه عشرات الأوسمة التي يحتفظ بها فيلهلم في علبة الحذاء:

- لدي صفيح كاف في الكرتونة، قال فيلهلم.

ضحك الجميع.

انحنى النائب عليه وعلق له الوسام.

الجميع صفقوا، ومعهم أيضاً النائب الذي أصبحت يداه فارغتين.

فُتح البوفيه البارد، وبدأت حركة غير منتظمة ما بين الغرفتين حتى وجد الناس بأطباقهم مكاناً إلى الموائد الكبيرة والصغيرة. جلس فيلهلم بعيداً في كرسيه المجنّح وشرب من كوبه الألومنيوم ذي اللمعة الخضراء. فكر في الأهم، في ما هو ناقص. في هامبورغ ومكتبه في الميناء. في الليالي والريح. وفي مسدسه الـ «كوروفين» من عيار ستة ملم، ٣٥. لم يفكر في المسدس بل تذكره. شعر بلمسه بيده وبوزنه - تذكر الرائحة بعد الضغط على الزناد...لأجل ماذا، فكر فيلهلم.أغلق عينيه.كان ثمة طنين في رأسه. لغط. لا معنى له. هراء. فقط من حين إلى آخر يسمع - أم أنه يتهيأ له ذلك - يسمع وسط اللغط نباحاً متحشرجاً: تشوف!... ومرة أخرى: تشوف - تشوف...

فتح فيلهلم عينيه فترة قصيرة: كورت، من سواه! أنت أيضاً نفسك



twitter @baghdad_library

واحد من هؤلاء التشوف، فكر فيلهلم. انهزامي. كل العائلة! ما عدا إيرينا، لقد كانت أقله في الحرب. أما كورت؟ في أثناء ذلك كان كورت في المعتقل. كان عليه أن يعمل - يا له من شيء مريع - بيديه هاتين اللتين لم يستطع بهما فتح برطمان خيار، فيما خاطر آخرون بحياتهم. هناك آخرون، فكر فيلهلم، ضحوا بحياتهم في النضال من أجل القضية، كان يود لو وقف وتحدث عن هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم من أجل القضية. كان بإمكانه أن يحكي عن كلارا التي أنقذت حياته. عن فيلي الذي تغوط في سرواله من كثرة خوفه، عن زيب الذي عُذب حتى الموت في أحد أقبية الغستابو لأن ثمة خائناً ما لم تتم تصفيته. هكذا جرت الأمور أيها البروفيسور المتحذلق الذي لم يستطع فتح برطمان خيار. هكذا كانت الأمور في الماضي واليوم. كان يود لو يقول ذلك وكان يود أن يقول أيضاً شيئاً آخر عن الأمس واليوم. وعن الخونة. وكان يرغب أيضاً أن يقول ما الذي كان يجب عمله الآن وأين كمنت المشكلة، لكن لسانه كان ثقيلاً ورأسه كان هرماً جداً لكي يصنع كلمات من كل هذا الذي يعرفه. أغلق عينيه وأسند ظهره إلى كرسيه المجنّح. لم يعد يسمع الأصوات. بقي الطنين في الرأس فقط، مثل رجرجة ماء حوض الاستحمام في الصباح، ومن هذه الرجرجة نتجت نغمة، ومن هذه النغمة تولدت كلمات. فجأة أصبحت هذه الكلمات التي بحث عنها حاضرة: بسيطة وحزينة وطبعاً تلقائية جداً بحيث نسي في اللحظة نفسها أنه نسيها:

غنّى بصوت خفيض لنفسه مشدّداً على نطق كل مقطع. في إيقاع زاحف بعض الشيء، لقد لاحظ ذلك. وباهتزاز مقصود في الصوت:

الحزب الحزب الحزب دائماً على حق

وسيبقى على حق يا رفاق

لأنه يناضل من أجل الحق
إنه دائماً علـى حق
ضد الكذب والاستغلال
من يهن الحياة
إما غبي وإما شرير
من يدافع عن البشرية
هو دائماً على حق
هكذا هو ينمو بالروح اللينيني،
وبعرق ستالين
الحزب الحزب الحزب.



twitter @baghdad_library

## ١٩٧٣

ثم توقفت سيارة النقل وانفتح باب مؤخرتها.

وظهر رأس. كان يعتمر طاقية عسكرية. بدأ الرأس يصرخ وتكونت على أسنانه بضع فقاعات من اللعاب، ومضت في ضوء أعمدة الإنارة قبل أن تتلاشى.

بخلاف ذلك لم يكن ثمة شيء مفهوم مما قاله الرأس: لغة غريبة لم يكن بها تقريباً سوى حروف متحركة.

ظهر رأس ثان، ثم رأس ثالث، في اللحظة التالية صار أربعة أو خمسة ممن يرتدون الزي العسكري يقفون عند باب مؤخرة السيارة ويصرخون، يمتزج صراخهم بعضه ببعض ويحاولون أن يتفوقوا بعضهم على بعض في الصراخ.

بدأت حركة تحت غطاء صندوق السيارة. أمسك الناس بحقائبهم وأكياسهم وبدأوا القفز واحداً تلو الآخر من صندوق السيارة. تعثروا في الظلام في شيء ما وظلوا عالقين. قفز ألكسندر أيضاً ولامست يده الأرضية الخشنة للساحة التي تشبه أرضية مضمار الملعب.

في اليوم التالي بدأ يفهم هذا الصراخ. (معتاآآل ماش) كانت تعني

معتدلاً مارش و(كيباه أنباه) كانت تعني كتيبة انتباه، مع تنويعات في النطق من شخص إلى آخر.

في اليوم الثالث أصبح يفهم كل الجمل المترابطة بكلمة «مؤخرة»: حرك مؤخرتك أيها الفاشل وإلا سأجعل الماء يغلي فيها أو أيضاً من العبارات المفيدة: في أثناء الجري تكون المؤخرة هي أعلى نقطة في الجسم.

في اليوم الرابع كان لديهم أول درس سياسي: الفاشية الجديدة والنزعة العسكرية في جمهورية ألمانيا الاتحادية. من كان ينعس كان عليه أن يقضي بقية المحاضرة واقفاً.

في اليوم الخامس حصل على أول رسالة من كريستينا، فتح الظروف على الفور وقرأ الرسالة وهو في الطريق إلى العنبر، ثم قرأها مرة أخرى بشكل جيد، ثم وضعها في جيب الصدر وقرأها في السرير مساء.

اليوم السادس كان يوم أحد، وكان يسمح للجنود يوم الأحد بالذهاب إلى ما يسمّى بالقاعة الثقافية الخاصة بالفرقة، إذا ما ارتدوا زي الخروج. بل كان يسمح لهم أيضاً بشرب القهوة التي أحضروها معهم.

لم تكن لدى ألكسندر قهوة يحضرها معه. ظل في العنبر. قرأ رسالة كريستينا للمرة الخامسة أو العاشرة أو الخامسة عشرة وهو راقد في سريره. قرأ بارتياح أنها «كانت حزينة طوال اليوم» بعد مغادرته، وقرأ بعدم رضا أنها ستذهب في نهاية الأسبوع مع زميلة لها في المكتبة إلى بحيرة شارموتسل، لكي «تشغل نفسها قليلاً». وقد لامها قليلاً - في رده - بسبب ذلك. ثم شطب لومه وبدأ يكتب من جديد. وصف المنظر



twitter @baghdad_library

من النافذة: مجمع من المباني الجديدة ووراءه سور. كان في إمكانه أن يكتب: ووراءه منطقة لتدريبات الدبابات. لكنه لم يكن متأكداً إن كان ذلك من الأمور العسكرية التي يجب حجبها عنها، كما قيل لهم؟ هل تمت مراقبة الرسالة؟

في اليوم السابع وقفوا في الميدان خط لصف (ما يعني: في ثلاثة صفوف) وانتظروا شيئاً ما (تعلم ألكسندر أن الوقوف والانتظار من الأشغال الأساسية للجندي). ما زال لديه صداع خفيف ناتج من حرمانه من القهوة كما أن الخوذة المعدنية تضغط على رأسه، وكان يحمل حقيبتي العتاد على ظهره وحقيبة قناع الغاز حول رقبته والكلاشينكوف على كتفه. أذناه كانتا عاريتين، وهو ما لم يكن قد تعوّده بعد، وبدأتا تقرصانه مع الريح العنيفة، التي كانت تصفر تحت خوذات الجيش الشعبي الوطني الضخمة. لكنهم وقفوا في ثبات، فلم يكن مسموحاً لهم أن يحركوا ساكناً. نظر ألكسندر إلى قفا زميله الواقف أمامه، وإلى أذنيه اللتين بدتا تماماً كأذني ألكسندر - تحديداً لونهما أحمر فاقع - ما جعل ميك جاغر يخطر بباله. وتساءل ما الذي يفعله يا ترى شخص مثل ميك جاغر في الوقت الحالي فيما يحدق هو إلى الأذنين الحمراوين لزميله الواقف أمامه وسط ميدان التدريب المسمى كاتسنكوبف. تذكر بشكل غائم صورة في مجلة غربية: ميك جاغر في غرفة نومه، مرتدياً بلوفر من الصوف الناعم الوثير، وطماقاً، يبدو أنثوياً بعض الشيء وكان ناعساً، على الأغلب استفاق تواً من النوم، ربما، هكذا تخيل ألكسندر، سيذهب في اللحظة التالية إلى مطبخ كبير مشمس ويعد القهوة، إذا لم يكن ثمة من يعدها له، وسيأكل شطيرة طازجة بالجبن مع العنب (أو من يدري، ماذا يأكلون هناك) وفي أثناء زحف ألكسندر ككلب البحر

فوق تل كاتسنكوبف وقيامه بتدريبات الرماية من دون ذخيرة وتدريبات القفز المنفرد، سيدندن ميك جاغر قليلاً على الجيتار ويدون بعض الملاحظات، أو ستنقله سيارة ليموزين عجيبة إلى الاستديو لتسجيل أغنية جديدة، سيقدمها في جولته القادمة لجمهوره في العالم، وهي جولة لن يحضر ألكسندر أياً من حفلاتها مثلما لم يكن في أي جولة من جولات رولينغ ستونز ولن يكون أيضاً في أي منها، هكذا فكر ألكسندر وهو واقف على تل كاتسنكوبف حاملاً حقيبتي العتاد ذواتي الرقم واحد واثنين ومعتمراً الخوذة الحديدية، يحدق إلى أذني زميله الحمراوين الواقف أمامه، لن يحضر أبداً حفلة حية لرولينغ ستونز. لن يرى أبداً باريس أو روما أو المكسيك ولا وودستوك، ولا حتى غرب برلين بتظاهراتها العارية وثورة طلابها، بحريتها الجنسية ومعارضتها غير البرلمانية، لن يشهد شيئاً من ذلك، لأنه بين هنا وهناك، بين هذا العالم وذاك، بين العالم الصغير الضيق الذي سيتحتم عليه قضاء حياته فيه والعالم الكبير الواسع الذي توجد فيه الحياة الحقيقية، كانت ثمة حدود تمر، بل سينبغي له هو نفسه، ألكسندر أومنيتزر، أن يحرسها أيضاً قريباً.

كان ذلك في اليوم السابع.

في اليوم الخامس والعشرين كان أداء القسم. بدأت المراسم في إحدى الساحات خارج الثكنة. خطب وأعلام وطبول وآلات ترومبيت. ثم أدوا القسم الذي تحتم عليهم حفظه عن ظهر قلب في درس السياسة. كان قادتهم يمرون عبر الصفوف ويتأكدون أن كل شخص ينطق فعلاً بالقسم.

بعد أداء القسم حصلوا للمرة الأولى على تصريح بالخروج. جاءت كريستينا ووالداه لزيارته. بكت أمه، عندما رأته في الزي العسكري.



twitter @baghdad_library

عمل ألكسندر على تهدئتها سريعاً قائلاً إنه في حال جيدة ولا توجد حرب بل الطعام مستساغ أيضاً.

كان عناق كريستينا بعد نحو شهر تقريباً غريباً. كانت أقصر وأرق من صورتها التي احتفظ بها في ذاكرته، ومحاطة بهالة من الأنوثة الطاغية. تنشق ألكسندر الهواء الذي تثيره حركاتها، شعر بنفسه مكبلاً ومضحكاً في زيه العسكري الخشن الذي لم يناسب قياسه، وبقصة شعره السيئة التي تشبه طبقاً مقلوباً والطاقية السخيفة. ظن لثانية أنه رأى الفزع من منظره في وجه كريستينا، التي غرقت بعدها في بهجة في غير محلها.

ذهبوا إلى مدينة غير معروفة اسمها هالبرشتات كانت تعج بالجنود وأسرهم. كانت المطاعم مكتظة. وارتأت كريستينا أن يبحثوا عن مطعم بعيد قليلاً عن المدينة، لكن تصريح خروج ألكسندر كان مقصوراً - بالطبع - على هالبرشتات. لذلك أكلوا في مطعم مزدحم لم يكن فيه سوى وجبة واحدة من شرائح اللحم مع صوص الليتشو. لم تأكل إيرينا بل دخنت. تحدثوا في أثناء انتظارهم الطعام عن أمور شتى، فكورت كان يكتب مؤلفه عن لينين في المنفى السويسري ويأمل مع تولي إيريش هونيكر رئاسة الدولة أن ينشر الكتاب قريباً. تعرض فيلهلم مجدداً لوعكة صحية شديدة - ووجد ألكسندر نفسه يفكر في أنه لو مات فيلهلم فربما يحصل على إجازة خاصة لحضور الجنازة. قررت بابا ناديا أن تنتقل للعيش في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ولأن الإجراءات البيروقراطية تستغرق شهوراً، إن لم تكن سنوات، فهم قلقون إن كانت السيدة العجوز ستظل باقية على قيد الحياة طوال فترة الانتظار في سلافا. ثم غادر كورت وإيرينا لكي يستطيع الولدان أن يختليا معاً بعض الوقت.

كانت أمامهما أربع ساعات، قرر ألكسندر أن يُري كريستينا ثكنته العسكرية. صعدا عبر الجبل الطريق المعبد بالألواح الخرسانية الذي يؤدي مباشرة إلى منطقة تدريب الدبابات وبدأ ألكسندر يحكي عن المسيرات بالخطوة السريعة مع حمل العتاد، وعن البثور في قدمه وعن مقابض صناديق الذخيرة التي تتسبب بجرح يده وعن قنابل التدريب الخطيرة وعن الإشعاع، بل حكى بشيء يقارب الفخر عن موت شخص في الفرقة المجاورة بعد أن تقيأ في قناع الغاز من دون أن يلحظ مدربوه ذلك. وشعر ألكسندر في أثناء تعليق كريستينا على حكايته متفهمة بقولها آه هكذا إذن أو متأسية بقولها يا إلهي، أن كل الأمور كانت تسير بشكل ما على نحو خاطئ، ليس بسبب المبالغات التي انزلق فيها وليس بسبب النوادر الصغيرة التي بدأ لا إرادياً بإضافتها إلى قصصه، وإنما ببساطة بسبب الخطأ المتمثل في أن المشكلة بعيدة كل البعد عما يتحدث عنه.

على اليسار خلف أسوار من الألواح الخشبية برزت الثكنة الروسية التي بدت زاهية الألوان بطابع مشرقي، بالمقارنة بثكنتهم (كان السور أخضر والمباني صفراء، وأحجار الرصيف مرشوشة بالجير وقد طليت النجمة الحمراء حديثاً على البوابة). وعلى الجانب الأيمن يمكن من بعيد ومن خلف الأسوار الشائكة رؤية مبنى فرقة تدريب حرس الحدود (مسطح ورمادي ومربع). عد ألكسندر النوافذ في صمت لكي يُري كريستينا «عنبره»، لكنه تخلى عن ذلك. ما الذي كان يفصح عنه منظر النافذة؟ ماذا يقول منظر مجمع مبان جديد عن السفه الحالي عن الشعور بالحبس وعن التفاصيل الصغيرة المحددة التي كانت تملأ اليوم وتصنعه: هذا القرب البدني الدائم من رفاق العنبر، وبذاءاتهم قبل النوم، وجواربهم التي يضعونها في أحذيتهم ليتبخر عرقها، أو الوقوف



twitter @baghdad_library

صباحاً في طابور أمام المبولة، مع مئة رجل وأن تكون عن غير رغبة شاهد عيان على نفض وطرد وحلب آخر قطرة بول لزميل آخر.

لم تجد كريستينا «منظر الثكنة مفرحاً» لكنها رجحت أن يكون «للمبنى الجديد» فوائد مثلاً من ناحية النظافة والعناية الصحية.

صمت ألكسندر. صمت طوال طريق عودتهما صمتاً فولاذياً، لكن دون أن يبدو على كريستينا أنها لمحت ذلك، وقرر ألا يتفوه بأي كلمة بعد ذلك - لكنه عاد إلى الكلام في المقهى الذي جلسا فيه وشربا قهوة لا لزوم لها. تكلم وانزعج من نفسه لأنه لم يستطع أن يمسك نفسه عن الكلام وأنه ما زال يتحدث عن الجوارب والمبولات، احتقر نفسه لذلك لكنه كان غاضباً من كريستينا التي كانت تنظر في أثناء حكيه إلى ساعتها وبدأت بإسكاته - ببعض العصبية وبشيء من حسن النية - ونجحت في ذلك تماماً بقولها:

- فكر في أبيك، لقد خاض تجربة أصعب بكثير.

رافق كريستينا إلى المحطة. كان الوقت قد انقضى. سارت كريستينا إلى جانبه بهالتها وبشعرها الملائكي، كانت يدها باردة وخطواتها قصيرة. كرهها ألكسندر فجأة، واشتاق إليها في الوقت نفسه. لكنها تحررت منه وتركته هذا الشكّاء البكّاء بقصة شعره التي تشبه طبقاً مقلوباً وبزيه العسكري. لكنه أمسكها وحشرها في مدخل بيت واعتقد أنه عليه أن يصيبها بعدوى رغبته النهمة وظن أن عليه أن يلجأ إلى العنف عندما قاومت، حاول أن يجعلها تستدير، ومزق جزءاً من كولونها، لكن كريستينا دافعت عن نفسها بقوة مذهلة، وأنّت أنيناً غريباً ثم وقفا متواجهين وهما يلهثان، أدار ألكسندر ظهره لها وانصرف.

لم تكن الساعة قد بلغت التاسعة مساء. جلس ألكسندر ثانية في

إحدى الحانات وطلب بيرة وبراندي، ثم بيرة أخرى وتابع حركة النادلة، وتأمل فخذيها المكتنزتين اللتين تكاد تغطيهما تنورة سوداء وتحتكان إحداهما بالأخرى حينما تسير في الحانة (بالمقارنة بكريستينا التي يوجد فراغ بعرض إصبع بين فخذيها). وألكسندر كان على استعداد ومن دون أي تفكير أن يدفع راتب جندي كاملاً يبلغ ٨٠ ماركاً بالإضافة إلى أربعين ماركاً أخرى فضلاً عن الخدمة على الحدود مع حسم ثمن البيرة والبراندي اللذين طلبهما، في مقابل أن يضع يده بين هاتين الفخذين اللحيمتين لنادلة مطعم «هارتسفوير». طلب بيرة قبل أن ينهي ما قبلها، وسأل النادلة عن اسمها، قالت إن اسمها بيربل، ثم أوضح لها بترقب غامض أن لديه تصريح خروج حتى الثانية عشرة ليلاً. ابتسمت وأبعدت خصلات شعرها الكستنائي عن وجهها وجمعت منافض السجائر والكؤوس الفارغة وجلبت كؤوساً أخرى مترعة وتحركت بلدانة سمكة بين الموائد التي كان يشغلها جنود في الأغلب، ثم اختفت وظهرت ثانية ورمقته بنظرات قصيرة واعدة، وكشفت في أثناء ابتسامتها عن أسنانها البارزة التي تشبه أسنان القوارض، وفي نهاية المطاف أحضرت له الحساب عوضاً عن البراندي الجديد الذي طلبه، ورفضت الحلوان السخي الذي دفعه لها وذكرته بصرامة أن عليه أن ينصرف الآن إن أراد أن يصل إلى الثكنة في موعده.

ثم سار بطول الشارع الخرساني، وفوقه سماء ضخمة ملأى بالنجوم تميل باستمرار إلى الانهيار. وفي بطنه شريحة لحم مع صوص الليتشو، تميل إلى أن تقفز خارجة منه، لكن كل شيء لم يتغيّر بالنسبة إليه، تعجب فقط من أنه كان يسير فعلاً باتجاه الثكنة وأنه كان سيدخلها مرة أخرى طوعاً لو لم تدهسه سيارة في الطريق، ولم تتضح له أسباب عدم قدوم تلك السيارة. عندما رقد في السرير، ورغم الظلام، بدأ كل شيء



twitter @baghdad_library

يدور به ولم يعد في استطاعته السيطرة على شريحة اللحم مع صوص الليتشو، التي هبطت في أحد الأحواض العشرين بحجرة غسل الفرقة بدلاً من هبوطها في المرحاض. ثم ظهر ضابط الصف المناوب وطلب إلى ألكسندر أن يرتدي زي العمل الميداني (كانت مهمة صعبة جداً) ثم ذهبا معاً عبر أرض الثكنة، وحكى ألكسندر لضابط الصف المناوب أنه كان يحب كريستينا وأن كليهما كان ينادي الآخر بـ «بوني» لا ليس (Pony) وإنما (Bonny) كما في الأغنية ثم وصلا إلى المخفر، فأخذوا من ألكسندر حزامه وأدخلوه غرفة صغيرة لم يكن فيها شيء سوى مرقد لم توجد على شبكة نوابضه الحديدية ولا حتى مرتبة، وعندما أُخرج ألكسندر في صباح الأحد من غرفة الحجز لكي ينظف حوض الغسل الذي تقيأ فيه قبل أن تصحو بقية الفرقة، اكتشف، عندما نظر إلى واحدة من المرايا العشرين الموجودة في حجرة الغسل، أثر النوابض الحديدية للسرير مطبوعاً على نصف وجهه الأيمن.

في ذاك الأحد أيضاً كتب رسالة إلى كريستينا. لكن كريستينا التي كانت تكتب له حتى ذاك الوقت يومياً، لم تكتب له، أقله لم تصله منها أية رسائل، لا يوم الثلاثاء ولا يوم الأربعاء. وفي يوم الخميس هدد ألكسندر بالانفصال وكان سيسحب تهديده يوم الجمعة لولا أنهم تلقوا إنذاراً بالاستعداد لعملية عسكرية.

سلموه للمرة الأولى ليس سلاحاً فحسب ولكن أيضاً خزنتي ذخيرة ممتلئتين، بكل واحدة منهما ثلاثون رصاصة. وفي أثناء الطابور الأخير قبل الانطلاق أوضح قائد الفرقة وكان قصير الساقين بصوت حاد، أنهم موجودون في هذا القطاع الحدودي لحفظ تخوم البلاد، وأن الوضع كالآتي:

انطلق جندي من الجيش السوفياتي بحافلة من طراز إيكاروس وبندقية كلاشينكوف وستين رصاصة، على الأغلب باتجاه المنطقة الحدودية ما بين شتابلبورغ وبروكن.

تحركوا بالسيارة لمسافة تزيد على ساعة ونصف الساعة ثم قُسموا مجموعات مكونة دائماً من ثلاثة أشخاص، وتُركوا في الغابة، كان ألكسندر مع كالّه شميت الذي كانت يداه ترتعدان وبيرينغر الذي قال عدة مرات في العنبر علناً:

- إذا ما تركني الأوغاد عند الحدود فعلاً فسأهرب.

ثم رقدوا عند مفترق طرق في الغابة. لم يعرفوا بالضبط أين كانت الحدود. من بعيد نبحت الكلاب. وسرعان ما حل الظلام بحيث لم يعودوا يرون بعضهم بعضاً وفي الغابة كان ثمة ضجيج وصرير وسمعوا وقع خطوات من كل حدب وصوب، هيأ كاله سلاحه وطالب الأشخاص غير المرئيين أن يقولوا كلمة السر الحالية وكذلك هيّأ ألكسندر سلاحه ورأى أشباحاً كلما حدق طويلاً إلى الطريق الذي يصعب تحديد معالمه وانتبه إلى كل صوت يأتي من اتجاه بيرينغ.

في الرابعة عصراً بدأوا خدمتهم وفي الثانية عشرة عند منتصف الليل سمعوا صوت محرك سيارة نقل البدلاء: ثماني ساعات، هي مدة نوبة الحراسة العادية على الحدود - كانت تلك هي المهمة التي ستعهد إليهم بعد انتهاء فترة تدريبهم في وحدة الحدود، ثماني ساعات يومياً في نوبات متغيرة لعام كامل. كان ألكسندر يتساءل حائراً كيف سيتمكن من الصمود طوال هذا الوقت، لم يكن يعرف حتى إن كان سيصمد حتى أعياد الميلاد، أو أن يصمد حتى يرى كريستينيا في المرة المقبلة.

خطرت الفكرة لألكسندر في اللحظة التي نسي فيها طالب الكلية



twitter @baghdad_library

العسكرية فحص تأمين سلاحه. قام الطالب بفحص التأمين حسب التعليمات مع زميليه الآخرين كاله وبيرينغ قبل أن يصعدا إلى صندوق السيارة، ثم رجع سائق السيارة إلى الخلف وكاد يصدم الطالب، وفي أثناء توبيخ هذا الأخير للسائق، كان ألكسندر قد صعد إلى داخل صندوق السيارة وجلس صامتاً بين الآخرين واضعاً بين ركبتيه سلاحاً جاهزاً للإطلاق. وتنبأ بما سيقع بعد الحادث، الذي سيمكن تفسير وقوعه بسهولة، حيث إن الطالب نسي إجراء فحص التأمين نتيجة لخطأ السائق وإن السلاح لم يكن مؤمناً بعد بل كان لا يزال مضبوطاً على الطلقات المنفردة، وقد يكون ألكسندر قد غفل عن ذلك ومن المحتمل أيضاً أن أحد أجزاء عتاده قد علق بالزناد بحيث انطلقت الرصاصة وأصابت جزءاً من جسمه، تمكن من اختياره بكل هدوء، إنه ذراعه اليسرى التي وضعها «مصادفة» على فوهة الكلاشينكوف. كانت بضعة مليمترات تفصله عن حالة غير اللائق للخدمة العسكرية. كانت إبهامه فوق الزناد وكان يكفي أن يأتي مطب، أو المرور بطريق السيارة الوعر إلى مدخل الثكنة، لكن ألكسندر لم يكن واثقاً إن كان السلاح مضبوطاً على الطلقات المنفردة أم على الطلقات الآلية، بحيث إن الضغط على الزناد قد يخرج على الفور طلقتين أو ثلاثاً، والسؤال كان هو ما الذي سيتبقى من ذراعه.

لم يُلاحظ إلا عند تسليم الأسلحة أن خزنة الذخيرة الكاملة كانت مثبتة في السلاح الذي كان جاهزاً للإطلاق، وعندما استدعي ألكسندر إلى قائد المعسكر، كان يتوقع توبيخاً وكان مستعداً لكل ما يمكن أن يحدث له، حتى ولو كان قضاء بقية الليلة على هذه النوابض الحديدية. لكن المفاجئ أن قائد الفرقة قد دعاه للجلوس وكادت النبرة المرحة التي خاطبه بها أن تدفع ألكسندر إلى أن يصحح له قائلاً: زوج جدتي

- فلم يناد ألكسندر فيلهلم قط بـ«جدي»، ولا حتى ناداه بـ«زوج جدتي»، وربما لهذا تخلى عن تصحيح قائد الفرقة ولحسن الحظ: فالخبر الذي أبلغه إليه قائد الفرقة كان هو أن جده الرفيق بوفيلايت يرقد في المستشفى لإصابته بالتهاب رئوي حاد وحالته خطيرة جداً، بحيث يجب على ألكسندر أن يستعد لأسوأ الأمور.

أومأ ألكسندر وتقمص تعبيرات وجه صاحب مصاب أليم، فيما كان يهلل في سره لحصوله على تصريح الإجازة:

- أتمنى أن تصل في الوقت المناسب.

في الصباح التالي ركب ألكسندر في القطار وألمّ به تعب مصحوب بقشعريرة، لكنه لم يرغب في النوم. نظر من النافذة فبدت له الطبيعة برغم فقرها في آخر الخريف ملونة ومزدهرة. في كل مكان كان ثمة شيء جدير بالرؤية، قرى وأبقار وأشجار وأناس يسيرون في دعة في أحد الشوارع حتى آخره. أثر فيه لطف المحصل، مجرد أنه لم يصرخ في وجهه، بل طلب منه التذكرة فقط ومن لطف الركاب الذين سمحوا له بالمرور قبلهم حتى ولو كان ذلك بسبب تشوشهم فحسب، وتحدثوا معه وكأنه شخص طبيعي تماماً.

استغرقت الرحلة وقتاً طويلاً مع تغيير القطارات مرتين. ركب من محطة بوتسدام الترام مدة عشرين دقيقة حتى وصل إلى وسط المدينة القديم ذي الطابع الباروكي الذي رُمّم محوره الرئيس (الذي أُطلق عليه اسم كليمنت غوتفالد، قاتل رودولف سالانسكي)[1] على مدى سنوات

(١) كليمنت غوتفالد (١٨٩٦-١٩٥٣) كان رئيساً لتشيكوسلوفاكيا وفي عهده أُعدم أمين عام الحزب الشيوعي رودولف سالانسكي (١٩٠١-١٩٥٢) بتهم اعتناق التروتسكية والصهيونية والتعامل مع الاستخبارات الغربية.



twitter @baghdad_library

طوال. لكن يكفي أن يبتعد المرء بضع خطوات عن المحور الرئيس حتى يجد المرء نفسه في شارع عادي جداً ومتداع ذي مساكن من طبقتين كانت في الأصل جميلة، لكن واجهاتها الآن رمادية وسوداء ومبقعة بسبب ميازيب الأمطار المثقوبة في السطح. هنا كان يمكن التعرف من طلاء الواجهة، إن كان لا يزال موجوداً، إلى آثار طلقات رصاص من الحرب الأخيرة.

شارع غوتنبرغ رقم ١٦ كان الجرس معطلاً. وباب البيت كان كما في كثير من الأحيان مغلقاً: كانت السيدة بافلوفسكي تخاف على قططتها. لحسن الحظ ظهرت في الشباك تواً مع القططة وتعرفت إلى ألكسندر بعد أن دققت النظر قليلاً. وبرغم أنها كانت تعتبره دائماً دخيلاً تجب محاربته، أشفقت عليه لأنه كان واقفاً في الزي العسكري أمام باب البيت، وأشارت إلى الطابق الأخير وكونت من وراء الزجاج جملة يسهل قراءتها على شفتيها:

- سأخبرها!

بعد لحظات دار المفتاح في باب البيت وظهرت كريستينا، بشعر أشعث قليلاً وقد شمرت ذراعيها ووضعت مريلة في رقبتها.

- آه، هكذا قالت، مجرد: آه وأشارت إليه برأسها أن يدخل.

سار وراءها، تشمم رائحة الممر المعروفة له (مزيج من رائحة العفن وبول القططة)، تأمل بإخلاص الحوض الدائري المطلي بالميناء في الطبقة العلوية التي كانا يأخذان منها الماء. وتبع كريستينا صاعداً السلم الخشبي المعوج ذا الصرير إلى طابق السطح الذي يفصل فيه حائطان من الخشب والطين بضعة أمتار مربعة بعضها عن بعض: غرفة كريستينا، وغرفته هو أيضاً، «عنوان بيته» منذ أن انتقل إليه قبل عام تقريباً

(احتجاجاً على والديه وكان لا يزال تلميذاً بعد)، والآن آلت الغرفة إلى كريستينا: من اللحظة الأولى شعر وكأنه زائر. وبدلاً من نزع زيه العسكري أولاً وحشره في الركن، كما كان قد عقد العزم، جلس على أحد الكرسيين الدوارين، وهما مكانا الجلوس الوحيدان في الغرفة ورأى كريستينا واقفة إلى جوار الثلاجة بكمين مشمّرين ومريلة مربوطة بإحكام حول وسطها، تغسل الأطباق، حاول تخمين مزاجها ونظر منبهراً إلى كيفية رصها للأطباق والفناجين بعضها فوق بعض لتجف، وكيف أنها كانت تضع عمود التسخين الكهربائي في القدر الألومنيوم الطويلة لتحصل على ماء ساخن نظيف لغسل الأطباق، وبدت كل حركة من حركاتها مثيرة لدرجة تكاد لا تحتمل.

- هل تريد قهوة؟ سألت كريستينا.

لم يرغب ألكسندر في القهوة.

بعد أن غير ملابسه (اعتبر بقاء ملابسه في شارع غوتنبرغ إشارة جيدة)، ذهبا بالقطار إلى نويندورف وزارا والديه، وشعرت إيرينا بالإحباط لأنهما لم يبقيا إلى المساء بل أرادا الذهاب إلى هذا المرقص المسمى «بيرغ» (كريستينا أرادت الذهاب إلى هناك، فيما كان ألكسندر يفضل قضاء ليلة هادئة معها، لكنه اعتبر إصرارها على الذهاب إلى الرقص إشارة جيدة أيضاً، فقد قالت إنها ظلت شهرين باقية وحدها في الغرفة) - لهذا أعدت إيرينا عشاء «بسيطاً». أكلوا معاً، في الواقع أكل ألكسندر وحده: فإيرينا وبرغم أنها كانت تشكو دائماً أنها لا تعرف شيئاً من أخبارهما، اختفت على الفور في المطبخ لتدخن، وأخذت تعاود الذهاب إلى المطبخ لتدخن وتجيء مندفعة لتلقي ببعض التعليقات الغامضة، أما بالنسبة إلى كورت فكان الوقت مبكراً للعشاء (أنت تعرف



twitter @baghdad_library

معدتي!)، قلبت كريستينا بعض الشيء في حساء البصل الذي صنعته إيرنيا سريعاً. ولم يأكل أحد سوى ألكسندر الذي لم تكن في معدته سوى شطرة مرتديلا. ابتلع فيليه لحم الخنزير المدخن والجبن البلغاري وأكل في النهاية أيضاً حساء كريستينا، في أثناء إنصاته إلى حديث المائدة الذي عرج على موضوعات شتى، انطلاقاً من النقص الذي تعانيه جمهورية ألمانيا الديمقراطية حالياً، انتقل الحديث من نقص البصل، إلى أزمة النفط في الغرب (حيثما ولله الحمد لا يكلل كل شيء بالنجاح أيضاً) ومن ثم إلى حرب يوم كيبور والنازيين القدامى في جيش عبدالناصر إلى «الحرب بين الجنسين» (وهو فيلم عُرض قبل فترة قصيرة في تلفزيون الغرب) ثم العودة ثانية إلى عالم الواقع وتحديداً الحديث عن المكتبة التي تعمل فيها كريستينا (حيث عينوا منفياً من تشيلي شهد مصرع المطرب والمسرحي فيكتور خاراس) وأخيراً وبعد الشكوى التي لا مفر منها عن غباوة القراء، انتقل الحديث إلى أحد المراجع السياسية التي تتشارك كريستينا وكورت في السخرية منه، لأن اسم سلف هونيكر قد مُحي تماماً من الكتاب بعد أن كان مطبوعاً على كل صفحة فيه تقريباً. كما هي الحال لدى جورج أورويل، علقت كريستينا، التي كانت تقرأ تواً جورج أورويل وعندما قالت ذلك لوت فمها أو بمعنى أدق لوت جانباً من فمها، بحيث إن زاوية فمها (زاوية فمها فقط) انفرجت كاشفة عن صفين كاملين من أسنانها تقريباً، ما أضفى عليها تعبيراً متهكماً وبارداً - كما يحدث دائماً عندما تتحدث عن كتب لم يكن ألكسندر يعرفها. ثم اكتشفا أنهما ضيعا الكثير من الوقت في الكلام، وتبرعت لهما إيرينا - بصورة استثنائية - بأجرة التاكسي. وبعدما وصل التاكسي وهبط ألكسندر وكريستينا الدرج

الحجري ووقف كورت وإيرينا عند المدخل كلاهما في حضن الآخر يلوح كل منهما لهما بذراعه الخالية - عندئذ تذكروا فيلهلم واتفقوا على أن يمر والدا ألكسندر عليهما غداً في الحادية عشرة تقريباً مع الجدة شارلوته للذهاب معاً إلى المستشفى.

- آه، وارتد زيك العسكري، صاح كورت وراء ألكسندر.

ظل ألكسندر واقفاً:

- الزي العسكري؟

- نعم، فيلهلم يود ذلك.

- أنت تمزح. قال ألكسندر.

نظر إلى كورت ثم إلى إيرينا ثم إلى كريستينا لبضع ثوان ثم صمت الجميع.

- أتظنون جدياً أنني سأرتدي الزي العسكري غداً؟

- ليس الأمر بهذا السوء.

- ربما تكون المرة الأخيرة، قالت إيرينا.

- أنا أتفهمك، قال كورت.

لكن عليه أن يفكر في أنه لولا ذلك (أي من دون موت فيلهلم) لما حصل على إجازة. ويمكنه أن يغير ملابسه بالسيارة. لقد أرسلت جدته برقية شخصية إلى رئيس كتيبته. نعم إنه شيء غبي، لكنك تعلم طبيعة فيلهلم.

- هل سنتحرك أم سنقوم بنزهة هنا؟ قال سائق التاكسي.



twitter @baghdad_library

ركبا في التاكسي.

أمام مرقص «بيرغ» وقفت مجموعة من الناس لم تكن معها تذاكر. وتداولوا شرب زجاجة فودكا، كانوا يتمايلون بخفة مع الموسيقى المتتابعة الخارجة عبر النوافذ والجدران. وعندما وصل ألكسندر وكريستينا بدأت اللازمة الموسيقية لأغنية «نو ون تو ديبند أون» (No One to Depend On) بواسطة غيتارين، كانت حزينة ولاذعة وجميلة، أغنية لسانتانا يقلدها فريق «ديلفينه» كما يتوقع المعجبون نغمة نغمة وإيقاعاً إيقاعاً وتنهيدة تنهيدة، كما لو أن كارلوس سانتانا يقف بنفسه على المسرح وبالإخلاص نفسه للأصل عُزفت «فولز» (Fools) لفريق «ديب بيربل» (Deeps Purple)، بل حتى «هاي جو» (Hey, Joe) في نسخة «جيمي هندريكس» (Jimi Hendrix)، وفي الاستراحة الأولى فُتح الباب ووقف حارس المرقص على أطراف أصابع قدمه وأدى بوجه جامد هذا التقليد المتمثل في رفع سبابته وتركها تدور فوق رؤوس الجمع الواقف، ويحدد بقوله أنت وأنت وأنت ثلاثة أو أربعة من سعداء الحظ - وهي عملية اختيار يعرفها كل زائري مرقص بيرغ ويقبلونها، برغم أو ربما لأن معايير الاختيار ظلت ضبابية.

لم تكن لدى كريستينا أية صعوبات في اختيارها. إذ كانت تستوفي كل الشروط التي تجذب سبابة حارس المرقص: شعرها الأشقر الفاتح، وعيناها الزرقاوان كالماء والمعطف الجلدي الأنيق ذو اللون الأزرق الدخاني وأيضاً فستانها القصير جداً المصنوع من الأكريل، الذي ارتدته عمداً تحت المعطف المفتوح والذي حصلت عليه من أختها

التي تسكن في الغرب (المعطف والفستان كانا نتيجة مباشرة لاتفاقية الأسس التي وقعتها جمهوريتا ألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية)[١]

- جاء الدور على كريستينا على الفور وسحبت معها ألكسندر الذي كان دائماً يدخل معها على هذا النحو بشكل تلقائي.

لكن هذه المرة وضع الحارس ذراعه بينهما وقال:

- قف.

- إنه معي، قالت كريستينا.

لكن ألكسندر، بدلاً من أن ينتظر قرار الحارس - الذي ربما يكون إيجابياً - استدار وانصرف.

والآن وبعد أن أفسد الأمور ثانية أصرت كريستينا على أن يذهبا إلى مقهى هيرتس ويشربا كأساً من النبيذ. وقد حصلا فعلاً على مكان للجلوس لكنه كان الأسوأ، في الممر إلى جانب ثلاجة الحلوى، حيث شربا تحت ضوء وهاج زجاجة من نبيذ «كاداركا» البلغاري وفي هذه الأثناء كانت كريستينا تحيي من بعيد معارف قدامى ويأتي أحدهم من حين إلى آخر إلى مائدتهما ويتندر على قصة شعر ألكسندر أو يسأل عن أحواله بأدب أو بشماتة أو بتعاطف، قبل أن يطلب إليه نادل متوتر الأعصاب إخلاء طريق الممر - ومع كل ذلك أظهر ألكسندر وجهاً مقبولاً وحاول ألا يشكو وألا يغضب وألا يصاب بالغيرة (أو أقله ألا يظهر ذلك) وألا يبدأ من جديد الحديث عن مسألة الزي العسكري - لأن لديه الآن هدفاً وحيداً لا يريد أن يعرضه بأي حال من الأحوال للخطر.

---

(١) الاتفاقية سمحت بتزاور الأقارب. (المترجم)



twitter @baghdad_library

بل تمكن في طريق العودة إلى البيت من الإيهام بأنه في مزاج طيب، وذكر كريستينا بالمرة الأولى التي رقصا فيها معاً في «كيلرمان - هاوس» وأنه رافقها إلى البيت ثم رافقته هي إلى الترام ثم رافقها ثانية إلى البيت ثم عادت ورافقته إلى الترام. الآن سمحت له كريستينا بوضع يده على خصرها كما فعل آنذاك، وشعر ألكسندر بحركة في خصرها بل ظن أنه يتحسس نسج الفستان الأكريل الخشن المثير تحت المعطف وفيما أصبح الهواء الذي يستنشقه ثقيلاً، تخيل كل الاحتمالات، مشاهد أمام الثلاجة بالفستان المرفوع إلى الأعلى، مشاهد أقل سرعة، مع موسيقى الأسطوانات والإضاءة الخافتة - لكن عندما عادا إلى البيت كانت مدفأة الفحم قد انطفأت منذ ساعات وانخفضت درجة حرارة الغرفة لتقارب درجة الحرارة في الخارج. غيرت كريستينا ملابسها بسرعة وسهولة وزحفت مباشرة تحت الغطاء. رقد ألكسندر إلى جانبها وحاول بشكل آلي وبتشكك أن يُدفئ كريستينا، وأخيراً دخل فيها ولكنه ما كاد يدخل حتى قذف قذفاً وفيراً لكنه خفيف.

في الصباح قام بمحاولة ثانية وكانا لا يزالان غافيين وطعم الكحول والسجائر لا يزال في الفم، تداعكا من دون أن يتبادلا النظر وتمكنا أقله بشكل أو بآخر من إنجاز الأمر معاً حتى النهاية.

أشعل ألكسندر المدفأة وهبط درجتين إلى الحمّام وأحضر الماء وهو عائد، ثم ذهب في أثناء إعداد كريستينا الفطور لإحضار خبز من مخبز براونه. أكلا بيضة الفطور المسلوقة وشربا القهوة من فناجين «بوني» برغم أنهما لم يتبادلا النداء ولا مرة واحدة بهذه الكنية التي كانا يتدللان بها، ثم سأل ألكسندر كريستينا إن كانت تحبه.

وبدلاً من أن تجيبه سألته كريستينا إن كان هو لا يزال يحبها. ولوت

في أثناء ذلك فمها مثلما كانت تلويه عندما تتحدث عن الكتب التي لم يقرأها، ثم خطرت لألكسندر فكرة أن كريستينا ربما ليست جميلة على الإطلاق، كما كان يعتقد دائماً.

في الحادية عشرة ارتدى من دون أن ينبس بكلمة واحدة زيه العسكري ووقفا معاً أمام الباب. جاء كورت وإيرينا بسيارة الـ «لادا» الجديدة التي جلست الجدة شارلوته في مقعدها الخلفي.

- ولدي، قالت الجدة.

- أرأيت، ليس الأمر بهذا السوء! قال كورت.

- إنه يبدو مثل جندي ألماني، قالت إيرينا ومسحت دمعة طفرت من عينها قبل أن تضغط على دواسة البنزين.

كانت ثمة رائحة جلد صناعي حديث الصنع.

أشارت ساعة سيارة اللادا ١٣٠٠ إلى الحادية عشرة وأربع دقائق.

كان ذلك في الثاني من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٣

وكان لا يزال أمام ألكسندر خمسمئة وثلاثة عشر يوماً في الجيش.



twitter @baghdad_library

## ٢٠٠١

لقد نام جيداً. وأراد أن يخبر ماريون بذلك - كانت على حق مرة أخرى، هكذا فكر، دون أن يعرف بالضبط ما الذي كانت فيه على حق، لكنها على الأغلب مازالت نائمة، ولم يرد إيقاظها. تقلب ثانية على جنبه نحو ماريون، راضياً لكونها موجودة. ولكن عندما فتح عينيه وجد الجانب الآخر من السرير المزدوج الضخم خاوياً.

سحب الوسادة التي لم تمس بعد إليه وجعّدها في حضنه. أقله لم يعرق هذه الليلة، ولم يصب بالحمّى ولم يعان آلاماً ولا الغثيان: قام في خلال الأيام الماضية بدراسة الأعراض في أحد مقاهي الإنترنت، وفي المجمل كانت غير واضحة نوعاً ما، أو غير محددة كما يقولون، لكن ما لا يمكن إنكاره هو أن العقد الليمفوية التي تتحسس يده اليمنى بحثاً عنها، ما زالت متورمة.

سحب سدادات «الأوروباكس» من أذنيه، ووضعها تحت الوسادة التي لم يمسسها من قبل والتي انكمشت من بعد في حضنه، متبعاً نزوة غبية. واستيقظ.

أيقن أن الكلبين موجودان فعلاً (+).

غسل أسنانه - يفعل ذلك حالياً بالمياه المعدنية، منذ أن قرأ في

الإنترنت، أن ورم الغدد اللمفاوية غير هودجكين لديها قابلية عالية للإصابة بالعدوى. ثم وكأنه في صلاة صباحية تصفّح وعيه شبه الغافي حرفياً تقريباً نصاً وجده في الإنترنت عن العمر المتوقع للمرضى:

فيما يخص كل أنواع ورم الغدد اللمفاوية غير هودجكين يبلغ ٦٢ في المئة من الرجال و٦٦ في المئة من النساء متوسط الخمس السنوات المتوقع للبقاء على قيد الحياة. وهذه النسب هي أيضاً عبارة عن قيم متوسطة. وتشمل الكثير من المرضى الذين استطاعوا العيش عشر سنوات إضافية. لذا فلا معنى من استخلاص أي نتائج تتعلق ببقاء حالات فردية على قيد الحياة عبر هذه القيم المتوسطة. تزداد فرص بقاء المرضى أطول مدة ممكنة على قيد الحياة عندما يعيشون بطريقة صحية.

هبط ألكسندر بالمصعد خمس طبقات. صار يفطر أخيراً في الفندق. وبدلاً من هذه العصيدة الدسمة غير واضحة المعالم في المقهى المجاور، صنع مزيجاً من الحبوب والفواكه الجافة، حيث كان يوجد هنا اللبن الزبادي والفاكهة وأنواع مختلفة من رقائق الحبوب، برغم أنها كلها محمّصة أو محلاة بالسكر. بل ثمة خبز ومن قمح كامل، تقريباً كما لو كان فندقاً في أوروبا. أخذ ألكسندر من كل الأصناف مقرراً ألا يسمح لنفسه إطلاقاً بانعدام الشهية.

جلس عند النافذة الكبيرة. وبعد بعض الوقت جاءت السويسريتان - لقد تعرف إليهما في الفندق. لم يعرف بالضبط إن كان يرغب في جلوسهما إليه، لكن الأمر حُسم قبل أن يتضح له ذلك. من الواضح أن معرفة عابرة وفوق ذلك لا أفق لها ولم تتخط ثلاثة أيام، تعد كافية لنشأة التزامات.



twitter @baghdad_library

عموماً ليس لديه شيء ضد الفتاتين. اسمهما كاتي ونادیا. لم يتخطيّا الثلاثين من عمرهما. انتعلتا شباشب مطاطية. وكانتا تقومان الآن بجولة حول العالم، وكما تبين كانتا في إفريقيا لشهرين ثم في البرازيل والأرجنتين وأرخبيل أرض النار وتشيلي وبيرو وإكوادور وأماكن أخرى. والآن هما لمدة أسبوع في مكسيكو سيتي (De-Effe) أي مقر الحكومة المركزية كما يقولان بلغة العارفين، فقد أنهتا دورة للغة الإسبانية في مكان ما في أثناء ترحالهما. ومن دي إفي سيسافران بالحافلة إلى أوكساكا، ومن هناك إلى سان كريستوبالدي لاس كاسا أو بالينكه (لم يعد يعرف الترتيب بالضبط)، عموماً عندما ينتهيان من المكسيك سيطيران إلى سيدني حيث سيقومان برحلة بسيارة فان «يقلبان فيها» حسب تعبيرهما جنوب شرقي أستراليا «رأساً على عقب»، أم قصدتا الشمال الغربي؟ وبعد ذلك إلى نيوزيلاندا لكي يتعرفا إلى طائر الكيوي وأخيراً بانكوك ومن هناك سيعودان إلى أوروبا، إن لم يتبعا نصيحة دليلهما السياحي ويقوما برحلة إلى دلتا - ميكونغ.

كان لديهما دليل *Backpacker* حول العالم الذي يتضمن كل شيء. ووفقاً للدليل خططتا للجولة التالية غداً. بالأمس زارتا متنزه شابولتيبك والمتحف الأنثروبولوجي، وقد أقنعتا ألكسندر بأن يرافقهما لأنه حسب الدليل يعد المتحف الأنثروبولوجي في مكسيكو سيتي أحد أفضل متاحف العالم، لكنه ربما ذهب لأنه شعر بانجذاب إلى المرأتين ونفور منهما أيضاً.

كما سبق القول ليس لديه شيء ضدهما، فكاتي التي جاءت أولاً إلى مائدته، كانت لطيفة وذكية، وكل من في الفندق سيعتبرها على الأرجح جميلة، وبالفعل لن يكون مقنعاً القول إن ابتسامتها التي تكشف عن أسنان بيضاء ناصعة ضخمة اللثة بعض الشيء هي

بالذات الدليل على عكس ذلك، أو أن يدلل على ذلك بقصبتي ساقيها المعوجتين، المصقولتين والخاليتين من الشعر اللتين برزتا تحت تنورتها البنية الواسعة.

- مرحباً، قالت كاتي، وجلست على يساره إلى المائدة المربعة ذات المفرش الأبيض.

تحدثت بصوت عال وفتحت في أثناء تحيتها لألكسندر عينيها باتساع. وضعت حول شعرها الأسود الجعد والمغسول تواً طوقاً أبيض - بدا وكأنه مصمّم لكي لا يقع الشعر في الطعام. لم تمتص بشرتها تماماً زيت الحماية من الشمس الذي استخدمته بكثرة، ويتضح من بعض قشور البشرة الرقيقة عند منبت الأنف، أنها نسيت أن تدعك بالزيت في تلك المنطقة بين الحاجبين المنتوفين.

- وإلى أين ستذهبان اليوم؟ سأل ألكسندر وكان يخشى في الوقت ذاته أن يُفهم من سؤاله أنه يريد أن يصطحبهما.

- غالباً إلى فريدا كالو، قالت كاتي، هل كنت هناك؟

- لا، قال ألكسندر، وحاول أن يبدو غير مهتم.

الآن جاءت ناديا إلى المائدة. ناديا أقصر قليلاً، عموماً هي «أقل» حجماً من صديقتها، أسنانها أقل بياضاً، ربما هي في المقابل أسنان حقيقية ولون شعرها أقل وضوحاً. وفي المقابل أيضاً ارتدت سترة وردية في فتحة صدر واسعة وحمالات معقدة التركيب تذكر بالقيود. وبرغم هذه الأشياء اللافتة للنظر، بدت غائمة، حركاتها رهيفة متسللة تنزلق من دون صوت بين الكرسي والمائدة، والتحية التي هبت من فمها لم تكن سوى مجرد زفرة هواء ونظرتها رمقت ألكسندر سريعاً، بحيث لم يتبين إن كانت تدل على الجهل أم كانت نظرة مختلسة. لقد تعجب



twitter @baghdad_library

بعض الشيء من كون ناديا تدرس الإعلام، وتدرس إلى جانب ذلك آداب اللغة الألمانية وعلم النفس واللغة السنسكريتية وشيئاً من الغناء (لم يفهم ذلك بالضبط)، فيما تدرس كاتي «فقط» الحقوق والسياسة والاقتصاد السياحي، وبمعنى أدق إنها درست هذه الأشياء.

- ما رأيك، هل نذهب اليوم إلى فريدا كالو؟ سألت كاتي ناديا.

كانت ناديا تشد حمالاتها التي تنزلق باستمرار، فيما ندت عنها حركة تشبه هز الكتفين.

- تروتسكي قريب أيضاً من هناك، أوضحت كاتي.

- تروتسكي؟ زمّت ناديا شفتها السفلى تحت أنفها.

ثم خطر لكاتي شيء ما:

- كان تروتسكي شيوعياً أيضاً. مثل جدتك.

لسوء الحظ حكى ألكسندر لهما عن شارلوته. بعدما عرفت كاتي أن جدي ألكسندر كانا شيوعيين أعقبت بـ «آه» خافتة وكأنها دخلت سهواً دورة مياه مشغولة.

لكنها تجد ذلك الآن مثيراً.

- ربما كانا متعارفين؟

- لا أظن، قال ألكسندر.

كان في إمكانه الآن أن يحكي عن فيلهلم، وعن التكهنات بشأن عمله الاستخباري الذي كان ينفيه دائماً، ولكنه كان يزيد الريبة بشأنه، فمثلاً عندما كان يدور الحديث عن تروتسكي كان تعبير وجهه يشي بأنه يخفي شيئاً ما، برغم أنه وصل إلى المكسيك قبل اغتيال تروتسكي

بقليل، إن لم يكن بعد ذلك. لم تكن ثمة معلومات مؤكدة بهذا الخصوص. كان في إمكان ألكسندر أن يحكي أيضاً أنه قابل في بيت جديه ذات مرة أحد قتلة تروتسكي - والغريب أن ذلك كان صحيحاً، برغم أنه علم بعد عشرين عاماً من زيارة هذا الرسام المكسيكي الفارو سيكيروس إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية أنه لم يكن في السجن بسبب «فنه الملتزم» و«مؤازرته الطبقة العاملة» وإنما لأنه حاول اغتيال تروتسكي بسلاح آلي، لكنه أخطأ ضحيته على نحو غير مفهوم مع أنه كان واقفاً وسط غرفة نومه.

كان في إمكانه أن يحكي ذلك، لكنه لم يفعل. أحضر شطيرة توست وقهوة، بل أخذ أيضاً بيضة. وشعر عندما عاد إلى المائدة أن الاثنتين قد اتخذتا قرارهما بشأن برنامج اليوم. لم يسأل ولم يُسأل. شعر بالحنق، وانزعج من هذا الشعور.

بعد ساعة جلس في المترو. وفقاً لحسابه للوقت كان اليوم الأحد. لكنه لم يشعر بهدوء يوم الأحد، فالمترو كان يغص بالناس أكثر مما هو معتاد، فالناس كانوا في هرج ومرج وبعضهم كانوا يرتدون أزياء ملونة ويحملون الأعلام المكسيكية. هل هذا معتاد يوم الأحد في المكسيك؟ كان عليه أن ينزل في محطة إنديوس فيرديس. هنا على طرف محطة حافلات ضخمة وقفت حافلة مزعزعة تضع علماً مكسيكياً يعد بسبب ضخامته مقلقاً من حيث دواعي الأمان لوجوده خلف زجاج الحافلة الأمامي، ولافتة مرسومة باليد كتب عليها: تيوتيهواكان.

انتظر السائق حتى امتلأت الحافلة. وفي أثناء الرحلة سار شاب عبر ممر الحافلة وحصّل من كل راكب ثلاثين بيسوس من دون تذاكر في المقابل.



twitter @baghdad_library

مرت الحافلة عبر ضواحٍ أو ضواحٍ لضواحٍ، يعد الحي الذي سرقه الصبيان فيه بالمقارنة بها حياً غنياً: بدت كتلال النمل، علب رمادية متراصة بعضها إلى جانب بعض وبعضها فوق بعض. بين المنطقة السكنية والشارع الرئيس: سلك شائك. لم يفهم إن كان الغرض منه منع الناس من الدخول أم من الخروج من المكان.

كان المكان أبعد مما تصور. ماذا تصور؟ الآن قطعت الحافلة منطقة تشبه البوادي. نفايات حضرية. أشجار صبار علقت بها أكياس بلاستيكية ملونة.

تذكر صورة صغيرة جداً بالأبيض والأسود: جدته أمام هرم الشمس في تيوتيهواكان. في الحقيقة لم يعد ثمة شيء يمكن التعرف إليه تقريباً. كان يعتقد أن شجرة صبار كانت في الصورة وأن جدته وقفت إلى جانبها بملابس فاتحة، تنورة واسعة وأزرار البلوزة كانت مغلقة حتى أعلى زر. مهذبة جداً ومتحضرة، بدت قليلاً مثل السيدة البيضاء في فيلم هونغ كونغ، وخلفها في سواد مبهم كان الهرم. عندما حكت له جدته آنذاك عن المدينة المهجورة التي يقف الهرم في وسطها، كان يتصور - هكذا أعتقد - أن هذه المدينة تشبه الطريق إلى الحضانة في الصباح الباكر: شوارع خالية وظلام، ومصابيح الغاز مازالت مشتعلة، والرجل النحيف الذي يمر صباحاً ومساءً على دراجته عبر شوارع نويندورف ويقوم بالاستعانة بعصا مزودة خطافاً بإيقاد أو إطفاء مصابيح الغاز، كان على صلة بطريقة غامضة بهذا الإله الصغير القبيح الذي يلقي بنفسه في النار عند قمة الهرم، لقيامة شمس جديدة على الأرض.

كان فرحاً لأنه الآن وحده في الطريق. لقد أشعره المتحف بالأمس بالضيق. من الواضح أنه لا يتحمل المتاحف، ولا حتى أفضلها في العالم: ربما حان الوقت للاعتراف بذلك؟ يخنقه الاكتظاظ والكثرة

والكم. لا يعرف إن كان ينبغي له أن يعجب بصبر السويسريتين أم لا. لقد اقتدى هو بهما أيضاً واستعار دليلاً سمعياً وحاول لفترة طويلة أن يتبع المعلومات والتعليمات، ثم أغلق الجهاز مرهق الأعصاب، ليتيه ساعتين بين المعروضات والجموع في حالة من السيولة التامة، ولم يخرجه شيء من هذه الحالة ولا حتى حجر التقويم الأزتيكي الذي كان يعرفه من أزرار أكمام فيلهلم الفضية والذي ظهر أمامه فجأة ضخماً وحجرياً.

بعدها قضوا ساعة في متنزه شابولتبيك. جلس ألكسندر على دكة، أما المرأتان اللتان تهامستا طوال الوقت في المتحف وتندرتا دائماً على شيء ما، بشكل أثار غضبه، فقد رقدتا على النجيل ونعستا في الحال. وبعدها عندما جلسوا في مقهى، بحث ألكسندر عن مناسبة للحديث مرة أخرى عن المتحف لكي يثبت لكليهما ولنفسه أيضاً، أنه لم يبق لديهما أي أثر مما شاهدتاه أو سمعتاه، وكان مقتنعاً بأن كل ذلك سيطير من الرأس في خلال عشرين دقيقة مثلما يفيق المرء من السكر - لكنهما استطاعتا الإجابة بدرجة ما عن السؤال الذي خطر له وهو تحديداً إن كان الأزتك يعتقدون بشيء كالفردوس: كان الأزتك يعتقدون قطعاً، حسبما جاء في الدليل السمعي، بفردوس، يدخله من سقطوا في المعارك ومن ضُحي بهم قرباناً للمذبح و- الأطفال، كما قالت كاتي؟ أم النساء اللائي توفين في سرير الولادة حسبما تعتقد ناديا أنه استقر في ذاكرتها؟

تفرّعت من سؤال الفردوس أحاديث عن القواسم المشتركة والفروق بين الأديان حول تصور الآخرة ثم انتهوا إلى الحديث عن الأديان في العموم، وتبين في أثناء ذلك أن كاتي وناديا ليس لديهما بعض المعرفة عن معظم الأديان فحسب، بل تمارسان أو مارستا



twitter @baghdad_library

بعضها بنفسيهما: قضت كاتي عدة أسابيع في دير هندوسي وزارت في سويسرا بانتظام مدرسة بوذية تيبتية، لكنها تضع في حقيبة سفرها أيضاً صورة صغيرة للعذراء مريم. أما ناديا فتقدس الدلاي لاما مثل كاتي وقد اهتمت بسحر الفودوو في هاييتي وحضرت بخلاف ذلك دورات في التانترا، وتؤمن بقدرة بلورات الجبل على الشفاء. وهي لا تستبعد إطلاقاً، مثل كاتي أيضاً، أن تكون في الحقيقة رسولة حضارة من خارج كوكب الأرض.

المدهش في الأمر أن الكلام كان ينساب على شفاههما بسهولة، وأنهما كانتا تربطان بين الأشياء بتلقائية ومن دون عناء، كم هي خفيفة تلك الأديان العالمية الجديدة، مثل لوحة مائية تُرسم على عجل، هكذا فكر ألكسندر وتذكر في أثناء جلوسه في الحافلة إلى تيوتيهواكان تجربته الروحية، آنذاك في هذا الشتاء، شتاء القرن، عندما تحطم كل شيء وسقطت الطيور - بمعنى الكلمة - من السماء. حاول أن يتذكر: هذه اللحظة عندما... ماذا؟ - ما الذي لمسه أو نظر إليه أو جعله يدرك ماذا؟ لم يعد يعرف. انسحبت تلك اللحظة من الذاكرة، تذكر ما قبلها وما بعدها، تذكر أنه رقد عدة أيام (عدة أيام؟) في ردهات مبنى متهدم وتابع مغشياً عليه كيف كان الألم يفترسه من الداخل، تذكر الظلام وعظمة الخصر المكسورة - وتذكر بعدها شعوراً بالخلاص والتبصر، تذكر أنه في أحد الصباحات دخل إلى الفناء الخلفي حاملاً صندوقاً به رماد فاتر ووقف هناك ورفع رأسه ورآه: في أعلى الأغصان السوداء لأشجار حور الفناء الخلفي.

كيمياء الجسد؟ أم الجنون العاري؟ لحظة التنوير؟ سار أياماً عبر الشوارع بابتسامة مجذوب، وبدا له كل عمود إنارة صدئ وكأنه معجزة،

مجرد النظر إلى القطارات الصفراء التي تقعقع على الجسور العلوية فوق جادة شونهاوس أشاع في نفسه مشاعر البهجة. ثم رآه مرات عديدة في عيون الأطفال الذين نظروا بلا خجل إلى وجهه المبتسم. رأى هذا الشيء الذي لم يجد أي اسم له بحكم تربيته الإلحادية.

هل تكمن خطيئته في التكبر؟ هل تكمن في أنه آمن فعلياً أنه صار بذلك محصناً تماماً ونهائياً ضد كل شيء؟ أم تكمن في أنه كبت هذه التجربة وأنكرها في وقت ما؟ هل الندم هو المطلوب؟ هل ينبغي له أن يتعلم أخيراً كيفية التعرف إلى البشائر؟ أن ينطق بالاسم الذي تردده السويسريتان بكل سهولة على شفاههما؟

في موقف الانتظار أمام مدينة تيوتيهواكان وقفت سيارات وحافلات أكثر مما كان ألكسندر يتوقع، وأكثر مما كان يخشى. السير وسط الجموع على مراحل مروراً بمحل الهدايا التذكارية إلى المدخل. كان الجو حاراً ومغبراً. سارت قافلة السياح ببطء على طول طريق الموتى وهو محور الحركة الرئيس للمدينة السابقة. وهو طريق ذو درجات: فالأزتك لم يعرفوا العجلة، وتبعاً لذلك لم تسر فوق هذا الطريق الرئيس الواسع المعبد أي شيء يسير على عجلات. حتى بائعو الهدايا التذكارية الذين يقفون على اليسار واليمين في لهيب الشمس وينقلون إلى هنا بضائع قليلة يعرضونها على طاولة قابلة للطي، أو يعلقونها في رقابهم أو يحملونها على صوانٍ صغيرة فوق بطونهم.

خاطب بائع ألكسندر ورافقه عدة خطوات. كان الرجل قصيراً ولم يكن صغيراً في السن. كانت أظفاره سوداء مثل السلاحف المصنوعة من السبج التي يبيعها. كان السبج هو الحجر الذي كانت تُصنع منه في الماضي سكاكين الكهنة، الذين كانوا ينتزعون قلب الضحية من



twitter @baghdad_library

بين ضلوعه وهو حي. أمسك ألكسندر السلحفاة بيده، ليس من أجل تأملها وإنما الأحرى ليتحسس ملمس السبج. تحدث إليه الرجل مؤكداً أنه صنع السلحفاة بنفسه يدوياً، وخفض السعر من خمسين إلى أربعين بيسوس. اشترى ألكسندر السلحفاة.

ثم وقف أمام هرم الشمس، تقريباً في النقطة نفسها التي من المفروض أن جدته قد وقفت عندها قبل ستين عاماً، وتساءل عم كان يتوقعه بالفعل. هل كان غبياً جداً لدرجة أنه ظن أن قمة الهرم ستكون خالية تماماً؟ لا يمكن المرء أن يبقى هناك أكثر من لحظة وحيداً مع الأحجار؟ لم يتذكر. وقف هنا محدقاً إلى الهرم. تقبض يده على صدفة السلحفاة وكأنها مقبض سكين. وقبل أن يغلب عليه اليأس صعد الهرم مندفعاً. تتبدل أمام عينيه أحذية تجوال بنية بعضها مغبر وبعضها ملمع... حسبما أعتقد، فقد قرأ في دليل *Backpacker* أن عدد الدرجات يبلغ مئتين وثماني وأربعين درجة وهو ثالث أكبر هرم في العالم. يعد الآن الأحذية الملمعة فقط. لا بد أن يصل إلى القمة من دون أن يتوقف، عليه أقله أن ينجز ذلك. لكن هذه الدرجات التي شيدها هذا الشعب الهندي الأحمر تخالف بوضوح معايير الصناعة الألمانية. أدرك أنه صعد بسرعة شديدة. كان يعرف ما يحدث في جسمه: في وقت ما يزداد تركيز ملح الحامض اللبني في العضلات. ازداد الألم في الفخذين، مصحوباً في الوقت ذاته بالإعياء. قاوم وقتاً طويلاً وكأنه يستطيع الاحتيال على كيمياء الجسد. أصبح أكثر بطئاً. وبدا أن سعة الرئة صارت محدودة. عد ستة وتسعين حذاءً ملمعاً. استسلم، عندما بدأ السعال واضطر إلى الجلوس. تأمل، وقد أسند رأسه إلى يديه، مكعبات الأحجار الرمادية المسامية التي شيدت منها الدرجات. صعد هؤلاء الذين تخطاهم مارين به من اليمين واليسار، نساء ينتعلن شباشب مطاطية، سيدة ذات كعب

عال عريض وأخرى ذات كعب عال أحمر، ثم شباشب مطاطية مرة أخرى، زوجان منها، يتوجهان بصورة مهددة نحوه: زوج منهما أسود والآخر وردي...

في البدء ظل الأسود واقفاً، قصبتان نزع منهما الشعر بعناية، لمعانهما مصقول لكنهما معوجتان قليلاً.

- لديكَ لياقة خارقة، قالت كاتي.

- ظننت أنكما تريدان الذهاب إلى تروتسكي، قال ألكسندر.

- المدينة مزدحمة جداً، إنه العيد الوطني، قالت كاتي.

كلاهما، بل حتى ناديا، بدتا مسرورتين لتلاقيهم مصادفة. وقد توقعتا غالباً أن يرافقهما ألكسندر إلى أعلى وكانتا مندهشتين وشبه محبطتين وربما قلقتين قليلاً لأنه لم يرغب في الصعود معهما.

- هل أنت في حال غير جيدة، هل لديك مشكلة؟

- لا، قال ألكسندر، سأنتظر هنا.

ظل جالساً على الدرج. ينظر إلى من يصعدون: أناس يعتمرون طواقي البيسبول وآخرون طواقي السومبريرو التي اشتروها تواً، أناس ذو سراويل قصيرة وأناس معهم حقائب ظهر وكاميرات، أناس سمان يرتدون سترات ذات ألوان صارخة، أناس يصعدون على أربع، أناس غارقون في عرقهم، وأناس مع أطفال يحملون أعلاماً مكسيكية صغيرة (العيد الوطني)، رجال يلبسون سلاسل ذهبية ورجل مسن يمسك بعكاز، أناس يتحدثون بلكنة أميركية، أناس لا يوجد ما يمكن المرء أن يقوله عنهم، وشباب شاحبون ذو لحى عمرها ثلاثة أيام، رجال سمر لهم لون الكاكاو يرتدون قمصاناً عليها زهور، سيدة تضع شالاً وشاب له



twitter @baghdad_library

ضفائر الراستا يحمل معه ثمرة أناناس ومجموعة من الرجال اليابانيين يرتدون بذلات وفتيات رشيقات ذوات قمصان قصيرة تكشف جزءاً من البطن، جميعهم يصعدون ويترنحون ويزحفون ويتسلقون ويسيرون أو يخطون على رؤوس الأصابع نحو المكان الذي يصبح فيه الإنسان إلهاً، تيوتيهواكان، ويهبطون: من دون أن يطرأ عليهم أي تغيير خارجي.

- وكيف كان؟ سأل ألكسندر.

- المنظر جنوني، قالت كاتي.

هبطوا معاً، وقطعوا طريق الموتى حتى النهاية. قرأت ناديا من دليل *Backpacker* (في صيغة مختصرة وبالإنكليزية تاريخ الإله الذي ضحى لكي يُبعث شمساً للعالم الخامس) واشترت من محل الهدايا التذكارية قناعاً أسود بشعاً من السبج، ذكرها بأقنعة الفودوو الهاييتية.

واشترت كاتي عقداً من السبج يناسب لون شعرها الأدكن.

كانت السلاحف المصنوعة من السبج معروضة أيضاً. وضع ألكسندر، من دون أن يلفت الأنظار ومن دون أن تراه المرأتان، السلحفاة التي اشتراها إلى جانب الأخرى المعروضة على طاولة البيع.

كان ثمن الواحدة خمسة وعشرين بيسوس.

# ١٩٧٦

لو كان على إيرينا أن تفصح عن مصدر حبات المشمش، تلك التي قطعتها مكعبات صغيرة في صباح عيد الميلاد لكي تعدها مع فواكه أخرى حشوة لإوزة الدير على الطريقة البورغونية، فلا بد لها من أن تبدأ بقصة القدم.

كثيراً ما حكى كورت هذه القصة - لم تعد إيرينا تعرف متى سمعتها للمرة الأولى- قصة فرع الشجرة الساقطة الذي هشم قدم كورت في خريف العام ١٩٤٣ وإنقاذ الملازم الشاب زوباكين حياته، عندما سعى لئلا يُنقل كورت، الذي كان خائر القوى، إلى الوحدة الصحية (حيث كانت حصص الخبز شحيحة)، بل أتاح له العمل فترة طويلة حارساً ليلياً لأفران القطران الدافئة على مدى الساعة - وهو عمل كان فضلاً عن ذلك رابحاً لأنه كان قريباً من حقل البطاطس. ولاحقاً عندما تحولت عقوبة كورت إلى النفي المؤبد، صار يلعب الشطرنج مع زوباكين، الذي أصبح في هذه الأثناء نقيباً، وذلك في مكتب إدارة المخازن. وقد خاضا حسب كورت وعلى غير المألوف نقاشات صريحة عن العدالة والاشتراكية. تصادقا - وتفارقا ثانية لأنهما عشقا المرأة نفسها، تحديداً إيرينا بيتروفنا.

وبعد انتقال كورت وإيرينا إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية،



twitter @baghdad_library

انقطعت عنهما أخبار زوباكين. تحول إلى أحد شخوص الحكايات، شخص ينتمي إلى عالم بعيد معزول وغير حقيقي - حتى تلقى كورت في يوم حار حوالى الساعة الثالثة والنصف عصراً مكالمة من وزارة أمن الدولة وسمع صوت شخص يسأله بانفعال إن كان هو كورت أومنيتزر، الذي عاش في سلافا شمالي الأورال في الفترة ما بين ١٩٤١ و١٩٥٦: ثمة جنرال روسي يريد محادثته.

ازداد وزن زوباكين نحو مئة كيلو تقريباً، كاد يخنق إيرينا من فرط فرحته بلقائها، وسعد مثل الأطفال لإنجاز كورت العلمي (ألم يسم كورت دائماً أومنيتسا وهو ما يعني بالروسية تقريباً «الذكي»)، وشرب، بالطبع وهو في المقعد الخاطئ - تحديداً مقعد كورت - زجاجة كاملة من الفودكا وحكى أشياء كثيرة رائعة عن الحرب العالمية المقبلة التي اعتبرها آتية لا محالة وأحدث في أثناء وداعه لهما من غير قصد انبعاجة بحجم طبق في سطح سيارة اللادا التي كانت لا تزال جديدة تقريباً.

وسواء أكان السبب هو هذه الانبعاجة في سيارة اللادا شبه الجديدة أم العدالة الاجتماعية والاشتراكية أم أي سبب آخر - فقد جاء ساعي البريد بعد شهرين بطرد كبير إلى شارع فوكسباو، ثقيل كطوبة ضخمة، ولم يكن فيه شيء سوى الكافيار الأسود الروسي.

أكل كورت وإيرينا أقل قدر من هذا الكافيار (شهيتهما للكافيار كانت محدودة، فبرغم أنه لم يكن في سلافا إلا القليل من المواد الغذائية، فقد وصلت في الصيف الذي مات فيه ستالين سيارة بضائع كاملة محملة بالكافيار الأسود «لتوزيعها حصصاً» كما يقولون، والتهمه كورت وإيرينا بنهم شديد، لدرجة أن إيرينا أصيبت بحساسية البروتين، وعاشت أشهراً طويلة في خوف من أن تكون قد أضرت بالطفل الذي أنجباه بعد وفاة ستالين مباشرة، عبر تناولها كميات كبيرة جداً من

الكافيار) - إذن الكمية الأقل كانت من نصيبهما، وثمة كمية أكبر كانت تُقدم - عادة بعد الحفلات الطويلة - إلى الأصدقاء على الفطور مع النبيذ الفوار. أما الجزء الأكبر من كافيار زوباكين فاستُخدم رشى ووسيلة للدفع في دورة غامضة للبضائع التي يتم تداولها بشكل غير مشروع وفي الغرف الخلفية.

اشترت إيرينا من معرض فنّي في بوتسدام عدة قطع من خزف فالدنبورغ المرغوب فيه المحمص بالفرن مع بقايا الرماد البني المتطاير، ودفعت بالكافيار. ثم استخدمت قطع الخزف هذه مرة أخرى رشوة من أجل الحصول على نوافذ للسقف، ونقلت بالسيارة ما لم تحتج إليه من نوافذ السقف، بالاستعانة بمقطورة إلى فينسترفالده، وقايضتها بنافذة أعرض (١٠٠ سم). وهذه النافذة سرعان ما جاء الصياد إيبيرلينغ من غروستسيكر بجزيرة روغن ليأخذها، وترك في المقابل صندوقاً من ثعابين الماء، كان قد قام بتدخينها - طبعاً بصورة غير مشروعة - في غرفة سرية وراء المرأب.

أكلت ناديجدا إيفانوفنا، التي كانت قد وصلت قبل فترة وجيزة إلى ألمانيا الديمقراطية، اثنين من ثعابين الماء هذه لتثبت عدم تطلبها (كلوا الخبز الجيد، فأنا راضية بالثعابين)، وثلاثة ثعابين أبقتها إيرينا لساشا الذي لم يرغب في أكلها «احتراماً لإرادة الحياة التي تملكها تلك الحيوانات» (في الماضي كان يحب أكل ثعابين الماء). ثلاثة ثعابين ماء حصل عليها الجزار الذي كان يعد لإيرينا «اللفافة الغامضة» الشهيرة التي كان محتواها (شرائح اللحم البقري، وفيليه لحم الخنزير المدخن أو الجمبون) لا يُكشف أبداً للزبائن الآخرين. وثلاثة حصل عليها سمكري السيارات. وحصل صاحب مكتبة على ثعبان ماء واحد. وأخيراً اثنان حصلت عليهما زميلة سابقة. جاءت حبات المشمش من



twitter @baghdad_library

حديقة والدها إلى جانب السفرجل وثمار الإجاص الشتوية ذات القشرة السميكة، التي قامت إيرينا بتقشيرها وتقطيعها ووضعتها في مقلاة مع المشمش المنقوع وحبات التين المشطورة نصفين من المحل الروسي والزبيب (الذي استخدمته بدلاً من العنب)، والكستناء (التي جمعتها بنفسها من تلال كابوت) وبعض البرتقالات الكوبية القديمة الجافة التي قطعتها لهذا السبب شرائح رفيعة (اشترتها ببساطة من المحل)، وتركت كل ذلك «يتشوح» في الزبد، وأطفأته بكونياك أرميني واستخدمته حشوة لإوزة عيد الميلاد، وفقاً لوصفة عمرها ثلاثمئة عام، لأنه يقال إنها تعود إلى رهبان من منطقة بورغوني ولذا تسمّى إوزة الدير البورغونية.

وبرغم أن وزن الإوزة بلغ خمسة كيلو غرامات، دهم إيرينا سؤال مرعب في أثناء وضعها الإوزة التي أُفرغت من أحشائها وغسلت ومُلحت وفُتحت وحُشيت، ألا وهو هل ستكفي للجميع. لقد عدت الجميع وكانوا سبعة: فإلى جانب شارلوته وفيلهلم انضمت أمها، كما أن ساشا سيأتي مع صاحبته الجديدة.

قررت إيرينا أن تقلي الأحشاء: القلب والمعدة والكبد. عادة كانت تقليها في اليوم التالي وتأكلها مع بقايا الإوزة المسخنة في خلال أيام العيد - متعة كبيرة! كانت إيرينا تحب جدران المعدة القابلة للقضم والطعم الحلو للكبد، فيما كان كورت يحتقر الأحشاء ويحتقر أيضاً مص وقضم العظام، كما أنه لم يكن يقدر كثيراً الطعام المُسخن، برغم أنه لم يقل ذلك صراحة. لكنها كانت تعرفه: لا يحب أن يأكل الشيء ذاته في يومين متتاليين.

قطعت إيرينا أحشاء الإوزة حصصاً صغيرة وتبلتها بكثير من الفلفل. ووضعتها في مقلاة بها سمن جوز الهند الساخن وتركتها تحمر على نار هادئة، فيما قامت هي بإعداد الصوص وهو الشيء الأهم لدى إعداد

إوزة الدير: وهو عبارة عن خليط من الكونياك والعسل ونبيذ البورتو، يكسب الإوزة قشرة محمرة قاتمة السواد ولها حلاوة نصفها من سكر الفاكهة ونصفها الآخر من العسل - لقد عاش الرهبان حياة لا بأس بها في هذه البورغوني. أين تقع هذه البورغوني في الحقيقة؟

بغض النظر عن الإوزة البورغونية،كان المطبخ في يوم عيد الميلاد ألمانياً. فإلى جانب الكرنب الأحمر والأخضر، كانت هناك كبة البطاطا والخبز على الطريقة التورينغية (وهي أعقد أنواع كبة البطاطا على الإطلاق)، وبطاطا لكورت الذي لا يأكل كبة البطاطا، بالإضافة إلى سلطة فجل دسمة ضمن المقبلات، والحلو جيلي الفواكه الحمراء وكعكة عيد الميلاد بمعجون اللوز والزبيب التي خبزتها بنفسها مع القهوة. وكل ذلك بكميات زائدة، فليس ثمة شيء تحتقره إيرينا سوى السؤال، إن كان الطعام سيكفي. لقد طرحت هذا السؤال على نفسها طوال فترة طفولتها. لقد وقفت طوال طفولتها في طوابير الخبز وطوال طفولتها لم تأكل سوى البطاطا شبه العطنة (ولأنهم كانوا يأكلون دائماً البطاطا شبه العطنة أولاً، لم يكن يتبقى من بعد دائماً سوى البطاطا شبه العطنة أيضاً) طوال طفولتها كانت تنتظر أول أيام الصقيع القارس لأن الخنزير الضعيف الذي أطعمته الجدة مارفا طوال العام من القمامة، لم يكن ليُذبح عادة إلا عند تجمد حوافره في الحظيرة المصنوعة من ألواح خشبية رقيقة مع انخفاض درجة الحرارة إلى خمسين تحت الصفر - ويذبح حينئذٍ على عجل.

الخنزير المسكين، فكرت إيرينا.

نزعت الأوراق الخارجية للكرنبة الحمراء، ثم أخذت السكينة الكبيرة وضغطت على ظهر نصل السكين لتقسم الكرنبة نصفين وشعرت مرةً أخرى وطوال نفس كامل بالرضا لأنها تخلصت فعلاً من كل ذاك



twitter @baghdad_library

العناء: إيرينا بتروفنا، الطفلة ذات الخصلات السوداء التي بسببها كانوا يستهزئون بها، لأنها تكشف عن نوع الذي أنجبها.

انفتح باب غرفة ناديجدا إيفانوفنا مع صرير عال وممتد. ظهرت الأم في المطبخ:

- بوموتش تيبيه؟

سألت إن كان ثمة شيء للمساعدة. لكن إيرينا لم تحتج إلى مساعدة بل على العكس، كان يزعجها نظر أمها إلى القدور.

- اتركي لي الأحشاء قالت ناديجدا إيفانوفنا بنبرة قاربت الأمر.

- يا أمي لست في حاجة لأن تأكلي البقايا عندنا، عليك أن تفهمي ذلك.

انصرفت ناديجدا إيفانوفنا، صر الباب - لا بد من إبلاغ النجّار بشأن الباب، فكرت إيرينا، المشكلة ليست في تزييته قط ولكن في احتكاك المفصل المثبت بإطار الباب.

رفعت الأحشاء عن الموقد وتبلتها من جديد بالفلفل الرومي المطحون (الفلفل الرومي يأتي في النهاية وإلا فقد نكهته!)، ثم قلت بسرعة الكرنب الأحمر المقطع رفيعاً، وأضافت التفاح المبشور وبعض الملح والقليل من السكر ووضعت البصل بالقرنفل في القدر وأطفأت كل ذلك بالنبيذ الأحمر وأكملت بالماء الساخن، ثم صبت لنفسها بيرة - في أثناء الطهو تفضل شرب البيرة - ثم تذوقت قليلاً من الأحشاء التي كانت ساخنة لكنها لذيذة... لا ليس الأمر أنها تضن على أمها بالأحشاء. المسألة كانت تكمن في رؤية أمها نفسها ضحية تأكل الأحشاء. وإيرينا لم تكن مستعدة لتقبل هذه التضحية. أنت أيضاً

ستأكلين من إوزة عيد الميلاد - هكذا فكرت - ووجدت نفسها تتخيل أنها تدفع بالقوة قطعة من لحم الأوز في فم أمها...

ظهر كورت مرتدياً قميص العمل - وكأن تزيين شجرة عيد الميلاد يعد عملاً، قال لها إن عليها أن تنظر إلى ما فعل.

يقوم كورت منذ ثلاثة أعوام بتزيين شجرة عيد الميلاد. وكان يريد في الواقع أن يلغي شجرة عيد الميلاد بعد أن انتقل ساشا من البيت، لكن إيرينا أصرت على الحفاظ على التقاليد. لأن ذلك أجمل! ما قيمة عيد الميلاد من دون شجرة عيد الميلاد؟ فشجرة عيد الميلاد وإوزة الدير كانتا ببساطة جزءاً من عيد الميلاد، برغم أن إيرينا كانت تفزع قليلاً من زيارة حمويها السنوية، وبرغم أنها تستشعر من الآن الجو الجماعي المصنوع الذي يسود مائدة العيد كل عام: المحادثات المتكلفة وفتح الهدايا بتعقيداته وتظاهر الجميع بالفرح (ما عدا فيلهلم الذي كان يحتج بشدة كل عام على حصوله على هدايا ويحصل مع ذلك في كل عام على زجاجة فودكا «ستوليتشنايا» وعلبة من نقانق «إيبرفالده» يأخذهما معه نصف مرغم ونصف راض، أو بمعنى أدق يجعل شارلوته تأخذها له) حتى ولو كان ذلك كله محرجاً ومجهداً بالأساس ولدرجة ما سخيفاً، لكن إيرينا أصرت على الحفاظ على هذا الطقس، أجل كانت تحبه بقدر ما، حتى ولو كان ذلك فقط بسبب الارتياح الذي كانت تشعر به بعد ذهاب الحموين، وبسبب هذه الساعة عندما يفتح كورت النافذة ويسقطان في ركن الجلوس وهما يشعران بالحر، مجهدين وبطنهما ملأى، يدخنان ويشربان كأساً من الكونياك ويتندران على فيلهلم وشارلوته.

- ألا تجدين زينة الشجرة مبتذلة؟ سأل كورت.



twitter @baghdad_library

- إنها معوجة بعض الشيء، قالت إيرينا.

- لكن ألا تجدين أن زينتها زائدة على اللزوم؟

- لا ليس صحيحاً، قالت إيرينا وتأملت برأس معوج الشجرة المعوجة التي غُطيت أغصانها بكثير من القطن وأشرطة الزينة وعُلقت عليها كرات ملونة، كما هو مطلوب في شجرة عيد الميلاد، برغم أن الشجرة التي اختارها كورت كانت في الأصل مثل الشبح: لكن بمجرد أن يحل الظلام وتضاء الشموع الكهربائية لا يُلحظ خواء الشجرة.

- عليك أن تمد أشرطة الزينة من جديد، بحيث لا تكون متكتلة هكذا، قالت إيرينا بلكنتها الروسية

وقلدها كورت ساخراً من نطقها.

- ما الخطأ في ما قلت؟

- لا شيء، قال كورت وابتسم ابتسامة بدت ماكرة قليلاً، بل أقرب إلى ابتسامة محتال، لأن عينه العمياء كانت تنزلق قليلاً عن مسارها. لم يكن ليدور بخيالها إطلاقاً عندما وقف أمامها آنذاك للمرة الأولى وكان يرتدي بنطالاً بالياً وسترة عسكرية، أن ذاك اليربوع سيصبح رجلها في يوم من الأيام.

غسلت إيرينا الكرنب الأخضر ووضعته قليلاً في الماء المغلي، حتى يحافظ على خضرته. عليها أن تكون صبورة مع أمها، هكذا فكرت، فيما كانت تأكل قليلاً من أحشاء الإوزة. كان من العبث أن تُغضب أمها. لقد جعلت الحياة في سلافا ناديجدا إيفانوفنا صعبة المراس، وكان من المعجز أصلاً أنها ظلت على قيد الحياة. فكرت إيرينا في رحلتها إلى سلافا قبل أسابيع لإحضار ناديجدا إيفانوفنا: سلافا أي المجد

- أي اسم هذا لمكان لم يعش فيه سوى المنفيين وعتاة المجرمين! لم يتغير شيء هناك. ما زالت الطرق المفروشة بالحصى هي نفسها وأيضاً حفر الطريق ذاتها التي يمكن أن تقلب سيارة، الفظاظة والبطء، المخمورون أنفسهم الذين كانوا يجلسون على الرصيف الخشبي أمام الدكان ويتحرشون بإيرينا بسبب ملابسها.

لقد سُرق بيتيا شيشكين آخر من تربطها به هناك صلة قرابة بعيدة في آذار/مارس الماضي: في الليل عند ست وأربعين درجة مئوية تحت الصفر نزعوا عنه ملابسه ما عدا لباسه الداخلي، وبيتيا كان طبعاً مخموراً ودق بلا جدوى أبواب البيوت المحيطة ومات متجمداً في طريقه إلى البيت.

تلك كانت سلافا. موطنها.

وتراءى لها وهي تجفّف الكرنب الأخضر على الحوض، كم كان كابوساً فظيعاً أنها كانت إلى هذه الدرجة مغيبة، بحيث كان لديها استعداد لأن تموت في أقرب وقت ممكن من أجل هذا الوطن: من أجل الوطن، من أجل ستالين، هوراه!

ركبت إيرينا مفرمة اللحم وبدأت فرم الكرنب الأخضر، في الوقت الذي أعلن كورت وصول الأولاد.

مسحت يديها بالمريلة وذهبت إلى الردهة وكان كورت قد فتح الباب. في البداية ظهر ساشا. بدا في معطفه المصنوع من فراء الغنم مثل أمير روسي. رأت إيرينا في وجهه شحوباً نبيلاً، وكان لديه وقت بعد انتهاء تجنيده لكي يطيل خصلات شعره الأسود - خصلات الغجر التي أحست إيرينا لوقت طويل أنها كانت تمثل عيباً لديها، ولم تر أنها مزية إلا بعد فوات الأوان عندما بدأ شعرها يشيب. بقي ساشا واقفاً



twitter @baghdad_library

أمام الباب وانتظر لحظة ثم أدخلها أمامه إلى البيت - إنها صديقته الجديدة.

ما عرفته إيرينا عن هذه الجديدة كان حتى ذاك الحين قليلاً: اسمها ميليتا (على اسم فلاتر القهوة الورقية في إعلانات التلفزيون الغربي) وهي تدرس مثل ساشا في جامعة هومبولت. كما أنها رفيقة العمر حسبما اكتشف ساشا بعد ثلاثة أشهر من تعارفهما. ربما لهذا أو ربما أيضاً بسبب إعلان فلاتر القهوة، كونت إيرينا تصوراً عن شيء ما، وتذكرت هذا الشيء في اللحظة التي رأت الجديدة - وبرغم أن تصور إيرينا كان مبهماً جداً أيضاً - إلا أن ما رأته أمامها لم يطابق تصورها.

كانت المرأة التي مدت يدها المهملة لمصافحة إيرينا قصيرة وغير لافتة للانتباه، ذات شعر أشقر طيني وشفتين شاحبتين. الشيء الوحيد الذي كان بارزاً في هذا الكائن هو زوج من العيون الخضراء اللماحة.

- هل أخلع الحذاء؟ سألت الجديدة.

- عندنا لا يخلع أحد حذاءه، قالت إيرينا باستنكار واضح، إذ إنها تعتبر أنه لأمر فظيع أن تطلب إلى الناس خلع الحذاء عند دخول البيت، كان هذا بالنسبة إليها سلوكاً وضيعاً وريفياً، ولهذا كانت إيرينا لا تعاود دخول أي بيت يُطلب إليها فيه خلع حذائها المعتنى به الذي اختارته ليناسب ملابسها، والمشي بالجورب أو بشبشب البيت المستعار في منزل غريب.

على أية حال كانت الجديدة تنتعل حذاءً مسطحاً لا يكاد يختلف كثيراً عن شبشب البيت.

- عندنا لا يخلع أحد حذاءه. كررت إيرينا.

لكن الجديدة خلعته برغم ذلك من فرط حماستها: الطقس في الخارج سيئ جداً، لدرجة أن ساشا فكر أيضاً إن كان ينبغي له خلع حذائه.

- هذا ما ينقصنا أيضاً، دمدمت إيرينا بالروسية.

نظر ساشا إلى الجديدة وإلى إيرينا، وهزّ كتفيه. وظل منتعلاً حذاءه.

أحضرت الجديدة زهوراً لإيرينا، بضع أقحوانات نحيلة ومثيرة للشفقة، لكنها بذلت مجهوداً على أي حال. شكرتها إيرينا بأدب وأخذت في صمت، في أثناء انشغال الآخرين في الردهة، زهرة النجمة الضخمة عن مائدة الطعام وأحضرت مزهرية. وعندما عادت إلى الحجرة ومعها الزهور، أفاض كورت في الحديث عن شجرة عيد الميلاد التي زينها، فبرغم أنه لم يكن يتحدث تقريباً عن عمله الأكاديمي، إلا أنه اعتاد إلقاء محاضرات مطولة عن كل مسمار - حرفياً كل مسمار - دقه في الحائط.

رأى ساشا أن شجرة عيد الميلاد جيدة تماماً، فيما حملقت الجديدة في الشجرة بارتياب.

اقترح كورت أن يشربوا نخب تعرفهم أخيراً إلى صديقة ساشا وسألهما ماذا يشربان، لكن الجديدة لم ترغب سوى في «كوب من الماء»، فقال كورت:

- لكن الماء لا يصلح لقرع الأنخاب.

تبادل الشاب والشابة النظرات قبل أن يقررا تقريباً في نفس واحد: «قليلاً من النبيذ».



twitter @baghdad_library

- في صحة عيد الميلاد، قال كورت.

- في صحة الروح القدس، قال ساشا.

- شكراً لدعوتكم، قالت الجديدة.

وقالت إيرينا:

- في صحتك، أنا إيرينا وفي هذا البيت ترفع الكلفة ونخاطب بعضنا بعضاً بأنت.

كانت إيرينا دائماً تعمل وباب المطبخ مفتوح. ومادام السمن لم يكن يبقبق في المقلاة أو لم تكن تشغل ماكينة ما، كانت تنصت إلى الأصوات القادمة من حجرة المعيشة وغالباً من الرجلين - اثنين من آل أومنيتزر، كانا لا يتيحان للآخرين مجالاً كبيراً للحديث، ودائماً يتكلمان مباشرة بصوتٍ عالٍ ويقاطع كلاهما الآخر ويناقشان مستجدات مهمة. هذه المرة كما في مرات أخرى كان النقاش يدور حول الشاعر الغنائي فولف بيرمان[1] والحفلة التي أقامها في كولونيا، فيما كانت إيرينا، التي فاض بها الكيل تدريجاً من هذه الضجة الإعلامية بشأن بيرمان، تفرم الكرنب الأخضر وتفكر في ملابس الجديدة: في التنورة البنية المخملية المضلعة، وفي الكولون الصوفي البني السميك - وماذا ارتدت أيضاً فوق ذلك؟ شيئاً عديم الشكل واللون وما دامت ساقاها قصيرتين فلماذا لم تنتعل أقله حذاءً عالي الكعب؟ هل كان ساشا معجباً بذلك؟ هل

(١) فولف بيرمان شاعر غنائي ومغن ألماني من مواليد العام ١٩٣٦ اشتهر بأغانيه المنتقدة للنظام المستبد في ألمانيا الشرقية التي هاجر إليها طوعاً عام ١٩٥٣ في العام ١٩٦٥ مُنع من تقديم عروضه في أنحاء جمهورية ألمانيا الديمقراطية كافة، ونُزعت منه الجنسية في العام ١٩٧٦ وانتقل ليعيش في مسقط رأسه هامبورغ. (المترجم)

كان ذلك هو ذوق الجيل الجديد؟ سوت إيرينا البصل على البخار مع الزبد، وأضافت إليه الكرنب الأخضر وملأت الحلة بالماء المغلي، وأعدت كبة البطاطا.

وفيما شرعت إيرينا في تقشير البطاطا النيئة - كبة البطاطا التورينغية تحتاج إلى بطاطا نيئة ومسلوقة (نصف نيئة ونصف مسلوقة، أو تكون النيئة أكثر قليلاً من المسلوقة)، فكرت في أنها لم تعرف بتاتاً رجلاً في حياتها، يفضل الكولونات الصوفية السميكة ذات اللون الطيني. لا شك أن الرجال كانوا يفضلون ألواناً أخرى! كانت تثيرهم الملابس الداخلية المعقدة التركيب وليس الكولونات السميكة! أم كان ساشا مختلفاً؟ مختلفاً عن كورت الذي لم يهدأ بعد حتى وهو في السابعة والخمسين من عمره ولا يزال يبحث عن نساء أخريات...

أخذت رشفة من البيرة، لكنها أصبحت من دون طعم. سكبت إيرينا بقيتها في الحوض وأحضرت كأس نبيذها من الحجرة. كان الحديث يدور في هذه الأثناء عن كريستا فولف، كتاب رائع، قالت إيرينا بشكل عابر برغم أنها لما تنهه بعد، لكنها سمعت الكثير من النقاشات عنه بحيث بدأت تنسى أن أسلوب فولف المعقد كان ينهكها كثيراً. لماذا كتبت هذه المرأة بهذه الطريقة؟ تساءلت إيرينا في أثناء القراءة. مم كانت تعاني؟ لقد كان لديها كل شيء - بل إن زوجها - هكذا سمعتها تقول - يقوم بأعمال المنزل.

كتاب رائع، قالت إيرينا، وسحبت نَفَسَين من سيجارة ساشا وذهبت مجدداً إلى المطبخ وانخرطت في العمل.

عصرت كتلة البطاطا لتخرج منها الماء ثم وضعتها في آنية وصبت عليها الحليب الساخن، ثم قطعت مكعبات من الخبز الأبيض بعرض



twitter @baghdad_library

الإبهام وقلتها لتصبح مقرمشة. وفي أثناء ذلك بدأت بتقطيع الفجل قطعاً غليظة حتى تصلبت أصابعها تدريجاً من التقطيع. عموماً لقد تشققت يداها في خلال عملية ترميم البيت من جراء حمل الحجارة وتفريغ الأسمنت الذي وُضع في هذا البيت بمقادير غير معقولة. أخذت رشفة نبيذ ونفضت يديها. وما كادت تمسك بالمبشرة مرة أخرى حتى دخلت الجديدة إلى المطبخ لتسأل إن كان في إمكانها المساعدة.

لكن إيرينا كانت قد انتهت من كل شيء تقريباً، تبقى فقط تقطيع البطاطس المسلوقة لصنع كتلة الكبة. كان هذا أمراً سهلاً بالإضافة إلى أنه لم يكن لدى إيرينا سوى مبشرة واحدة.

- إذن سنأكل كبة بطاطا!

- كبة بطاطا تورينغية، أوضحت إيرينا.

- أحب كبة البطاطا، قالت الجديدة لإيرينا بوجه مشرق.

لا، ليست قبيحة إلى هذه الدرجة. كان وجهها في العموم جميلاً بل إذا ما دقق المرء النظر كان في إمكانه أن يكتشف تحت الشيء عديم الشكل واللون ما يشبه النهدين. ربما يجب الحديث معها بأن عليها ألا تشوه نفسها على هذا النحو.

انتظرت إيرينا حتى غادرت الجديدة المطبخ لكي تضع على كل من الكرنب الأحمر والأخضر ملعقة من الزبد، ثم أضافت إلى الكرنب الأخضر ملعقة إضافية من الخردل: كان ذاك هو سر الصنعة بالنسبة إلى الكرنب الأخضر، وليس من الضروري إفشاء كل الأسرار.

في تمام الثانية بعد الظهر دق الجرس: وقفت شارلوته وفيلهلم أمام

الباب - ومعهما أكياس تسوق متاجر «ديديرون». ترى ماذا سيكون بها هذه المرة؟ مفرش مائدة قابل للغسل؟ أم روزنامة كوبية؟

دخل فيلهلم وكان كعادته جامداً قليل الكلام وشارلوته كعادتها ثرثارة ومندفعة وكثيرة المديح لكل شيء تفعله إيرينا. كان أمراً غريباً حقاً: كلما كبرت في السن ازداد مدحها لإيرينا، على نحو فعالٍ، ومثير للسخرية، فبمجرد دخولها البيت بدأت بمديح الروائح الخارجة من المطبخ وأقسمت، فيما كانت إحدى ذراعيها لا تزال في المعطف المصنوع من فراء الراكون الذي كان كورت بصدد خلعه عنها لتعليقه، إنها لم تأكل طوال اليوم أي شيء باستثناء بيضة الفطور (وكأنها تسدي بذلك معروفاً إلى إيرينا، عندما تجوع نفسها) وسألت (للمرة الثانية أو الثالثة) إن كانت خزانة المعاطف المصمّمة على طراز اليوغندشتيل - لم تكن أصلية في الحقيقة - والتي دهنتها إيرينا بالأبيض، جديدة. بل امتدحت الضوء الطبيعي للبيت في عزّ الشتاء، لتغرق بعدها في مرثية متكررة عن بيتها المظلم. وهو ما كان يعني ضمنياً: إنكم تعيشون في قصر وأنا أسكن في حفرة تحت الأرض.

تحول دراماتيكي، لدى تحية الجديدة. بصورة مسرحية وباهتمام شديد:

- لقد سمعنا الكثير عنك!

- أنا لم أسمع. قال فيلهلم.

ضحكت شارلوته كما كانت تضحك دائماً من نكات فيلهلم أو بمعنى أدق على فظاظته، وكأنه كان يمزح لكن من المحتمل أن يكون فيلهلم قد قال الحقيقة. فمن أين لشارلوته أن تعرف شيئاً عن الجديدة!

خرجت ناديجدا إيفانوفنا من غرفتها أيضاً. فتحت شارلوته ذراعيها



twitter @baghdad_library

وقالت: ناديجدا إيفانوفنا! برغم أنهما لم يلتقيا إلا مرة واحدة في حياتهما عندما جاءت ناديجدا إيفانوفنا في زيارة قبل أربع سنوات. لكن ناديجدا إيفانوفنا فتحت ذراعيها أيضاً وضمّت شارلوته بيديها ذواتي العظام الناتئة من جراء العمل في ورشة نشر الخشب وفي قلع البطاطا، حضنتها يمنة ويسرة ثم طبعت قبلة على خدها الأيسر، وهو ما مثل طبعاً سوء تفاهم، وبدا واضحاً أن رائحة النفتالين العالقة بملابس ناديجدا إيفانوفنا قد خنقت أنفاس شارلوته التي تخلصت من العناق بسرعة وأطلقت بروسية شبه سليمة وخالية من اللكنة بعض عبارات الترحيب - فيما تمكن فيلهلم من قول كلمة بالروسية ولم يتمكن من فهم رد ناديجدا إيفانوفنا عليها:

- بوسدرافليايو روديستوفوم، أي أهنئكم بعيد الميلاد.

ورد فيلهلم:

- غاروش، غاروش!

وهو ما لم تفهمه ناديجدا إيفانوفنا أيضاً. غالباً أراد فيلهلم أن يقول حسناً، حسناً، لكن نطقه للكلمة كان أقرب إلى: بازلاء، بازلاء.

كانت تهنئة ناديجدا إيفانوفنا بعيد الميلاد مثيرة، لأن فيلهلم كان يرفض عيد الميلاد مبدئياً باعتباره عيداً دينياً والدين من صنع أعداء الطبقة العاملة وهو يخدم تشويش عقول الطبقة العاملة ولأنه لم يقبل أن يخالف ضميره ويتقبل هذه التفاهات الخاصة بعيد الميلاد، فقد جلس مولياً ظهره لشجرة العيد.

في المقابل أبدت شارلوته سعادة كبيرة بالشجرة. وحملقت بعينيها من وراء ظهر فيلهلم في إشارة إلى أنها لا توافقه في الرأي. وسعدت كثيراً بزينة المائدة والزهور الجميلة (كانت تقصد الأقحوانات)، كانت

سعيدة بكل شيء، وفاجأت الجميع بالسماح لنفسها بشرب كأس ليكير صغيرة. وأوضحت شارلوته أنها تستحقها عن جدارة، فقد كدحت في الفترة الأخيرة كثيراً، وعملت فوق طاقتها وكانت على حافة الانهيار...

انصرفت إيرينا إلى المطبخ.

وبين صوتي السيدين أومنيتزر كان يتناهى إلى سمعها حديث شارلوته بنبرتها الصاخبة الحادة. يا اللّه، لقد تجاوزت ذلك أيضاً، فكرت إيرينا في أثناء ما كانت تقشر البطاطا من أجل كورت. لقد نجت من هذا البؤس وربما كان هذا هو ما تحبه في عيد الميلاد: إنها تستطيع أن تغلق بابها خلف شارلوته، بابها الخاص، باب بيتها. كم كانت معجبة ببيت شارلوته عندما جاءت آنذاك تواً من روسيا! والآن شارلوته معجبة ببيتها. وأحياناً كانت هي نفسها تشعر - بصراحة - بالدهشة عندما تجوب غرف بيتها وتتأمل عملها، وكيف تمكنت من إنجاز كل شيء بطريقة جيدة وأن كل قرار من القرارات الألف التي كان يجب اتخاذها في أثناء عملية إصلاح البيت، كان قرارها هي وحدها، لأن كورت كان يدافع دائماً عن الحلول البسيطة والرخيصة وغير المعقدة. وكل قرار من هذه القرارت كان في النهاية هو السليم: الجدران التي أزالتها وتلك التي أضافتها والتوسيع المعقد للحديقة الشتوية وتصميم المبنى الملحق الذي سكنت فيه ناديجدا إيفانوفنا أخيراً، وحجم حوض الاستحمام وارتفاع القيشاني وموضع مواسير المياه أو أجهزة التدفئة والمقابس ومفاتيح الإضاءة ومكان الموقد - هذه القرارات كلها كانت في النهاية عقلانية وصحيحة. بقيت فقط مدفأة الفحم عديمة النفع التي لا يستخدمونها، كان ينبغي لها أن تخالف نصيحة كورت وتهدمها (إنها تصورات كورت الخيالية عن نهاية العالم: من يدري ربما تأتي أوقات سيئة ونحتاج إلى المدفأة مرة أخرى).



twitter @baghdad_library

غسلت إيرينا البطاطا المقشرة التي لم تقطع بعد (فهي تولي أهمية كبيرة للبطاطا غير المقطعة)، سكبت ماء الغسيل وملّحت البطاطا وهزتها داخل القدر المغلقة من أجل توزيع الملح. ثم صبت عليها بحذر فنجاناً من الماء وقد أمالت القدر لكي لا تشطف الملح مجدداً. فنجان واحد فقط! فالبطاطا إذا ما أراد المرء أن يكون لها طعم البطاطا يجب أن يطهوها على البخار لا أن يسلقها.

وضعت ماء كبة البطاطا على النار وبدأت بتقطيع البطاطا المسلوقة الأخرى التي بردت من أجل صنع عجينة الكبة، وعندئذ دخل الأولاد.

- سنفرش المائدة، قالت الجديدة.

- سنفرش المائدة، قال ساشا.

- إنكما لا تعرفان مكان أدوات المائدة.

- أنا أعرف مكانها، قال ساشا.

- ألكسندر سيفرش المائدة وأنا سأشكل حبات الكبة.

- سأفعل أنا ذلك بنفسي، قالت إيرينا.

لكن ساشا قلّب في صندوق أدوات المائدة وأخذ بالطبع الأدوات الخطأ وعندما أعطته إيرينا الأدوات الصحيحة في يده، كانت الجديدة قد بدأت بالفعل تشكيل حبات الكبة بأظفارها المهملة.

- لكن يجب وضع مكعبات الخبز الأبيض أولاً، قالت إيرينا.

- أعرف، قالت الجديدة، فجدتي من تورينغن.

اضطرت إيرينا لأن تعكف على إعداد سلطة الفجل، ودقت قطع الجوز وخلطت كل شيء مع الكريمة وتذوقتها.

- هل ثمة ملح في ماء الكبة؟ سألت الجديدة.

يا إلهي، لقد كادت تنسى ذلك. وأن تسكب المرق على الإوزة، اللعنة، لقد فقدت إيقاعها تماماً!

أخذت بسرعة مساكة الأواني الساخنة وسحبت الإوزة من الفرن وأمالت الصينية لتغرف صوص الشواء.

- إنها سوداء تماماً، قالت الجديدة.

- إنها إوزة الدير، ردت إيرينا.

كان التقطيع يتم على المائدة، والتوزيع كان وفقاً للأجزاء التي يأتي عليها الدور: الفخذان أولاً - حصل ساشا على إحداهما، كان هذا واضحاً، ثم قدمت إيرينا الفخذ الثانية للجديدة. فكورت والزوجان المسنان يفضلان عموماً لحم الصدر.

نظرت الجديدة إلى ساشا: إن كان لم يقل شيئاً بهذا الخصوص؟

- آه صحيح، قال ساشا، ميليتا نباتية.

- ماذا؟ نباتية؟

- إنها لا تأكل اللحم يا ماما.

- لكن هذا لحم طير، قالت إيرينا.

- سأجرب قطعة صغيرة، قالت الجديدة. لكن ليس الفخذ كلها.

دارت إيرينا بنظرها في الجمع وتوقفت عند ناديجدا إيفانوفنا: أنت أيضاً ستأكلين اليوم من إوزة عيد الميلاد.

- أعطيني طبقك، قالت إيرينا.



twitter @baghdad_library

مدت ناديجدا إيفانوفنا طبقها،التقطت إيرينا الفخذ بالشوكة لكن لم تبق سوى قطعة من الجلد المقرمش عالقة بها. وضعت إيرينا قطعة الجلد في طبق ناديجدا إيفانوفنا لكي تضع لها الفخذ بعد ذلك في محاولة ثانية، لكن ناديجدا إيفانوفنا سحبت طبقها في هذه اللحظة.

- لدي ما يكفي!

سقطت الفخذ على مفرش المائدة.

- نو تشيورت بوبيري!

في ذاك الحين لم تكن إيرينا تستطيع صب اللعنات إلا بالروسية.

ساد صمت غريب على المائدة لحظات حتى بدأت شارلوته التي شعرت أنها تذكرت من خلال ما وقع وجود ناديجدا إيفانوفنا، في الحديث بنبرة تنطوي على براءة مصطنعة جداً لدرجة أن إيرينا كادت تشعر بالإهانة:

- ناديجدا إيفانوفنا، هل يعجبك الحال عندنا هنا؟

- لقد كنت هنا من قبل، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

- نعم، قالت شارلوته، ولكنك تسكنين الآن هنا ولديك غرفتك الخاصة.

- غرفة جميلة، قالت ناديجدا إيفانوفنا. كل شيء على مايرام، كان علينا فقط أن نشتري التلفزيون من موسكو.

- لكنني اشتريت لك تلفزيوناً يا ماما، تدخلت إيرينا. أليس لديك تلفزيون؟

- بلى ولكن كان من الأفضل لو اشتريناه من موسكو.

- هراء، قالت إيرينا. وكأنه لم يكن معنا ما يكفي من الأمتعة! وعموماً التلفزيون الذي اشتريته لك أفضل كثيراً من كل التلفزيونات التي كان يمكننا شراؤها من موسكو.

- نعم لكننا لو كنا اشتريناه من موسكو لتكلم الروسية. قالت ناديجدا إيفانوفنا.

ضحك الجميع، بل ضحك فيلهلم مرتين: مرة عندما ضحك الجميع ومرة أخرى عندما ترجم ساشا الحوار. ثم قال:

- لكن مبدئياً توجد في الاتحاد السوفياتي أجهزة تلفزيون جيدة جداً.

ثم ساد الصمت مجدداً.

ثم قالت الجديدة:

- لا بد أن أقول إن الطعام رائع جداً. لم آكل طوال حياتي مثل هذا الكرنب الأخضر الطيب.

- ممتاز، قالت شارلوته التي يفترض أنها لم تأكل طوال اليوم، ومع ذلك لم تضع في طبقها إلا كميات ضئيلة جداً.

- أنا لا أستطيع مضغ اللحم، قال فيلهلم.

ثم قال كورت:

- اللحم ممتاز، وحدها البطاطا لم تُطهَ جيداً، لا بد من قول ذلك بصراحة.

فلتسد فمك بالكبة، هكذا فكرت إيرينا لكنها لم تقل ذلك. وكبتت



twitter @baghdad_library

غيظها. لو كانت فرشت المائدة بنفسها لكان كل شيء مضبوطاً في مكانه. لكن عندما يعبث الآخرون في مطبخها...

تذوقت قطعة من الإوزة (لم تكن قد وضعت لنفسها أي لحم لأنها شبعت من أكل الأحشاء) - وبالفعل كان من الممكن أن يصبح لحم الإوزة أكثر طراوة.

لم يأكل أحد من سلطة الفجل.

لكن أقله حظي جيلي بالفواكه الحمراء بنجاح كبير.

رفع المائدة:

- أعطوني الأطباق وابقوا جالسين، قالت إيرينا آمرة بحزم حتى لا تجرؤ الجديدة أيضاً على القيام من مكانها.

كانت ناديجدا إيفانوفنا لا تزال تصارع فخذ الإوزة بلا جدوى، فظلت كما هي. وبدأ فيلهلم تشغيل أسطوانته المعهودة: آنذاك - لما كنا - في موسكو.

حملت إيرينا أطلال إوزتها إلى المطبخ. ورفعت الكرنب الأخضر والأحمر عن المائدة. تبقى من كبة البطاطا أيضاً أكثر من النصف.

جلست على مقعد المطبخ الوحيد ووضعت سيجارة بين شفتيها.

ثم خطرت ببالها صورة: الجدة مارفا والأم ناديجدا وهي معهما - ثلاثة أشخاص ينحنون في صمت على قدر تسبح فيها وسط أوراق الكرنب قطع من لحم الخنزير الرمادي.

لماذا يصبح المرء نباتياً؟ هل هذه الفتاة مريضة؟ أم أنها تشفق على الحيوانات؟

دخل ساشا إلى المطبخ:

- هيا، دعينا ندخن سيجارة معاً.

أخذ ساشا سيجارة «كلوب» من علبتها، وأشعلتها لها إيرينا بالقداحة.

- هل أنت حزينة يا ماما؟

- لا، لماذا؟

دخنت بعض الأنفاس في صمت. شكَّت إيرينا في أن الجديدة قد أرسلت ساشا إليها.

- لِمَ هي نباتية؟

- ليست نباتية تماماً، فهي تأكل اللحم أحياناً.

- لكننا نحتاج إلى اللحم، الإنسان يحتاج إلى أكل اللحم.

- لكن يا ماما، لا يمكنك أن ترفضي إنساناً لهذا السبب.

- إنني لا أرفضها، أنا أتساءل فقط.

دخنا.

- فتاة لطيفة، قالت إيرينا.

- نعم، إنها كذلك، قال ساشا.

دخنا.

- المهم بالنسبة إلي أن تكون سعيداً، قالت إيرينا.

في الخارج سقطت بعض ندف الثلج واختفت في الحديقة التي تحولت مع الغروب إلى اللون الأسود.



twitter @baghdad_library

أطفأ ساشا سيجارته.

- هل أساعدك في شيء؟

- دعك من هذا يا ساشا، اذهب إلى هناك وسأعد القهوة.

أمسكها ساشا من كتفيها وجذبها إليه وحضنها.

- آه، يا ساشينكا! قالت إيرينا.

كان جميلاً أن يكون للمرء ابن كبير، لا يزال يحتفظ برائحته عندما كان صغيراً.

وضعت إيرينا ماء القهوة على النار، وعبأت بقايا الطعام في أوانٍ صغيرة، وتركت كبة البطاطا في الوعاء الكبير، لأنها لم تجد آنية مناسبة. ووضعت الصينية المغطاة التي بها بقايا الإوزة ذات اللحم القاسي بعض الشيء في غرفة الخزين. ورصت الأطباق المستعملة بجانب الحوض.

ربما كان ساشا مختلفاً فعلاً؟

بمرور الوقت، هكذا فكرت إيرينا في أثناء ما كانت تصب الزبدة السائلة على كعكة عيد الميلاد وترشها بالسكر المسحوق، أصبح من الصعب إرضاء رغبات كورت، وتحمل نظراته المتفحصة على الدوام، وأن يقارنها دائماً بالنساء الشابات: نعم لقد كبرت في السن، اللعنة، على مشارف الخمسين، وكانت أكبر من ذلك في الأوراق الرسمية. لقد خدعت السلطات في عامين آنذاك. لقد قلبت السبعة في سنة ميلادها إلى خمسة لكي تتمكن من المشاركة في الحرب. وبرغم أنها تحتفل دائماً بعيد ميلادها الحقيقي وتقول لكل أصحابها عمرها الحقيقي لكن «بطاقة هويتها» ترافقها دائماً كتهديد مستمر، والكارثي في الأمر أن

تحققه يزداد تسارعاً. فبمجرد أن يحضر عمرها الرسمي في المكان حتى يسارع عمرها الحقيقي في الزحف إليه، كان آلة لتحطيم الزمن، هكذا فكرت إيرينا، وكأن عليها أن تشيخ أسرع من الآخرين: من أجل الوطن، من أجل ستالين، هوراه!

في أثناء شرب القهوة كانت ثمة مفاجأة أخرى، فالجديدة تدرس علم النفس، لا التاريخ كما يفعل ساشا.

- لدينا في الجامعة شيء كهذا، قالت شارلوته مندهشة.

- علم النفس، قال فيلهلم، هذا علم زائف.

- شبه علم، صحح كورت قائلاً. وفقاً للرفيق ستالين هو شبه علم.

- ماذا يعني شبه علم؟ سألت الجديدة.

- يعني العلم بالشبه، قال ساشا.

- إنني أجده مثيراً جداً، طنطنت شارلوته. حقاً يا أولادي إنه علم مثير جداً، أنا على اقتناع بأن ثمة ارتباطاً بين الجسد و...

- النفس، قالت الجديدة.

برغم ابتسامتها ظلت نظرتها حادة.

ثم وقف كورت وقال:

- إذن يا أولاد سأشغل بعضاً من موسيقى عيد الميلاد.

وكانت تلك هي الإشارة. كانت الهدايا قد وُضعت لكل شخص في مكان جلوسه، وحدها شارلوته ظلت محتفظة بعطاياها في حقيبة «ديديرون» وقدمتها لهم مباشرة وهو خرق للقواعد، كان يثير حنق إيرينا



twitter @baghdad_library

في كل مرة. ثم بدأ الجميع يخشخشون بأوراق الهدايا ويفكون الربطات المعقدة، ويفتحون الهدايا ويطبقون أوراق الهدايا - ثم خطرت لإيرينا فكرة أن الجديدة قد تحاول تحليل «نفسيتها» من خلال ورق الهدايا الذي استخدمته، من يدري؟ علم النفس - كيف تعامل ساشا مع ذلك؟ هل يشعر المرء بنفسه مراقباً طوال الوقت؟

كان فيلهلم هو الوحيد الذي بقي جالساً من دون أن يحرك ساكناً أو يهتم بهداياه. نهضت ناديجدا إيفانوفنا وأحضرت بسرعة الجوارب التي حاكتها لساشا وكورت. سُرت شارلوته كثيراً بحقيبة أدوات الزينة التي تمنتها - ما حاجتها إليها في الحقيقة؟ جربت الجديدة عطرها وكأنه كان قنبلة (في المرة المقبلة، لو كانت ثمة مرة مقبلة ستحصل على كولون من القطن). حصل كورت على غليون وأظهر فرحة كبيرة (أي إنه اكتسب لبرهة ملامح طفل في السادسة ووضع الغليون في فمه ولبس الجوارب في يديه وألف بعيداً عن موسيقى عيد الميلاد أغنية عن «الغليون الذي بهر العيون»). جرب ألكسندر ماكينة الحلاقة (هديته الأصلية، المعطف المنغولي من فراء الغنم، أرسلتها إليه من قبل، حتى لا يبدو هناك عدم توازن بين الهدايا)، أما ناديجدا إيفانوفنا التي حصلت على شال صوفي مزين بالورود ووسادة قابلة للتسخين، حيث إنها كانت تشعر بالبرد ليلاً لتعوّدها النوم فوق الفرن، فتساءلت عشر مرات: أليست هذه الهدايا غالية جداً، حتى زجرتها إيرينا بصوت خفيض.

حصلت إيرينا أيضاً على هدايا لها. أهداها كورت فستاناً وحذاء مناسباً له، وبالطبع لم يكن ذلك حقيقياً، وإنما في صورة ظرف فيه المال - فكورت لم يكن قادراً حتى على شراء علبة من الخبز المقرمش بنفسه، فما بالك بملابس السيدات - لكن إيرينا كانت

راضية، فهي لم تتوقع أكثر من ذلك. لم ترد الحصول على شيء من ساشا الذي كان يحصل على منحة قدرها مئتا مارك (ويعيش في الواقع من المبالغ الإضافية التي يدفعها له هي وكورت)، وقد منعته من إهدائه إليها أي شيء. لم تهدِ أمها إليها قط أي هدية في عيد الميلاد. لقد حصلت في مرة وحيدة على دمية من الجدة مارفا، صنعتها لها بنفسها من الخرق والقش واستهزأ بها الأطفال الآخرون بسبب عينيها المرسومتين بقلم الكوبيا. كان اسمها كاتيا وحتى هذا اليوم كانت عينا إيرينا تدمعان عندما تتذكر هذه الدمية. أما مفارش شارلوته فكانت تلقي بها بكل حال من الأحوال - بعد الاحتفاظ بها بعض الوقت - في سلة القمامة.

لكن ما أخرجته شارلوته هذه المرة من حقيبة «ديديرون» لم يكن مفرشاً. ولم تكن أيضاً روزنامة. بل الكتاب، منذ نصف عام تقريباً لم يكن لشارلوته حديث آخر سوى كتابها الذي لم يكن في المناسبة كتابها لأنها كتبت مقدمته فقط. لكنها كانت تتصرف وكأن المقدمة هي أهم شيء في الكتاب، وكأن أحداً لا يستطيع قراءة الكتاب من دون تقديمها له. باختصار، إن مقدمة الكتاب قد صدرت أخيراً ومعها بقية الكتاب وكانت شارلوته تهدي إلى كل شخص نسخة ممهورة طبعاً بتوقيعها. حصل ألكسندر على نسخة وحصلت الجديدة على نسخة (ووقعتها لها حيث تبين أن شارلوته لم تكن تعرف اسمها) وحصل كورت وإيرينا معاً على نسخة. لكن المفارقة هي أن شارلوته قد أهدت إليهما نسخة قبل أسبوع.

نظرت إيرينا إلى كورت، فنظر إليها بمكر. والآن وبعد أن ملأت شارلوته حقيبة «ديديرون» بالهدايا التي حصلت عليها وبعد أن عثر فيلهلم على طاقيته وشارلوته على حقيبة يدها وبعد أن أكدت شارلوته



twitter @baghdad_library

أن كل شيء كان مبهجاً وبعد أن رافقا الاثنين إلى بسطة الدرج ولوحا لهما مودعين ثم أحضرا لهما المظلة التي نسياها بسرعة - وبعد أن انغلق الباب وراءهما أخيراً، انخرطت إيرينا بالرغم عنها في ضحك مدو وهيستيري لكنه مريح. ولم تستطع التوقف عن الضحك عندما ضمّها كورت بين ذراعيه، وكان عليها أن تتحرر منه لأن جسمها كان ينحني من فرط الضحك. ثم توقفت عن الضحك عندما شمت رائحة شيء يحترق وصوت ساشا وهو يسب ويلعن. ورأت ساشا وقد كسر فنجاناً وهو ينفض إكليل عيد الميلاد ليطفئ شمعته، ثم ضحكت ثانية عندما رأت ساشا يضع دمية الأرنب ذات الأذن المحترقة بالقرب من أنفه: لم تكوني حتى قد أخرجتها من غلافها يا ماما. بدأت عيناها تدمعان من فرط الضحك واحتاجت إلى وقت طويل كي تهدأ.

- الآن أنا في حاجة إلى كونياك.

فتح كورت النافذة وخرج الدخان. كان الجميع يشعرون بالحر لدرجة أن وجوههم قد احمرت. جلسوا على راحتهم في ركن الجلوس، وكانت نوبات الضحك التي تأتي كتوابع الزلزال لا تزال تهزّ إيرينا.

- كانت تلك نادرة جديدة، قال ساشا.

- إنهما يشيخان، قال كورت.

ثم نهض مرة أخرى وأحضر كونياك من رف الكحول الكبير الخاص به في مكتبته السويدية، وصب لإيرينا ولنفسه. رغب ساشا أيضاً في كأس من الكونياك.

- هيا يا ميليتا، اشربي معنا كأساً من الكونياك، قالت إيرينا.

لكن ميليتا لم ترغب في شرب الكونياك. في الوقت الذي بدأت

إيرينا تقرب الجديدة من قلبها قليلاً، شعرت بالإهانة. يا له من سلوك! أم أنها كانت ضد شرب الكحول؟ نباتية ومعادية للكحول!

- إذن فلنشرب نحن، قالت إيرينا.

تبادل ساشا وميليتا النظرات وفهمت إيرينا فجأة.

لقد فهمت أن هذه المرأة، غير اللافتة ذات الساقين القصيرتين والنظرات الحادة بأظفارها المهملة وتسريحة شعرها السيئة - أن هذه المرأة قادرة على جعلها هي إيرينا بتروفنا التي لم تبلغ الخمسين بعد، جدة.

- هذا غير معقول، قالت إيرينا.

- يا أمي إنك تتصرفين الآن وكأن كارثة وقعت.

- ماذا حدث؟ سأل كورت.



twitter @baghdad_library

# ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩

لم تعجبه رؤية أمه أمام مرآة الحمّام وهي تنتف حاجبيها. كان يراقبها منذ بعض الوقت وهي تتزين، عادة كانت تسير طوال اليوم بقميص مخطط (ويا حبذا لو كان من قمصان يورغن - مادام يورغن موجوداً) والآن وفجأة حذاء ذو كعب عال. لم يكن يعرف أن لديها حذاءً ذا كعب عال، كما أزالت شعر ساقيها بهذا الشمع المخصوص (أداة تعذيب)، والآن نتفت حاجبيها منحنية بشدة على الحوض، بحيث كان من الممكن رؤية لباسها الداخلي تحت التنورة، شيء بشع، كان يمكن المرء رؤية كل شيء، أهكذا أرادت الذهاب إلى حفلة عيد الميلاد الذي كان يعرف - وبالطبع تعرف هي أيضاً، أن أباه سيحضرها. لكن ثمة شيء آخر لم تكن تعرفه.

هل كان ينبغي له أن يقوله لها؟ إنها لم تسأله أو سألت بصورة غير مباشرة، لكنه عرف ما تريد: هل طبخ لك، هل ذهبتما معاً إلى السينما؟ نعم كنا في السينما ولكننا كنا ثلاثة. لم يقل لها ذلك. لم يقل إنهما ذهبا مع الجديدة، مع رفيقة أبيه.

- اذهب وغير ملابسك، قالت الأم.

لم يتحرك ماركوس من مكانه، بل بقي ليراها وهي تكحل رموشها

وتدير حدقتيها في هذه الأثناء بحيث لا يرى المرء من عينيها سوى البياض، كانت ترمش بجفونها عندما تدمع عيناها، إلى أن تستطيع الرؤية مجدداً. تعجب من الروتين الذي تفعل به كل شيء، وكيف صبغت شفتيها باقتدار، ثم ضمّتهما فيما بعد ولوت فمها، بالضبط كما كانت رفيقة أبيه تفعل. بعدها وضعت كريم تلميع الشعر على طرف أصابعها ومسحت به الشعر المغسول تواً، ثم نفشته قليلاً ونظرت إلى المرآة، بميل شديد إلى أسفل، بهذه النظرة الأنثوية - وبرغم أنه تعجب من إتقان أمه هذه الأشياء، وبرغم أن ذلك أثار إعجابه قليلاً، فلم يرغب في التفكير في لقاء الاثنتين بعد الظهر في خلال حفلة عيد الميلاد، أي أمه ورفيقة أبيه.

- ارتدِ قميصاً، قالت الأم، وإلا ستفوتنا الحافلة.

- لن أرتدي قميصاً.

- حسناً، قالت الأم، إذن سأذهب وحدي.

مسحت بقطنة مكان شعر الحاجبين المنتوف. استدار ماركوس وانسل إلى غرفته.

قاده أقصر الطرق عبر الفناء الداخلي حيث توجد معروضات أمه من الفخّار بين نباتات الخطمي الوردي الطويلة. كانت غرفته تقع فوق الورشة مباشرة في الجزء الأوسط من الفناء ذي الجوانب الأربعة الذي كان يتكون في الحقيقة من ثلاثة جوانب فقط. أحياناً كان يسمع مساء قعقعة دولاب الفخّار. صعد الدرجات الاثنتي عشرة في خمس خطوات مدربة وألقى بنفسه على السرير: على السرير السفلي، فقد كان سريراً من طبقتين صنعه يورغن لكي يستطيع ماركوس وفريكل أن يبيتا معاً، لكن فريكل انتقل مع والديه إلى الغرب ومنذ أن ذهب فريكل،



twitter @baghdad_library

أصبح غروسكرينتس مكاناً مملاً. سكنت أفضل فتيات المدرسة في شولتسندورف ولكي يذهب المرء إلى هناك كان لا بد من دراجة بخارية. ربما يحصل على واحدة عندما يتم الرابعة عشرة، لو توافر لديهم المال، هكذا قالت أمه، لكن عليهم الآن أن يوفروا من أجل شراء فرن الخزف، وعندئذ سيكسبون أموالاً كثيرة. لكنها كثيراً ما تحدثت عن كسب أموال كثيرة. أخذ يورغن السيارة معه ولهذا كان التنقل بالمواصلات يثير حنقه دائماً. فغروسكرينتس تقع في مؤخرة العالم، وللوصول إلى نويندورف لا بد من تغيير المواصلات مرتين.

استرق السمع ليتحقق إن كانت تلك خطوات أمه على الدرج. ماذا لو ذهبت حقاً بمفردها؟ كان تفكيره في الأشياء التي يمكنه رؤيتها في منزل الجدين الكبيرين هو السبب في تردده بين الذهاب وعدمه. ما بقي في ذاكرته فقط، كان القوقعة الكبيرة في الردهة وجلد الكوبرا (التي كانت الجدة الكبيرة تظن خطأ أنه جلد الحية ذات الأجراس) ومنشار سمكة أبي منشار (وهي من فصيلة الشفنين)، والقرش القطي المحنط، كما تذكر على الخصوص الإغوانة السوداء الموجودة في مكتبة فيلهلم التي لم يكن نموها قد اكتمل تماماً - كان بيتهما يشبه بعض الشيء متحف التاريخ الطبيعي في برلين: حيث لا يسمح أيضاً بلمس أي شيء.

وبخلاف ذلك كان الجدان الكبيران غريبي الأطوار. في وقت ما في الماضي كافحا ضد هتلر، وكانا ملاحقين، في فترة النازية - لقد درسوا ذلك في المدرسة، بل زارهم فيلهلم ذات مرة في الفصل وحكى عن كارل ليبكنيشت وكيف جلسا معاً في الشرفة وأسسا جمهورية ألمانيا الديمقراطية أو شيئاً من هذا القبيل. لم يفهم أحد شيئاً مما قاله، لكنهم جميعاً اندهشوا لأن لديه مثل هذا الجد المشهور، بل حتى فريكل

اندهش من ذلك. ولكن باستثناء ذلك كان فيلهلم غريباً نوعاً ما. كان يقول دائماً (Ombre)، ما هذا السخف؟ والجدة الكبيرة تقول «اعمل بيبي بدلاً من تبول». وكانت تعامله مثل طفل في الثالثة، لكنها تتعجب لعدم معرفته اسم عاصمة هندوراس: ترى ماذا تكون هندوراس تلك؟ ماركة دراجة بخارية؟

الآن سمع خطى أمه. كان يعرف أنها مجرد تهديدات فارغة.

- إنه عيد ميلاده التسعون، وربما يكون الأخير يا ماركوس.

- هذا أمر لا يعنيني، قال ماركوس ونفخ في مصيدة الكوابيس المعلقة في ألواح السرير العلوي.

- يحزنني قليلاً أن أسمعك تقول ذلك، قالت الأم.

- ليس لدي أي هدية له.

- لا عليك، هذا لا يهم، قالت الأم.

- فكرت الأم لحظة ووجدت على الفور حلاً كما تفعل دائماً.

- فلتهد إليه واحدة من صور سلاحفك.

كان اسم المحطة غروسكرينيتز - دورفكيرن (مركز القرية) لكنها كانت تقع في طرف القرية، بل خارجها. سار على بعد ثلاثة أمتار خلف أمه: مسافة من الأمان لكي لا تشبك ذراعها بذراعه.

سارا فوق القضبان المهجورة مارين بمرأب المطافئ السابق، حيث صارت تُخزن أشياء خاصة بالتعاونية الزراعية، وعابرين ورشة البناء التي يهدر دائماً خلاط خرسانتها في نهاية كل أسبوع من دون أن يطرأ أي تغيير ملحوظ، ثم ببركة القرية التي أغرقها البط بسلحه، ثم بالجمعية



twitter @baghdad_library

الاستهلاكية حيث كان يشتري هو وفريكل منها البوظة ذات العصا، وبعدها بيوت غروسكرينيتس القديمة الواطئة التي كان يمكن اعتبارها خالية من الحياة لولا أن ستائرها كانت تفتح وتغلق من حين إلى آخر. بالطبع لم يكن يهمه ما يقوله سفهاء القرية ومع ذلك كان فرحاً لأن أمه ارتدت أقله معطفاً فوق ملابسها، حتى لو كان طوله لا يزيد على تنورتها إلا قليلاً. وتحتها كانت تلمع ثانية بثانية سمانتاها بجوربيها المزركشين. وكان صوت حذائها ذي الكعب العالي يطقطق على مرأى ومسمع الجميع على رصيف غروسكرينتس المنحدر بشدة.

لو تمكن من ألا يطأ فجوة بين بلاطات الرصيف، كذا فكر ماركوس، حتى يصلا إلى المحطة، فلن تأتي الحافلة. في أحيان كثيرة كانت الحافلة لا تأتي، فحافلات إيكاروس القديمة ذات المحرك في المؤخرة، كانت لا تزال في الخدمة، وإذا لم تأت هذه الحافلة، فقد قُضي الأمر، لأن الحافلة التالية كانت لا تأتي في يوم الأحد إلا كل ساعتين. لكن كان عليه أيضاً ألا يطأ بلاطة رصيف مهشمة، فتلك كانت تعد فجوة أيضاً. لم يكن الأمر سهلاً، لأن أمه سرعت من خطوتها وتحتم على ماركوس أن يركز أكثر.

من بعيد سمع نغمات التدريبات الآتية من الكنيسة ولم يكن يحتاج إلى رفع رأسه كي يرى من الذي تحييه أمه.

- هلا، صاح كلاوس، إلى أين تذهبان؟

كان كلاوس هو قس القرية.

- علينا أن نلحق بالحافلة، صاحت الأم، إنه عيد ميلاد أمي.

نظر إليها ماركوس مندهشاً لثانية، لكن لسانه كان أسرع.

- اللعنة، قال ماركوس.

- لكنكما ستأتيان مساء اليوم إلى قداس السلام، قال كلاوس.

- سنرى إن كنا نستطيع، قالت الأم.

- يا للخسارة، صاح كلاوس وراءهما، واليوم بالذات!

دخلت الحافلة المحطة لدى وصولهما.

صلصل المحرك الخلفي بصوت خفيض عند الانطلاق. وزادت الإيكاروس القديمة من سرعتها بإيقاع متراخ. في الخارج رأى كلاوس المشاهد التي كان يراها كل صباح، حقل من بقايا النباتات بعد الحصاد، أشجار الصنوبر وأبراج سلوات العلف الفضية (التي كان فريكل يزعم دائماً أنها في الحقيقة منصات لإطلاق صواريخ نووية روسية).

لقد شعر بشكل ما أن على أمه أن تؤازره.

- لن أذهب إلى أبي ثانية.

- ماذا دهاك الآن؟ قالت الأم.

فكر قليلاً في تداعيات هذا التصور: التخلي عن زيارات برلين، لا سينما، ولا متحف التاريخ الطبيعي - لكن الغريب أنه قد بدا له فجأة أنه ليس بالمستحيل التخلي عن البقاء تحت رحمة مجيء أبيه لاصطحابه إلى هناك وإرجاعه (وخصوصاً أنه سيصبح قريباً في سن تؤهله للذهاب بمفرده إلى برلين).

- هذا الوغد، قال ماركوس.

- أرجوك يا ماركوس!

- هذا الوغد، كرّرها ماركوس.



twitter @baghdad_library

- لا أريدك يا ماركوس أن تتحدث عن أبيك على هذا النحو.

توقفت الحافلة قليلاً، وركبت جدة وجلست في الصف الأول. وعندما تحركت الحافلة قالت الأم:

- لقد كنت متزوجة أباك وأنجبناك لأننا كنا متحابين. وانفصالنا لاعلاقة له بك. لقد هجرني أبوك، ولم يهجرك أنت. أليس كذلك؟

- براز وبول مع قيء. قال ماركوس.

كان يشعر بالغضب الشديد عندما تدافع أمه عن أبيه. لقد هجرهما معاً - هجره هو أيضاً. لقد آذى أمه. صحيح أنه كان صغيراً حينئذٍ لكي يتذكر كما تدعي أمه، لكنه مازال يتذكر قليلاً هجره إياهما، يتذكر الرعب وعذاب أمه، ونشيجها الخفيض كي لا يسمع ما كان أبوه يفعله بها، أشياء من قبيل شد الشّعر والسّحل من قدميها على الأرض، اصطياد النساء، هذا التعبير الأخير سمعه من أمه ذات مرة، لكن اتضح له بالطبع في هذه الأثناء أن له معنى مختلفاً - لكنه لا يزال يتذكر جيداً هذا النشيج في الغرفة المجاورة، وأنه كان يرقد متجمّداً في مكانه من فرط الخوف وأنه كان دائم المرض عندما كان طفلاً وكل هذا كان سببه هو الهجر، لا بد أن أمه كانت تعرف ذلك لأنها أخصائية نفسية، وتعرف أيضاً عن حلمه برؤوس الأسماك الذي كان يأتيه أحياناً في وسط النهار، قبل أن تهدي إليه مصيدة الكوابيس.

ظهرت التعاونية الزراعية في مرمى البصر، أرض مهجورة وآلات صدئة وسط الأعشاب الطويلة، وبعدها معسكر تعذيب الخنازير، تلك الزريبة المبنية من ألواح خرسانية، كانت تخطر له دائماً عندما يجب عليهم أن ينشدوا في المدرسة الأغنية الآتية:

موطننا ليس مجرد قرى ومدن...

- لماذا قلت إنه عيد ميلاد أمك؟

- آه، لقد قلتها هكذا من دون سبب!

لكنه يعرف أنها لم تقلها هكذا. لقد أُحرجت أن تقول أمام كلاوس إنها ذاهبة إلى عيد ميلاد فيلهلم، لأن كلاوس يمثل الكنيسة وفيلهلم يمثل الحزب وكلاهما متعارضان. لكن كلاوس لم يكن يعرف فيلهلم (ولم يكن يعرف أمها أيضاً)، وبهذا كانت تلك الحجة فارغة أيضاً من معناها تماماً. ولكنه بدلاً من أن ينبه أمه لذلك، سألها:

- هل كلاوس ضد جمهورية ألمانيا الديمقراطية؟

- كلاوس ليس ضد ألمانيا الديمقراطية، إنه يريدها أن تكون أفضل، أكثر ديمقراطية.

- ولماذا هو قسّ إذن؟

- ولِمَ لا، قالت الأم. كل شخص من حقه أن ينشط من أجل مزيد من الديمقراطية، وهو كقس يستطيع مثلاً أن ينظم قداديس من أجل السلام.

لم يرغب ماركوس في مواصلة النقاش حول الموضوع، لقد شعر أن أمه قد رغبت في إقناعه مجدداً، لكن قداديس السلام كانت أمراً بشعاً بالنسبة إليه، هذا التشابك بالأيدي والغناء الجماعي وكل هذه الأمور المصطنعة، وفي آخر الأمر ينامون جميعاً عندهم في حديقة البيت ويسكرون ويبولون على الطماطم: من أجل ألمانيا أفضل. كيف من الممكن تحقيق ذلك، لقد ظل هذا الأمر لغزاً بالنسبة إليه.

من بعيد كان يمكن رؤية غرب برلين: تلك البنايات الجديدة البيضاء كالعلب، لقد بدت كالمستقبل. هناك سكن فريكل.



twitter @baghdad_library

- لماذا لا نقدم على طلب بالمغادرة؟

- لو قدمنا طلباً الآن، قالت الأم، فلن يقبل - إذا قُبل - إلا عندما تتم الثامنة عشرة أو العشرين.

- أو فلنهرب. قال ماركوس.

- لا تقل ذلك بصوتٍ عالٍ، قالت الأم.

تراءى له هذا الحل عبقرياً. عندئذٍ سيتخلصان من كل شيء من غروسكرينتس ومن أعمال الخزف. وسيشعر أبوه بذهول شديد.

- وكيف ستفعل ذلك؟ سألت الأم.

- مثل الآخرين، عبر هنغاريا.

- ليس الأمر بهذه السهولة، تحدثت أمه بصوت خفيض وكأنها كانت تشك أن الجدة الجالسة أمامهما تتعاون مع «الشتازي»: تحتاج إلى تأشيرة إلى هنغاريا، لكن الحصول عليها لم يعد ممكناً. عليك أيضاً أن تفكر في أنه لو انتقلنا إلى هناك فلن ترى أصدقاءك ثانية.

- بلى، سأرى فريكل.

- حسناً، سترى فريكل وماذا عن الآخرين؟

- لارس انتقل على كل حال إلى هناك؟

- وماذا عن جدتك وجدك؟ وأبيك؟

- الوغد، قال ماركوس.

- ماركوس، هل وقع شيء بينكما؟ هل تريد أن تحدّثني عنه؟

- براز وبول مع قيء. قال ماركوس ونظر إلى البيوت البيضاء التي تشبه العلب وهي تمر أمامه ببطء.

وعندما وقف لاحقاً بعد نحو ساعة أمام بيت جديه الكبيرين، تذكر مقرعتي الباب المصنوعتين من النحاس الأصفر واللتين كان لهما شكل تنينين، لكن فاهيهما الفاغرين بديا مثل رؤوس الأسماك التي كان يراها في الحلم. لحسن الحظ - ونوعاً ما لإفقاد الشر قوته - كُتب تحتهما على قصاصة صغيرة: لا تطرق! وتذكر ماركوس أنه قد ألصقت في كل أنحاء البيت قصاصات صغيرة كهذه: للضيوف فقط! أو مفتاح النور لا يعمل! أو اترك المفتاح في الباب من الداخل! بل أيضاً كتب على أحد الأبواب احترس قبو! وكأنه يمكن المرء أن ينسى الطريق إلى القبو في هذا البيت الكبير.

لكن وقبل أن يضغطا على الجرس انفتح الباب ووقف أمامها رجل يرتدي بذلة زرقاء ذو جبين متغضن له ثنيات غليظة تشبه قطع السجق.

- الرفيقة ..آ.... قال الرجل.

من الواضح أنه لم يكن يعرف من الواقفة أمامه، لكنه تصرف وكأنه لم يتذكر اسمها.

- أومنيترز، قالت الأم وأشارت إلى ماركوس قائلة: ابن الحفيد.

- ابن الحفيد، صاح الرجل.

أمسك يد ماركوس وصافحها.

- غير معقول، قال الرجل، غير معقول!

الغريب أن الرجل ذا الثنيات التي تشبه قطع السجق في جبهته لم يتغير، حتى عندما ضحك. ثم قال للأم:

- أنا مكلف يا رفيقة أن آخذ منك الورق الذي لُفت فيه الزهور.



twitter @baghdad_library

أعطته الأم ورق الزهور من دون أن تصحح له اللقب.

في الردهة أضاءت القوقعة الكبيرة بالضبط كما كان يحتفظ بها في ذاكرته، لكن المكان بدا له أكثر إظلاماً من المرة الأخيرة. وقفا بضع ثوان تائهين ثم ظهرت أمامهما مباشرة الجدة الكبيرة مثل شبح. نظرت إليهما متسائلة وخشي ماركوس ألا تكون قد تعرفت إليه، عندما قالت:

- رائع أنكما قد أتيتما. أنا سعيدة جداً!

مرت امرأة وأخذت من الأم معطفها.

- إذا لم يكن ثمة مكان في المدخل الخلفي، فعليك أن تضعي المعطف في القبو، نادت الجدة الكبيرة وراء المرأة بصوت حاد، ثم التفتت إليهما.

- شيء فظيع.

لم يفهم ماركوس ما تعنيه.

- لقد انهارت قواي تماماً، قالت الجدة الكبيرة، لقد انهارت قواي فعلاً.

وضعت يديها أمام وجهها وتسمّرت لحظات في هذا الوضع حتى بدأ ماركوس يشعر بعدم الارتياح:

- ولا كلمة! هل هذا واضح؟

بدا صوتها مجدداً حاداً وقاطعاً.

- لا كلام عن هنغاريا! ولا كلام عن أي شيء! لا بد أن يتم كل شيء بنجاح مئة في المئة! هل هذا واضح؟

- واضح! قالت الأم.

انحنت الجدة الكبيرة وقالت بصوت هامس تقريباً:

- لم يعد يتحمل.

- حسناً! قالت الأم.

- رائع، قالت الجدة بصوت يشبه الصفير، وداعبت شعر ماركوس. لقد كبرتَ.

- إنه في الثانية عشرة، قالت الأم.

أومأت الجدة الكبيرة.

- ميليتا، أليس كذلك، أنت ميليتا؟

- نعم، قالت الأم، بالضبط.

داعبت الجدة الكبيرة شعر ماركوس مرة أخرى ونظرت إليه مبتسمة، ثم غيرت فجأة وبشكل حاد ومجنون تقريباً نبرة صوتها.

- هيا! مئة في المئة! سأعتمد عليكما!

بمجرد دخوله المكان وجد نفسه يفكر مجدداً في متحف التاريخ الطبيعي، كل شيء كان يشبه المتحف، يبدو ما قبل تاريخي، وهكذا كانت رائحة المكان أيضاً: غبراء ونفّاذة توحي بجدية شديدة. وهو محاط من كل الجوانب برفوف سوداء وأبواب زجاجية وبالنظر بميل عبر الباب الجرار الكبير الذي يجعل من الغرفتين قاعة كبيرة، يمكن رؤية الحديقة الشتوية التي خزن بها، حسبما تذكر الآن، الجزء الأساس من الكنوز.



twitter @baghdad_library

في وسط الغرفة كانت ثمة مائدة رُكبت من طاولات مختلفة (ذات ارتفاعات مختلفة أيضاً) جلس عليها عدد كبير من الناس، لم يكن والده بينهم. ولم يتمكن أيضاً من العثور على جدته إيرينا من النظرة الأولى. كان معظمهم أناساً كباراً في السن، شيوخاً هرمين، هؤلاء الذين جلسوا إلى المائدة وتناقشوا، اجتماع ديناصورات مع القهوة والتورتة، هكذا فكر ماركوس، لكنهم كانوا منفعلين وتمازجت حشرجة أصواتهم بقوة وكأنهم أوقظوا من جمودهم ما قبل التاريخي لكي يعوضوا اليوم ما فاتهم قوله عبر ملايين السنين.

الوحيد الذي جلس بعيداً عن المائدة الكبيرة على اليسار تماماً في الركن، في ظل الضوء الساقط عبر باب الشرفة: كان ثمة حيوان زاحف لم يتمكن تماماً من العودة إلى الحياة، في الحقيقة يذكره هذا الهيكل العظمي المتداخل بعضه في بعض بركبتيه المنتصبتين عالياً حتى أذنيه تقريباً، وذراعيه المجنحتين المتدليتين من مسند المقعد وأنفه الطويل الضخم كالمنقار بصورة حفرية لأحد الزواحف المنقرضة، كان يثير انبهار ماركوس أكثر من أي شيء آخر: إنه التيروصور أو الزاحف المجنّح.

- ماركوس، قالت الجدة الكبيرة للتيروصور، ابن حفيدك.

- عيد ميلاد سعيد، همهم ماركوس، وقدم الصورة لجده الكبير.

كان رأس التيروصور معوجاً، وأنفه المنقاري يدور.

- إنه لا يسمع، همست الجدة الكبيرة.

- إنها إغوانة، قال التيروصور بصوت متحشرج.

- إنها سلحفاة بحرية، قال ماركوس بصوت عالٍ وتخلى عن التعريف الدقيق (فهي تحديداً من نوع منقار الصقر الأصّلي).

- إنه لا يرى شيئاً، همست الجدة الكبيرة.

- ماركوس يهتم بالحيوانات، قالت الأم.

جلس التيروصور لحظة من دون حراك. ثم قال:

- عندما أموت يا ماركوس، سترث الإغوانة الموجودة في الرف.

- رائع، قال ماركوس.

لم يحدث قط أن أورثه أحد شيئاً. ولم يكن متأكداً إن كان يجوز له أن يشكره على أمر كهذا أو حتى أن يفرح. فهذا معناه أنه يفرح لموت فيلهلم. لكن فيلهلم قال فجأة:

- أو من الأفضل أن تأخذها معك حالاً.

- الآن في الحال؟

- خذها معك، قال فيلهلم، فأنا لن أبقى طويلاً على أي حال.

مر ماركوس بأدب على كل الجالسين مصحوباً بالتعريف المتكرر ابن الحفيد، ابن الحفيد، بالطبع كان أمراً محرجاً لكنه شعر أيضاً بشيء من الإطراء.

- في صحة الشباب، قالت عجوز شقراء بصوت يشبه الصفير.

- داسدرافستفويت، زأر رجل سمين كثير العرق، احمر وجهه من كثرة الكلام.

رفع الجميع كؤوسهم وشربوا في صحة الشباب.

وحتى جده كورت عانقه وهو أمر غير معتاد، فعادة ينتمي الجد كورت إلى أولئك الذين يتجنبون التلامس الجسدي غير الضروري، ولهذا كان عناقه أمراً يقدره ماركوس. كان عموماً يحب جده وكان



twitter @baghdad_library

يشعر قليلاً بالأسف له، لأنه عندما كان يذهب من حين إلى آخر لزيارة جديه، كان كورت يسعى دائماً لتعليمه بعض الألعاب التي يتعلم منها المرء شيئاً من أجل الحياة. هكذا كان الجد كورت، طيباً ولكنه مجهد.

- أين الجدة إيرا؟ سأل ماركوس.

- الجدة إيرا ليست على ما يرام. قال الجد كورت.

- هل هي مريضة؟

- نعم، قال الجد كورت. علي أن أقول ذلك.

وفي نهاية المطاف كان الدور على بابا ناديا. كان يفزع قليلاً من قبضة يديها. كانت تسكن عند الجدة إيرينا وعندما كان يزورهم هناك كان عليه أن يدخل غرفتها ليحيا، كانت رائحة الغرفة شنيعة، رائحة معينة حلوة قليلاً، ولكن خانقة بحق، لذا يحاول المرء الفرار من الغرفة بمجرد أداء الواجب. لكنه كان يقع في الفخ - فيدا المرأة العجوز كانتا مثل كمّاشة، كانت تمسك به وتثرثر له طويلاً بالروسية، وتشده ليجلس على السرير، في الوقت الذي يقل هواء التنفس، ولا تنفتح يدها الكماشة حتى يتذوق قطعة من تلك الشيكولاتة المحشوة المقززة التي لديها.

كان مقصدها طيباً، هذا واضح، ولم يظهر ماركوس شيئاً عندما مد يده الآن ليصافحها، لكنه تنفس لاإرادياً من فمه واتخذ سمتاً ودوداً وكان مستعداً لاستقبال هدير الأصوات غير المفهومة الجاف - لكن ما أدهشه هو أن بابا ناديا لم تقل سوى كلمة واحدة أخطأت في نطقها لكنها كانت مفهومة:

- Affidersin.

ورد عليها ماركوس بارتياح إلى اللقاء ومضى.

في البداية شاهد الإغوانة التي أصبحت من الآن ملكاً له: نموذج رائع، سليمة تماماً، بغض النظر عن بعض المخالب الناقصة، سلسلة قشور الظهر مغبرة قليلاً، وقد سعد ماركوس لأنه سيأخذها معه إلى البيت وينظفها بفرشاة دقيقة. هل عليه أن يضع الإغوانة في مكان آمن، فمن يدري ربما نسي فيلهلم ما قاله له - لكن أين يضعها؟ كان ثمة شهود أيضاً على منحه هذه الهدية. قرر أن يكمل مشاهداته، متجاهلاً طلب أمه الصامت بأن يجلس إلى جانبها إلى مائدة القهوة.

باستثناء الإغوانة وربما قبعة السومبريرو الكبيرة والوهق والحزام المطرز (بجراب المسدس) التي عُلقت كلها في رف بباب مسدود، كانت غرفة فيلهلم أقل إثارة من الحديقة الشتوية. مع ذلك أخذ ماركوس وقته في تفحص كل شيء بدقة مرة أخرى: الأشياء المصنوعة من الفضة، آنية ومنافض سجائر وأيضاً أشياء من الذهب أو من البلور الأزرق، غالباً ذات قيمة كبيرة جداً، ورتبت بعناية في قسم خاص بها بين الكتب. كان ثمة قسم روسي أيضاً به واحدة من تلك الدمى الخشبية الموجودة بعضها داخل بعض، وملعقة خشبية عليها رسوم وشيء زجاجي تنهمر داخله الثلوج إذا ما حركه المرء وفي وسط هذا الشيء بحجم ضئيل جداً كان الكرملين. وكذلك رأس لينين من الجبس بأذن مكسورة.

كانت الصور الموضوعة في أُطر صغيرة داخل الفترينة متوسطة الارتفاع أكثر إثارة للانتباه: فيلهلم راكباً دراجة بخارية من عصر ما قبل التاريخ مرتدياً زياً ما (؟) ومعتمراً طاقية جلدية وذا نظارة ( لم يكن التعرف إليه ممكناً إلا عبر نظارته) وإلى جانبه في العربة الملتصقة بالدراجة البخارية رجل يرتدي بذلة: ربما كارل ليبكنيشت. لكن الصورة كانت سيئة وعلى الأغلب كانت لدى الجميع لحى آنذاك.



twitter @baghdad_library

صورة لسفينة: هل كانت تلك هي السفينة التي عاد بها الجدان الكبيران من المكسيك أم أنها كانت رحلة الذهاب؟ كيف هربا آنذاك من ألمانيا؟

وكذلك صورة امرأة جميلة ذات عينين سوداوين لامعتين، ولولا أنها مازالت تحتفظ بتسريحة الشعر ذاتها إلى اليوم لما أمكن معرفة أنها الشخص نفسه الذي دخل الآن مندفعاً وحذر ضيوفه بهمس ذي فحيح.

- أرجوكم يا أولاد، أرجوكم.

ثم رن الجرس ثانية. اختفت الجدة الكبيرة في الردهة، وخفت لغط الديناصورات لحظة بعد التحذير، ثم تعالى ثانية، تحدثوا برغم الحظر عن الوضع السياسي وعن هنغاريا وكل هذه الأمور ولاحظ ماركوس باندهاش أن الديناصورات يتبنون الرأي ذاته الذي يتبناه القس كلاوس في غروسكرينيتس.

- ديمقراطية أكثر،صاح الرجل السمين ذو الوجه الأحمر، من دون شك نريد ديمقراطية أكثر!

لكن الجدة قاطعتهم وصفقت بيديها:

- أيها الرفاق، أرجوكم الهدوء!

دخل رجل يرتدي بذلة بنية. كان يبدو مثل بريتسكه مدير مدرسة ماركوس، ويمسك ملفاً أحمر بيده، ودق أحدهم إحدى الكؤوس ليعلن بذلك على ما يبدو كلمة، والآن حان موعد الجزء الرسمي، فكر ماركوس. ولكن أين أبوه في الحقيقة؟

- الرفاق الأعزاء، الرفيق العزيز بوفيلايت، هكذا بدأ مدير المدرسة وكان صوته منهكاً من البداية، خطبة تقليدية. فكر ماركوس إن كان في

إمكانه أن يستغل الجلبة الأخيرة ليختفي سريعاً في الحديقة الشتوية، لكن الأوان قد فات ولم يبق أمامه سوى انتظار انتهاء الكلمة. وقف أمام الشباك عند مكتب فيلهلم - كان أيضاً قطعة تستحق دخول المتحف بكل ما عليه من أشياء: فتاحة الظروف (أكثر من واحدة)، أقلام خشبية (حمراء)، وعدسة كبيرة. تذكر في أثناء عرض المتحدث لسيرة حياة فيلهلم أن فيلهلم عندما زارهم في المدرسة تحدث عن «انقلاب كاب» وأنه جُرح في خلال هذا الانقلاب، وبرغم أنه لم يعرف كيف بدا المكان هناك، فقد تخيل جده الكبير في كاب هورن معتمراً قبعة السومبريرو وقد جذب مسدسه مستعداً للهجوم وهو يمتطي حصاناً - طاخ طاخ - ثم سقط من فوق الحصان! بالتأكيد لم يكن الأمر هكذا فكر ماركوس، ربما كان اسم قائدهم ببساطة «كاب»؟ ربما كان هو الرجل الجالس إلى جانب فيلهلم على الدراجة البخارية؟ هل كانوا في طريقهم إلى الانقلاب؟ أم أن الصورة كانت من الفترة النازية، حينما عمل فيلهلم، حسبما قال مدير المدرسة، بشكل غير شرعي، وتنكر في زي فرد من أفراد فرق الهجوم (SA)؟ ثم اضطر فيلهلم إلى الفرار من ألمانيا، لكن مدير المدرسة لم يفصح عن كيفية هروبه. وسأل ماركوس نفسه مراراً، ألم تكن ثمة حدود في ألمانيا آنذاك؟ ألم تكن عليها حراسة؟ وأين كانت الجدة الكبيرة شارلوته طوال كل هذه الفترة؟

- نمنحك يا رفيق بوفيلايت وسام الاستحقاق الوطني من الذهب، هكذا سمع ماركوس مدير المدرسة يتكلم. بدا كل ذلك فخماً. وسام الاستحقاق الوطني، بل من الذهب، وبعض القصص عن القيصر والحرب ثم صفق الجميع، وأقبل مدير المدرسة على فيلهلم وبيده وسام الاستحقاق الوطني لكن فيلهلم لم ينهض من مكانه بل رفع يده وقال:

- لدي صفيح كاف في الكرتونة.



twitter @baghdad_library

ضحك الجميع، وهزّت الجدة الكبيرة رأسها، ثم علق مدير المدرسة الوسام لفيلهلم وصفق الجميع مرة أخرى ووقفوا وفجأة لم يعرفوا متى ينبغي لهم التوقف عن التصفيق، صفقوا وصفقوا حتى صاحت الجدة الكبيرة أخيراً بصوتها الحاد:

- لقد فُتح البوفيه!

كان البوفيه في الغرفة المجاورة. التقط ماركوس قطعة سجق صغيرة وسار نحو الحديقة الشتوية. كان محتفظاً برائحتها التقليدية في أنفه، وبالملمس الخشن المرمل للقرش القطي على أطراف أصابعه. كانت بشرة القرش القطي مثله مثل كل أنواع القروش عبارة عن أسنان ضئيلة جداً تتجدد بشكل دائم. لقد آثر أن يمسك قطعة السجق بيده اليمنى، ويترك يده اليسرى نظيفة استعداداً للمس القرش القطي، لكنه اكتشف أن الحديقة الشتوية كانت مغلقة. وعلى الباب الجرار ألصقت قصاصة فوق الفتحة ما بين دفتيه كُتب عليها: ممنوع الدخول! اختلس ماركوس النظر من وراء اللوح الزجاجي. كان كل شيء كما كان محتفظاً به في ذاكرته، جلد الكوبرا والمنشار والقرش القطي بين أوراق شجرة المطاط، وحدها النافورة كانت معطلة وإذا مال المرء أكثر، فسيرى أن قطع الباركيه أمام باب الشرفة قد انتفخت قليلاً بسبب شِح المياه، بل إن بعض القطع مفقودة. خسارة، فكر ماركوس، لم يقصد الأرضية وإنما كل هذه الأشياء الجميلة التي تراءت له فجأة مهملة ومهجورة - وتساءل حين خطرت بباله فكرة أنه لم يكن من الممكن أن يرث أيضاً جلد الكوبرا ومنشار سمكة أبي منشار والقرش القطي. لكن غالباً إذا ما توفيت الجدة الكبيرة فسيرثها الجد كورت وعندما يموت الجد كورت، يكون الدور على أبيه، سلسلة طويلة جداً ويبقى الأمل على الأرجح في الحصول على هذا الشيء أو ذاك مبكراً كهدية: ربما يمكنه أن يتفاوض

مع أبيه؟ أين غاب؟ جال ماركوس ببصره لكن والده لم يكن بالطبع موجوداً. كلما احتاج إليه، لم يكن موجوداً: الآن مثلاً، من أجل سؤال الجدة المخبولة، إن كان من المسموح له دخول الحديقة الشتوية. من المقزز أن يكون لديك أب غائب دائماً. جميع الآباء كانوا موجودين، ما عدا أباه، والد ماركوس أومنيتزر كان أباً سيئاً وغائباً دائماً. هذا الوغد.

عاد إلى بوفيه المأكولات الباردة وأخذ قطعة سجق أخرى. جلست الأم إلى جانب الجد كورت، ولأنه لا تحب أن تراه وهو يأكل السجق فقد بقي قليلاً يجول في «غرفة البوفيه»، وتأمل في ملل لوحات وتماثيل الهنود الحمر المعلقة على الجدران والواقفة في أنحاء الحجرة والتي تهيم بها الجدة الكبيرة، ثم نظر بصورة غير لافتة عندما دق الجرس، إن كان أبوه قد وصل أخيراً. ولما أكل قطعة السجق ولم يكن الوغد قد وصل بعد قرر أن يسأل الجدة الكبيرة بنفسه، إن كان مسموحاً له استثنائياً أن يرى الحديقة الشتوية ولكن عندما مسح أصابعه في ببنطاله وجال ببصره بحثاً عن الجدة الكبيرة، ساد السكون فجأة في الغرفة الكبيرة وللحظة سُمع صوت خفيض حاد، صوت غنائي، أكثر حدة من أن يكون لرجل لكنه شبه نقي، تقريباً نسخة منقرضة لا مثيل لها، لكنه كان فعلياً صوت فيلهلم الذي جلس في الركن المظلم مغمض العينين وغنى، غنى مع نفسه، نصاً سخيفاً يمكن المرء أن يظن أنه ألفه بنفسه: لكنه لم يكن كذلك كان كلاماً عن ستالين ولينين وقد حاول أحدهم أن يغني معه لكنه لم يحفظ النص جيداً. وغنى فيلهلم، هذا التيروصور الذي لم يكن سوى كومة عظام تقريباً والوسام على صدره مثل بطل أولمبي، غنى وحده، سولو.

ومرةً أخرى صفق الجميع. ولوّح فيلهلم بيده، لكن هذا لم يوقفهم



twitter @baghdad_library

عن التصفيق وكأن غناءه هذا كان رائعاً. الجدة وحدها أظهرت امتعاضها، فقد شعرت بالإحراج بسبب فيلهلم، وكان ذلك بادياً على وجهها. وفكر ماركوس إن كانت تلك هي اللحظة المناسبة للسؤال عن الحديقة الشتوية - لكن ما لا يصدق - هو أن شخصاً آخر قد بدأ يغني. بمعنى أصح بدأت بابا ناديا فجأة تتهادى مع الإيقاع وتخرج بصوت عميق أجش ألفاظاً روسية، جذبت إليها انتباه الجميع. هُس هُس! على الجميع أن ينصت حتى الجدة الكبيرة. توجهت الأنظار إلى بابا ناديا لتشجعها. وبدأت الرؤوس الأولى تهتزّ مع الإيقاع، وبعد أن وصلت بابا ناديا للمرة الثانية أو الثالثة إلى ما يشبه قرار الأغنية الذي تتكرر فيه كلمة يفهمها الجميع وهي تحديداً، فودكا فودكا، بدأت هذه الرؤوس الأولى تغنّي معها دائماً عندما تأتي لازمة فودكا فودكا، فيما واصلت بابا ناديا بجدية وعناد غناء المقطع وراء الآخر، حتى انتهى المطاف بالجميع بالغناء فودكا فودكا وأعلاهم صوتاً كان هذا السمين ذو الوجه الذي يشبه القرد. بل أصبحوا يصفقون بالأيدي عند فودكا فودكا. غير معقول ما دار هنا. حفلة الديناصورات. لقد فاتت أباه، هكذا فكر ماركوس وجال ببصره ليرى إن كان قد وصل، لكن بدلاً من أبيه رأى وسط هذا الحبور المفرط، بين الضاحكين المقرقرين، المبرزين أسنانهم والوجوه المخمورة، وجهاً جاداً غائباً لم يتأثر بكل هذا الهرج إطلاقاً، وجهاً شديد النحافة، شديد الاعوجاج، تميزه التهابات صغيرة تحت الحاجبين.

في اللحظة نفسها صلصل شيء في الغرفة المجاورة، وصرخ أحدهم - ووجد ماركوس صعوبة في الوصول إلى أمه بسبب هؤلاء المندفعين عبر الباب الجرار إلى الغرفة الأخرى.

- ماذا حدث؟ تساءل.

- سنذهب. قالت الأم.

- لماذا الآن؟

- سأوضح لك ذلك في الخارج. قالت ميليتا.

ذهبا من دون أن يودعا الجدة الكبيرة.

لقد أخذ الإغوانة معه.

وفي الليل حلم مجدداً برؤوس الأسماك المقطوعة.



twitter @baghdad_library

## ١٩٧٩

لم يكن الجليد الذي لم يلاحق الناس على كسحه منذ عدة أيام، قادراً أيضاً على تحسين منظر المنطقة، فبنايات الإيجار على اليمين واليسار كانت في حال رزية. وحيثما لا يبرز الجدار الحدودي العاري، اسودت واجهات البنايات المزخرفة من جراء دخان مدافئ الفحم. بدت الشرفات وكأنها على وشك السقوط على رأس العابر في أي لحظة.

خلق الأطلال من دون قتال، خطرت له هذه المزحة: إنه شعار إدارة المساكن المحلية.

على الجانب الآخر في فيدينغ يمكن رؤية مبان حديثة أنيقة. ترى فيم يفكر سكان برلين الغربية عندما ينظرون عبر الجدار إلى هذا البؤس؟

بدا المنزل رقم ١٦ غير مأهول. هل كان العنوان الخطأ؟ كان الباب مفتوحاً، مر كورت عبر مدخل البناية الخرب. بقيت على السقف آثار نقش لزهور، من قصة الجمال النائم.

لافتات قديمة: ممنوع دخول الباعة الجوالين. ممنوع لعب الكرة. ممنوع صف الدراجات.

الجناح الأيمن من المبنى. صناديق بريد محطمة ومفتوحة. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، ولم ينغلق بسبب وجود طبقة سميكة من الجليد على الأرض سدت العتبة. انكسار ماسورة، فكر كورت، كانت كلمة هذا الشتاء. ففي مختلف أنحاء البلاد تحطّمت مواسير كثيرة بسبب الانخفاض الحاد في درجة الحرارة مع مطلع العام الجديد.

توازن كورت فوق الأرضية الجليدية، وصعد درجتين وطرق الباب الأيمن، وتمنى ألا يفتح أحد. إذ في إمكانه حينئذٍ أن يقول إنه حاول. لكن ما الفائدة من ذلك؟ ستتصل إيرينا بالشرطة، أو الاحتمال الأسوأ أن تأتي إلى هنا - أعوذ باللّه، لو رأت إيرينا هذا لكانت النهاية.

أصوات. خطوات. انفتح الباب وظهر ساشا. كان يرتدي بلوفراً أزرق مرقعاً بشكل لافت وبشع المنظر. وشعره كان حليقاً كالسجناء. لقد أصبح نحيفاً، ولوجهه لمعان شمعي غريب، ونظرته كان بها مس من الجنون.

- ادخل، قال ساشا وأشار له وكأنه يدعوه لدخول قصر.

دخل كورت الشقة الفارغة. لم ينتبه لأية تفاصيل، إذ لم تكن ثمة تفاصيل. ردهة خاوية موحشة. ليس في المطبخ قطعة أثاث واحدة، كل أدوات المطبخ كانت موضوعة فوق موقد الفحم. الحجرة: أرضية من الألواح الخشبية اللامعة حمراء اللون. ولمبة عارية معلقة في السقف. خزانة. مرتبة. مكتب مدرسي مدهون بالأزرق، وضعت عليه آلة كاتبة.

أشار ساشا إلى الكرسي الوحيد الموجود في الحجرة.

- اجلس، هل تريد شاياً؟

ظل كورت واقفاً وجال ببصره في المكان.



twitter @baghdad_library

على حافة النافذة كانت ثمة مطفأة سجائر مترعة. وعلى الأرض كتب.

- لما أكمل تأثيث المكان بعد، قال كورت.

- هكذا إذن!

نظر عبر زخرفة الصقيع على زجاج النافذة إلى أشجار الحور في الفناء الخلفي، التي كانت أغصانها السوداء مرفوعة تجاه السماء.

- هل خصصوا لك هذا المكان أو شيئاً من هذا القبيل؟

ضحك ساشا وهزّ رأسه نافياً.

- وكيف دخلت إلى هنا؟ من أين حصلت على المفتاح؟

- لقد ركبت قفلاً جديداً.

- تقصد أنك سطوت على المكان هنا.

- يا أبي، هذا المكان خاو، ولا يهتم به أحد.

- تأمل كورت المدفأة الكبيرة ذات القيشاني البني. خلف بابها المصنوع من الحديد الزهر والمفتوح بمقدار شق صغير تتوهج شعلة صغيرة. وإلى جانبها كرتونة فيها فحم. هذا مخالف للتعليمات، فكر كورت، ثم قال بصوت عال:

- حسناً، فلنذهب لتناول الطعام.

في هذه الأثناء ساد الظلام. نصف مصابيح الإنارة التي تعود إلى فترة ما قبل الحرب فقط، كانت لا تزال تعمل. خرج دخان من إحدى حاويات النفايات.

- المكان جميل هنا، قال كورت.

- نعم، قال ساشا، أفضل منطقة في برلين.

سارا أحدهما وراء الآخر لأنه لا يوجد سوى طريق ضيق جعلته خطى العابرين صالحاً للسير وسط الجليد. ساشا في الأمام. وقد ارتدى سترة عسكرية خفيفة جداً وبالية يسمّونها غالباً الباركا.

- أين معطفك المصنوع من فراء الغنم؟ سأل كورت.

- ما زال عند ميليتا.

- ما زال عند ميليتا، همهم كورت.

- ماذا قلت؟ سأل ساشا.

- لا شيء، قال كورت.

أخيراً خرجوا إلى جادة شونهاوس. والآن سارا متجاورين.

أمك قلقة. بدأ كورت.

هزّ ساشا كتفيه:

- أنا في حال جيدة.

- يسعدني ذلك، قال كورت، ولكن يمكنك أيضاً أن تكشف لي ما الذي يحدث فعلياً.

- ماذا عساه أن يحدث. أنا موجود والحياة رائعة.

- قالت ميليتا إنك تريد الطلاق.

- كنتم عند ميليتا؟

- ميليتا كانت عندنا.



twitter @baghdad_library

- شيء جميل، قال ساشا.

- هل لم يعد من حق ميليتا زيارتنا؟

- بكل سرور! أنا سعيد لأنكم صرتم فجأة تتفاهمون معها جيداً.

- ميليتا هي أم حفيدنا، قال كورت. ونحن لم نخترها، بل كان ذلك قرارك. لقد أردت أنت الزواج وإنجاب طفل، ونحن نصحناك آنذاك ألا تفعل.

- صحيح، لقد نصحتمانا بقتل الطفل.

- لقد نصحناك بألا تتعجل في الزواج بامرأة لا تكاد تعرفها. ونصحناك بألا تأتي بطفل إلى العالم وأنت في الثانية والعشرين.

- حسناً، كنتما على حق، إذا كنت تريد سماع ذلك. أهنئك أنت على حق. هل أنت راضٍ الآن؟

كان مطعم فينيتا على ناصية شارع غلايم، وقد عُلقت على بابه لافتة مكتوبة باليد: «مغلق بسبب الإصلاحات التقنية». كما كان المطعم على الجانب الآخر من الشارع مغلقاً: «الاثنين يوم العطلة».

ذهبا باتجاه وسط المدينة. تدفقت حركة المرور في موجات. صمت كورت بعض الوقت لكي لا يضطر إلى الصياح. ثم حاول مجدداً:

- المسألة ليس لها علاقة بأنني على حق أو على غير حق. لا أريد أن ألقي عليك باللوم. ولكنك تزوجت وأنجبت طفلاً، ولذلك تقع على عاتقك مسؤولية ما. لا يمكنك أن تلقي بكل شيء وتهرب لمجرد وجود مشكلة ما. هذا هو واقع الحياة الزوجية. دائماً ثمة مشكلات.

- المسألة لا علاقة لها بمشكلات الحياة الزوجية، قال ساشا.

- هكذا، قال كورت. فما هي المشكلة إذن؟

صمت ساشا.

- عفواً، ولكننا والداك ولدينا حق في معرفة ما يجري. أن تختفي أسابيع ولا نسمع منك خبراً... ليس في إمكانك أن تتخيل فعلاً ما يجري عندنا في البيت. بابا ناديا تبكي طوال اليوم. وأمك منهارة تماماً. لا أدري كم من الأعوام شاخت في خلال الأسابيع الماضية.

- أرجوك لا تحمّلني مسؤولية عمر أمي.

أراد كورت أن يعترض، لكن ساشا لم يتح له فرصة الكلام، إذ علا صوته فجأة:

- لا يمكنني ترتيب حياتي بما يناسب السلام الروحي لأمي، أنا آسف. لدي حق في حياتي الخاصة، لدي الحق في المشكلات الزوجية والحق في الألم..

- ظننت أنه ليست لديك مشكلات زوجية؟

صمت ساشا.

- هل ثمة امرأة أخرى؟

- أعتقد أن ميليتا حكت لكم كل شيء.

- ميليتا لم تحك لنا أي شيء.

- لا، لا توجد امرأة أخرى.

- ما الأمر إذن؟

ضحك ساشا.



twitter @baghdad_library

- ربما تكون ميليتا على علاقة برجل آخر؟ هذا أيضاً احتمال آخر!
- هنا يوجد مطعم للدجاج المشوي.

وقفا أمام مطعم الدجاج على ناصية شارع ميلا. لم يكن لدى كورت رغبة في الدجاج المشوي ولا في أضواء النيون والموائد المصنوعة من مادة Sprelacart [1]، كمالم تكن لديه رغبة أيضاً في الانتظار في البرد حيث وصل الطابور إلى باب المطعم.

- ماذا يوجد أيضاً بالقرب من هنا؟

- في الناحية الأخرى يوجد المقهى الفيناوي.

- هل يوجد شيء للأكل؟

- تورتة.

- لا بد من وجود مكان للأكل هنا.

- مشويات البلقان، قال كورت وأشار في اتجاه ساحة ألكسندر. ثم واصلا السير.

هبت الريح عاتية. ومر أحد قطارات الأنفاق مصلصلاً - هنا يمر مترو الأنفاق على جسر علوي، فيما يسير القطار السريع تحت الأرض: عالم مقلوب، هكذا فكر كورت.

حاول أن يصنف فكرة خيانة ميليتا لساشا حسب تصوراته الخاصة. لم يكن ليفاجئه كثيراً أن يخون ساشا ميليتا. لكن العكس؟ كان ذلك مذهلاً، وإذا أراد أن يكون صريحاً مع نفسه، فقد شعر ببعض الرضا،

(١) مادة صناعية وعلامة تجارية كانت تنتج في ألمانيا الشرقية وكانت عبارة عن ألواح مضغوطة من الكرتون والبلاستيك ذات سطح أملس يسهل تنظيفه، وكانت بديلاً جيداً للخشب. (المترجم)

فهذا نتاج الزواج العصري! والمساواة! إذن لقد كان بزواجه التقليدي أكثر تقدماً.

ثم قال بصوت عال:

- أنا أتفهم طبعاً، إن ذلك يؤلمك.

- شيء جميل.

- إنني أتفهم ذلك حتى لو لم تصدق أنت ذلك. فلدي بعض الخبرة الحياتية. ولكن ما لا أفهمه، لماذا تعيش في هذه الخربة؟

- هل ينبغي لي أن أعيش في حديقة الحيوان؟

- أود لو أعرف لماذا لا تسكن في شقتك؟

- لقد قلتها من قبل، لأن ميليتا تسكن هناك مع...

ثم قام بحركات بيديه في الهواء.

ماذا - هل يسكن هناك؟

صمت ساشا.

- لكنك لا تستطيع أن تترك لها مسكنك.

- يا أبي المنزل سيكون بأي حال من حق ميليتا.

- لكنك ستفقد حقك.

- عم نتحدث الآن؟ هل المشكلة في الشقة؟

- معذرة، ولكن الشقة جزء أيضاً من المشكلة. لقد دبرت أمك هذه الشقة لكما وقامت معك بإلصاق ورق الحائط، لأن ميليتا كانت حاملاً. والآن تريد أن تترك الجمل بما حمل، لكي تدبر لك أمك بيتاً جديداً.



twitter @baghdad_library

- أترى، هذه هي المشكلة. بقي ساشا واقفاً وصاح: هذه بالضبط هي المشكلة.

- نعم، قال كورت. هذه هي المشكلة.

أشار ساشا بيده وواصل سيره.

- إنك غير عقلاني على الإطلاق، صاح كورت وراءه.

واصل ساشا السير.

- وهناك شيء لا بد أن أقوله لك: إذا ما اكتشفوا أنك سطوت على الشقة...فهذه جريمة، هل أنت على بينة من ذلك؟ وعندئذٍ سينتهي مستقبلك الدراسي.

- لقد انتهى مستقبلي الدراسي بأي حال من الأحوال. قال ساشا عند دخوله مطعم مشويات البلقان.

تبعه كورت مضطراً.

في داخل المطعم خلف الباب انتظر العديد من الناس الحصول على مكان. اصطف كورت وساشا في طابور وانتظرا. فعلياً كان المطعم ممتلئاً تماماً. هرع نادل أدكن الشعر، كان كورت على استعداد لاعتباره بلغارياً، رواحاً وغدواً وأشاع حالة من التوتر. كان يرتدي بذلة سوداء وقميصاً لم يعد نظيفاً، وانتفخت بطنه فوق نطاق البنطال، وبدا أن رأسه قد تورم بسبب الإجهاد.

- اثنين سلطة شوبسكا واثنين كباب، صاح باللهجة البرلينية موجهاً كلامه إلى المطبخ.

كان هو الوحيد الذي سمح لنفسه بإحداث جلبة. تحدث الضيوف

بصوت خفيض مكتوم وكانوا يتكلمون بخجل إذا ما أرادوا إضافة طلب آخر. وجد كورت نفسه فجأة مضطراً إلى التفكير في الاجتماع الخاص بالبرنامج التعليمي السنوي للحزب، الذي انعقد بعد ظهر اليوم، كانت فاعلية غبية ولكن حضورها إجباري. وبرغم أنها كانت خاصة بالبرنامج السنوي إلا أنها تنعقد شهرياً. وموضوع اليوم كان: بناء المجتمع الاشتراكي المتطور بين النظرية والتطبيق.

- كم من الوقت تنتظران هنا، سأل ساشا الزوجين الواقفين أمامهما في الطابور.

كانا في منتصف العمر. تبادلا النظرات قبل أن يتفقا - على ما يبدو بالتخاطر - على إجابة، نطق بها الرجل وحركت المرأة مع ذلك شفتيها معه:

- ثلاثين دقيقة.

وأومأ كلاهما برأسيهما للتأكيد.

- كل المحال مغلقة، قال رجل آخر. بسبب أزمة الطاقة. بل إنه لمن المدهش أن هذا ما زال مفتوحاً.

أومأ الزوجان.

- هل تعرف هذه النكتة، همس الرجل، وجرؤ حين وجد تأييداً كثيراً: من هم الأعداء الأربعة للاشتراكية؟

تبادل الزوجان النظرات.

- الربيع والصيف والخريف والشتاء، قال الرجل وقرقر ضاحكاً.

تبادل الزوجان النظرات.



twitter @baghdad_library

ضحك ساشا.

كان كورت يعرف النكتة: فقد حكاها له غونتر قبل اجتماع الحزب.

تركوا المحل بعد خمس عشرة دقيقة. أقله تدفآ قليلاً.

- على الجانب الآخر ثمة مطعم شتوكينغر، قال ساشا، لكنه غال.

- يا إلهي! قال كورت.

انتقلا إلى الجانب الآخر من جادة شونهاوس وبالفعل كان شتوكينغر مفتوحاً. وكانت ثمة أماكن خالية، لكن على الباب عُلقت لافتة تقول: نقوم بإجلاسكم.

بعد بعض الوقت ظهر نادل يضع بابيون.

- مكان لشخصين، قال ساشا.

تفحصه النادل من فوق إلى تحت: بلوفره المرقعة وجينزه الذي بهت لونه من الغسل وحذاء التجوال المخدوش المتسخ الذي ينتعله.

- للأسف كل الموائد لدينا محجوزة.

- لكن لا توجد أي لافتة على الموائد، قال ساشا.

- لقد قلت، للأسف كل الموائد لدينا محجوزة، حاول أن تحصل على مكان لدى مشويات البلقان على الجانب الآخر.

مر من أمام النادل إلى داخل المطعم.

- ساشا، كفّ عن هذا، قال كورت.

سار النادل وراء ساشا وحاول أن يمسك به من ذراعه.

- من فضلك لا تلمسني، قال ساشا.

- من فضلك غادر المطعم.

جلس ساشا إلى مائدة خالية وأشار إلى كورت:

- تعال!

جاء نادل ثان وبعد وقت قليل جاء ثالث. غادر كورت المطعم ووقف في الخارج. بعد فترة خرج ساشا أيضاً.

- ما هذا الذي فعلت، لماذا لم تدخل؟

- اسمع، قال كورت، ليست لدي رغبة في إحداث فضيحة. فلنبحث عن شيء آخر.

- لا يوجد شيء هنا ومقهى بكين يرتاده المثليون. وبحانة «أوبان - كفيله» لا يوجد سوى السجق على أقصى تقدير.

واصلا سيرهما، هذه المرة على الجانب الأيسر من جادة شونهاوس. انتظر كورت بعض الوقت حتى طرح التساؤل الذي شغله منذ ٢٥ دقيقة:

- ماذا يعني أنك أنهيت مستقبلك الدراسي؟

- أعني أنني لم أعد أدرس.

- هل انتهيت من رسالة الدبلوم؟

- لن أكتب رسالة الدبلوم.

- هل جن جنونك؟

صمت ساشا.



twitter @baghdad_library

- لا يمكنك أن تترك كل شيء قبل إنهاء الدراسة بفترة قصيرة. ماذا ستفعل من دون دبلوم؟ هل ستشتغل عامل بناء أم ماذا؟

- لا أدري، لكنني أعرف ما لا أريده: لا أريد أن أضطر إلى قضاء حياتي كلها في أكاذيب.

- ما هذا الهراء، أتريد أن تقول إنني أكذب طوال حياتي؟

صمت ساشا.

- لقد اخترت الدراسة بنفسك. لم يرغمك أحد على دراسة التاريخ، بل على العكس.

- نعم لقد نصحتني ألا أفعل، أعلم ذلك. لم تترك شيئاً إلا نصحتني بألا أفعله. وأنا سعيد لأنك لم تنصحني بالتوقف عن الوجود.

بقي كورت واقفاً. حاول أن يظهر صوته خالياً بقدر الإمكان من الانفعال.

- أرجوك أن تسمع مرة واحدة في حياتك نصحيتي. إنك في اللحظة الراهنة في حال غير مستقرة. وعليك ألا تتخذ قراراً في هذه الحال.

- كل شيء واضح تماماً في رأسي، لم أكن قط أتمتع بهذا الوضوح كما هي الحال الآن.

كان زفيره يخرج بخاراً. نظر إلى كورت. لقد عادت له مرة أخرى: تلك النظرة المجنونة.

- حسناً، فلتفعل ما تريد. ولكن...

- لكن ماذا، قال ساشا.

لم يخطر ببال كورت شيء ليقوله سوى:

- سيكون هذا فراقاً بيننا وبينك.

- يا سلام، قال ساشا، يا سلام!

- أنت مجنون! قال كورت.

ضاع كلامه وسط ضجيج العربات المارة، ثم صرخ مرةً أخرى:

- أنت ببساطة مجنون!

- لقد نصحتني بألا أدرس التاريخ، صرخ ساشا وأشار بإصبعه إلى كورت، وأنت نفسك مؤرخ! من منا المجنون إذن؟

- هكذا إذن، الآن تعطيني أنت توجيهات للطريقة التي أعيش بها؟ هذه هي الذروة فعلاً. لو عشت حياتي، لكنت قد مت.

- آه، الآن تأتي هذه القصة، قال ساشا فجأة وبهدوء.

- نعم الآن تأتي هذه القصة، صاح كورت. وبرغم أن ضجيج المرور قد خفت فقد واصل الصياح: تعيش عيشة الملوك، أمك توفّر لك المسكن، وأبوك يدفع تأمين السيارة...

سحب ساشا مفتاح السيارة من سلسلة المفاتيح ورفعه في وجه كورت.

- ها هو مفتاح السيارة.

- يا أخي، الناس تتضور جوعاً في أماكن أخرى، صرخ كورت.

ألقى ساشا بالمفتاح واستدار وواصل سيره.

- أجل، في أماكن أخرى يتضور الناس جوعاً. صاح كورت خلفه.



twitter @baghdad_library

صفرت الريح.

جاءت امرأة في مواجهة كورت ثم ابتعدت لتتحاشى المرور بجانبه.

مر المترو مرةً أخرى، الآن باتجاه ساحة ألكسندر. جلس الناس في داخله بلا حراك - مثل عرائس من الكرتون. ثم انزلق ببطء من الجسر العلوي واختفى في باطن الأرض. بعرائس الكرتون. إلى الجحيم، قال كورت لنفسه، دون أن يعرف ماذا يقصد بالضبط.

اختفى مفتاح السيارة الذي ألقاه له ساشا وسط الجليد. وضع كورت نظارته. كان الجليد متسخاً، مصفراً. خجل كورت من البحث بيديه في الأرض. حفر بقدمه بحثاً عن المفتاح، لكنه لم يجده. وأخيراً تحسس الأرض بيده، لكن المفتاح اختفى: إلى الجحيم.

واصل كورت سيره. مشى وراء ابنه. سار بسرعة. من النقطة التي يختفي فيها المترو تحت الأرض تتحول جادة شونهاوس إلى أرض جرداء. ليس فيها حانات ولا نوافذ عرض. ولا بشر. باستثناء شخص نحيف وحليق الشعر يسير أمامه على بعد خمسين إلى ستين متراً: إنه ابنه.

لم يلتفت، بل أكمل السير.

على اليسار ظهرت المقابر اليهودية: السور الطويل الذي توجد خلفه أرض المقابر التي لم يزرها كورت ولم يرغب قط في زيارتها. لو أراد أن يكون صادقاً مع نفسه، فلا بد أن يعترف بأنه يحتقر المقابر. الغريب أنه لم ير قط شخصاً يدخل أو يخرج من هذه المقابر. والغريب أيضاً أن تكون حركة المترو قريبة جداً من المقابر، بحيث أنه لو انتقل بركابه على سبيل التجربة إلى باطن الأرض فسيكونون على نحو ما في مواجهة الموتى.

تذكر كورت الآن أن ميليتا قد حكت أن ساشا كان يقرأ أخيراً في الكتاب المقدس، بل وإنه حسبما تدعي صار يؤمن باللّه...

هل كان هذا هو سبب الجنون في عينيه؟

على الجانب الآخر لمح كورت البواكي الغريبة المهدمة التي لم يتضح له قط أصلها ولا الغرض منها، كان يعرف فقط أنه في مكان ما وراءها، وعبر الفناء، توجد مطبعة «نويس دويتشلاند». وقد سعد نوعاً ما بمرور أفكاره بين حين وآخر عبر مطبعة الصحافة، حتى ولو لم تكن مقالاته التي يُدعى لكتابتها في «نويس دويتشلاند» بمناسبة أي ذكرى تاريخية، من أفضل مؤلفاته العلمية.

اقرأ أولاً كل ما كتبت.

هراء. محاولة أخرى: اقرأ أقله ما كتبته أولاً، قبل أن تحكم عليه.

كان عليه أن يحتفظ بهذه الجملة في ذاكرته ويستخدمها عند الحاجة.

تحولت الإشارة عند شارع فيلهلم بيك إلى الأحمر - انتظر ساشا. من المدهش أنه ما زال يحترم قواعد المرور.

في خلال فترة انتظار الإشارة لحقه كورت. سارا جنباً إلى جنب. للحظة فكر كورت إن كان ينبغي له التطرق إلى موضوع «اللّه» ولماذا؟ وكيف؟ هل يسأل ساشا جدياً إن كان يؤمن باللّه؟ لو كان يقصد اللّه فعلاً، فإن للكلمة في ذاتها وقعاً مجنوناً.

مرا من أمام مسرح الشعب «فولكسبونه». كانوا يعرضون مسرحية «الأبله».

واصلا السير صامتين. أعمال البناء مازالت مستمرة في ساحة



twitter @baghdad_library

ألكسندر. صلصل صوت الريح في السقالات. كانت ذراعا نظارة كورت باردتين جداً لدرجة أن فوديه بدآ يؤلمانه. خلع النظارة ووضع الشال على أنفه وتعجب من قدرته على تحمل كل تلك البرودة في الماضي: خمس وثلاثون درجة تحت الصفر - إلى درجة الحرارة تلك، كانوا يرسلونهم للعمل في غابات التايغا.

وإذا كان الجو عاصفاً يعملون حتى ثلاثين تحت الصفر.

مرا عبر الممر الضيق بين الفندق الكبير والمتجر وسارا بعد ذلك من دون أن يتمكن كورت من أن يتساءل إلى أين ولماذا، عبر مساحة خالية هاجمتهما فيها الريح ودوامات الهواء، ما أسال دموعهما. حاول كورت حماية عينيه بيديه، ووقف متصلباً في وجه العواصف، لكنه ترجح فوق الأرضية الجليدية غير المستوية متحركاً للأمام في عماء ولم يكن في إمكانه أن يعرف إن كان ابنه لا يزال يسير إلى جانبه، لم يلتفت ليراه ولم يسمع شيئاً وأحس بالألم المكتوم الذي بدأ يزحف إلى أطراف أصابعه برغم لبسه قفازاً من فراء الغنم. تخيل عودته إلى البيت واعترافه بأنه فقد ألكسندر في ساحة ألكسندر، وكأنه كان متوقعاً أن تبتلعه هذه الساحة بعينها وأن يتبخر ساشا هنا أو يغوص في قاع الأرض - أفكار مجنونة، قال كورت لنفسه. يا لها من أشياء تخطر في بال المرء لو لم ينتبه.

- إلى أين نذهب؟ تساءل ساشا.

وقفا الآن أمام ساعة التوقيت الدولي. في نيويورك كانت الساعة الثانية عشرة والنصف وفي ريو دي جانيرو الثالثة والنصف. حول الساعة وقف بعض الأشخاص يرتجفون، حيث تواعدوا بلا اكتراث للقاء هنا برغم البرودة القارسة: كانت نقطة تلاق محببة، ساعة

التوقيت الدولي هذه، وكأن المرء كان يشعر هنا أنه جزء من العالم الكبير الواسع.

- إلى الجحيم، قال كورت.

- هناك محل مفتوح، دعنا ندخل. وإلا ستتجمد مؤخرتي.

ما كان يقصده ساشا كان مطعم الخدمة الذاتية في الطبقة الأرضية من بناية ألكسندر. ذهب كورت مرة واحدة إلى هناك. كان المحل عند افتتاحه قبل عشر سنوات آخر صيحة. الآن غطته طبقة سميكة من غبار الماضي. كان الأشخاص الذين قذف بهم المساء إلى المحل أجلافاً غلاظ الملامح، وبدا لكورت وكأن كل الناس هناك معاقون.

يمكن المرء سحب وجبات باردة من مجموعة من الماكينات. وفوق بار معدني يوجد حساء يخني ساخن بخمسة وثمانين بفنيغا. لم يفكر كورت طويلاً وأخذ طبقاً منه. منذ أن استأصلوا جزءاً من معدته، توقف عن عادة التحقق إن كان الطعام حريفاً أم فيه بصل زائد. صار يأكل كل شيء ويستطيب كل شيء. أكل ساشا أيضاً اليخني. ذهبا إلى مائدة للوقوف وأكلا حساءهما. لم يكن طعمه سيئاً. تحسن مزاج كورت في الحال، وكان على وشك أن يأخذ طبقاً آخر، لولا أنه انضبط واتبع نصيحة الطبيب: أن يأكل قليلاً ولكن عدة مرات.

بعد اليخني وقفا أمام المائدة بعض الوقت. نظر كورت إلى حركة المرور الهادرة وراء النوافذ الكبيرة في الطرف القصي من ساحة ألكسندر، وخطرت له الفكرة الجذابة بأن يعود إلى البيت بالتاكسي: أقله إلى كارلسهورست؟ ثم تذكر أن النقود التي لا تزال يحملها معدودة في جيب معطفه. أخرج العملات الورقية، كان مجموعها مئتي مارك وأراد أن يعطيها إلى ساشا من تحت المائدة.



twitter @baghdad_library

- هذا المبلغ لك.

- ليس ضرورياً.

- لا تكبر الأمور.

- لدي كل ما أحتاج إليه للحياة.

فكر كورت إن كان عليه أن يحشر المبلغ تحت طبق اليخني ويذهب، لكنه وضعه في جيبه.

تودعا أمام المطعم وتعانقا كما اعتادا أن يفعلا وأومأ كلاهما للآخر. ثم أخذ ساشا الطريق الذي جاءا منه، فيما اتجه كورت إلى المحطة، ثم وقف على الدرج المؤدي إلى القطار السريع وفكر، لا يهم، سأذهب بالتاكسي! عاد أدراجه وهبط الدرج من جديد.

وبالفعل كان ثمة موقف تاكسيات إلى جانب المحطة. انزلق كورت داخل مقعد العربة الخلفي. كانت سيارة فولغا، سيارة عريضة ذات مقاعد طرية، لها ككل السيارات الروسية رائحة السيارات الروسية وهي رائحة ذكرته قليلاً بموسكو، فحتى التاكسيات من ماركة بوبيدا كانت لها الرائحة نفسها.

- نويندورف، شارع فوكسباو الرقم سبعة، قالها كورت وتوقع أن يسأل السائق أين هي نويندورف؟ وأين يقع شارع فوكسباو؟

لكن بدلاً من ذلك طوى السائق صحيفته وانطلق.

كانت السيارة دافئة. خلع كورت معطفه وأخذ من جيبه المئتي مارك (التي بدا له وكأنه وجدها في الشارع) ووضعها في حافظة نقوده... ماذا سيحكي إذن لإيرينا؟

أصدرت الفولغا أزيزاً مع السرعة المتزايدة قليلاً على طريق أدلرغيشتل. راجع كورت حكاية هذه العصرية غير السعيدة. وتفحص إن كان عليه أن يخفف من وقع التفاصيل غير السعيدة، أم أن يخفيها تماماً دون أن يؤدي ذلك إلى عرض زائف للحقائق وقابل لأن ينكشف. سمع نفسه وهو يتحدث إلى إيرينا بصوت متكلف يسترضي خاطرها...

رأى وجهها، رأى أحمر الشفاه الذي انطبع على فلتر سيجارتها. وشفتها العليا التي لم تعد في الفترة الأخيرة منتوفة بعناية دائماً، والتي ترتعش دائماً قبل أن تشن هجوماً جديداً على ميليتا.

حسب كورت: من خلال التاكسي سيوفر ساعة. كان من الصعب عليه حساب الوقت الذي قضاه مع ساشا. كانت الساعة السابعة مساءً... لا يهم، فكر كورت. اللعنة، لا يهم.

- هل تعرف شارع غارتن في بوتسدام؟ سأل كورت السائق.

- المتفرع من جادة لينين.

- بالضبط، فلتقلني إلى شارع غارتن.

- ليس إلى شارع فوكسباو، سأل السائق.

- لا، قال كورت. إلى شارع غارتن الرقم ٢٧.



twitter @baghdad_library

# ٢٠٠١

تصور مريع ذاك الذي دهمه قبيل انطلاق الحافلة، تمثل في احتمال جلوس هذا الرجل إلى جانبه: رجل هجين قصير ذو مظهر ريفي لم يتوقف عن تنظيف أسنانه غير الكاملة بخلة مصدراً في الوقت ذاته أصوات مصمصة وتمطق. وبالفعل اقترب الرجل، بعدما جلس ألكسندر على مقعده، أكثر فأكثر. وأخذ يقارن على نحو معقد رقم كل مقعد بالرقم الذي على تذكرته، حتى ساعده راكب آخر في البحث. وتبين أنه تخطى مقعده وابتعد عنه كثيراً.

كان المقعد إلى جانب ألكسندر خالياً. في المقابل كان ثمة نوع آخر من التعذيب. بمجرد أن انطلق الباص شغل السائق جهاز الفيديو وبعد بضع دقائق من إعلانات شركة الحافلات عن نفسها، بدأ فيلم، أدى فيه أرنب وردي فائق الحجم بصوت مصطنع وحاد الدور الرئيس.

كان من المتوقع أن تستغرق الرحلة ست ساعات. لكن ضيق ألكسندر تحول بعد ساعة من التلوث الضجيجي إلى كراهية حقيقية: للسائق الذي اعتبره مسؤولاً عن ذلك، وللركاب الذين تجاهلوا الفيلم تماماً وأكملوا أحاديثهم بعلو صوت مضاعف، إن لم يكونوا شبه

مستحسنين للفيلم أو شبه ناعسين وهم يتمايلون برؤوسهم، أو كانت نظرتهم مسلطة على الشاشة، بل الأنكى أن يكونوا نائمين.

لم ينم ألكسندر تقريباً، فسدادات الأذن التي خبأها تحت الوسادة التي جعدها في حضنه، اختفت عندما عاد من زيارة تيوتيهواكان. لا بد أن عاملة الفندق قد رمتها في أثناء تغييرها فرش السرير. بحث عن هذه السدادات البلاستيكية الأسطوانية الشكل على «الكومود» وفي الحمّام وفي سلة المهملات بلا جدوى - لقد بقيت مختفية. لقد صحا مجدداً في وقت مبكر جداً، منزعجاً من نباح كلبي السطح وعندما ادعى موظف الاستقبال المكسيكي الشاب ذو الوجه الأملس أنه لا توجد غرف أخرى قرر الرحيل. أفطر قبل أن تظهر السويسريتان. جمع أغراضه في حقيبة الظهر، وركب المترو إلى محطة الحافلات الرئيسة «تابو» مصحوباً بدوي السماعات التي يحملها بائعو الأسطوانات المدمجة الجوالون. ثم قطع تذكرة للحافلة التالية إلى فيراكروز.

فيراكروز: لم يعرف شيئاً عن هذه المدينة سوى أن جدته وصلت إليها بالسفينة. كما كان يعرف قصة الرجل الذي قفز آنذاك في حوض الميناء. ويعتقد أيضاً أنه ما زال يذكر أن المدعو هرنان كورتيس قد رسا هناك في وقت ما في الماضي مع مئتي رجل، لكي يحتلوا أرض المكسيك. لكنه لم يعرف شيئاً بخلاف ذلك.

كان في إمكانه أن يبحث في دليل *Backpacker* لو كان معه. لكنه لم يكن معه، فقد تركه على «الكومود» في حجرة الفندق. متعمداً.

بعد ساعتين من الرحلة انتهى فيلم الأرنب الوردي وبدأ فيلم جديد. بعد بعض الوقت تخلى ألكسندر عن قراره بعدم النظر إلى الشاشات الأربع الموجهة إليه، وبينما كان يركب في ذهنه الكلمات



twitter @baghdad_library

الإسبانية المطلوبة لكي يطلب من شركة الحافلات في فيراكروز جزءاً من ثمن التذكرة (أقله الجزء الخاص بالدرجة الأولى - أم أن الدرجة الأولى تتمثل في هذا العرض المستمر لأشرطة الفيديو من دون أي مراعاة للناس، وهل هذه هي «الراحة» التي تصنع فرق السعر؟) - وبينما استعرض في ذهنه ووعيه لا جدوى الشجار عبر نافذة بيضوية مع موظف يرتدي زياً رسمياً، دارت على الشاشات الأربع حبكة درامية غير مألوفة. تبدأ بجندي شاب يتعرف إلى فتاة في القطار، ثم يلبسها بعد مرور بضع دقائق من الفيلم وبشكل مفاجئ خاتم الخطبة الذي كان يحمله معه مصادفة في علبة شوكولاتة محشوة. وفي اللحظة نفسها تقريباً يظهر رجل من وراء كرمات العنب ويطلق الرصاص على الاثنين ثم يتبين أنه والد الفتاة. وتدور أحداث بقية الفيلم في مزرعة للعنب وتتناول علاقات عائلية متشابكة: يحب الجندي الفتاة ويأتي الأب كهادم للملذات، وفي هذه الأثناء توزع الشوكولاتة المحشوة على عدد كبير من الأعمام والعمات، ويبرز الفيلم الأجواء المرحة التي يتميز بها جني الكروم. وإذا ما تطلب الحدث الدرامي ذلك تظهر تضاريس عملاقة أو تكون ثمة موسيقى تعكس ما يشعر به الأبطال في تلك اللحظة. ثم يضرم الأب النار في الكروم التي تشتعل ويا للعجب مثل النابالم... ثم أوقف السائق تشغيل الشريط وتوقف لاستراحة بول.

من محطة حافلات فيراكروز أخذ تاكسي. لم يسأل عن فندق، بل أعطاه من قبيل الحرص اسم شارع، وجده في محطة الحافلات، على إعلان عن فندق في وسط المدينة التاريخي.

- شارع ميغيل ليردو.

- فندق إمبريال، سأل السائق.

- لا. قال ألكسندر.

وأظهر تجهمه. كان حاسماً. انطلقت السيارة عبر جادة واسعة بها أشجار نخيل، حتى ازدحم المرور، فحاول السائق أن يسلك طريقاً ملتوياً وشاقاً عبر المدينة القديمة. بيوت بسيطة من طبقتين، معظمها بألوان الباستيل التي بهتت بسبب حرارة الشمس. عجت الشوارع بالمشاة. كان الجو حاراً مصحوباً برطوبة، وعبر الشوارع الضيقة تطايرت من النوافذ المفتوحة روائح مختلفة إلى داخل السيارة: زيت قلي، مياه مجارٍ، رائحة دكاكين الحلاقة المفتوحة، عوادم، تورتيا طازجة، وفي موضع ما وجب عليهم الانتظار لأنه كان يجري تفريغ أكياس بلاستيكية من سيارة نقل - وكان لها فعلاً رائحة أسمدة النترات التي كانت تنبعث من حديقة جدته الشتوية.

دفع ألكسندر وحشر حافظة نقوده بصعوبة في جيبه، حتى اختفى السائق عن الأنظار. إلى جانب فندق إمبريال مباشرة كان ثمة فندق صغير ومتواضع. ثمن الليلة كان مئتي بيسوس. دفع مقدماً لأسبوع وحصل على غرفة في الطبقة الأولى تطل على ميدان جميل، فيه برج أجراس ونخيل وكل هذا محاط بمبان بألوان الباستيل حسبها ألكسندر تنتمي إلى الطراز الكولونيالي، ربما بسبب البواكي التي استقر في ظلها عدد كبير من المقاهي والحانات. ثم غمره شعور بالخوف من ضجيج الحانات، وخصوصاً من مطعم الفندق الذي انتشرت موائده ومقاعده أسفل نافذته مباشرة ومن الممكن أن تسرق النوم من عينيه. لذا رجا الفتاتين اللتين تعملان في الاستقبال أن تجدا له غرفة معزولة وهادئة. وبرغم أنهما أكدتا بوضوح وبجدية صارمة أن الميدان هادئ ليلاً، لكن ألكسندر أصر على تبديل الغرفة. وعوضاً عن الغرفة الواسعة المنيرة



twitter @baghdad_library

المطلة على الميدان حصل على غرفة صغيرة من دون نافذة لا يدخلها ضوء النهار الشحيح إلا عبر حجر زجاجي صغير ويدخلها الهواء من جهاز التكييف. لقد دفع غالباً ثمناً غالياً جداً لهذه الغرفة، لكن راحته في النوم كانت أكثر أهمية من المنظر الجميل.

أكل في restaurante familiar [١]، أياً ما يكن لهذا الاسم من معنى. وضع النادل الذي كان ربما في الخامسة والعشرين من عمره ويرتدي بولو - شيرت أزرق فاتحاً، دفتر تسجيل الطلبات على المائدة، لكي يكتب ألكسندر أرقام المأكولات التي اختارها من القائمة. بعد ذلك ذهب إلى بار تقوم فيه شابة نشيطة بفك شفرة تلك الأرقام ونقلها إلى سيدتين أخريين تقومان بسرعة وخفة بإعداد الطعام. كانت السلطة مع الجمبري والأعشاب التي حصل عليها ألكسندر طازجة ورائعة. وبرغم مفارش المشمع الملونة من ماركة (Igelit) وبرغم الكراسي البلاستيكية البيضاء والأبواب المفتوحة على مصراعيها، بل برغم لمبات النيون المضاءة في السقف في أي وقت من أوقات النهار، كان المطعم يشع شيئاً أقرب إلى الإحساس بالراحة، شيئاً عائلياً دافئاً. وربما هذا بالذات هو ما جعل ألكسندر يكتم أنفاسه لثانية، ما سبب له للحظة مشكلة في أثناء البلع. ربما يرجع السبب إلى هذا التناغم الصاخب الذي تعد به المرأتان، إحداهما في عمر متوسط والأخرى عجوز جداً، السمك خلف البار، أو إلى الحركة البسيطة من النادل الذي حمل طبق سلطة الجمبري المسطح بتوازن عبر صالة المطعم ووضعه له على طاولته، دون أن يغمس إبهامه في صوص السلطة، ثم أومأ له مشجعاً ووضع يده - برقة تقريباً - على كتفه.

---

(١) مطعم عائلي. (المترجم)

ساد الظلام بلا مقدمات، وبالضبط في الساعة السادسة. قام ألكسندر بجولة على كورنيش الميناء المنار بإضاءة قوية. كانت الحرارة في هذا الوقت محتملة، تنفس المحيط، لكن الهواء هنا بدا أيضاً مشبعاً بالحزن. تنفس ألكسندر بحذر وبغير عمق حتى لا يتسلل الكثير من هذا الحزن إلى جسده.

استدار عند سور المرفأ، حيث تسكعت شرذمة من رجال الشرطة المدججين بأسلحة ثقيلة وكأنهم عصابة من الشباب، ونظر إلى مدينة فيراكروز من اتجاه البحر: هكذا بدت المدينة - باستثناء بعض المباني الحديثة متعددة الطبقات الواقعة على المرفأ مباشرة - للقادمين من أوروبا. وهكذا نظروا ليلة وراء الأخرى من فوق سطح السفينة إلى عمق كورنيش الميناء، إلى داخل البلد الذي كان يعني الأمل للكثيرين. ظل ألكسندر سنوات يلملم خيوط الأحداث السابقة على تلك القصة التي حكتها له جدته ذات مرة - وظل هؤلاء الناس سنوات في حالة هروب، فروا في أقسى الظروف من معسكر الاعتقال في فرنسا. نجوا من قوات النازي الزاحفة إلى مرسيليا. وحصلوا عبر إجراءات منهكة للأعصاب على تأشيرات مرور أو تمديد للإقامة. وقبعوا أسابيع أو شهوراً في بلا معدمين في مدينة شمال إفريقية بائسة، حتى وجدوا سفينة تنقلهم كمسافرين من الدرجة الثالثة عبر المحيط، ثم لم يسمح لهم بالنزول إلى البر في فيراكوز، لأن الإجراءات الرسمية لما تكن قد استوفيت بعد. ولما يحصلوا بعد على كل التصاريح. في ظل هذا الوضع انهارت أعصاب أحد هؤلاء المنتظرين. وقفز في إحدى الليالي في حوض الميناء لكي يصل عائماً إلى المكسيك. لكن الرجل، حسبما تروي جدته، اختفى ولم يظهر ثانية. وبعدها بقليل ظهرت فوق المنطقة



twitter @baghdad_library

التي غاص فيها الرجل أطراف زعانف ظهر سوداء، حامت بهدوء لتشق الماء في دوائر منتظمة.

عندما عاد،كان الميدان المواجه للفندق يعج بقدر من الحركة، لكنها لم تكن صاخبة جداً كما كان يخشى، مع ذلك فقد كانت كافية لجعل تغيير الحجرة يبدو مبرراً. عموماً لم يجد أمامه في الغرفة الخانقة الخالية من النوافذ من سبيل سوى أن يشغل جهاز التكييف، الذي تبين أنه قد ركب على منور يتيح دخول كل سحب دخان السجائر المشفوطة عبر الهوايات. كما أن التكييف كان له دوي، وقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً ليعرف سبب هذا الدوي - ثم دهمته ذكرى شيء عاشه من قبل، واضطر إلى إضاءة الغرفة كي يتيقن أنه ليس في المستشفى.

عانى الصداع في الصباح وشعر بأنه في حال سيئة. تجنب تحسس العقد الليمفوية، وكل ما يمكن أن يمسه بضُر، وما يمكن أن يخرجه عن صوابه. تخلى عن الحمّام البارد الذي اعتاده منذ سنوات. وهبط الدرج وهو يشعر بدوار خفيف. عندما خرج إلى الميدان، كان الضباب قد غطى فجأة السماء المكسيكية التي كانت إلى الآن يومياً زرقاء. لو لم يكن يعرف أن موسم المطر يبدأ في المكسيك في شهر أيار/مايو لقال إنها ستمطر.

وجد سريعاً صيدلية واستمتع لحظة بخبث بهذا الوجود الدائم والكلي للشركات المتعددة الجنسيات والذي بسببه يكفي المرء أن يهمس فقط بكلمة أسبيرين لكي يحصل على المنتج المنشود. لكنه وجد صعوبة في إيضاح طلبه الثاني للصيدلي. حاول أن يقول:

- Quiero algo para tapar las orejas، أي أريد شيئاً أغطي به أذني.

هزّ الصيدلي رأسه يمنة ويسرة باهتمام، وبدأ يطرح على ألكسندر أسئلة ملحة ولكنها غير مفهومة ويصر على ما يبدو على الحصول على إجابة عنها، حتى توقدت في ذهنه أخيراً فكرة، برغم أن ألكسندر لم يكد ينطق بحرف كامل. وتجسدت هذه الفكرة في تكراره اللافت لكلمة ferretería، أي محل للحديد والأدوات المعدنية. وفوق ذلك استمع ألكسندر إلى وصف معقد لطريق، برغم أنه متأكد أن الرجل لم يفهمه: فهو لم يكن يريد بأي حال من الأحوال أن يضع شيئاً من الحديد في أذنيه.

وجد مقهى في الميدان به عدد لا يحصى من النُدل الذين يرتدون بذلات بنية بلون الشوكولاتة، ولكن بسبب التوزيع المعقد لمهامهم التي لم يستطع ألكسندر تبينها على الفور، استغرق الأمر دهراً حتى تمكن أن يطلب - من كل نادل على حدة - قهوة، وكوباً من الماء، وقطعة كرواسون. واستغرق الوقت دهراً آخر حتى حصل على طلباته، واحتاج مرة أخرى ردحاً لا نهائياً من الزمن حتى تعرف إلى النادل المسؤول عن الدفع. وتمكن أخيراً من أن يشير إليه ليأتي إلى مائدته. كاد رأسه ينفجر وهو يغادر المقهى. عند خروجه إلى الميدان لم يتخلص من الإحساس بأنه لا يحصل على هواء كاف. انطلق من دون أن يحدد لنفسه وجهة ما، وبعد دقائق قليلة وجد نفسه مرة أخرى عند كورنيش الميناء. تنفس بعمق وعبر فتحتي أنفه المنتفختين الريح الآتية من المحيط، برغم أن رائحته كانت لا تزال بالثقل والرطوبة والخطورة نفسها كما الأمس.

سار جنوباً بطول سور المرفأ. ازدادت الريح عصفاً ونثرت معها الرمل. لاحظ ألكسندر بصورة تكاد تكون عرضية أن عدداً كبيراً من الصبية، ربما في الثانية عشرة من عمرهم يستحمّون في حوض الميناء. يقفزون في المياه مطلقين صيحات، ولم يبد أن الناس أو أسماك القرش



twitter @baghdad_library

يكترثون لهم... بل بعد مسافة قصيرة من هناك كان ثمة شاطئ، لكنه كان خالياً من البشر. على أية حال لقد بدأت بعض قطرات المطر تسقط فيما ظلت الريح تنثر الرمل. أجواء غريبة ومثيرة للفوضى. انطلقت السيارات بسرعة جامحة. ودارت سرينة المطافئ. وفجأة لم يعد ثمة أحد في الشارع، يمكن ألكسندر أن يسأله عن الطريق - الطريق إلى أين؟

بعد عشرين دقيقة انتصر المطر على الرمل، وعلى اعتقاد ألكسندر أنها لا تمطر حقاً في المكسيك في هذا الوقت من العام. تبلل قميصه وفخذه. وفجأة لم يعد يوجد أي تاكسي فارغ. واتضح له السبب عندما سار نحو وسط المدينة لكي يركب الحافلة: لم تكن ثمة حافلات هناك، أو أقله تلك التي يحتاج إليها. في البداية قيل إن ثمة تغييراً لمسار الحافلة، لكنه انتظر بلا جدوى على هذا الطريق الآخر. لم يكن يرى أي تاكسي وبدأ يرتعش من البرد وقرر مواصلة السير.

حاول مرة أخرى في الطريق أن يدخل صيدلية ليحل مشكلة أذنه. لكن بمجرد دخوله بالحذاء المبلول والقبعة التي يقطر منها الماء، أحس من نظرة الصيدلي الذي نظر إليه من فوق دفتر حساباته أنه غير مرغوب فيه. وقف مبتلاً كسيراً، نعم كسيراً هي الكلمة التي دارت في ذهنه، أمام الرجل المسن ونطق بجملته من دون أن يرى لها أي تأثير. تأمل بضع ثوان قطرات الماء تتساقط من قبعته، فيما غرق الرجل في أوراقه ثانية - أم أنه كان يفكر في سؤال ألكسندر؟ غادر ألكسندر الصيدلية دون أن ينتظر أي رد فعل.

جرؤ على دخول صيدلية أخرى، قامت على خدمته فيها امرأة شابة، بل على مايبدو أنها فهمته. وذكرت كلمة tampón أي سدادة قطنية. لا

بد أن هذه كانت الكلمة المناسبة: tampón للأذن، لكن المرأة هزت رأسها بالنفي:

- No hay, No tenemos

غير موجودة، ليست لدينا. وما الحاجة إليها؟ ماذا عساه أن يفعل هذا الشعب الصاخب والأصم بسدادات الأذن؟ شعب يسمح بلا شكوى ولا ضجر أن تعرض عليه أفلام الأرنب الوردي. شعب يقيد كلبين فوق سطح خال من الظل لغرض واحد وهو أن يُذهبا بنباحهما النوم من عيون النائمين...

تخلى عن تفادي نقر الماء أو القفز فوق تيارات الماء المتدفقة التي تقطع عرض الرصيف، فقدماه كانتا مبللتين بأي حال من الأحوال. كل شيء كان مبللاً حتى بشرته وما تحتها، كل شيء بدا له غارقاً في الحزن الذي يهب باستمرار عبر المحيط، ويغمر هذه المدينة ويصيب الناس بالجنون ويجعل الوافدين يقفزون من فوق ظهر السفينة ليغرقوا في البحر ولا يظهر لهم أثر. اشترى من «السوبرميركادو» قنينتي ماء، وساوره شك في أنه من الممكن أن يكون الماء الذي يباع هنا في المتاجر ملوثاً بالحزن.

ثم رقد في غرفته الخالية من النوافذ وشعر باشتداد الحُمّى. أخذ أقراصاً وشرب الماء الملوث. دوى جهاز المكيّف في أذنيه غير المحميتين. نهض ثانية وأغلقه. لكن لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، حتى أحس بأنه غير قادر على التنفس. سمع أصواتاً من بار الفندق. تعذب في النهوض مرة أخرى وأدار المكيّف ووضع قطعاً من ورق التواليت في أذنيه. أخذ قرصاً آخر وسحب الغطاء فوق رأسه.

رقد على الجنب الأيمن. وتكور ليصبح حجمه صغيراً جداً. والآن



twitter @baghdad_library

بدأت رجفة تسري في جسمه، في البداية في جانب واحد، تتبعها داخل كهف غطاء السرير المظلم: آتية من الكُلى تهيمن أولاً على الجنب الأيسر من الحوض، ثم تمتد لتشمل منطقة القلب، ثم تزحف عبر الظهر لتتلاشى في طريقها إلى القفا. ماذا لو لم يتمكن جهاز مناعته المعتل من صد هجوم هذه الأمراض المعدية الغريبة؟ دوى جهاز الأوكسجين في رأسه - وأصبح فجأة جهاز الأوكسجين الخاص به. وفجأة صار هو المحتضر، لا الرجل المسن الذي كان جهاز الأوكسجين الخاص به يدوي. وفجأة أيضاً تراءى له بناء على ماسبق أنه يموت في هذا الملجأ الحصين في فيرا كروز، وحيداً تماماً، وفي أذنه ورق تواليت: لم يكن يريد غير ذلك. كانت تلك النتيجة المنطقية الحتمية لحياته.

اضطر إلى التقلب على الجنب الآخر لكي ينفض عنه هذه الأفكار. للتخلص من الصور التي دارت في رأسه. بحث عن صور أخرى وحاول أن يتذكر شيئاً ما. حاول بين الرجفات التي تدهمه على شكل موجات، أن يستحضر شيئاً لطيفاً، لكنه كان يرى شيئاً واحداً: يرى نفسه تائهاً في مدن غريبة وكأنه لا يوجد شيء آخر في حياته، دائماً شوارع، بيوت، وجوه، تتحطّم كلها بمجرد أن يحاول لمسها، هذا هو فيلم حياتي، هكذا فكر، في أثناء ما كانت أسنانه تصطك بعضها ببعض. بالرغم من أن تلك كانت نسخة قصيرة بائسة، قال ذلك لنفسه، وحاول أن يكتم اصطكاك الأسنان، كي لا يتسبب بانهيار مبانٍ أخرى. سيطلب نسخة مغايرة. اللعنة! لا بد أن يكون له الحق في أن يقوم بمونتاج فيلمه بنفسه، هكذا فكر، وأطبق أسنانه حتى آلمه فكه، ثم أصبح الجو حاراً. جرى. غادر الجميع المدينة. جرى في الصحراء، لسعه الهواء في حلقه، جرى، نبض قلبه بتواتر مذهل، كان يرتعش أكثر مما ينبض، وكأنه يصعد جبلاً شديد الانحدار، دائماً إلى أعلى من دون أن تتبدى

قمة في الأفق، لا يمكن الوصول في ظل هذه الحرارة مع مرض القلب الذي في الصدر، والذي لا تمكن معالجته. كان يعرف أن عليه أن يتوقف، لكن التضاريس وراءه تنهار، تتساقط قطعة قطعة وتغور في الهاوية، أو بمعنى أصح في السماء التي تحيط به من كل جانب، من فوق ومن تحت. وعبر هذه السماء الكلية الوجود امتدت قشرة هشة لا تتجاوز سماكتها المتر - إنها العالم: معلومة مذهلة. والداه كانا إلى جانبه، يمسكانه هو مريضِ القلب من كلتا يديه. يرتديان ملابس يوم الأحد، ارتدى والده بنطالاً ذا كسرة حسب موضة الخمسينيات، أما أمه فانتعلت حذاء ذا كعب عالٍ وارتدت تنورة واسعة، طالما كان يختبئ تحتها، لكنهما لم يكترثا لملابسهما، كانا يسيران ويتسلقان ويزحفان صاعدين فوق القشرة الرقيقة المعوجة البارزة وسط هذه السماء كلية الوجود، ينزلقان ويسقطان ويتسلقانها ثانية ويجرجرانه هو مريض القلب خلفهما، ويستعجلانه بهدوء، ولكن بلا كلال وبنبرة تشي بأنه سيتأخر عن الحضانة. ويحثانه على مواصلة السير، وألا يتلفت طوال الوقت إلى الخلف الذي يتفتت قطعة قطعة، بل إلى الأمام، إلى الأعلى، إلى الأعالي عند نهاية العالم، حيث ترقص مجموعة صغيرة من الهنود الحمر المزينين بالريش من أجل استحضار عالم جديد: خمسة أو ستة رجال قصار ذوو كروش صغيرة تبرز مع إيقاع تنقلهم بين قدم وأخرى. وأما الموسيقى فكانت تأتي من صندوق كالذي يحمله البائعون في المترو، وقد اشتروا الريش الذي تزينوا به من محل الهدايا التذكارية، وبدلاً من السكاكين حملوا في أيديهم السلاحف السوداء المصنوعة من السبج.

رقد يومين مريضاً في السرير. ذات مرة صحا وتسلل إلى المتجر منحنياً بسبب الحمّى لكي يشتري الماء. وفي اليوم الثالث طلب تاكسي من مكتب الاستقبال، ومن دون أن يطلب استرداد ما دفعه مقدماً للحجرة،



twitter @baghdad_library

ركب إلى محطة الحافلات وطلب هناك تذكرة سفر إلى مكان يقع على المحيط الهادئ. عرض له عامل التذاكر خريطة من قطع A5 ووضع إصبعه دون أن ينظر، على مكان يقع على المحيط الآخر المقابل، المحيط المسالم الساكن.

- بوشوتلا، قال الرجل.

- بوشوتلا، كرر ألكسندر، مكان لا شك أنه لم يسمع به في حياته.

تحركت الحافلة في السابعة مساء. كانت حافلة من الدرجة الفاخرة، فيها مقاعد للرقاد وهادئة، وصوت عروض الفيديو كان كما في الطائرات لا يسمع إلا عبر سماعات الأذن. تمكن ألكسندر من النوم عدة ساعات.

في الصباح عادت السماء زرقاء - زرقاء إلى درجة جنونية. الألوان عموماً بدت له أكثر كثافة مما كانت عليه على الساحل الشرقي. بزغت الأكواخ الفقيرة على جانب الطريق حمراء وخضراء في شمس الصباح. وحيته اللافتات الدعائية المكتوبة بخط اليد في أثناء مروره بها. ولم يستغرب إطلاقاً أن يقوم الرجل بالكنس أمام مطعمه الصغير جداً. كان ثمة شيء ما يشي بالقرب من المحيط الهادئ: الهواء، أو السماء أو هذا الصاج المموج الهش والمعمار القائم على الأعمدة الخشبية.

ثم وصل إلى بوشوتلا. أنزلته الحافلة التي انتقل إليها أمام مرأب تحول إلى مقهى. ارتعشت ركبتاه قليلاً في أثناء نزوله من الحافلة شعر بالخفة. وكأن بشرته قد تبدلت تواً. يداعبه هواء الصبح كالرؤيا. وتدغدغ الشمس بشرته. سأل صاحبة المقهى - المرأب، التي كانت تنظف الرصيف أمام المحل، أي الطرق تؤدي إلى البحر وعرف منها أن البحر لا يزال على بعد خمسة عشر كيلومتراً من هنا. ولا يمكن

الوصول إلى هناك إلا بتاكسي. لكنه عرف منها أيضاً أن أحد معارفها لديه تاكسي ويمكنها أن تخبره. ثم سألته إن كان لا يرغب حالياً في الإفطار؟

وافق ألكسندر وبدت المرأة برغم أصلها الهندي الأحمر، بشكل ما مثل أمهات حي برنتسلاور - بيرغ البرليني قبل سقوط الجدار، اللائي كن في البكور يشققن طريقهن برفقة طفلين على الدرّاجة وسط الاكتظاظ المروري. هرعت المرأة إلى المخبز المواجه لتحضر له أرغفة خبز طازجة.

قرار جيد. شرب قهوته وأكل شطيرة مربى رائعة. رأى الشقوق في أحجار الرصيف ولمعان أرضيته التي مسحتها تواً صاحبة المقهى - المرأب. رأى رجلاً يجري وراء تاكسي ملوحاً ورأى آخر يبدو كفيل أزرق ورأى الفيلة البيضاء التابعة له. ظهر طفل في الصورة وظل واقفاً وابتسم.

كانت أجرة الطريق خمسين بيسوس، هكذا جرى الاتفاق مسبقاً. انعطف الطريق تدريجاً بانحدار ماراً بطبيعة لا تعبر عن شيء محدد سوى أنها يمكن أن تكون مجرد مدخل لأي شيء.

بويرتو أنخيل، كان اسم المكان، إن كان قد سمعه بشكل صحيح. لم تكن ثمة لافتة تدل عليه. على اليسار، كان الشاطئ على مرأى البصر، وأمام منحدر على اليمين اصطفت بعض البيوت المتلاصقة غير اللافتة تحت فوضى الأسلاك المتشابكة. ومحل خضروات وferretería وفرع بنك يخضع للترميم والتجديد.

ومن دون أن يطلب ألكسندر، نصحه السائق بفندق أو بمعنى أدق Casa de húespedes أي بيت للضيافة، وألح في ذلك وكأنه يحصل



twitter @baghdad_library

على عمولة. كان اسمه «إيفا وتوم». خشي ألكسندر أن يكون أصحابه ألماناً، لكن السائق نفى بشدة وهكذا صعد ألكسندر بركبتين ما زالتا واهنتين الطريق المنحدر الذي تحول بعد بعض الوقت إلى الدرج المؤدي إلى «إيفا وتوم».

لاقته امرأة مكتنزة أمام ما يشبه مكتب الاستقبال، بعد أن ناداها أحدهم. لم تعد شابة ويمكن المرء أن يظن بسبب سمرتها النحاسية وشعرها الأبيض الطويل المجدول في ضفائر، أنها من الهنود الحمر. انتعلت شبشباً مطاطياً وارتدت فستاناً أبهته الغسيل، وقلبت بغير انتباه وربما عن غير قصد جدول مواعيد ضخماً، ثم تحدثت مع ألكسندر مباشرة بالألمانية. لكن لهجتها كانت جنوبية واضحة، على الأغلب نمسوية.

ثم صعدت معه السلّم المصنوع من ألواح خشبية خشنة يربط بين المستويات المختلفة لبيت الضيافة.

كان المستوى الأعلى على قمة التل. زهور كركديه ونخيل. من الشرفة كان يمكن رؤية خليج محاط بصخور عملاقة. زرقته جنونية أيضاً كزرقة السماء فوقه.

أما الغرف، فكانت في جناح من طبقة واحدة، طُلي كله بالألوان التقليدية لفريدا كالو (أحمر - أزرق - أخضر) ولكن بإهمال. قبل أن تريه الهندية النمساوية الغرفة الصغيرة الخالية من النوافذ (كان الضوء يأتي من أعلى: في أحد المواضع حلت قطعة من البلاستيك المقوى المموج محل بلاطات السقف التي يمكن رؤيتها موضوعة على دعامة السقف الخشبية)، وقبل أن يجول ببصره في الغرفة المحدودة التجهيزات والمكونة فقط من سرير وناموسية ومائدة وكومود ضخم،

وقبل أن يسأل عن السعر (ثمنها خمسون بيسوس، خمسة دولارات)، أُغرم بفكرة أن يرقد في الأماسي الحارة على السرير المعلق المنصوب أمام باب غرفته تحت مظلات من سعف النخيل، ناظراً إلى زرقة المحيط الهادئ الجنونية.

- عليك أن تنفض الأغطية، قالت النمساوية الهندية. فهنا توجد عقارب.



twitter @ baghdad_library

# ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩

كانت المسافة في الحقيقة قصيرة - لكن ناديجدا إيفانوفنا التي سارت إلى جواره كانت تتحرك ببطء شديد جداً بسبب قدميها التالفتين، حتى تراءى له أن بيت أمه صار على بعد يستحيل الوصول إليه. ظن كورت أنه يراوح مكانه. ونمت رغبته في الحركة مع كل خطوة. ولم يعد يحتمل الطقس الرائع. تضاعف ألم بطنه. وشعر الآن بالضيق لأنه لم يخرج في الصباح إلى الحديقة البرية لكي يجول لساعتين بين الأشجار بخطوات منتظمة واسعة.

لم يعد النقاش مع إيرينا مجدياً. لقد جلست في غرفتها الآن لتسمع فيزوتسكي. دوي موسيقاه يهز البيت. ما زال كورت يعتقد أنه يسمع صرخاته التي تنفذ عبر الأبواب والنوافذ وكأنه يصرخ من أجل البقاء على قيد الحياة. كانت موسيقى كئيبة، هكذا فكر كورت، موسيقى - لو أراد المرء أن يسميها موسيقى - تساهم في إغراق إيرينا في تعاستها، وهذا ما كان لا يعجب كورت: هذه الرغبة في الغرق في التعاسة، التي ربطتها إيرينا أخيراً، وبعد أن قطعت لسنوات طوال كل علاقتها بجذورها الروسية، بما أسمته بلكنتها الروسية المميزة روحها الروسي.

بالإضافة إلى الكحول - وهو مادة يبدو أن الروح الروسي يميل إليها عموماً. صحيح أن إيرينا، على خلافه هو، كانت تشرب عادة كثيراً، ولكن شربها كان دائماً مرتبطاً بنوع من «الصحبة». ولذا فإن انسحابها إلى غرفتها لتسمع فيزوتسكي وتسكر وحيدة، كان يعد إلى حد ما ظاهرة جديدة. بالتأكيد لم تكن مدمنة الكحول: كانت أحياناً لا تشرب أياماً بل أسابيع، لكن القلق كان يساور كورت عند تفكيره في ردود الأفعال المتتالية الكثيرة التي لا يمكن السيطرة عليها، والتي يمكن كأس كونياك واحدة أن تفجرها لديها.

لم يستطع كورت أن يمنع عنها هذه الكأس الوحيدة بعد نبأ فرار ساشا. لكن بمجرد أن تناولت هذه الكأس الوحيدة من الكونياك، طلبت بعنف الكأس الثانية (والأخيرة). وبعدها بدأت تحمل على كاترين التي شكت (وربما لا تكون قد أخطأت الظن تماماً) أنها هي التي أقنعت ساشا بالهروب. الكأس الثالثة صبتها لنفسها وهددت تقريباً بأنها قد تلجأ إلى العنف لو أراد كورت أخذ الزجاجة منها. ما زاد الطين بلة أن كورت، لكي يخفف من قنوطها، ذكرها بحذر أنه طالما أنها فوق الستين، أي بلغت سن المعاش فمن حقها أن تزور ابنها في الغرب - عندئذ انصب غضبها عليه لأنه ارتضى لها أن تطأ قدمها عتبة هذه المرأة، وأخيراً وبعد الكأس الرابعة بلغ غضبها ساشا أيضاً الذي عادة ما لا تجد فيه عيباً: ابني خانني، كانت هي الصيغة التي عبرت بها أخيراً عن إحباطها، وبرغم أن كورت شعر بهسيس من الرضا لأن ساشا قد ناله شيء من الغضب أيضاً، لكنه اعترض بشجاعة وحاول التصدي لهجمات إيرينا المدمرة، التي تعد مقارنة بما اعتاده منها غير عقلانية تماماً، ذاكراً حقيقة بسيطة فحواها أن هروب ساشا ليس موجهاً ضدها! عندئذ انسحبت إيرينا إلى غرفتها مع بقية الزجاجة ملوحة بتهديد غريب بأن تقتني كلباً. وأعد كورت البطاطا المحمرة لنفسه.



twitter @baghdad_library

بمعنى أصح لقد حاول أن يعد البطاطا المحمرة. لسوء الحظ احمرت الأجزاء السفلى من البطاطا المقطعة شرائح مدورة في المقلاة وعندما قلبها تفتتت، ما جعل القطع الملتصقة بقعر المقلاة تحترق بعد بعض الوقت ويخرج منها الدخان. ولإنقاذ الموقف أضاف إليها بيضتين: كارثة بالبيض، هكذا سمى هذا الطبق. وهكذا كان طعمه أيضاً.

لماذا لا تصنع له إيرينا أبداً البطاطا المحمرة؟ مع البيض المقلي. كان يحب ذلك منذ طفولته. هل كان بالنسبة إليها شيئاً مبتذلاً؟ ولماذا، تساءل كورت، فيما كان لديه متسع من الوقت ليتجنب حشرات بق النار على أرصفة نويندورف المتعرجة، لماذا تنطق منذ ثلاثين عاماً كل الحروف المتحركة الألمانية القصيرة ممدودة والعكس، ضاربة بما تعلمته عرض الحائط كأن تقول: الرحّ الرووسي.

- كان يريد أن يتزوجني، قالت ناديجدا إيفانوفنا فجأة.

لم يعرف كورت فجأة إن كانت تكلم نفسها أم تحادثه. تبين أنها كانت تقصد والد إيرينا، الذي تدعي إيرينا (التي رأته عموماً لمرة واحدة فقط من بعيد) أنه كان غجرياً. وهو ما تنفيه ناديجدا إيفانوفنا. لم يكن أي منهما مصدراً موثوقاً به. كانت إيرينا أميل إلى أن ترى العالم كما تريد أن تراه، فيما كانت ناديجدا إيفانوفنا عملياً أمية ولديها فقط وعي متشظ بالأحداث التي وقعت حولها: إنشاء التعاونيات الزراعية، الحرب الأهلية، والثورة. بذل كورت جهداً في ترتيب ما تقوله حسب أسانيد موثوق بها، بل قد أربكه للحظة أن ناديجدا إيفانوفنا شرعت في الحديث عن مدينة انتقلت إليها:

- أي مدينة إذن؟

وفي الواقع كانت تقصد سلافا.

رأى كورت المدينة أمامه: الطرق المفروشة بالحصى، وعلى اليمين واليسار الأسوار المصنوعة من الألواح الخشبية التي تفوق طول الشخص العادي، وخلفها اختبأت البيوت الخشبية المائلة من طبقة واحدة - منطقة سكنية لا يكاد تعدادها يربو على تسعة آلاف نسمة، بُنيت وسط المستنقعات: مؤخرة العالم، هكذا فكر كورت. لم يوجد على الأرجح مكان أكثر قذارة وقبحاً وقحطاً من هذا المكان الملعون الذي قضى فيه - بعد انتهاء فترة اعتقاله - سبع سنوات بوصفه منفياً نفياً مؤبداً. لكنه إذا ما تغاضى عن بكائياته (كانت بالمناسبة تدهمه بانتظام مرة واحدة كل شهر) التي كان يطلق لها العنان عندما يدرك كيف مضى الوقت من دون أي أمل في أن يتمكن من بدء حياة جديدة - إذا ما تغاضى عن ذلك، فلا بد أن يقر أنه كان في هذا المكان القذر بعض الأشياء الجيدة.

مثلاً أول حساء طبخته له إيرينا: حساء البازلاء المجفف من عبوة الكيس، أو بمعنى أدق من العلبة (لم تكن ثمة بازلاء طازجة). كم كان لذيذاً! حتى لو تبين لاحقاً، عندما أحضرت إيرينا علبة منه من سلافا، أن طعمه لا يكاد يستساغ.

أو السباحة صباحاً في النهر.

أو الليالي البيضاء، عندما كانوا يجلسون حتى شروق الشمس أمام النار ويفقدون تدريجاً الإحساس بالزمن... جميعهم كانوا منفيين نفياً مؤبداً: تجمع للأبدية. كم يمكن الإنسان أن يكون مرحاً من فرط يأسه.

أو الصور الأولى التي التقطها لنفسه مع إيرينا. أحضر زوباكين الكاميرا معه من سفيردولفسك. وصنعوا المظهِر عبر خلط البوتاس



twitter @baghdad_library

والمادة الأخرى كانت... كبريت الصوديوم، وكان لا بد للنسب أن تكون مضبوطة وذلك بالاستعانة بميزان صنعه بنفسه واستخدام بعض الكوبيكات الروسية كأوزان - كورت الذي ربط «الصور الأولى» بصور أولى بعينها... تلك الصور التي لا تصلح للنشر على الملأ، تذكر الآن وهو يسير إلى عيد ميلاد فيلهلم متأبطاً ذراع ناديجدا إيفانوفنا، وتقريباً بدقة اللحظة التي ظهرت فيها ملامحٍ على الورقة العائمة في مظهِر الصور الذي صنعه بنفسه، ظهرت أولاً ببطء وكان من الصعب التعرف إليها، من الصعب معرفة أسفل الصورة من أعلاها - حتى برزت خاصرتا إيرينا فجأة أمام الخلفية التي ازدادت قتامة بيضاوين وقويتين: كانت لحظة مثيرة جداً لدرجة أنهما نسيا أن يضعا الصورة في حوض التثبيت واضطجعا معاً في الغرفة المظلمة... للأسف، فكر كورت، كان عليهما القضاء على هذه الصور قبل مغادرة الاتحاد السوفياتي.

من جانب آخر: من يدري، ربما كان سيصير مصيرها مثل حساء العبوة بعد عشر سنوات من معسكر الاعتقال. عموماً لم تعد إيرينا ترغب في أن تكون لها أية صلة بهذه الأشياء (كما صارت تسميها حالياً). أجل، بل صارت أكثر فأكثر، تعتبر كل ما كان في الماضي إيروتيكياً وشهوانياً، مقزّزاً ودنيئاً: نوع من التشاؤم موجه إلى الماضي. هل كان لهذا علاقة أيضاً بروحها الروسي؟ أم كان لذلك علاقة بعملية استئصال المبايض؟ أياً كان الأمر - أصبحت الحياة مع إيرينا فجأة صعبة. وذهاب ساشا إلى الغرب لن يجعل الأمور أسهل.

ما الذي سيقوله لشارلوته وفيلهلم؟

اقترب المنزل تدريجاً. كان يمكن رؤية غرفة البرج بنوافذها نصف الدائرية وشُرفاتها ما بين قمم الأشجار الخريفية. لقد كتب رسالة

الدكتوراه في هذه الغرفة، هذا بالرغم من أن البرج كان يجسد ذروة تخبط حاد في الذوق (المنزل برمته كان توليفة سيئة جداً بين طرز معمارية مختلفة - لقد حقق نازي من الأثرياء الجدد حلم حياته هنا في آخر أيام الحرب). لم يكن في إمكان كورت أن ينكر أنه كان يحب هذا البرج الصغير، ففيه بدأت حياته الثانية - أم الثالثة؟ كما كان يطيب له أن يتذكر هذا الهدوء الذي يخيم على نويندورف عندما كان يفتح النافذة في السادسة والنصف صباحاً ويضع آلته الكاتبة، وهذا الهواء المنعش المدغدغ والأوراق الصفراء أمام النافذة، برغم أنه من غير الممكن أن يسود الخريف طوال الوقت، هكذا فكر كورت - لكن بدلاً من أن ينشغل بالسؤال عن سبب بقاء أشجار البلانيرة صفراء في ذاكرته، كان ينبغي له أن يفكر في كيفية الإجابة عن الأسئلة التي ستطرح عليه الآن.

برغم أنه لم يكن في الواقع ثمة شيء يجب التفكير فيه. ما الجدوى من إثارة فضيحة في عيد ميلاد فيلهلم: لماذا؟ ولمصلحة من؟ كان فيلهلم سفيهاً مسناً وعنيداً، وكان يستحق فعلاً، هكذا قال كورت لنفسه، أن يعرف الحقيقة كعقاب له على عناده. وفيما ظهرت واجهة البيت بين جذوع الأشجار ذات البقع، والباب الضخم ونوافذ الردهة الصغيرة ذات القضبان التي حولت البيت إلى حصن، فكر فيلهلم أنه يتحتم على المرء أن يقول الحقيقة لفيلهلم، ثم تخيل وجهه: اليوم في عيد ميلادك، قرر حفيدك أنه قد فاض به الكيل منكم، كل عام وأنت بخير! هكذا فكر كورت وكبت رغبته في طرق مقرعة الباب: فطالما أزعجته عبارة لا تقرع! وأزعجه أن يستقبل المرء بأمر بالمنع! وخصوصاً أن المرء ما كان سيخطر في باله أن يقرع الباب لو لم تكن هذه القصاصة موجودة، وكان



twitter @baghdad_library

من المحتمل ألا يخطر في بال المرء أيضاً أن رأسي الأسدين الغبيين هذين هما مقرعتان للباب.

أخذ كورت نفساً عميقاً، عميقاً جداً وكأن عليه أن يبقى ساعات على قيد الحياة بهذه الكمية من الهواء المستنشق، ثم ضغط على الجرس.

انفتح الباب وظهر وجه مستدير، وجه غبي - لم يكن ثمة شخص آخر، حسب رأي كورت، يمكن المرء أن يتعرف إلى ماهيته بهذا الوضوح، لقد كان مسؤولاً حزبياً - وتلك كانت إحدى الشتائم المفضلة لدى إيرينا. حاول كورت أن يتخطى شلينغر سريعاً، لكن ما أن وقعت يده في يد شلينغر، حتى لم يتركها، صافحه وأومأ له بطريقته المعهودة غير المريحة، وللأسف وجد كورت نفسه يومئ له أيضاً، حتى ولو فعل ذلك فقط من قبيل إنهاء هذا الموقف سريعاً.

- الرجاء انتظار الرفيقة بوفيلايت، صاح شلينغر من خلفه.

لم يفكر كورت في انتظار الرفيقة بوفيلايت التي أتت مندفعة، قبل أن تخلع ناديجدا إيفانوفنا معطفها - سريعة كالعنكبوت الذي ينقض على فريسته.

- وأين إيرينا؟

- إيرينا مريضة، قال كورت.

- مريضة؟ مم تعاني؟ أرادت شارلوته أن تعرف.

- ليست على ما يرام، قال كورت.

- وألكسندر؟ لا تقل إن ألكسندر ليس على ما يرام أيضاً.

- معذرة يا أمي، لكن شارلوته قاطعته.

- إذن كيف تتصورون الأمر يا أولاد؟ ماذا أقول لفيلهلم؟ إنه سيتم التسعين!

- اسمعي يا أمي...

- لكن معذرة، قالت شارلوته، معذرة... سيجن جنوني رويداً رويداً. قريباً لن أكون قادرة على التحمل!

تنهنهت وأعطت نظرتها طابعاً مأسوياً.

- اعتذر يون، هل لك أن تتخيل ذلك! وأرسل نائبه، شيء لا يصدق! فيلهلم سيتم التسعين! وسيحصل على وسام الاستحقاق الوطني من الذهب! ويرسل نائباً له!... أين زهورك؟

- اللعنة، لقد نسيتها في البيت.

- حسناً، لا يهم، فلتأخذ بعض الزهور الأخرى، فثمة الكثير منها هنا. قالت شارلوته.

نظر كورت إلى ركن تعليق المعاطف حيث غفا في المكان شبه المعتم عدد لا يحصى من باقات الزهور، فيما اخترق صوت أمه أذنه وكأنه آت من بعيد...

- ... وأرجوك يا كورت عندما تدخل، لا تتحدث عن أي أحداث. أنت تعرف هنغاريا، براغ... ولا تقل شيئاً عن الاتحاد السوفياتي.

- ولا عن بولندا. قال كورت.

- بالضبط، قالت شارلوته.



twitter @baghdad_library

- ولا شيء عن الفضاء ولا عن القمر، قال كورت.

- كورت أرجوك، إنه لم يعد... أدارت شارلوته بؤبؤي عينيها بشكل معبر... لقد تدهورت حاله في الفترة الأخيرة.

- أنا أيضاً تدهورت حالي في الآونة الأخيرة. قال كورت. لقد قرر ألا يأخذ زهوراً.

عندما دخل الغرفة، كان فيلهلم جالساً في مقعده، بدا كما كان على حاله دائماً وتصرف على النحو ذاته. لقد اعتاد منذ سنوات تلقي التهاني جالساً، وهو أمر مهين في ذاته حسب كورت. وعندما سأله فيلهلم بمجرد دخوله وفوق ذلك بأسلوبه المتسلط عن ألكسندر شعر مرة أخرى برغبة في قول الحقيقة.

- ألكسندر مريض.

سبقته شارلوته. أومأ فيلهلم وأشار لناديجدا إيفانوفنا أن تأتي إليه، وتقدم تهانيها. أهدت إليه برطماناً من الخيار الذي خللته بنفسها، وفيلهلم الذي لم يترك فرصة إلا تباهى فيها بمعرفته بالروسية حاول أن يتكلم بها وقال: غاروش، غاروش! وغالباً كان يقصد خاراشو (جيد) لكنه لم يتمكن حتى من ذلك. في الحقيقة لم يتحدث فيلهلم الروسية قط لا اليوم ولا في الماضي. فبرغم أنه كثيراً ما كان يحلو له الحديث عن «سنواته الموسكوفية» إلا أنه لم تكن ثمة «سنوات موسكوفية». صحيح أنه ذهب فعلاً إلى موسكو في العام ١٩٣٦ برفقته هو، كورت، وأخيه فرنر (وبقي الأخوان في موسكو «لدواع أمنية») لكي يتدرب - كما خمن كورت - لدى مخابرات الجيش الأحمر على العمل الاستخباري. لكن زيارته لم تستغرق على أي حال سنوات، بل أسابيع.

وفوق ذاك كله فإن مكان التدريب السري جداً كان في مكان ما خارج العاصمة، ما يعني أن فيلهلم لم يكد يرى موسكو أكثر من ثلاث مرات في حياته: غاروش، غاروش!

ولكي يرى الجميع استدعى ميليش إليه وجعله يفتح البرطمان - ثم أكل خيارة... وقد فعل ذلك بخيلاء لا سبيل إلى تقليده فيها: هذه اللامبالاة التي ترك بها الخيارة تقطر فوق البرطمان، والطريقة التي قضمها بها وكيف أمسك بالخيارة المقضومة بين إصبعيه وأخذ يلفها فيما كان يتلمظ، كان يتأملها وكأنه أعلى هيئة لتقويم جودة الخيار:

- غاروش! قال فيلهلم مرة أخرى، وتكرم أخيراً وسمح لكورت أن يهنئه، ولكن عندما تغلب كورت على تقززه من يد فيلهلم المبللة بماء الخيار ومد يده ليصافحه، أشار فيلهلم إليه ببساطة: اذهب بالخضر إلى المقبرة.

الخضر إلى المقبرة؟ الآن فوجئ كورت. هل تدهورت حالته حقاً كما قالت شارلوته؟

ثم التفت إلى حضور عيد الميلاد. في الماضي كان يأتي إلى عيد ميلاد فيلهلم بعض الشخصيات المثيرة: فرانك يانكو الذي كان أصغر قائد فرقة في الألوية الدولية التي حاربت ضد فرانكو أو كارل إيرفيغ، الذي أراد أقله أن يفرض طريقاً للاشتراكية الألمانية وذلك في مواجهة أولبريشت. أو ستينه شبير ممثلة مسرح بريشت التي كان فيلهلم وشارلوته يعرفانها من أيام المكسيك. لكن اسم يانكو لم يعد يذكر في البيت بعد أن قبع في السجن ست سنوات متهماً بالتورط في «مؤامرات» مزعومة. أما كارل إيرفيج الذي لم يكن مغضوباً عليه، برغم طرده من الحزب، فقد غاب هذه المرة. وأما ستينه شبير التي كانت تحكي حول مائدة



twitter @baghdad_library

عيد الميلاد قصصاً مضحكة وكثيراً ما تكون أيضاً غير لائقة سياسياً، فقد طردتها شارلوته قبل عامين أو ثلاثة أعوام طرداً نهائياً ولكن بأدب. وبهذا اختفى كل من كانوا يعدون مثيرين نوعاً ما، وتبقى في النهاية هؤلاء الذين تجمعوا هنا.

ميليش طبعاً، أكبر معجب بكورت (إنه رجل لطيف في الحقيقة، لكن يتسم بقدر من البدانة الروحية المأسوية)، ثم زوجة ميليش المريضة دائماً، شرطية سابقة (شقراء، كانت في الماضي جذابة جداً، ولو لم تكن تُظهر هذا الاحتشام الميؤوس منه لسعى كورت إلى ضمها إلى مجموعة تذكاراته) وإلى جانبهما الجيران من الجهة المقابلة، وهما متشابهان مثلما يشبه ثدي نظيره الآخر، لقد نسي كورت اسمهما كما هي الحال في كل عام: كان الزوج في السابق بواباً في مدرسة ساشا وحالياً يقضي بعض المشاوير لشارلوته وفيلهلم، أما الزوجة فلا يعرف كورت عنها شيئاً بخلاف ما قيل عن أنه لديها إست صناعية (إست صناعية: فكرة غريبة)، ثم رئيس شرطة الحي، الرفيق كروغر الذي كان كورت يراه من بعيد دائماً عندما كان يمر بالدراجة، وطبعاً بونكه، عميد في أمن الدولة يعاني ضغط الدم المرتفع، دائماً يقول: مرحباً مرحباً! أين إيرينا! وكأنهما صديقان حميمان (برغم أنهما لم يدعواه إلى بيتهما إلا مرة واحدة لشرب الشاي، وللحديث عن شجرتي التنوب في حديقته اللتين تحجبان الضوء عن حوض الخيار الذي تزرعه ناديجدا إيفانوفنا في الحديقة)، هاري تسينك جاء كذلك إلى هنا خطأً: كان استثناءً، شخصاً ذكياً، بل ماكراً (لكن كان لديه ما يكفي من الغباوة التي تجعله يقبل منصب مدير ما يسمى بأكاديمية نويندورف) وأخيراً غيرترود شتيلر التي كان يحمر وجهها دائماً كلما تقابلا في كل عام: قبل زمن

طويل أرادت شارلوته أن تقنعه بالارتباط بهذه المرأة، لكن المخجل في الأمر تمثل في أن كورت قد فكر فعلياً في هذا الاحتمال ولو لم يكن على نحو جاد - لقد كان ذلك من أكثر أسرار كورت سرية، كانت مسألة سرية جداً لدرجة أنه نفسه نادراً ما كان يتذكرها. حسناً وماذا عن بقية الحضور، لم يكن يعرفهم، بائعات ورجال من قدامى أعضاء الحزب. يا إلهي يا لمنظره!

- تكتة تماغية، قال تيل.

كان تيلبرت فيندت زميلاً له في اتحاد الشباب الشيوعي في برلين - بريتز. أصغر منه بعام، حاول كورت ألا يظهر الفزع على وجهه.

- وسوى ذلك؟

سؤال غبي.

- توى تالك تمام، قال تيل.

- حسناً، المهم أن نبقى على قيد الحياة، قال كورت وربت كتفه، برغم أنه كان متيقناً أنه سيقتل نفسه لو حدث له شيء كهذا.

في الماضي ما كان ليقترب من تورتة الكريمة الدسمة. لكن منذ أن أزالوا ثلثي معدته، لم تعد تورتة الكريمة الدسمة تهمه. كما حصل في الحال أيضاً على قهوة، وأخذ أحد الفناجين المكسيكية العتيقة المصنوعة من البلاستيك الصلب والتي تعرضت أطقمها لخدوش كثيرة، وكانت تستخدم في كل عام لإكمال «أطقم المائدة الجيدة» من إرث النازيين (بمعنى أدق، كل ما تبقى من مخلفات الضباط السوفيات الذين سكنوا هنا وقتاً طويلاً) والتي لم تكن تكفي. لقد أبعدوا أدوات المائدة التي كان عليها صليب معقوف صغير نُقشت خلفه الحروف



twitter @baghdad_library

الأولى لصاحب البيت، ما أدى في نهاية المطاف إلى أن المرء صار يأكل التورتة من طبق نازي ولكن بشوك من إنتاج شعبي محلي.

- دا سدرافستفويت، قال بونكه ورفع كوبه الألومنيوم.

كانت هذه الأكواب أيضاً من إنجازات جمهورية ألمانيا الديمقراطية بما في ذلك المشروب الذي داخلها، وإذا كان كورت قد رفض لثلاثة وثلاثين عاماً شرب الكونياك أو ما هو أسوأ منه أي براندي «غولدبراند»، فقد كان اليوم مستعداً لذلك.

- في صحة غورباتشوف، في صحة البيروسترويكا في جمهورية ألمانيا الديمقراطية!

امتنع تيل عندما قُدم له الكوب. وتصرف رئيس شرطة الحي وكأنه لم يسمع شيئاً. كان الثديان قد رشفا من الكوب في أثناء سماعهما دا سدرافستفويت. وحده ميليش رفع كأسه بحذر وهو ينظر حوله - لكنه أنزلها ثانية عندما اعترض هاري تسينك:

- في صحة غورباتشوف نعم! أما في صحة البيروسترويكا في ألمانيا الديمقراطية فلا.

وأثبتت زوجة ميليش - واسمها أنيتا، الآن تذكره كورت - أنها غبية بما يكفي لتنشر هذه العبارة التي قالها كورت الآخر من المكتب السياسي للحزب (كورت هاغر الذي يسمّيه كورت سراً كورت الوغد) في حوار مع مجلة غربية، نُشر أيضاً في «نويس دويتشلاند» وكانت كالآتي:

- لو قام جارنا بطلاء بيته، فلن نقوم نحن على الفور بطلاء بيتنا أيضاً.

أيد أحد قدامى الحزب في نويندورف كلامها فيما التفت إليه بونكه فجأة:

- كورت فلتقل شيئاً!

وفجأة نظر الجميع إليه: أنيتا بأنفها الذي صار حاداً وميليش الذي بدأ يومئ برأسه حتى قبل أن يلتقط كورت أنفاسه، والثديان برأسيهما المائلين بالدرجة نفسها بالضبط، تيل كان هو الوحيد الذي لم يتأثر بما دار حوله وحاول بإصرار أن ينقل قطعة من التورتة إلى وجهه المشلول نصفياً.

- في صحتكم، قال كورت.

- نعم، في صحتك، قال بونكه.

دلق كورت المشروب في جوفه. وشعر بلهيبه وانساب المشروب ببطء مخرخراً عبر المريء. انتشر هذا اللهيب تدريجاً في كل جسمه - إلى أن وصل إلى الموضع الذي توقف فيه الألم منذ ساعات: ليست المعدة. شيء أسفلها... ما هو في الحقيقة العضو الذي يشعر به المرء عندما يكون ابنه هارباً من الجمهورية؟

عضو الحزب، فكر كورت، لكنه لم يكن في مزاج يجعله يجد ذلك مضحكاً، وانشغل بالتورتة كي لا يتورط ثانية في النقاش حول غورباتشوف. لقد فكر في أنه لا أمل في أن يفهم هؤلاء الناس رأيه في غورباتشوف وأن يقول لهم إن غورباتشوف لم يتخذ ما يكفي من الإصلاحات وإنه كان من دون مفاهيم وغير حاسم... وإن كتابه عن البيروسترويكا لم يكن به أي أثر لأي أساس نظري...

كان لا يزال منشغلاً بالتورتة عندما دخل شخص لم يستطع كورت



twitter @baghdad_library

أن يصنفه: كانت امرأة صغيرة جداً في السن بالنسبة إلى هذا الوسط وجذابة جداً أيضاً، لم يتعرف إليها، إلا عندما رأى الصبي النحيل البالغ من العمر اثني عشر عاماً ورآها تدفعه صوب فيلهلم. لقد تزينت على أحسن وجه، يا سلام! وكعب عالٍ. ماذا يعني ذلك؟

شاهد كورت وقوف الاثنين أمام مقعد فيلهلم وانحناء ميليتا على فيلهلم، التنورة قصيرة جداً، أعطى ماركوس صورة لفيلهلم، وتذكر كورت أن ماركوس أهدى إليه أيضاً صورة في عيد ميلاده. كان عليها حيوان ما، اللعنة، ينبغي له حقاً أن يعلقها، فكر كورت وشاهد ماركوس وهو يقوم بجولة لتحية الحضور، نحيف وشاحب ومرتبك قليلاً، تماماً كساشا عندما كان في عمره، وفجأة وجد أنه لا مفر أمامه من معانقة ماركوس: فقد بدا له أن مجرد مصافحته مثل الآخرين ستكون قليلة جداً. بل شعر فجأة بالحاجة إلى معانقة ميليتا أيضاً لكنه تخلى عن ذلك طبعاً وبعد أن صافحها انسحب جانباً بحماسة لكي يوضع لها كرسي تجلس عليه إلى جانبه.

كانت تلبس جورباً مزركشاً. لسوء الحظ جلس كورت في مقعد منخفض قليلاً عن كرسيها، بحيث كان منظر الجورب المزركش يلهيه في أثناء تفكيره في ما يمكن أن يقوله لها من كلام لطيف. كل مجاملة خطرت بباله بدت له فجأة وكأنه يراجع حكماً مسبقاً كونه عنها فيما مضى، لذا احتاج إلى بعض الوقت حتى نطق قائلاً:

- تبدين في مظهر حسن.

- أنت أيضاً، قالتها ميليتا ونظرت إليه بعينيها الخضراوين.

- يعني، هزّ كورت رأسه، برغم أنه بصراحة لم يكن تماماً ضد تصديق ذلك.

- وأين إيرينا؟ سألت ميليتا.

- إيرينا ليست على ما يرام. قال كورت وتوقع أن تسأله ميليتا عن ساشا.

لم تسأله، ربما لأن شارلوته دخلت الغرفة في هذه اللحظة وصفقت بحماسة مفتعلة مثل مربية حضانة، وحاولت أن تسكت ضيوفها الذين أصبحت أصواتهم عالية: لقد حضر النائب. منح الوسام!

وضع كورت شوكة التورتة في الطبق واستند بظهره إلى الوراء. بدأ المتحدث قراءة كلمة المديح بصوت جاف وبرتابة تعد مذهلة حتى بالنسبة إلى مسؤول حزبي، وبغض النظر عن بعض التغييرات التي لا تكاد تُلحظ كانت بالطبع هي هي الكلمة ذاتها التي تلقى دائماً عندما يحصل فيلهلم على وسام (وهو ما يحدث في الفترة الأخيرة كل عام تقريباً. غالباً لأنه كان يعطي دائماً الانطباع بأنه قد يكون عيد ميلاده الأخير - لكنه تمكن من تحقيق نوع من البطولة في هذا المجال أيضاً): سيرة فيلهلم النضالية التي اختفى منها بمرور السنين كل ما كان يمكن أن يكون مثيراً، كانت وثيقة رائعة للبلادة. لكن أقله كانت ثمة مزية لذلك وهي أن ميليتا التفتت لتسمع المتحدث فيما أصبح باستطاعة كورت تأمل جوربها المزركش بحرية، بمعنى أدق كولونها أو بدقة أكثر هذا الجزء من الكولون أسفل طرف التنورة، لم يكن يعرف بالضبط ما اسم هذا الجزء من الجسم، وأين تنتهي الزركشة لتنتقل إلى النعومة، وعندما عدلت ميليتا تنورتها مرة أخرى كان الأمر أكثر إثارة لأن التنورة كانت تنزلق مرةً أخرى فيما كانت فخذاها تحتكان الواحدة بالأخرى محدثتين حفيفاً يكاد لا يُسمع.

شعر كورت بشيء ينتصب أسفل بطنه، وفكر إن كان عليه أن يشعر



twitter @baghdad_library

بالذنب نظراً إلى كونها زوجة ابنه السابقة... لا، في الحقيقة لم تكن امرأة جميلة، هكذا فكر كورت فيما كان المتحدث يتكلم عن كيف وجد فيلهلم طريقه إلى حزب الطبقة العاملة. لكنه عندما نظر إليها وجد أنه بصراحة معجب بذلك بالذات. فما هو ليس جميلاً تماماً لديه جاذبيته الخاصة لدى النساء، هكذا فكر. أمر يصعب توضيحه. ربما يجب على المرء أن يصل إلى سن معينة كي يفهمه.

جالت نظرته فوق نسيج تنورتها الخشن المثير، وتحسست البلوزة التي لم تحجب رؤية ما بأسفلها تماماً، ومرت فوق ذراعيها الرياضيتين وارتبكت، في أثناء ما كان المتحدث يذكر إصابة فيلهلم الخالدة في انقلاب كابّ، أمام الحمالات السوداء الرقيقة التي تقاطعت على ظهر ميليتا العريض، وتفحصت أحمر الشفاه ورصدت الحاجبين المنتوفين بعناية (والاحمرار الخفيف الذي خلفه نتف الحاجبين) وقد أحزنه ذلك. فجأة أثر فيه منظر المرأة الشابة، الذي رأى فيها الشيء المزدرى، وهو تجسيد كل ما رفضه ساشا في حياته وهجره ودمره، وما خلفه الآن ببساطة وراءه - كما هي عادته. لكن في الوقت ذاته تعجب كورت من وجود الشيئين في جسد واحد، في الوقت ذاته شعر بالإثارة وبدا له أن هذا الشيء المرفوض والمزدرى هو بالذات ما أثاره، بالذات هذه الرغبة في المزدرى واشتهاء ما هو ليس جميلاً تماماً، الذي نظراً إلى كونه مزدرى فقد برز أكثر صراحة وتجرداً - وهذا بالذات ما أثار كورت بل جعله في أثناء خوضه المغامرة التي جسّدتها هذه المرأة بزينتها، يستشعر إرهاصات نظرية صغيرة حول إيروتيكا ما هو ليس جميلاً تماماً، لكنه أجل الخوض فيها موقتاً.

لفترة طويلة كان ثمة اتزان بين الحزن والجاذبية، الألم في جوف البطن والهياج أسفله، عضو الحزب والمعارضة، هكذا فكر كورت،

لكن عندما عبرَ المتحدث العشرينيات بجملة طويلة طنانة (لم تفد بشيء سوى أن فيلهلم كان القائد الثاني للواء رابطة مقاتلي الجبهة الحمراء في برلين) ووصل إلى العام ٣٣ مع إغفال تام للهزيمة الكبيرة، صارت للمعارضة في بنطال كورت تدريجاً اليد العليا، وفي أثناء ما تسمّر الحضور، وفيما أمال الثديان رأسيهما في تأمل ونام تيل (أو كان يتدرب على هيئة موته)، وفيما كان هاري تسينك يحاول التثاؤب بفم مغلق، واتخذ ميليش سمت من يسمع الكلام لأول مرة، كان كورت قد وصل منذ فترة إلى القبو: المقاومة المناهضة للفاشية، هكذا قال المتحدث، فيما كان كورت منخرطاً في نشاط محموم، كان لمائدة الاجتماعات الطويلة دور معين فيه، كانت الصور مهزوزة، وحدها زركشة الكولون كانت واضحة جداً، بمعنى أدق لم يعرف بالضبط ما اسم هذا الجزء من الجسم، اللاشرعية، قال المتحدث. وعندما عاد كورت إلى الجمع المتسمّر كانت المعارضة في بنطاله قد قويت بصورة بطولية، كما قال المتحدث، لدرجة أنه بدأ يشعر بالضيق والانحشار في ثنيات لباسه الداخلي.

أنهى المتحدث كلمته بإطراءات أخرى للمناضل بلا كلال من أجل القضية. حاول كورت بلا جدوى أن يسوي بنطاله ويشده إلى أسفل المائدة، إذ لم يبدأ التقلص إلا بعد أن ارتفع التصفيق، في اللحظة التي بُعث فيها الحضور المتسمّر للحياة ثانية وبدأ بحماسة مفتعلة التصفيق لكلمة النائب. على الأغلب لم يعرف أحد ممن صفقوا علام كانوا يصفقون، هكذا فكر كورت فيما كان يصفق معهم مضطراً. لم يكن ثمة شيء في الكلمة يطابق الحقيقة، فكر كورت فيما كان يواصل التصفيق. لم يكن فيلهلم عضواً في الحزب «من اللحظة الأولى» (بل - كان في الأصل عضواً في الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل -



twitter @baghdad_library

ودخل إلى الحزب الشيوعي الألماني مع اندماج الحزبين)، ولم يكن صحيحاً أنه قد جُرح في انقلاب كاب (صحيح أنه أُصيب فعلاً ولكن ليس في انقلاب كاب عام ١٩٢٠، بل فيما يسمّى عملية آذار/مارس ١٩٢١، التي انتهت بفشل كارثي لم يكن مناسباً بالطبع لكي يذكر في سيرة حياة مناضل). لكن الأسوأ من أنصاف الحقائق الصغيرة هذه، كان إغفال أجزاء كبيرة من هذا التاريخ، الأسوأ كان هذا السكوت الغريب على جرائم فيلهلم في العشرينيات: آنذاك - وهذا ما يتذكره كورت جيداً - كان فيلهلم مدافعاً حازماً عن «سياسة جبهة الوحدة» التي أقرها الاتحاد السوفياتي، وشجبها قادة الاشتراكيين الديمقراطيين باعتبارها جبهة «للاشتراكيين الفاشيين» بل صوروها على أنها شر أعظم بالمقارنة بالنازيين. وفي الحقيقة، فكر كورت، وكان لا يزال يصفق، أن فيلهلم كان شخصياً - وهذا بنظرة موضوعية تماماً - من المسؤولين عن تناحر القوى اليسارية في العشرينيات وانتصار الفاشية في ألمانيا في النهاية. حتى في العام ١٩٣٢ ، تذكر كورت، وهو يواصل التصفيق (حيث كان يُعلق لفيلهلم في هذه الأثناء وسام الاستحقاق الوطني من الذهب) أنه حتى في العام ١٩٣٢ شارك فيلهلم بوصفه القائد الثاني للواء مقاتلي الجبهة الحمراء في برلين في تنظيم فاعلية مشتركة مع النازيين والشيوعيين. وبعد «الاستيلاء على السلطة» الذي لم يُذكر في سيرته الذاتية أيضاً، ظل فيلهلم ممثلاً لطرح الاشتراكية الفاشية ولم يتم تعديل هذا الطرح إلا بعد ١٩٣٥، كي يأتي بعد سنوات قليلة اتفاق بين الاتحاد السوفياتي وألمانيا الهتلرية يتفوق على هذا الطرح في الغباوة والتقزز: كلها أكاذيب، فكر كورت، وهو لا يزال يصفق. كانت العشرينيات كلها كذبة وحيدة - وكذلك الثلاثينيات. كذلك لم تكن «المقاومة المناهضة للفاشية» في الأساس سوى كذبة، لأن السبب في

عدم حديث فيلهلم عن تلك الفترة لم ينحصر فقط في أنه كان دعياً بائساً يحيط نفسه بالسرية والغموض، بل لأن تاريخ المقاومة المناهضة للفاشية لم يكن سوى تاريخ للفشل الذريع (لم يكن من الممكن أن يكون غير ذلك على خلفية سياسة الاتحاد السوفياتي) والصراعات بين الإخوة والتقديرات الخاطئة والخيانة - وتحديداً فشل وخيانة» القائد الكبير» التي تحمل مسؤوليتها هؤلاء الذين عملوا في ظل اللاشرعية. عندما توقف كورت أخيراً عن التصفيق وذلك قبل أن ينتهي الآخرون بقليل، لم يتبق شيء من معارضته سوى إحساس غريب... في البنطال.

في اللحظة الأولى بعدما افتتح البوفيه، تردد في الوقوف، لأنه كان يخشى أن تكون ثمة بقعة قد تشكلت على البنطال (ما تبين بالفحص الدقيق أنه محض هراء)، لكن ميليتا بقيت أيضاً جالسة وخمن كورت أنها بقيت جالسة لكي تسأله عن ساشا، لذا ظل في مكانه. لكنها لم تسأله. وقبل أن يقرر كورت شيئاً ما، عاد بونكه بطبق ملآن، وبعدها جاء هاري تسينك وأنيتا وعلى الفور بدأ النقاش حول غورباتشوف:

- علينا أن نقول الحقيقة لشعبنا، طالب بونكه.

عندها تدخل كورت، ربما لأنه انزعج من أن ميليتا قد أومأت بالموافقة على كلام بونكه.

- ومن يحدد ما هي الحقيقة؟

نظر بونكه إليه مندهشاً.

- من يحددها؟ سأل كورت، هل نحددها نحن؟ هل يحددها غورباشتوف؟ أم من؟

- بالضبط، قال تسينك، الحقيقة دائماً منحازة.



twitter @baghdad_library

- لا، قال كورت وانزعج كثيراً من إساءة فهمه. الحقيقة، هكذا قال، أو أراد أن يقول - الجملة التي كان بصدد صوغها، كانت ستغدو تقريباً على النحو الآتي: الحقيقة ليست شيئاً يملكه الحزب ويوزعه كالصدقة على الشعب (وكانت على الأرجح ستتبعها بعض التأملات الأساسية حول ما يسمّى الديمقراطية المركزية وهياكل السلطة الاشتراكية الفعلية ودور الحزب في النظام السوفياتي)، لكن لم يكن ثمة مجال لذلك لأن الاهتمام لم يعد مركزاً عليه منذ فترة وتحول إلى الركن الذي جلس فيه فيلهلم الذي قام بشيء لا يُصدق - كان يغني.

في البداية بدا ذلك لكورت كالهمهمة. احتاج إلى لحظة كي يدرك أن ذلك غناء، وعندما حرك الثديان رأسيهما مع الإيقاع وضبط ميليش وهو غير واثق بكلمات الأغنية نفسه على اللحن (أو ربما كان غير واثق إن كان يجوز له غناء مقطع ستالين أم لا)، أدرك فيلهلم ما كان يغنيه فيلهلم: لا يمكن أن تكون الغباوة إلى هذه الدرجة. لا ليست غباوة، فكر كورت، بل إجراماً. مبدئياً كانت تلك هي الصيغة المختصرة لكل هذا البؤس، قال كورت لنفسه، مبدئياً كان ذلك تبريراً لكل الظلم الذي ارتكب باسم «القضية» واحتقار الملايين من الأبرياء الذين أُسّست تلك الاشتراكية فوق عظامهم: إنه نشيد الحزب الشهير الذي لم يستح شاعر تافه من تأليفه (هل كان من تأليف بيشر أم فورنبيرغ؟): الحزب، الحزب، الحزب دائماً على حق...

ماذا أفعل هنا؟ فكر كورت فيما كان ينظر بيدين مشلولتين إلى الجمع الحاضر الذي انخرط مجدداً في تصفيق حاد، وإلى ابتسامة يكاد يغمرها الحبور ارتسمت على وجه أنيتا وإلى ميليش الذي - أم أن بصره قد خانه؟ - قد مسح دمعة طفرت من عينه، وإلى تسينك الذي

كان يومئ برضا، وكأنه قد ثُبت رسمياً في منصبه. صفق بونكه أيضاً معهم وضحك كما لو كان قد سمع مزحة جيدة. والثديان تبادلا النظر واستمرا في هزّ رأسيهما مع الإيقاع.

الوحيدة التي لم تصفق كانت ميليتا، أو أنها ضمّت شكلياً كفيها معاً، ورمقت كورت بنظرة معبرة ردها برفع حاجبيه. وتقريباً كان يأمل أن تسأله الآن عن ساشا، لكن قبل أن يتمكنا من مواصلة حديثهما، بدأ ضجيج جديد، هذه المرة من الناحية اليسرى، ولأنه كان غريباً جداً، احتاج كورت إلى بعض اللحظات ليدرك أيضاً أنه غناء: ناديجدا إيفانوفنا! إنها أغنية العنزة التي كانت تغنيها لساشا دائماً عندما كان صغيراً، أغنية رتيبة فيها مقاطع كثيرة جداً. لكن تبين أن هذا الإحساس بشيء من الخجل الذي كاد يعتري كورت، غير مبرر، لأن الجميع أظهر تحمسه لهذه البابوشكا الروسية وتنافسوا لإثبات صلتهم الوطيدة بالشعب الاشتراكي الشقيق. وبعد المقطع الثاني بدأ الناس بغباوتهم يغنون معها، وقد سادت تواً أجواء مؤتمرات مندوبي اتحاد الشباب الألماني الحر (برغم أن كورت لم يحضر قط أي مؤتمر لمندوبي اتحاد الشباب الألماني الحر) ولأن لازمة الأغنية تبدأ في كل سطر بكلمة فوت كاك، فوت كاك أي اسمعوا فحسب، اسمعوا فحسب! - ظن الناس أنها أغنية سكر روسية وهتفوا جماعة زاعقين: فودكا، فودكا! بل بدأوا مع فودكا فودكا التصفيق مع الإيقاع وفي نهاية المطاف حاولت جارة على الناحية اليمنى من المائدة (من قدامى فرع الحزب في نويندورف) أن تتأبط ذراعه بلطف - وهو ما جعل كورت يتصلب تماماً. جلس مثل حجر وسط ضيوف عيد الميلاد، فيما أخذ الجميع فجأة يتمايلون. وأخذت رؤوسهم، وكأنها مفصولة عن أجسامهم، تتهادى ارتفاعاً وانخفاضاً: رأس أنيتا المصبوغ بالأشقر، وجمجمة



twitter @baghdad_library

ميليش ذات الشعر الأسود، وبالون بونكه الأحمر المزرق الذي كان على وشك الانفجار كل لحظة.

- أظن، قال كورت بعد أن جاءت الذئاب وبعد أن افترست العنزة أخيراً وبعد أن سحقت العظام ولم تترك من العنزة شيئاً سوى قرنيها وحوافرها وعينيها - أظن، قال كورت لميليتا، أن علي أن أخبرك بأن ساشا في الغرب.

- هاه، غمغمت ميليتا.

- أي نعم، قال كورت.

بشكل ما توقع رد فعل أقوى، لكن ميليتا صمتت وفجأة لم يعرف كورت ما الذي يجب عليه فعله. في لحظة تراءى له أن ميليتا لم تفهم ما قاله لها. قال لها من دون أن يحول نظره عن فنجان قهوتها الذي كان من فناجين القهوة النازية، وقد تركت على حافته آثار أحمر الشفاه:

- لا أدري كيف سيكون الوضع بالنسبة إلى النفقات، لكن مادام ساشا غير قادر على الدفع سأتولى أنا ذلك بالطبع.

ثم سقط شيء مصدراً ضجة في الغرفة المجاورة، ورأى كورت الناس ينهضون ويندفعون إلى هناك - كان ماركوس هو الوحيد الذي سار عكس التيار من الناحية الأخرى وتساءل عم حدث.

- سنمشي، قالت ميليتا.

- لماذا؟ قال ماركوس متذمراً.

- سأوضح لك ذلك لاحقاً، قالت ميليا.

أخذ ماركوس عابساً إغوانة فيلهلم المحنطة من الرف.

- لقد أهداها فيلهلم إليّ. أوضح لكورت.

- هذا لطيف من فيلهلم، قال كورت وصافح بحرارة بالغة يد ماركوس التي امتدت له.

ثم أراد أن يمد يده لميليتا لكنها عانقته. ولفرط مفاجأته لم يجد رأسه الطريق الصحيح واصطدم ذقنه بجبين ميليتا. وأحس بجذعها في يديه اللتين لم تجرؤا على ضمها بشكل حقيقي، وكأنه قطعة خشب.

صب كورت مرةً أخرى من البراندي وذهب إلى الغرفة الأخرى. لاحظ بشكل عارض أن البوفيه قد انهار. بقي بعيداً وشاهد الهرج والمرج حول البوفيه المنهار.

وأحس على شفته السفلى بأثر جبين ميليتا.

رائحة البراندي كانت بشعة.

دلقه في جوفه ووضع الكوب على أقرب رف. ثم تحركت قدماه ونقلتاه إلى خارج الغرفة، وعبرتا الردهة وخرجتا به، مروراً بالمدخل الصغير، إلى الهواء الطلق.

سار متعجلاً قليلاً وكأن أحداً قد يناديه ليعود. وعندما شعر أنه سار بعيداً بالقدر الكافي، شعر بفرح داعر، وحث نفسه على أن يهدأ، احتفظ بفرحه وأخذ ينفس عنه على دفعات صغيرة.

ولم يخطر بباله أنه نسي ناديجدا إيفانوفنا إلا بعد أن قطع ثلاثمئة متر. تباطأت خطوته، بل فكر في أنه من الضروري أن يعود - لكن لماذا في الحقيقة؟ فناديجدا إيفانوفنا يمكنها العودة إلى البيت من دونه... استأنف كورت السير وأكمل طريقه. سار بطول شارع فوكسباو. ذهب



twitter @baghdad_library

إلى الرقم سبعة حيث ترقد إيرينا على الأغلب سكرانة على الكنبة... تجاوز الرقم سبعة.

مشى حتى آخر الشارع، ثم انحنى ليدخل إلى طريق البحيرة وسار فيه، كلما ابتعدت بيوته عن البحيرة صارت أكثر اعتيادية. أخرجه شارع هاينر من حي الفيلات إلى حي النسّاجين القديم، أقدم منطقة في نويندورف. هنا كانت البيوت واطئة جداً، لدرجة أن المرء كان في إمكانه أن يلمس ميازيب المطر على السطوح بيده. اتبع كورت تعرجات الشوارع القصيرة المبلطة بالحجارة الأسفلتية التي كانت تخرج من نوافذها المفتوحة روائح المطبخ والكحول وتحمل أسماء الشعراء كلوبشتوك وأولاند وليسينغ. أما شارع غوته الذي كان يؤدي إلى شارع ليبكنيشت مروراً بالمقابر، - فكان أطول، وبدوره كان شارع ليبكنيشت أطول من شارع غوته. ومن أمام مجلس بلدية نويندورف كان في إمكان كورت أن يركب الترام - سمع صريره الوحشي وهو يأخذ المنحنى الأيمن، لكن أكمل سيره. ووصل إلى شارع إنغلز الأطول كثيراً والذي يربط نويندورف بالمدينة، وعبر بمجرد أن تجاوزه الترام مصلصلاً ومقعقعاً الممر الضيق الذي كانت تقع فيه باستمرار حوادث مرورية وعند مخرجه كانت توجد فوق مبنى «ورشة تصليح قطارات الرايخ» المحصنة بسور من السلك الشائك منذ سنوات (منذ عقود) لافتة حمراء باهتة بالية كُتب عليها الاشتراكية تنتصر!

كان لأوراق الشجر حفيف تحت قدميه عندما مر من أمام «ورشة تصليح قطارات الرايخ». عبر ما يسمّى جسر لانغه، ثم قطع الطريق والقضبان وانعطف عند إنترهوتيل ووصل عبر شارع فيلهلم كولتز إلى جادة لينين، أطول شوارع بوتسدام وإن لم يكن أجملها. سار فيها كيلومترين أو ثلاثة باتجاه الخروج من المدينة، فيما كان الطريق يبدو

أكثر ظلمة، ثم انعطف يميناً، حيثما لم يشتعل أي عمود إنارة تقريباً.

شارع غارتن. ثاني بيت على اليسار. دق كورت الجرس مرتين، حتى فُتحت نافذة في الطبقة الثانية.

- إنه أنا، قال كورت.

ثم اشتعل الضوء في مدخل البيت، وسمع وقع خطى على السّلم. ضج المفتاح في القفل العتيق.

- مرحى، إنها لمفاجأة. قالت فيرا.

بعد ساعة رقد كورت على ظهره في سرير فيرا، في الوضع نفسه الذي ضاجعته فيه فيرا «شفهياً» كما كان يقول، وانتبه لوجود رائحة شحم الخنزير المقلي المنتشرة في المنزل كالشبح الهائم. شعر بالارتياح وبشيء من الإحباط، دون أن يكون متيقناً إن كان السبب هو الإفاقة التقليدية اللاحقة على الجماع، أم أن عليه أن يعترف بأن الأمر لم يكن تماماً كما كان يتوقع: بدت له غرفة فيرا (لقد رأى الغرفة آخر مرة منذ ثلاث سنوات) أكثر تكدساً ورائحتها أكثر عفناً عما كان في ذاكرته من قبل. كان الضوء على «الكومود» المجاور للسرير متوهجاً وكشف الشرايين الزرقاء الصغيرة - حتى الآن لم يجد كلمة أخرى لهما - لأشيائها على نحو غير ملائم. لكن ما أزعجه على الخصوص تجاعيد جبينها من جراء المجهود، حين كانت تضاجعه شفهياً. فجأة انزعج من فكرة أنه يضاجع امرأة عجوزاً، ولم يتمكن من التغلب على انزعاجه إلا عندما أمسك برأسها وأجبرها - بقليل من العنف - على التزام الإيقاع والعمق الذي يريده.

وعندما رقدت بوجهها الدافئ على بطنه وأحس بأنفاسها في عانته، كان محرجاً قليلاً بسبب تلك الموجة الطارئة من العنف. داعب ظهر



twitter @baghdad_library

فيرا طويلاً وتأمل استعدادها الغامض والدائم منذ سنوات لأن تكون ملك يديه. علاقات البطاطا المحمرة[1] - خطرت له هذه الكلمة - لماذا يسمّون مثل هذه العلاقات علاقات البطاطا المحمرة؟ اكتشف كورت وهو في حالة اندهاش أنه لا يستطيع الإجابة عن هذا السؤال. وربما تكون الرغبة في إكساب هذا التعبير الغريب معنى - بغض النظر عن الجوع - هي التي هدته إلى طرح السؤال الآتي:

- هل يمكنك أن تعدي لي البطاطا المحمرة؟

- طبعاً، قالتها فيرا ونهضت إلى المطبخ.

والآن صار للمكان رائحة البطاطا المحمرة: رائحة الطفولة. أغلق كورت عينيه وقذفت به الرائحة في أجزاء من الثانية إلى غرفة نوم أبويه، حيث كان (برغم أن ذلك لم يكن مسموحاً) يختبئ تحت الغطاء. واعتقد تقريباً أنه سمع صوت أمه تنادي:

- كورت، هل ستأتي؟

فتح عينيه واندهش برهة من الظروف الغريبة التي وجد نفسه فيها بعد نحو سبعين عاماً في الحياة. جلس على طرف السرير. ارتدى لباسه الداخلي، ولبس جوربه الأسود الذي لم يعد نظيفاً تماماً في القدم اليسرى. وأدرك فجأة وبالضبط في اللحظة التي كان يبحث فيها وهو

---

(١) في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ونظراً إلى قلة المساكن، سكن الكثير من الشبان كمستأجرين من الباطن لدى نساء أرامل أو عازبات وعادة كانت النساء تزودهن الطعام أيضاً وكانت أحياناً تنشأ بينهم علاقات جنسية، ونظراً إلى أن الشبان كانوا في العادة أصغر سناً فلم تكن لديهم رغبة في الزواج، كما أن بعض النساء لم يكن قادرات على الزواج من جديد لأن أزواجهن كانوا لا يزالون مفقودين ولم تثبت وفاتهم. ولهذا كان يطلق على هذه العلاقات في الأوساط المحافظة علاقات البطاطا المحمرة. (المترجم)

شارد عن الجورب الأيمن، أن الوقت قد حان.

لم يعد ثمة شيء يقلقه. لم يعد ثمة وقت لإضاعته في الأشياء الثانوية: مراجعات الكتب للمجلة التاريخية أو لـ «نويس دويتشلاند» في المناسبات التاريخية... وحتى العمل على الكتاب المشترك الذي كان من المفترض أن يضم مساهمات من الشرق والغرب، والذي يرتبط به مؤتمر جذّاب جداً في ساربروكن - من الأفضل لو اعتذر عنه وجلس بداية من الغد في كتابة ذكرياته، وتحديداً (عرف ذلك أيضاً في الحال) البدء بذاك اليوم في آب/أغسطس عام ١٩٣٦ عندما وقف إلى جانب فيرنر على سطح العبّارة وشاهد فنار فارنموندِه وهو يشحب تدريجاً في ضباب الصباح الباكر.

- هل ستأتي؟ نادت فيرا.

- أجل، قال كورت.

سرت به رعدة في الهواء الرطب... وأحس بمكان اللاصق الطبي الذي كان قد ألصق به آنذاك تأشيرة الدخول السوفياتية المطوية في حجم دقيق وصغير جداً على باطن فخذه اليمنى.



twitter @baghdad_library

# ١٩٩١

لو كان على إيرينا أن تقول من أين أتت بحبات المشمش اللازمة لحشو إوزة الدير، لاكتفت بجملة واحدة: جئت بها من السوبرماركت.

العنب أيضاً من السوبرماركت والتين والإجاص والسفرجل كلها من السوبرماركت. في ظل هذا الوضع، فكرت إيرينا، لم يكن في الحقيقة ثمة فن في إعداد إوزة الدير. بل حتى ثمار الكستناء كان يمكن شراؤها محمصة وجاهزة للأكل من السوبرماركت - وقد اشترتها هذه المرة، لماذا تكلف نفسها عناء عمل غير ضروري؟ لكن هذه التفصيلة الصغيرة أربكتها، فعادة ما يكون أول شيء تفعله هو أن تشعل الفرن وفي أثناء إحمائه كانت تشق قشرة الكستناء على شكل حرف X... اكتشفت خطأها وأطفأت الفرن وبدأت بإعداد حشوة الفاكهة.

كان الوقت بعد الثانية عصراً بقليل. على حافة النافذة الخارجية المطلية بالزنك تكت قطرات ماء الجليد الذائب كعقارب الساعة. ومن راديو المطبخ انطلقت أخبار إذاعة ألمانيا. وكان الحديث يدور عن الحل المرتقب للاتحاد السوفياتي.

قشرت إيرينا السفرجل، وقطعته مكعبات بحجم سنتيمتر واحد. كان السفرجل قاسياً، وآلمتها أصابعها. في ظل هذا الطقس تؤلمها

المفاصل على الخصوص والظهر واليدان وغيرها وغيرها، هكذا فكرت إيرينا، فيما كان الحديث يدور في الراديو مرةً أخرى عن منطقة ناغورنو - كاراباخ الآذرية، حيث قتل الأرمن (الذين كانت تعتبرهم إيرينا بسبب الكونياك الممتاز الذي ينتجونه شعباً ذا ثقافة كبيرة) هذه الليلة عشرين مدنياً. ومن يدري، هكذا فكرت، أي أضرار نالتها أيضاً من مادة حفظ الخشب التي استنشقتها، أو غبار الصوف الصخري الذي قيل عنه فجأة إنه يسبب السرطان... وكل ذلك من دون جدوى.

بسطت إيرينا أصابعها وتذكرت ما عقدت عليه العزم اليوم وهو ألا تفكر في كل شيء، وهو أمر لم يكن بالسهل تحقيقه، خصوصاً عندما يذهب المرء في الصباح بشعور غير مريح إلى صندوق البريد ليرى إن كان فيه رسالة من المحكمة أم لا... شيء غبي، بالطبع! كان من الغباوة أنهم لم يشتروا البيت. من جانب آخر من يدري، إن كانت إدارة المساكن المحلية ستقبل بيع البيت أم لا؟ هل كان ينبغي لها أن تسأل؟ لم يسأل أحد. كل البيوت في المنطقة المحيطة كانت تابعة لإدارة المساكن المحلية ولم يخطر ببال أحد (سوى هاري تسينك الغريب الأطوار) أن يشتري البيت الذي يسكنه: لماذا إذن، مادام المرء يدفع مئة وعشرين ماركاً للإيجار؟

وهكذا وجدت نفسها منخرطة في تلك اللعبة، لعبة «لو» وما تجره معها من أفكار. كأس من الكونياك ستشعرها بأنها أفضل حالاً، هكذا فكرت إيرينا، فيما كان «البوندستاغ» يقر قانوناً لدعم الأمهات في الولايات الجديدة. وكانوا يعنون بذلك ولايات شرق ألمانيا، تعبير غريب ظهر أخيراً، وكأن المرء اكتشف هذه الولايات «الجديدة» كما اكتشف كولومبوس أميركا... أجل، كأس من الكونياك ستكون جيدة لكي ينصرف الذهن بعض الشيء عن الانشغال بالأفكار ذاتها... لكنها



twitter @baghdad_library

نوت اليوم ألا تشرب، ليس بسبب شارلوته التي ستحضرها بالسيارة من دار الرعاية فقط. فالأولاد سيأتون أيضاً ساشا مع هذه الكاترين. وعليها أن تكون بوعيها حتى لا تقع فضيحة مرةً أخرى.

على سبيل التعويض أشعلت سيجارة. ومن الراديو رنت الإشارة الصوتية المعهودة قبل أخبار حركة المرور، وحبست إيرينا أنفاسها وأنصتت... عادة غبية. في الماضي كانت تتجاهل أخبار المرور مثل أي شخص طبيعي. لكن منذ أن سكن ساشا في منطقة مورس هذه - وهو اسم يشبه في أذن إيرينا كلمة ميورس بالروسية التي تعني تجمد - في هذه البلدة بدأت تستمع إلى أخبار المرور لأنها فوجئت بأن اسم هذا المكان يتردد في أخبار المرور: طريق A 57 نيمينغن باتجاه كولونيا: ازدحام مروري على مدى خمسة كيلومترات بين كامب - لينتفورت ومورس - مثل هذه الأخبار كانت تعطيها الإحساس بأن ساشا موجود. واليوم أيضاً ولأن ساشا في الطريق إلى نيوندورف، حاولت تبعاً لأسماء الأماكن أن تخمن كم سيتأخر وكانت تتوجه إلى السماء بصلوات قصيرة عندما تسمع عن وقوع حادث في أي مكان.

في الحقيقة، لقد كان لديها أمل أن يساهم سقوط جدار برلين في جعل ساشا يسكن مرة أخرى بالقرب منها. كانت تلك أول فكرة خطرت ببالها عندما رأت الناس في التلفزيون يتعانقون ويبكون، وقد بكت معهم وأفاضت في البكاء وانزعجت من كورت الذي جلس طوال الوقت صامتاً يشاهد التلفزيون ويحشو غليوناً وراء الآخر. لقد بكت وقاومت تلك الفكرة الخرقاء بأن كل ما يحدث، كان يحدث من أجلها.

لكن بدلاً من العودة، انتقل ساشا إلى مكان أبعد. بدلاً من العودة

إلى برلين، حيث كانت تحدث أشياء كثيرة، وبدلاً من أن يشارك في هذه الأحداث ويستغل الفرصة، انتقل إلى مورس... ترى ما الذي كان من الممكن له أن يحققه لو أتى إلى برلين، فكرت إيرينا. إنها تتألم لأنها ترى أخيراً شخصيات بائسة في التلفزيون، فيما يقبع ساشا في مورس على الحدود الهولندية. مكان لم يكن حتى كورت يعرفه... ولماذا؟ لأن كاترين حصلت على عمل هناك: في مسرح في مورس! غالباً لم تكن تصلح لشيء أكبر من هذا، فكرت إيرينا.

لكن بعد الفضيحة التي وقعت في أثناء زيارتهما في الصيف الماضي، قررت ألا تتحدث في هذا الموضوع هذه المرة. الوقت الذي سيقضيه ساشا في نيوندورف سيكون ثميناً جداً، بحيث يجب عدم إضاعته في الشجار. في العام الماضي اعتذر الاثنان قبل أعياد الميلاد بأيام قليلة - فكرة غريبة - أن يطيرا في خلال أيام الأعياد إلى جزر الكناري، وقضت إيرينا العيد وحيدة مع كورت وشارلوته. لكنها عزمت هذا العام على إقامة احتفال حقيقي بالعيد: من يدري ربما تكون المرة الأخيرة في هذا البيت، لكنها نوت أيضاً ألا تتحدث عن هذا الموضوع في هذه الليلة.

ستعد إوزة الدير كما هو معتاد. ومع القهوة ثمة كعكة عيد الميلاد التي خبزتها بنفسها. وعندما يأكلون إوزة العيد والكعكة، فكرت إيرينا وهي تقطع التين والمشمش شرائح، وعندما يخبو حديث السياسة ويمر توزيع الهدايا بسلام، وعندما تضع الأطباق في مياه الحوض وتعيد شارلوته إلى دار الرعاية، عندئذ سيمكنها أن تسمح لنفسها بكأس من الكونياك - كأس واحدة فقط! والاستمتاع بتلك الساعة التي تعد أجمل أوقات عيد الميلاد: ساعة ما بعد الاحتفال، عندما تجلس مع كورت في ركن الجلوس ويشرع كورت في تدخين غليونه برائحة الفانيليا، وعندما



twitter @baghdad_library

يقوم الرجلان بتشمير أكمامهما والاستعداد لدور شطرنج أو اثنين، بعد أن تندر الجميع بما يكفي على كوارث الليلة الصغرى والكبرى...

بدأت تنبعث من الراديو موسيقى كنسية كئيبة. خفضت إيرينا صوته لكنها لم تغلقه، من باب الاحتياط، حتى ولو كان ذلك بالطبع مجرد اعتقاد خرافي بأن شيئاً ما من الممكن أن يحدث لساشا لو توقفت عن سماع أخبار المرور. سحبت بعض الأنفاس المكثفة من سيجارته التي احترق نصفها في المنفضة، ثم أطفأتها بعناية. ثم أذابت نصف قالب زبد في حلة متوسطة الارتفاع وقلبت الفاكهة المقطعة فيها وأضافت إليها جرعة من الكونياك. هبت عليها دفقة من الرائحة الحلوة، لقد كانت رائحة - الويسكي، اللعنة!

تأملت إيرينا مشدوهة الزجاجة التي اشترتها خصوصاً لليلة عيد الميلاد. أضاعت عشر دقائق أمام رف الكحول في السوبرماركت. حتى الآن لم تتعود العدد الكبير المحير للماركات. النوع الوحيد الذي لم يعد موجوداً أخيراً - وهو شيء غريب - هو الكونياك الأرميني. ولكن في المقابل كانت ثمة أنواع فرنسية ويونانية وإيطالية ونمسوية ومن يدري ماذا أيضاً. وبعد وقت طويل قررت أخيراً أن تشتري كونياك هندياً غالياً، شيئاً مميزاً بمناسبة العيد، هكذا فكرت، لكنها اكتشفت الآن أنها اشترت زجاجة ويسكي!

تذوقت مزيج الويسكي بالفاكهة، طعمه لم يكن سيئاً، لكنه غريب. لم يتبق أمامها سوى أن تصب السائل الذي أصبحت له بفضل أنصاف حبات العنب الطازجة على الخصوص نكهة قوية، بعناية في كوب (لم تكن كميته كبيرة، لكن من يدري ما يمكنها أن تستخدمه مرةً أخرى) ثم تضع الفاكهة على النار مرة أخرى ولكن أي مشروب ستستخدم هذه

المرة؟ الروم قد ينفع. بالنسبة إلى الصوص كان يكفيها العسل ونبيذ البورتو.

نقعت الفاكهة في الروم خمس دقائق. في هذه الأثناء اهتمت بالإوزة: أخرجت أحشاءها ووضعتها في وعاء، وغسلت الإوزة وجففتها بمناديل المطبخ الورقية - اعتاد كورت أن يمزح أخيراً بالقول إن تلك المناديل هي الاختراع الذي استحق أن يسقط الجدار من أجله - أزالت الدهن الزائد عن الإوزة وأخرجت غددها الدهنية وثقبتها من أسفل جناحيها ثم دعكتها بالملح من الخارج والداخل ثم وضعت الحشوة داخلها وخاطتها، وهو عمل أصبح منذ فترة وتحديداً منذ العملية التي أجرتها يستدعي أشياء غير لطيفة... لكنها لم ترغب أن تفكر فيها.

والآن نسيت إحماء الفرن. أشعلت الفرن وبعود الثقاب نفسه أشعلت الموقد لوضع ماء على النار، ولسعت نفسها عندما أرادت أن تشعل سيجارتها بالعود نفسه. ثم تأملت بهدوء الزجاجة التي اشترتها خطأً: كان مكتوباً عليها Single Malt وليس ويسكي أو كان مكتوباً بخط صغير لا يمكن قراءته من دون نظارة. الآن لا بد أقله أن تتذوق طعمه الخالص. لكن في الوقت الذي وضعت الزجاجة على فمها كان كورت واقفاً عند الباب.

- إنني أتذوق فقط، قالت إيرينا.

ولإثبات ذلك رفعت الزجاجة عالياً، لكن لأنها كانت قد استخدمت شيئاً منها للحشو، كانت الزجاجة ناقصة.

- يا سلام، شيء رائع! قال كورت، إذن لا بد أن أذهب أنا لإحضار شارلوته.

- انتظر، سأحشو الإوزة وأذهب أنا، قالت إيرينا.



twitter @baghdad_library

رفع كورت يده معترضاً:

- سآخذ تاكسي.

- لم أشرب شيئاً، قالت إيرينا مرة أخرى.

- لا مجال للنقاش، قال كورت، سأقوم أنا بذلك. لكن من فضلك يا إيروشكا: توقفي عن الشرب. الأولاد سيأتون اليوم...

- أنا لا أشرب!

- حسناً، قال كورت، لا بأس! ثم غادر المطبخ.

ملأت إيرينا الصينية بمقدار إصبعين بالماء الساخن ووضعت فيها الإوزة وأدخلتها بعد أن غطت الصينية الفرن وضبطت منبه المطبخ على ساعة ونصف ساعة. ثم أزالت الأوراق الخارجية للكرنبة الحمراء وأخذت السكين الكبير وقطعت الكرنبة بضربة قوية نصفين. ثم أخذت مزيج الويسكي بالفواكه وشربته. أولاً لم يكن كحولاً حقيقياً وثانياً لقد شعرت بالانزعاج.

أخذت السكين مرةً أخرى وبدأت تقطع الكرنب الأحمر شرائح رفيعة... أجل لقد انزعجت، ليس لأنه اتهمها بالشرب فقط - هذا أيضاً! ولكن بسبب هذه النبرة المهينة الملأى باللوم... وكأنها إهانة له لو أحضر أمه بنفسه. إنها، إيرينا، تشعر أيضاً بالذنب، برغم أنها أمه هو! لماذا كان من البديهي أن تذهب هي إلى دار الرعاية؟ ألمجرد أن كورت لم يكن يستطيع القيادة فقط؟ لو تعلق الأمر بقدرات كورت فسيظهر في النهاية أنه لم يكن قادراً على فعل أي شيء... وهذه كانت الحقيقة أيضاً.

لم يهتم كورت بشيء، فكرت في إيرينا أثناء تقطيعها الكرنب

الأحمر. وكان الأمر كذلك بالتأكيد في الماضي. لكن الوضع ساء في الفترة الأخيرة. لقد تفهمت أن كل الأمور صارت تثير حنقه. إنه يكافح ضد ما يسمّونه «تفكيك» معهده. كان يقوم دائماً بمشاوير. يذهب إلى برلين أكثر من ذي قبل، بل ذهب إلى موسكو مرةً أخرى لأن ثمة أرشيفا قد أصبح متاحاً فجأة. كتب باستمرار رسائل ومقالات واشترى آلة كاتبة جديدة: كهربية! أربعمئة مارك! كورت الذي لا بد للمرء أن يضربه كي يشتري لنفسه زوج أحذية، اشترى آلة كاتبة بأربعمئة مارك غربي- فيما ظلت هي غير مرتاحة لإنفاق النقود الجديدة الثمينة على الزبدة والخبز...

مع ذلك لم يتبين بعد كم سيكون راتب كورت التقاعدي بعد التحول إلى المارك الألماني الغربي. ناهيك بتقاعدها هي. فجأة أصبح لزاماً عليها أن تحضر إثباتات عملها في سلافا: يا لها من بيروقراطية! برغم أنها كانت تعتقد دائماً أن جمهورية ألمانيا الديمقراطية هي البيروقراطية... كما أنها لن تحصل على تقاعدها الإضافي (أقرت جمهورية ألمانيا الديمقراطية راتباً تقاعدياً باعتبارها ممن يوصفون بالملاحقين من النظام النازي، وذلك تعويضاً عن التقاعد الفخري الذي كانت تحصل عليه في الاتحاد السوفياتي بوصفها من قدامى المحاربين): ومن الصعب تصديق أن السلطات الألمانية الغربية ستكافئها لأنها حاربت بصفتها عريفاً في الجيش الأحمر ضد ألمانيا... والآن إذا ما فقدت البيت أيضاً، فقل على الدنيا السلام. وحتى لو بقوا في البيت بعد «إعادة الملكية» (وهو مصطلح من مصطلحات ما بعد الوحدة) إلى أصحابها الأصليين، فهل سيكون في استطاعتهم دفع الإيجار على المدى البعيد. وما كان مثيراً للسخرية هو أنها هي نفسها من قامت بتوسيع الطبقة العلوية وبناء غرفة ناديجدا إيفانوفنا،



twitter @baghdad_library

لتصل بذلك مساحة البيت إلى الضعف تقريباً - وبالقدر نفسه سيرتفع الإيجار.

صبت جرعةً صغيرة أخرى. حتى يحين موعد إعادتها لشارلوته إلى دار الرعاية سيكون الكحول قد تبخر. هذه الكأس فقط! وبعدها، هذا وعد، ستضع الزجاجة في خزانة المؤن. لكنها في حاجة إلى هذه الكأس الآن: مجرد تخيل أن أناساً غرباء سينتقلون إلى هنا، كان يفترس أحشاءها. والأسوأ من فكرة أنهم سيحتفظون من دون حياء بكل شيء، أن يقوم المالك الجديد بهدم كل شيء، لأن أشياء ألمانيا الشرقية ليست جيدة بما يكفي بالنسبة إليه. تخيلت قيشاني مطبخها ملقىً وسط كومة الحطام... أجل، لقد تذكرت بدقة عندما حملت بلاطات القيشاني في مقطورة من أحد الأفنية الخلفية في أثناء هطل المطر بغزارة. تذكرت الوجه الحقير لمسؤول الصيانة الذي قام بتركيب خلاط المياه الباردة والساخنة عبر «تفريعة» من حصة إدارة الحي. تذكرت كل شيء، تذكرت أيضاً ما قاله كورت قبل أسبوعين، فيما كانت تشرب آخر رشفة من الزجاجة:

- فلنبحث إذن عن شقة صغيرة وعملية. هذا البيت كبير على كلينا بكل حال من الأحوال!

استمر سقوط قطرات ماء الجليد الذائب على صفيح حافة النافذة. في الراديو دار الحديث ثانية عن الاتحاد السوفياتي الآخذ في حل نفسه، وبرغم أن إيرينا سمعت الخبر مرات عديدة، فقد ظلت واقفة أمام النافذة وقد أمسكت بالكرنب الأخضر في يدها... نظرت لحظة إلى الحديقة المبتلة التي ظل نصفها مغطى بالثلج، وتراءى لها على حين غرة أنه من غير المحتمل: أن تكون هي نفسها فعلاً، تلك التي كانت

ذات مرة في زمن سحيق، ما قبل الزمن... تزحف على بطنها على الأرض الطينية الباردة، وهي تولول وتلعن بأصابع متقرحة... وكم كان الجرحى ثقيلي الوزن! وكم طال وطال الطريق إلى خطوطهم القتالية... وما كادت تفكر إن كان من المشروع أن تشرب جرعة رمزية صغيرة جداً في صحة الاتحاد السوفياتي، إلا سمعت نفير سيارة في الخارج.

هرعت إلى نافذة الردهة: كانت كاترين بصدد فتح البوابة ونزل ساشا من سيارة كبيرة ذات لون فضي - رمادي بدت أمامها اللادا مثل قطعة متحفية.

رأت إيرينا كاترين آخر مرة في الصيف وتذكرت الآن أنها قد لاحظت المرة الماضية أن تحولاً قد طرأ عليها: من المرأة ذات المظهر المعقد والزينة الرخيصة إلى ما يشبه الشخصية المعروفة. هل يرجع ذلك إلى الملابس الغربية (ارتدت تاييراً تقليدياً أسود) أو إلى سمرة الشمس (غالباً سمرة مصطنعة) - بدت كاترين فجأة مثل النساء في الكتالوغات التي أصبح ساعي البريد يحضرها الآن من دون أن يطلب إليه: وفوق كل ذلك انتعلت حذاء ذا كعب عالٍ جداً بحيث صارت أطول من إيرينا بنحو رأسين تقريباً.

وعلى عكس مظهرها تصرفت بخجل واضح. وتعمدت الالتصاق بساشا وبقيت مختبئة وراءه. حيت إيرينا بابتسامة وصوت خفيض، ونظرت إليها متسائلة من أسفل (برغم طولها تمكنت فعلاً أن ترفع رأسها لتنظر إلى إيرينا من أسفل)، باختصار، بدا سلوكها لإيرينا من اللحظة الأولى زائفاً ومصطنعاً، أجل بل يكاد يكون مهيناً.

لكن ساشا بدا أيضاً في اللحظة الأولى غريباً بعض الشيء. ربما كان ذلك بسبب حلاقته - لقد قصر السالفين، كما هي الموضة الآن،



twitter @baghdad_library

والجينز الواسع على غير العادة (في الماضي كان يعطي أهمية لأن تكون البناطيل ضيقة جداً) والسترة الأنيقة التي لم تجد إيرينا وصفاً صحيحاً لقماشها الخشن، كل هذه الأشياء جعلته يبدو على نحو ما أنضج وأكثر رصانة. لكن عندما عانقته، تعرفت على الفور إلى رائحة جسده ولم ينقصها سوى رؤية الشيب الناصع في شعره، لتترقرق الدموع في عينيها.

- آه يا ماما، قال ساشا. كله تمام!

كان مزاج ساشا، على ما يبدو، رائعاً. أخذت إيرينا تنزع وريقات الكرنب الأخضر وتسمع ما يحكيه لها عن المسكن الجديد - ستأتون لزيارتنا قريباً - وعن السيارة الجديدة والطريق السريع البائس في الشرق الذي اضطروا إلى التوقف فيه ما يقرب من ساعة وعن باريس التي ذهبوا إليها أخيراً والتي كان إعجابهم بها أقل من إعجابهم بلندن، برغم أن الطعام في لندن كان بشعاً، تقريباً مثل الطعام في ألمانيا الشرقية، هكذا أكد ساشا وحكى أنهما حاولا بلا جدوى في لندن أن يحصلا على «فيش أند شيبس» (Fish and Chips)، فيما كانت كاترين تؤكد كلامه وهي تقهقه، وتبدل الوقوف من قدم إلى أخرى وتغير باستمرار من وضع جسمها ما أثار أعصاب إيرينا.

- بم نقرع الأنخاب؟ سأل ساشا.

- ويسكي؟

- لا بأس، قال ساشا، فهناك عموماً مناسبة لذلك! سأقوم بالإخراج في مسرح مورس. وقّعت العقد منذ يومين.

اجتهدت إيرينا في إظهار الفرحة على وجهها.

- إنه شيء رائع يا أمي. قال ساشا. إنها المرة الأولى التي أخرج فيها في مسرح حقيقي.

- إذن في صحتك - قالت إيرينا ثم سكتت برهة.

- يبدو أن شيئاً يحترق هنا، قالت كاترين.

فعلاً: نسيت إيرينا أن تخفض شعلة الفرن... بسرعة أخرجت الصينية من الفرن. كان الماء قد تبخر تماماً وخرج دخان ينذر بالخطر.

- هل أساعدك؟ سألت كاترين.

لكن إيرينا رفضت بعصبية.

- خذوا أشياءكم إلى غرفة ساشا، سأقوم بعمل ذلك.

أغلقت إيرينا باب المطبخ وتفحصت الأضرار - كانت محدودة. أزالت قطعة من الجلد عن ظهر الإوزة وكحتت قعر الصينية وتركتها تبرد قليلاً. في هذه الأثناء خلطت نصف كوب من العسل بثلاثة أرباع الليتر من نبيذ البورتو وصبت ذلك على الإوزة ووضعتها ثانيةً في الفرن.

- كله تمام؟ أطل ساشا برأسه عبر الباب.

- كله تمام! قالت إيرينا.

- حسناً إذن! قال ساشا ورفع كأسه مرةً أخرى.

- هل أنت بخير؟ سألت إيرينا.

وبدلاً من أن يرد سألها:

- كيف حالك أنت يا ماما؟

- بخير، قالت إيرينا وهزّت كتفيها.



twitter @baghdad_library

- ماذا بك؟

- إنك لا تعرف شيئاً عما يجري هنا. قالت إيرينا. إنك لا تعيش هنا.

- آه يا ماما، كفي عن ذلك.

- سيخفضون تقاعدنا، قالت إيرينا بسرعة، كي تتجاوز الحديث عن – مورس - تلك النقطة المؤلمة.

- هراء، قال ساشا. إنها مجرد إشاعات. إنكما بحال جيدة! فلتستمتعا بالحياة! سافرا إلى باريس! فلتأتيا لزيارتنا!

أمسك ساشا كتفيها بقوة ونظر إلى وجهها.

- ليس لكاترين أي شيء ضدك ياماما.

- لم أقل هذا.

- إذن كل شيء على ما يرام، قال ساشا، كله تمام؟ أليس كذلك؟

أومأت إيرينا. ونقرت بإصبعها علبة السجائر لتخرج سيجارتين وقدمت له واحدة.

- وثمة خبر جيد آخر، قال ساشا. لم أعد أدخن.

بعد فترة قصيرة عاد كورت. من دون شارلوته.

- حسناً.

قالها ثم حكى باختصار وعن غير رغبة أن شارلوته ليست في حال جيدة، وأنها لم تتعرف إليه وأنها لم تكن بوعيها الكامل تقريباً، وأفهمه الأطباء أن عليه أن يستعد لأسوأ الأمور.

صمت الجميع لحظة. وقف ساشا على باب الحديقة الشتوية ونظر

إلى الخارج (أم أنه كان ينظر إلى شجرة عيد الميلاد الصغيرة السيئة التزيين - شجرة كورت حيث أشرطة الزينة المتكتلة وقطن الماكياج الأزرق كندف الثلج). أظهرت كاترين وجهاً حزيناً وكأن شارلوته قد ماتت، الأمر الذي أثار انزعاج إيرينا.

لم تكن محقة في انزعاجها وكانت تعرف ذلك. بالطبع لم تملك شارلوته من أمر موتها شيئاً. برغم ذلك انزعجت إيرينا. وانسحبت في صمت إلى المطبخ وبدأت بتقشير البطاطا لصنع الكبة. حاولت أن تبرر انعدام الحس لديها بقائمة طويلة من المضايقات التي سببتها لها شارلوته. لا، إنها لم تنس كحتها لشقوق خزانة المعاطف. ولم تنس أن شارلوته أرادت أن تجعل كورت يرتبط بتلك السيدة المسمّاة غرترود... كانت أسوأ فترة في حياتها، فكرت إيرينا فيما كانت تضع البطاطا على النار وتصب لنفسها كأساً من الويسكي - أقله لم يعد من اللازم أن تقود السيارة اليوم! كانت فترة أسوأ من الحرب، أسوأ من أول قصف مدفعي ألماني أو من أي مما كان.

شربت الويسكي - إنه يسكرها جيداً! - ثم دخنت سيجارةً أخرى. فجأة ضحكت على مقبض صفيحة القمامة الذي أهدته إليها شارلوته في العيد العام الماضي، أهدت إليها مقبض صفيحة قمامة قديماً وصدئاً، شيء لا يصدق!... لم يكن ممكناً للمرء أن يستاء منها، فقد شاخت وجُنت والآن ستموت وحيدة في دار الرعاية. ستذهب غداً لزيارتها، هكذا فكرت إيرينا. برغم كل شيء.

وضعت السيجارة على حافة المنفضة، وشرعت في تقطيع البطاطا النيئة- الكبة التورينغية نصفها بطاطا نيئة ونصفها الآخر بطاطا مسلوقة. بدقة أكثر، النيء أكثر قليلاً من المسلوق، ولكن كيف؟ لا بد أن يكون كتاب الطبخ في مكان ما هنا. بحثت إيرينا عن كتاب الطبخ، لكنها



twitter @baghdad_library

اكتشفت بعد فترة أنها لا تبحث عن كتاب الطبخ، بل الأحرى كانت أفكارها تدور حول شارلوته... إذ كان عليها أن تقر بأنه في العامين الأخيرين وتحديداً منذ وفاة فيلهلم المفاجئة، إذ مات في يوم عيد ميلاده، وبرغم أنه بلغ التسعين، فلم يتوقع أحد له هذه النهاية. ومنذ وفاة فيلهلم المفاجئة تغيرت شارلوته على نحو غريب. والغريب، لم يكن جنونها التام المفاجئ - كان لديها دائماً مس من الجنون - بل إنها أصبحت ألطف وأكثر اعتدالاً في التعامل. فجأة بدا وكأن الطاقة الشريرة التي كانت تحركها دائماً في الماضي قد تبخرت. فجأة بدأت تخاطب إيرينا، بابنتي العزيزة. وكتبت لكورت رسائل مشوشة، لكنها أقرب إلى أن تكون رقيقة وكانت تتصل في منتصف الليل، كي تشكرهما على شيء تافه... إلى أن وقفت ذات ليلة أمام بابهما مرتدية سروالاً داخلياً طويلاً وفي يدها حقيبة سفر مكسيكية وسألتهما إن كان من الممكن أن تسكن في الحجرة التي أصبحت خالية بعد رحيل ناديجدا إيفانوفنا. وحينئذٍ كان كورت هو من رفض ذلك رفضاً قاطعاً. لا بالطبع لم ترغب إيرينا في وجودها بالمنزل، لكن الزج بها في دار الرعاية بدا لها شيئاً وحشياً. وبرغم أن شارلوته قبلت إيداعها هناك من دون مقاومة، فإن إيرينا كانت تقاوم دموعها في كل مرة تلتقيها وسط جميع هؤلاء الناس الذين يهيمون في الممرات وقد انطفأت بهجة عيونهم...

ورد في كتاب الطبخ: تقشير نحو ثلثي كمّية البطاطا وغسلهما وتقطيعهما شرائح رفيعة... حاولت إيرينا أن تنتهي من حساب الكمية... هل كان ذلك الآن أكثر أم أقل... يا إلهي، عليها أن تتوقف عن الشرب. كأس واحدة فقط! ما زالت تحتاج إلى هذه الكأس لتخفيف المرارة، التي ضاق بها صدرها. فمهما كانت شارلوته وما

فعلته، فقد كان من غير المتخيل قضاء حفلة العيد من دونها. من دون شارلوته ومعطفها المصنوع من فراء الراكون وصوتها الحاد كالصفير، ومجاملتها المتكلفة ومفاخراتها ومن دون كيس «ديدرون» الذي كانت توزع منه بحركة استعراضية هدايا مثيرة للخجل. وبرغم أن مقبض صفيحة القمامة كان أكثر الهدايا التي تلقتها إيرينا منها، فإنه كان الهدية الأولى والوحيدة التي قدّمتها لها شارلوته بفرحة غامرة، وشعرت إيرينا أنها جاءت من القلب...

كأس، فكرت إيرينا، من أجل شارلوته التي تحتضر.

تناهى إليها من الحجرة صوت الرجلين اللذين تدور نقاشاتهما المعتادة عن البطالة والاشتراكية... ما يحدث هنا هو بيع جمهورية ألمانيا الديمقراطية، قال كورت. كانت إيرينا تعرف ذلك مسبقاً، لم يكن ثمة شيء آخر يجري النقاش حوله عندما يزورهما أحد - على كل حال نادراً ما يزورهما أحد. فجأة صار الجميع منشغلين، برغم أنهم في الحقيقة عاطلون عن العمل. شيء غريب أيضاً، هكذا فكرت إيرينا. وسمعت ساشا يقول: كانت جمهورية ألمانيا الديمقراطية مفلسة، لقد باعت نفسها بنفسها. ثم تبع ذلك الحديث عن الحسابات التي لم تفهمها قط... لو تمت معادلة الرواتب في الشرق بنسبة واحد لواحد[١]، قال كورت فيما كانت إيرينا تفكر في الثلثين، لأفلست المصانع بين عشية وضحاها. لكن ساشا قال لو لم يدفعوا بنسبة واحد لواحد، سيذهب الناس إلى الغرب... واحد لواحد أم واحد لثلثين، فكرت إيرينا... أنا لا أفهم هذا إطلاقاً. قال ساشا، لقد كنت تقول بنفسك

(١) المقصود معادلة المارك الألماني الشرقي بالمارك الغربي الذي كان بالطبع أعلى قيمة. (المترجم)



twitter @baghdad_library

دائماً إن الاشتراكية انتهت، هل كان ذلك مجرد كلام... فجأة بدا لها كل شيء بعيداً جداً... أنا لا أتحدث عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية بل عن الاشتراكية، عن اشتراكية ديمقراطية حقيقية! بدت لها أيضاً كبة البطاطا فجأة بعيدة جداً... ليس ثمة اشتراكية ديمقراطية، سمعت ساشا يقول. وبعده صوت كورت: الاشتراكية في جوهرها ديمقراطية لأن الذين ينتجون يملكون أدوات...

أخذت إيرينا شوكة واختبرت إن كانت البطاطا قد نضجت... لا بأس، هكذا فكرت. جدل سخيف. احتفال ربما الأخير بعيد الميلاد في هذا البيت... بإوزة الدير وكبة البطاطا، حسب التقاليد. وبعدها يمكنهم أن يحملوني خارج هذا البيت... على أن يمسكوا بالقدم أولاً! في صحتكم! وشربت ثمالة الكأس - لكن لم تكن في الكأس ثمالة، فصبت لنفسها شيئاً قليلاً وبدأت بتقشير البطاطا، وفجأة اقتربت الأصوات من أذنيها جداً:

- ها، قال كورت، ألا يجوز للمرء أن يفكر في بدائل للرأسمالية! شيء رائع، هذه إذن هي ديمقراطيتكم!

- حسناً، الحمد للّه أنك تستطيع أن تفكر ضمن اشتراكيتك الخرائية عن بدائل.

- لقد أُفسدت تماماً، قال كورت.

- أفسدت؟ أنا أُفسدت؟ لقد صمتَ أربعين عاماً، صرخ ساشا. لأربعين عاماً لم تجرؤ على الحديث عن تجربتك السوفياتية الرائعة.

- سأفعل ذلك...

- أجل، الآن، حيث لا يوجد من يهتم بذلك!

- وماذا فعلت أنت! الآن صرخ كورت أيضاً: أين كانت إذن بطولاتك!

- براز، رد ساشا زاعقاً، براز على المجتمع الذي يحتاج إلى أبطال!

- براز على مجتمع يجوع فيه ملياران من البشر، صاح كورت.

وفجأة ظهرت إيرينا في الغرفة من دون أن تعرف كيف حدث ذلك. ظهرت في الغرفة وصرخت:

- توقفا!

وساد سكون ثواني ثم قالت:

- عيد الميلاد.

فى الأصل كانت تريد أن تقول إن اليوم هو يوم عيد الميلاد، وإن ساشا هنا للمرة الأولى منذ شهور، فدعونا نقض هذين اليومين في سلام - تقريباً هذا ما كانت تريد قوله. لكن برغم أن أفكارها كانت واضحة تماماً، لكنها وجدت صعوبة في النطق بها.

- عيد الميلاد، قالتها واستدارت عائدة إلى المطبخ.

دق قلبها بعنف. فجأة لم تستطع التنفس. استندت إلى الحوض. ووقفت لحظة. نظرت إلى الوعاء الدامي، الذي كان لا يزال موضوعاً على جانب الحوض... لقد نسيت الأحشاء. أخذت سكين اللحم الكبير... لكنها لم تستطع فجأة. لم تعد حتى قادرة على لمسه. بدت لها فجأة وكأنها أحشاؤها هي. وكأن تلك الأحشاء هي التي استؤصلت منها، في ذاك الموضع المؤلم من أسفل البطن...



twitter @baghdad_library

- ألا أساعدك؟ جاء صوت كاترين ودوداً وحريصاً: أستطيع صنع عجينة الكبة بسرعة...

- سأقوم بعمل ذلك، قالت إيرينا، لم تقل إنها كبة تورينغية، من الأفضل عدم استخدام كلمات صعبة. بدلاً من ذلك قالت إنها نصف ونصف ولكن البطاطا النيئة أكثر قليلاً من...

- أعرف ذلك، كم حبة بطاطا نيئة وضعت؟ كم حبة بطاطا نيئة؟

- سأقوم بعمل ذلك، قالتها إيرينا مرة أخرى.

- ستكون نحو خمس أو ستّ حبات، قالت كاترين فيما كانت بصدد الإمساك قالت بالمبشرة. يا إلهي، هذا شيء معقّد أيضاً...

تحدثت كاترين بسرعة كبيرة جداً واحتاجت إيرينا إلى بعض الوقت لكي تلتقط أذناها الألفاظ الخفيضة الهامسة وتعيد تجميعها مجدداً. لكن عندما جمعتها كانت كالآتي:

- أتعرفين... ثمة عجين كبة بطاطا جاهز... وهو بصراحة ليس سيئاً على الإطلاق... هل أكتب لك اسم الماركة؟

أخذت إيرينا المبشرة من يد كاترين.

- معذرة، قالت كاترين، لم أقصد سوءاً... ما أعنيه فقط هو تقليل العمل.

- سأقوم. بذلك. قالت إيرينا.

ولم تلحظ أن سكين اللحم ما زال في يدها إلا عندما انصرفت كاترين.

أبعدت السكين. واستندت لحظة إلى الحوض. عندما كانت

تستنشق، كانت تشعر بألم أقل. استنشقت إيرينا. لكنها سمعت ثانية أصوات الرجال.

- ربما لم تقبع في السجن مدة كافية! كان عليهم أن يعاقبوك بعشر سنوات أخرى!

بدأت الأحشاء تتراقص أمام عينيها.

- ليست لديك أدنى فكرة عما تعنيه الرأسمالية.

نظرت إيرينا إلى قيشاني الحائط وحاولت أن تركز على الصليب الذي يشكل الحز بين بلاطات القيشاني.

- الرأسمالية تقتل، صاح كورت، الرأسمالية تسمّ! الرأسمالية تفترس هذه الأرض.

زفرت إيرينا ثانية. الساعة الرابعة عصراً، إذاعة ألمانيا، قال الراديو. حُل الاتحاد السوفياتي للمرة الثالثة. برغم ذلك تعجبت قليلاً من الطقس.

- ثمانون مليون قتيل، قال ساشا، ثمانون مليوناً!

هل كانت هي المسؤولة؟ اليدان. البطن. من أجل الوطن. من أجل ستالين. خداع جميل. آه لو استطاع المرء أن يستنشق فقط.

- ملياران، صرخ كورت.

في البداية ألقت بذاك الشيء في القمامة: البطاطا. ثم ارتدت هذا الشيء الآخر. كانت الزجاجة هي الشيء الوحيد الذي يصعب فتحه بقفاز الفرن. في صحة الوطن! في صحة ستالين! في صحة كل من خدعونا!



twitter @baghdad_library

- نعم، الأطفال في أفريقيا، زعق كورت. ما الغريب في ذلك.

أخرجت الإوزة من الفرن، الإوزة، الإوزة الغبية. كانت ترقد في الصينية وقد تفتقت ندبتها، واتسع الثقب. تألمت عندما أدخلت يدها. أخرجت الكتلة اللزجة. من دون قفاز. الحشوة. كانت ساخنة. لا بأس... لم يكن ثمة خيار آخر. استنشقت. في المقابل كانت الأحشاء باردة. أخذت كل شيء. ودسته مرةً واحدة داخل الإوزة. الإوزة الغبية. كانت يدها لا تزال في الداخل وكانت الأحشاء الباردة لا تزال بيدها، في الخارج ساخن وفي الداخل بارد... عندما انزلقت. المطبخ كله. القيشاني. الكل تراقص. والآن جاء الدور على بلاطات الأرضية.

أمسكت بها كاترين من تحت إبطيها.

- لا تلمسيني. قالت إيرينا.

- إيرينا. قالت كاترين.

ثم جاءت البقية. جاءت من تلقاء نفسها. صرخت من أعماقها وظلت مستمرة في صراخها، مع إضافة بسيطة:

- لا تلمسيني أيتها الجيفة!

ثم اقتربت الأرضية أكثر فأكثر ثانية. بلاط الأرضية. كان يتراقص. لكن الإوزة بقيت ساكنة. بعد قليل رقدت ساكنة تماماً على بلاط الأرضية. الإوزة. الإوزة الغبية. بثقبها الذي في الوسط.

- إذن، لقد انتهى الأمر، سننصرف، قال ساشا.

لا بد من خيط الثقب مرة أخرى، هكذا فكرت إيرينا.

# ١٩٩٥

كان كالمعتاد، أول الواصلين، عند رجوعه إلى البيت يوم الجمعة. ووفقاً لذلك كان أول من وجد الخطاب المؤطر بالأسود في صندوق البريد، وقد أُرسل إلى ماركوس وميليتا أومنيتزر، برغم أن الاسم العائلي لميليتا قد تغير إلى غريفه منذ ثلاث سنوات (لقد أخذت اسم عائلة كلاوس، بحيث أصبح ماركوس هو الوحيد الذي يحمل لقب أومنيتزر في هذه العائلة الجديدة).

لفت الخطاب انتباهه لأنه بدا أنيقاً. لم يعرف بالضبط إن كان من حقه أن يفتحه أم لا. طواه من الوسط ووضعه في الجيب الخلفي لبنطاله. فقد كان لديه أولاً أمر أكثر إلحاحاً ولا بد من إنجازه.

ألقى بغسيله المتسخ في الحمّام، واندفع صاعداً إلى غرفته وأخرج كارت الصوت الذي اشتراه من محل الكمبيوتر في كوتبوس من غلافه. وللاحتياط مزق الغلاف في الحال ودسه في أسفل سلة الأوراق (فكل ما له علاقة بالكمبيوتر كانت أمه تعتبره تبديداً سفيهاً للوقت) ثم فتح الجدار الجانبي لجهاز الكمبيوتر الشخصي الذي ثبته موقتاً ببرغي واحد وأدخل كارت الصوت في المكان المخصص له وأوصل الأسلاك (قابس صغير مع وصلة) مع مضخم صوت الستريو، ثم أعاد تشغيل الكمبيوتر ولعب على سبيل التجربة دوراً من لعبة (Doom): مذهل! كان



twitter @baghdad_library

لهاث الوحوش حقيقياً لدرجة تثير الخوف. كما كانت فرقعات إطلاق النار وقرقعات تحميل ذخيرة بندقية الخرطوش مسموعة، وكذلك صوت تمطق الوحوش التي تتهاوى صريعة. أخذ ماركوس يضرب ببندقيته حتى تمكن من الوصول إلى المستوى الأعلى لكنه فشل عدة مرات في تجاوز غرفة مأهولة بمخلوقات جحيمية، وكان بها مفتاح يجب الحصول عليه لكي يتمكن من مواصلة اللعب.

فجأة صارت الخامسة والنصف عصراً. عادة تأتي أمه في السادسة من برلين. منذ باتت غير قادرة على كسب عيشها من الخزف، عادت للعمل أخصائية نفسية في الطب «الشراعي» أو شيء من هذا القبيل (شيء ما له علاقة بمجرمين مخابيل)، أراد ماركوس أن يغادر قبل أن تأتي. وجد في الثلاجة طعاماً جاهزاً للتسخين لكن للأسف وجد إلى جانب الموقد قصاصة عليها قائمة طويلة من الواجبات. قرر ألا يمس الطعام وأنه لم ير القصاصة الموضوعة على الموقد. قطع شريحتين من الخبز ووضع عليهما جبناً، وبحث في غرفته، في أثناء أكله شطيرة الجبن، عن قطعة الماريغوانا التي خبأها في نهاية الأسبوع الماضي في مكان ما وسط هذه الفوضى، ولكن بلا جدوى. ثم اقتربت الساعة على نحو خطير من السادسة. دهن شعره بشيء من الجِل وغادر البيت.

منذ سقوط الجدار (أو على أقصى تقدير بعد ذلك بعام أو عامين) استؤنف العمل في محطة القطار السريع في غروسكرينيتس. ولم يعد المرء يحتاج إلى أكثر من أربعين دقيقة ليصبح في مركز المدينة، ولا إلى أكثر من عشرين دقيقة ليكون في غروبيوس - شتات، حيث يسكن فريكل. الغريب في الأمر هو أنه قد تبين أن غروبيوس - شتات التي كان ماركوس معجباً بها في الماضي، عبارة عن منطقة سوقية يسكنها العوام، فيما أصبحت غروسكرينيتس إحدى ضواحي برلين الراقية،

والبيت الذي اشترته أمه بسعر رخيص بالمارك الشرقي، تبين أنه ربح كبير. وعندما انتقل كلاوس إلى البيت، قاموا بترميمه كاملاً، بسطح أخضر وبكل الكماليات: المال لم يكن مهماً، فكلاوس أصبح فجأة سياسياً ونائباً في البوندستاغ - القس كلاوس الذي كان يوزع قصائد منسوخة بالكربون في كنيسة غروسكرينيتس، أصبح على حين غرة نائباً في البرلمان، ولا تدري أي مناصب أخرى أيضاً، كان يطير كل اثنين إلى بون ويكسب الكثير من المال. والأم كانت تكسب أيضاً واشترت سيارة «أودي» ذات لون رمادي فضي - فيما أصبحت أم فريكل مطلقة وعاطلة عن العمل، تعيش مع فريكل في أحد المساكن الجديدة بغروبيوس - شتات.

لم يكن في استطاعة ماركوس أن يفعل أي شيء حيال ذلك كله. كما أنه لم يستفد شخصياً من كون والديه قد أصبحا فجأة ثريين. حاول كلاوس أخيراً أن يؤدي دور الأب واهتم بأن يكتفي ماركوس بالنقود التي يحصل عليها من التدريب المهني، بل كان يحسم منه نقوداً، إذا ما نسي مرة إحدى الأدوات بالحديقة أو كسر شيئاً من غير قصد، وكانت الأم ترى بأي حال من الأحوال أن كل ما يقوله كلاوس صحيح. بل إنها تذهب يوم الأحد إلى الكنيسة. كانت تود أن تأخذ ماركوس معها إلى الكنيسة يوم الأحد، حتى ولو رغماً عنه، لكن إشارته إلى حرية العقيدة المنصوص عليها في القانون الأساسي الألماني جعلها تتجنب فعل ذلك. أما «اليوم العائلي» التالي على الذهاب إلى الكنيسة، فكان هو الشيء الذي لا يمكن التملص منه: أن يطبخا معاً شيئاً طيباً أو أشياء من هذا القبيل أو أن يزورا أحد المعارض وهو ما كان يبغضه تماماً - هذا إذا لم يلتئم مجلس العائلة وهو الاسم الحركي لتوبيخه لأنه لم يلتزم واجباته أو بسبب الصليب المعقوف المعلق في الحجرة والذي لا علاقة



twitter @baghdad_library

له إطلاقاً بالنازيين، بل أصله من الهند وله علاقة بالهندوسية أو ماشابه، لكنهما يصابان في هذه الحالات فجأة بهستيريا. كل هذه الأمور كانت مثيرة للضجر. وبرغم ذلك كان يشعر دائماً بشيء أشبه بتأنيب الضمير عندما يلتقي فريكل، إذ كان يبدو له مدللاً ورخواً، ويشعر دائماً بالرغبة في الحديث بشكل سيئ جداً عن الحياة في غروسكرينيتس، ومن جانب آخر لم تكن كثرة الكلام شيئاً رائعاً، بحيث أصبح ملخص الأسبوع غالباً قصيراً وموجزاً.

- يا للقرف! قال ماركوس في أثناء إشعالهما أول سيجارة محشوة بالماريغوانا في المقصورة الحجرية العفنة.

ثم قال فريكل:

- لا عليك!

وناول فريكل السيجارة مرة أخرى.

ثم جاء كلينكه وتسيبيلين. انتابت تسيبيلين فكرة أن يثقبوا إطارات سيارة الأوبل التي يملكها هذا التركي القذر الذي غازل إحدى الفتيات من فصل تسيبيلين السابق. لكن أولا كان الوقت مبكراً جداً في وضح النهار وثانياً لم تكن السيارة موجودة. لحسن الحظ، لأنه بالرغم من أن ماركوس قد وافق على الفور لكي لا يبدو جباناً، فإن الفكرة كانت - ثالثاً - أشبه بالانتحار.

قبيل منتصف الليل وصلوا إلى ديسكو «الخندق»، كان تسيبيلين يعرف الحارس. هبطوا الدرج. كانت الموسيقى صاخبة حتى على الدرج. هبت في وجههم رائحة القبو التقليدية التي تمزج بين الحموضة والدخان والعفن والقذارة، وكانت نفّاذة جداً لدرجة أن ماركوس لم يستطع التنفس، لكن عندما فتح الباب الفولاذي انهالت إيقاعات

التكنو على جسمه وكأنها قبضة عملاقة غير مرئية، واختفت الرائحة. لم يكن ثمة شيء سوى الصوت الصاخب والضوء الكاشف والجمع المترجرج، وراقصات الـ «غوغو» (GoGo) بعيدات المنال فوق السمّاعات الضخمة وهن يلوحن بشعورهن ويستعرضن في حركة دائرية متتالية بطونهن وأردافهن وفروجهن، راغبات في المضاجعة، لكنهن لن يُضاجعن أبداً، أبداً، أقله لن يضاجعهن ماركوس أومنيتزر ولا فريكل من غروبيوس - شتات. وغالباً لن يضاجعهن كلينكه أو تسيبيلين، برغم أنهما أكبر منهما بعامين ولديهما وشوم رائعة على أذرعهما.

مد تسيبيلين إليه حبة «إيكستاسي» ودفع ماركوس على الفور وبلعها مع كوب كبير من الكولا (لم يكن يتحمل الإيكستاسي مع الكحول). ظل واقفاً بعض الوقت وحرك جسمه قليلاً مع الإيقاع ونظر بحثاً عن نساء أخريات في متناول اليد، وكلما راودته الفكرة، ازداد عدد النساء الرائعات في ساحة الرقص. اختفى ارتباكه تدريجاً. صحيح أنه لم يكن يستطيع الرقص، لم يستطع الرقص قط، لكنه أصبح شيئاً فشيئاً أكثر خفة، لأنه انخرط في تواصل جسدي غير مرئي مع امرأة قصيرة جسمها رياضي وشعرها أشقر طيني وسترتها بالية كانت تنزلق عن كتفيها باستمرار، بحيث تمكن من رؤية نهديها الصغيرين المدورين المتماسكين. ثبت نظرته عليهما طويلاً من دون أن تنهره. لم تنظر إليه تقريباً، لكنها تركته ينظر. شعر باهتياج شديد، برغم أن نهديها كانا صغيرين جداً بحيث يمكن أن يكونا أيضاً لرجل. ثم ضاعت منه المرأة ورقص فترة وحيداً، وشرب بيرة. ثم بدأ الرقص ثانية ومارس الجنس مع كولون ممزق بعينين سوداوين مفترستين، وفي وقت ما شعر بأن كل الأشياء متشابهة بالنسبة إليه، كما شعر فجأة بأنه مستثار جداً جنسياً، ثم تلاشى كل شيء لبعض الوقت، بقيت فقط الموسيقى التي



twitter @baghdad_library

كانت تدق على رئتيه ليتنفس. ثم عثر على ذات الشعر الأشقر الطيني بنهديها الرياضيين، تفاهما بعيونهما على شرب شيء ما. وبعد ذلك بفترة، بعدما شرب كل منهما كأسين من كوكتيل «البلاك راشين» تبادلا القبلات في ممر بجانب الحمّام، وتعرف الحجم الفعلي لنهديها، وأخذ يتحسس جسمها قليلاً، وكذلك ما بين ساقيها، لكن هذا كان في نهاية المطاف كل شيء.

فجأة ظهر أن أحدهم لديه ماريغوانا. دخن ماركوس طارداً الإحباط من دماغه. عندما غادرا كان قد فقد الإحساس بالزمن تماماً. لم يفهم علام كان الآخرون ينفجرون ضحكاً. انتظروا القطار طويلاً. تسلل البرد تدريجاً إلى الجسد المنهك من الرقص، الذي نشط بعض الشيء، ثم عاد تدريجاً الخمول. وعندما أفاق على إحدى الدكك، شعر بألم في كل أنحاء جسمه، صداع في الرأس وآلام في الخصر والعمود الفقري. وبالكاد استطاع أن يركب القطار الذي كان على أهبة الانطلاق. وعندما أفاق في المرة الثانية وجد نفسه في غرفة لا يعرفها، ورأسه كان فوق حذاء تسيبيلين. آلمه حلقه من فرط العطش. وفي رأسه اهتز المخ بقوة بحيث كاد يفقد توازنه وهو في الطريق إلى الحمّام.

ذهبوا بعد الظهر إلى «ماكدونالدز». الآن ازداد عددهم: كان معهم اثنان من «الهوليغانز»، من أصدقاء تسيبيلين. شخصان ضائعان بعض الشيء، أحدثا جلبة غير ضرورية ما تسبب بطردهم جميعاً من المحل، فقصدوا أقرب «ماكدونالدز» في الجوار. وبقوا إلى أن ذهبوا في قرابة السادسة إلى الديسكو للحفلة المبكرة، حيث تكرر بالأساس كل ما جرى في اليوم السابق، لم يعرف ماركوس هذه المرة فقط كيف وصل إلى غروسكرينتس، حيث صحا في وقت الظهر في غرفته أو بمعنى أصح أوقظته أمه التي عادت تواً من القداس.

استحم طويلاً وأخذ قرصي أسبرين وألقى بملابسه التي نام بها والغارقة في رائحة العرق والدخان والعطن في سلة الغسيل وذهب إلى المطبخ، الذي تضاعف اتساعه بعد الترميم حيث كانت أمه وكلاوس يطبخان (بمعنى أن كلاوس كان يطبخ ويسمح لها بتقطيع بعض الخضروات)، وعندما أعطته أمه بصلتين وسكيناً، تذكر عندئذ مجدداً الخطاب الذي وضعه في جيب بنطاله الخلفي الموجود في سلة الغسيل.

- نسيت شيئاً، قال ماركوس وذهب ثانية إلى الحمّام ليخرج الخطاب الذي تجعد وتمزق قليلاً من جيبه.

- لقد وصل هذا الخطاب، قالها وأعطاه إلى أمه.

تركت أمه السكين جانباً وجففت يديها بمريلة المطبخ قبل أن تفتح الخطاب.

يا إلهي!

عندئذٍ انحنى كلاوس ليلقي نظرة على الخطاب. نظرت الأم إليه نظرة متسائلة، لم يردها كلاوس. فجأة فهم ماركوس أن شخصاً ما مات.

أعطته أمه الخطاب أو بمعنى أدق البطاقة ذات الإطار الأسود التي لم يكتب على صفحتها الأمامية سوى:

إيرينا أومنيتزر

٧ آب/أغسطس ١٩٢٧-١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥

نظرت أمه إليه ولم يعرف ما الذي تتوقعه منه. لم ير جدته إيرينا منذ فترة طويلة جداً. وفي آخر مرة زار جديه، كانت سكرانة تماماً. وظلت طوال الوقت تبكي، وتدعي أنها لا تبكي، وتتعلق برقبته وتناديه طوال الوقت



twitter @baghdad_library

بـ «ساشا». بعدئذٍ لم يذهب إليهما ثانية... نظر ماركوس إلى الاسم المكتوب الذي نصفه هو اسمه العائلي أيضاً، ولبضع لحظات اختفى كل شيء من حوله، وشعر قليلاً بالغثيان، ربما بسبب الأمس.

أعاد البطاقة إلى أمه التي قلبتها على الناحية الأخرى وجلست وقالت لكلاوس:

- الجنازة يوم الجمعة في شارع غوته.

ونظرت إلى كلاوس مرة أخرى متسائلة.

- أنا لن أذهب على أي حال، قال كلاوس. فكل رفاق حزب الوحدة الاشتراكي سيأتون...

- إنها لم تكن عضواً في الحزب. قالت الأم.

- يمكنك الذهاب، قال كلاوس ولم يكن ذلك مقنعاً عندما أضاف: لا مانع لدي!

تحدث كلاوس والأم قليلاً في أثناء الطبخ عن الجدة إيرينا (وإدمانها الكحول)، وعن الجد كورت (وإن كان لا يزال في الحزب) وعن فيلهلم الذي لم يعرفه كلاوس قط، وتحدث عنه وكأنه مجرم. انزعج ماركوس من كون أمه تؤيد ما يقوله كلاوس (كالمعتاد). تذكر في أثناء طيه مناديل السفرة الورقية الخضراء ووضعه الشموع الخضراء على الطاولة، ذهابه مع أمه إلى عيد ميلاد فيلهلم، وأن أمه قالت لكلاوس إنهما ذاهبان إلى عيد ميلاد أمها. وحينئذٍ صمت، لأنه لم يرغب في إحراج أمه أمام كلاوس.

أزعجه كلاوس في أثناء الطعام بالحديث عن السياسة، وتحديداً

ببعض الحكايات التي أراد أن يُظهر بها أهميته: من ذا الذي يهتم بما قاله هيلموت كول في أثناء الغداء، أو بأن ثمة من يسرق الملاعق في مطعم البوندستاغ. لم ينصت ماركوس، وشعر فجأة بجوع شديد. كان الطعام عبارة عن فيليه لحم الخنزير المقلي وكبيبة السبانخ، لكن فيليه لحم الخنزير كان محشواً بجبن الروكفور، فكشط ماركوس علناً الجبن، الأمر الذي أثار ضيق كلاوس. بدا ذلك على وجهه، لكنه صمت.

وفجأة أُعلن اجتماع «مجلس العائلة».

لقد تبين أن رسالة جديدة جاءت من شركة «تيليكوم» التي يتدرب فيها ماركوس. المعتاد: أيام غياب، ودرجات سيئة، لكن اشتعل تدريجاً.

- الأمر لا يتعلق بتوفيري لك هذا التدريب، قال كلاوس. لكن ماركوس فكر طبعاً في أن الأمر لا يتعلق في الحقيقة بشيء سوى هذا.

تركه يردد عليه المزامير المعتادة عن الحياة والوظيفة، وإذا لم تفعل الآن كذا وكذا... ثم كان عليه أن يتخذ موقفاً.

- الموضوع كله خداع، قال ماركوس. في البداية وعدت «تيليكوم» بأخذ جميع المتدربين، وفجأة أُعلن أنها لن تأخذ سوى شخص واحد.

وردّ كلاوس بأنه يستطيع التقدم لوظائف أخرى، ولو حقق المرء إنجازات جيدة، وما إلى ذلك فبإمكانه أن...، وفكر ماركوس ما هي الإنجازات الرائعة التي حققها كلاوس. هل لديه شهادة في البوندستاغ أم ماذا؟ وما إذا كان كلاوس قادراً على حل واجبات الرياضة في المدرسة المهنية، هل يستطيع حساب جيب الزاوية؟ إنه يشك في أنه يستطيع ذلك! ثم اضطر إلى التثاؤب - هكذا ببساطة - بسبب الأكل والليلتين الماضيتين، هذه المرة بالذات لم يقصد مضايقة كلاوس. لكن



twitter @baghdad_library

أمه انفعلت فجأة متسائلة، إن كان لا يستطيع وضع يده أمام فمه (وكأن المشكلة كلها في وضع يده على فمه)، وقالت إن عليه أن يكون ممتناً لأن كلاوس وفر له هذا التدريب إلخ إلخ...

- لم أطلب إليه ذلك. قال ماركوس.

كانت تلك هي الحقيقة مئة في المئة. لم يطلب إلى كلاوس أن يوفر له تدريباً كفني اتصالات إلكترونية (في الحقيقة كان يود أن يعمل في مجال رعاية الحيوانات، ولو كان ذلك غير متاح لعدم وجود فرص تدريب، فقد كان يرغب في العمل طاهياً، وكانت ثمة فرص تدريب، لكنهما أصرا على فني الاتصالات الإلكترونية).

لكن كان من الأفضل لو لم يقل ذلك. قل الحقيقة! - لكنه عندما قال الحقيقة، بدأت الأم بالصراخ أو بمعنى أدق حاولت أن تصرخ بصوتها الذي يكاد لا يخرج ، وبعد أن صرخت فترة (المضمون غير مهم)، رفعت يدها وقذفت بحركة بالغة كيساً بلاستيكياً صغيراً جداً على المائدة:

المخدر. ماريغوانا. مادة تعد حسب إقناع ماركوس أقل خطراً ألف مرة من الكحول، إذن لا مبرر للانفعال - لكن الأم انفعلت. انفعلت الأم بصورة جنونية. نعم، لقد وعدها بأنه لن يدخن الماريغوانا (لم يكن أمامه سبيل آخر). وعلى كل حال لم يكن وجود الكيس البلاستيكي دليلاً على أنه دخن فعلاً، فحسب رأي ماركوس، يعد وجود هذا الكيس دليلاً على العكس. لكن الإقناع بالمنطق، لم يكن ممكناً.

- كفى، قالت الأم. لقد فاض بي الكيل، صار روحي هنا أتفهم؟ وأشارت إلى أسفل أنفها.

ثم جاء صوت الواعظ:

- إذا لم تنضبط، فعلينا نحن أيضاً أن...

- يوووووه! قال ماركوس.

- عليك أن تنصت. صرخت الأم.

- ليس له علي كلمة هذا الوغد.

وبعدها صرخ الوغد أيضاً:

- اخرج من هنا، اخرج!

جمع ماركوس أشياءه وذهب إلى كوتبوس.

قضى الليلة وحيداً أمام التلفزيون في مسكنه الجماعي، وقلب القنوات بين فيلم «الرجال البيض لا يستطيعون القفز» وحلقة فاشلة من «من الجاني». وأخيراً استقر على تلك الإعلانات الجنسية التي تدعو المشاهد إلى إجراء مكالمات مثيرة وباهظة التكلفة، دفعته إلى الاستمناء.

في صباح الاثنين ذهب إلى العمل في الموعد المحدد. في هذا الأسبوع أرسلوه إلى قسم الخدمة التقنية للزبائن. وخرج مع أحد الزملاء من ذوي الخبرة في التوصيلات وإزالة الأعطال. كان اسمه رالف. وعمره أقله أربعون عاماً. أمطرت في الخارج، أمطار تشرين الثاني/ نوفمبر الباردة أفقدت المرء إحساسه بأصابعه: توقفا مرة في مطعم للوجبات السريعة حيث دفع له رالف ثمن السجق بالكاري والشاي الساخن. جلسا في السيارة والمحرك دائر، حيث ساد الدفء. لكن الشيء الوحيد الغبي كان الموسيقى البلهاء التي يسمعها رالف.

عاد جميع زملائه في المسكن يوم الثلاثاء. أحضروا بعض



twitter @baghdad_library

زجاجات البيرة وحكوا عن الفتيات اللاتي تمكنوا من اصطيادهن في نهاية الأسبوع. ضجر ماركوس سريعاً، وذهب إلى السرير مبكراً، واستمنى (هذه المرة على ذات الشعر الأشقر الطيني ذات النهدين الرياضيين).

وفي يوم الأربعاء بعد الدوام بقي بعض الوقت فيما يسمّى المركز وراقب سائقي سيارة يتشاجران بسبب أضرار ألحقها أحدهما بصاج سيارة الآخر. ثم ذهب إلي الديسكو الوحيد المفتوح في وسط الأسبوع، ووقف بعض الوقت في أحد الأركان وأخذ يحملق في الفتيات.

في يوم الخميس حاول أن يستذكر قليلاً دروس الرياضيات.

في يوم الجمعة، قال لرالف إن عليه أن يذهب إلى جنازة جدته. أوصله رالف إلى محطة القطار.

وصل قرابة الساعة الحادية عشرة إلى المقابر في شارع غوته. في الماضي كان يمر عليها أحياناً مع جديه، وكان يرى شواهد القبور من الخارج أو يرى داخلها جدات عجائز يمسكن برشاشات الزرع. لكن لم يخطر على باله قط، أنه من الممكن أن تكون له أي علاقة بما وراء هذا السور المتداعي وما وراء البوابة المائلة المعلقة على قائمين. طالما بدا له المكان كبقعة معزولة خارج الزمان، خارج العالم، وبرغم أنها مقابر، فقد دهمته شكوك عندما وصل بأن اليوم هو يوم دفن جدته. لكن بالفعل كان ثمة إعلان في نافذة العرض المبللة من المطر عند المدخل عن مراسم دفن في الساعة الثانية عشرة.

وبرغم أن درجة الحرارة لم تنخفض إلى ما تحت الصفر، فقد كانت البرودة قارسة. علقت الرطوبة في فروع الشجر وتخللت كل

شيء، في الأرض والهواء. وتسللت بعدها إلى معطف الجنود السويدي القديم، الذي اشتراه من برلين من محل تباع فيه الملابس بالكيلو. أخذ ماركوس يتمشى جيئة وذهاباً أمام المقابر، كان المحل المواجه لها مغلقاً بألواح خشبية. المحل الوحيد الذي كان مفتوحاً كان محل بيع الزهور، مبنى واطئ ومهدم من عهد ألمانيا الشرقية، وقد نُقشت على كل نوافذ عرضه بفتور عبارات التحية والذكرى. دخل ماركوس المحل. كان المكان دافئاً في الداخل وسألته البائعة على الفور عن طلباته وتصرف ماركوس لبعض الوقت وكأنه يبحث عن زهرة بعينها، وبالفعل خطرت له فكرة أنه يستطيع أن يشتري زهوراً لأجل جدته إيرينا. لكن لم يكن معه أكثر من عشرة ماركات في جيبه وقرر أنه من الأفضل أن يذهب إلى أقرب حانة ويشرب شاياً ساخناً.

على بعد خمسمئة متر، وجد حانة سفلية تقع على ناصية الشارع واسمها فريدنسبورغ أي قلعة السلام. كان هو الزبون الوحيد. رقد كلب من نوع البوكسر مصاب بورم سرطاني بشع إلى جانب البار. سار نادل ذو شعر خفيف سرّحه إلى الوراء وفوطة متسخة على ذراعه عبر المكان بخطى متثاقلة جداً، بالحركة البطيئة تقريباً. ووضع صينية صغيرة أمام ماركوس عليها فنجان من الشاي وكؤوس من الروم وسكرية وقال «تفضل بالصحة والراحة يا سيدي!». دلق ماركوس الروم في الشاي ووضع ملعقتين من السكر، لأنه ظن أن الشاي بالروم يشرب هكذا. صعد المشروب سريعاً إلى رأسه، وللمرة الأولى منذ سماعه نبأ وفاة الجدة إيرينا، غمره شعور يشبه الحزن. وشعر بارتياح لذلك بل كاد يفرح. وتخيل وقوفه مع جده كورت وأبيه أمام قبر جدته مباشرة، مشهد صامت مؤثر. أو أن يكون ثمة قس أيضاً؟ حاملين مظلات كما



twitter @baghdad_library

في الأفلام التي شاهدها؟ لكن أين مكان هذا القبر؟ أم أن عليهم أن يلتقوا أمام المدخل؟

عندما عاد إلى المقبرة - احتياطاً قبيل الثانية عشرة بقليل - كان تأثير الشاي بالروم قد تبخر. فجأة امتلأ الشارع الكثير المطبات بالسيارات المصفوفة وجاء الناس من الجانبين حاملين أكاليل وزهوراً. تبعهم ماركوس إلى آخر طريق مُشجر يؤدي إلى مبنى صغير. وكان ثمة زحام على المدخل يشبه الزحام على ركوب قطار المدينة السريع في وقت الذروة. كانت القاعة ملأى على آخرها. وفُتحت دفتا باب القاعة على آخرهما كي يستطيع الواقفون في الخارج أن يروا شيئاً وجاء المزيد من الناس، أزواجاً وجماعات وأفراداً. نظر ماركوس إلى الوجوه - هل كان هؤلاء هم رفاق الحزب القدامى الذين كان يتحدث عنهم كلاوس: السيدة ذات الشعر المصبوغ والممثل الذي رآه ذات مرة في التلفزيون أو هذا الشخص السمين إلى حد لا تصدقه العين بشعره الأشعث الواقف... وهذا الرجل ذو الرأس الأحمر المزرق، ألم يكن الشخص الذي يصيح: مزيداً من الديمقراطية في عيد ميلاد فيلهلم؟

ألقى نظرة عبر الرؤوس والأكتاف إلى داخل المبنى. في آخر القاعة عُلق صليب كبير وعلى يمينه أصص فيها نخل بدا من بعيد وكأنه غير طبيعي. وإلى الأمام قليلاً كانت ثمة منصة خشبية، غطيت بقماش أسود متسخ نوعاً ما. كان ثمة دبوس ناقص ما جعل القماش ينزلق في ذاك الموضع إلى الأسفل.. ثم عثر على جده كورت على اليمين في الصف الأول: رأس أشيب تميزه في الوسط دائرة خالية من الشعر، وعلى يمينه كان هو.

دوت موسيقى كلاسيكية وصاخبة قليلاً من سماعات صغيرة جداً. خف الزحام وخفض الناس رؤوسهم. ثم اعتلت امرأة المنصة المتسخة، لم تكن قسيسة، حسبما بدا على الفور، ثم بدأت الكلام:

إيرينا، عزيزتي إيرينا، ما زال ثمة الكثير من الوقت حتى الوداع - هذه الفكرة تثير جنوناً دائماً... لكن أين كانت هي في الحقيقة؟

هب ماركوس برأسه، هناك في الأمام وضع الناس زهورهم وأكاليلهم، كومة كبيرة حول مقعد أسود صغير في علو الركبة، وعليه كانت توجد مزهرية - لكن أين النعش؟ الأغرب أن السيدة كانت تخاطب الجدة إيرينا دائماً بـ«أنت» وكأنها جالسة وسط الناس في القاعة... كنت تقابلين من يدقون بابك بالترحاب... حتى ولو بدا الأمر غبياً تماماً فقد أراد التحقق من باب الحرص إن لم يكن قد أساء الفهم، ما إذا كانت الجدة إيرينا تجلس إلى جانب جده كورت في الصف الأمامي أو إلى جانبه، جانب أبيه، لكن بالطبع لم تجلس هناك. بل جلست بدلاً منها رفيقة أبيه. ابتلع خيبة أمله.

كنت أسميك ناوسيكا، قالت السيدة على المنصة... من يا ترى كانت ناوسيكا تلك؟ لم تكن لديه أية فكرة... هذه السيدة من العصور القديمة أتت إلينا... جال ببصره بحذر: هل كان صاحب الرأس الأحمر المزرق يدري عما يجري الحديث هنا؟... من الغزوات الحربية والمنفى وترحال الشعوب، هذه السيدة التي صنعت حياة من اللاحياة... أومأ الرأس موافقا... وأنت تنتمين إلى هؤلاء يا إيرينا، كان في استطاعتك... أومأ الرأس ثانية - وتخيل ماركوس نفسه وهو يخرج بندقية الخرطوش ويضرب هذا الرأس الأبله الذي يومئ باستمرار.



twitter @baghdad_library

ثم تحدثت السيدة عن الطبخ:... وإن جاءك ضيوف زائدون كنت لا ترضين أبداً بمجرد مضاعفة ماء الحساء، قالت السيدة. في البداية ظن ماركوس أنه أخطأ السمع، لكن الحديث فعلاً كان عن الطبخ، أقله عن إعداد المائدة: مائدتك كانت تحفة فنية. قالت المرأة ثم أضافت بشيء من التكلف: مائدتك كانت تدعو الناس للجلوس والحديث.

سكون.

أكنت تدرين كم كان ذلك قيماً وغالياً علينا؟

سكون.

هل قلنا لك ذلك؟

تذكر أن جدته كانت في الماضي، قبل وقت طويل جداً، تصنع أحياناً بيلميني وكانت تسمح له بمساعدتها. كان يعرف إلى الآن، كيف يتم صنع العجين وبرمه مثل السجق، ثم تقطيع هذا السجق قطعاً صغيرة ووضعها في الدقيق (حتى لا تلتصق) ولكن ليس كثيراً من الدقيق (حتى لا يضطر المرء إلى عجنها مرة أخرى) ثم تسوى على شاكلة رقائق بحجم كف اليد. ثم يأتي الجزء الصعب... وفي أثناء ما كان صوت المرأة اللاقسيسة الرفيع ينطلق إلى الخلاء عبر باب القاعة المفتوح، غاب بذهنه لحظة في مطبخ الجدة إيرينا. تذكرت أنفه ورائحته المميزة التي تمزج بين العجين والبصل واللحم المفروم النيء. وتذكر إبهامه وسبابته بدقة العملية المعقدة: ملعقة شاي من اللحم المفروم على كل واحدة من الرقائق ثم طيها على شاكلة هلال والضغط على الأطراف لإلصاقها معاً لصنع شيء أشبه بالقبعة الصغيرة Hütchen... لكن الجدة كانت تقول Hüttchen أي كوخاً صغيراً وحتى لو كرر المرء أمامها النطق

الصحيح مئة مرة، كانت تصر على النطق الخطأ، وبرغم أن فريكل لم يكن معه قط عند جدته إلا أن ماركوس كان يخجل من ألمانية جدته بلكنتها الروسية الحادة.

سيظل مقعدك خالياً، سمع اللاقسيسة تتكلم. للحظة شعر وكأن حجراً في حلقه، ربما لأنه اضطر إلى التفكير في كرسي المطبخ الصغير الذي كان يقف عليه بركبتيه في أثناء صنع البيلميني. ثم سمع صوت أحدهم ينتحب وعاد ثانية إلى الحاضر. رأى النخلات البلاستيكية.

رأى المنصة المغطاة بإهمال بالقماش الأسود.

شعر بقدميه المتألمتين من البرد.

وعلينا أن نتحمل... قالت اللاقسيسة.

توقفت قليلاً.

حان الوقت.

ازداد النحيب. مسح الرأس الأحمر المزرق أيضاً دمعة عن عينيه. لكن كلما ازداد النحيب حوله خفت إحساسه.

علينا أن نودعك.

سكون.

شكراً لك.

دارت الموسيقى الصاخبة ثانية. فجأة لا يدري أحد من أين؟ ظهر رجل قزم وكأنه سمكة متقلصة مرتدياً زياً قديماً للعاملين بالسكة الحديد، كما اعتمر طاقية مثبتة برباط عند الذقن. حمل القزم هذا الشيء الذي يشبه المزهرية من قاعدته. حمله مثل تورتة أو مثل كأس رياضية



twitter @baghdad_library

وسار ببطء وخلفه الآخرون وأول القادمين كان أباه وجده كورت. كوّن الواقفون أمام الباب تلقائياً ما يشبه لجنة التشريفات على الجانبين، ووقف ماركوس فجأة في مقدمة هذه اللجنة. كان بإمكانه أن يلمس أباه، لقد لمسه تقريباً! لكن أباه مر به من دون أن يلحظ وجوده.

ظل ماركوس واقفاً عند باب القاعة ونظر إلى الموكب الذي أخذ يزداد طولاً. سار الموكب بطول الطريق المشجر، ثم انحنى يميناً، وبعدما اختفى آخر السائرين فيه وراء المنعطف، انحنى مرة أخرى إلى اليمين، ثم زحف مجدداً بقيادة القزم الذي يعتمر طاقية عمال السكة الحديد مرة أخرى في الاتجاه المعاكس حتى توقف القزم. كان النجيل قد قلب تواً، في قطعة عريضة تشبه حوضاً لزرع الخضر، قُسم أحواضاً صغيرة كثيرة. في أولها كان ثمة زهور، وحيثما توقفت الزهور، كانت هناك حفرة في الأرض، تتسع لهذا الشيء الذي يشبه المزهرية. وفي اللحظة التي انحنى القزم ليضع الشيء الذي يشبه المزهرية في الحفرة، أدرك ماركوس شيئين:

أولاً لماذا ثبت القزم طاقية عمال السكة الحديد برباط أسفل ذقنه، وثانياً إن هذا الشيء الذي يشبه المزهرية هو جدته إيرينا.

في طريق العودة بدأت تمطر. كان معطف الجنود الذي يرتديه ثقيلاً. واحتاج إلى وقت طويل حتى دب الدفء في قدميه.

## ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩

ما زالت تشعر وكأنها مصدومة. بجهد جهيد انتهت من وداع الضيوف وصافحت الأيدي وابتسمت، وأومأت إلى أنيتا التي لم تمل التأكيد أن عيد الميلاد كان جميلاً برغم كل شيء... كما اعتذرت أيضاً لتسينك.

الآن وقفت في الصالون وتأملت الفوضى التي سببها فيلهلم... بدت لها المائدة القابلة للتوسيع وكأنها طائر مقتول. ارتفع لوحا المائدة في الهواء مائلين. أما الأجزاء الواقعة على الأرض فبدت مثل أحشاء حيوان نافق.

كان من الأفضل لو اتصلت بالدكتور زوس على الفور: حقائق ملموسة - ألم يقل ذلك؟

- رفيقة بوفيلايت، إنكِ تحتاجين إلى حقائق ملموسة.

الآن يمكنه أن يحصل على «حقائقه الملموسة».

خطت خطوة إلى الأمام، وتحسست سن المسمار الذي انغرز في لوح المائدة، ودقت على سبيل التجربة على الخشب. وتأكدت إن كان الصوت قريباً من ذاك الصوت البشع الناجم عن اصطدام لوح المائدة



twitter @baghdad_library

برأس تسينك، عندما استند إلى البوفيه وحاول أن يلتقط خيارة مخللة من طرفه... تسينك دون غيره! ما زالت تراه أمام عينيها ممسكاً بالنظارة المكسورة. مرتعشاً. عيناه الكبيرتان سبحتا في حيرة وسط وجهه...

من سيدفع ثمن النظارة؟

- سأبدأ الآن، قالت ليسبيت.

وقفت فجأة إلى جانبها.

- عظيم جداً، كنت أظن أنك ستقومين بعطلة أولاً.

استدارت ثم غادرت الغرفة. فكرت قليلاً أن تنسحب إلى غرفة البرج، لحظة كي تستعيد توازنها. كانت تلك هي الغرفة الوحيدة الباقية لها في هذا البيت. لكن صعود أربع وأربعين درجة جعلها تجفل وقررت أن ترضى بالبقاء في المطبخ.

في الردهة اصطدمت بفيلهلم. رفعت شارلوته يدها في الهواء وشعرت بانقطاع أنفاسها. قال فيلهلم شيئاً لكن شارلوته لم تسمعه ولم تنظر إليه. ابتعدت عن طريقه ودخلت سريعاً إلى المطبخ وأغلقت الباب وللاحتياط أدارت المفتاح في الباب. وأنصتت...

لا شيء. خشخشت أنفاسها فقط على نحو مريب. أدخلت يدها في جيب البنطال الأيمن لتتحقق إن كانت تحتفظ بقطرة الأمينوفيلين في مكانها. وكانت في مكانها. أحكمت شارلوته قبضتها حول زجاجة القطرة. أحياناً كان من المفيد أن تمسك بزجاجة القطرة الصغيرة وتعد إلى عشرة.

عدت إلى عشرة. ثم دارت حول المائدة المكدسة بأطقم القهوة

غير المغسولة وألقت بنفسها على كرسي صغير. قررت أن تتصل بالدكتور زوس في الصباح لتحصل على موعد. حقائق ملموسة!

برغم أنها قدمت له الكثير من «الحقائق الملموسة»! ألم تكن تلك «حقائق ملموسة»: حسابات شركات تركيب وتصليح الأقفال - نحو عشرة أو اثني عشر حساباً. لأن فيلهلم أمر بتركيب أقفال أمان في كل مكان ثم أضاع المفاتيح أو بمعنى أدق: خبأها ولم يتمكن من العثور عليها ثانية... ألم تكن تلك...؟ أو جريدة «نويس دويتشلاند» التي صار أخيراً يشطب بالأحمر على كل مقالة فيها، لكي لا ينسى ما قرأه. أو الرسائل التي كان يرسلها إلى كل المؤسسات الممكنة... بصراحة لم تكن الرسائل بحوزتها. لكن كانت لديها الردود. رد من تلفزيون جمهورية ألمانيا الديمقراطية لأن فيلهلم اشتكى من برنامج. لكن تبين أنه برنامج غربي. وماذا فعل فيلهلم؟ كتب إلى جهاز أمن الدولة، بخط متعرج أحمر وغير مقروء، أن جهاز «سوني» الذي استوردت منه جمهورية ألمانيا الديمقراطية بضعة آلاف ذو تقنية أوتوماتيكية عدائية تغير عمداً إلى القنوات الغربية...

وماذا قال هذا الدكتور زوس؟

- لكننا لا نستطيع وضعه في مستشفى المجانين بسبب ذلك يا رفيقة بوفيلايت.

مستشفى المجانين! من تحدث عن مستشفى المجانين؟ لكن بالتأكيد من الممكن أن يكون ثمة مكان مناسب لفيلهلم في إحدى دور الرعاية. ففيلهلم كان على أي حال عضواً في الحزب منذ سبعين عاماً، وحاصلاً على وسام الاستحقاق الوطني من الذهب - لم تحصل هي حتى على وسام فضي - ويردد: لدي صفيح كاف في الكرتونة!



twitter @baghdad_library

لحسن الحظ أن أمين عام المقاطعة لم يكن موجوداً. يا لها من فضيحة، ثم فقرة الغناء. برغم أنها نبهت على ليسبيت بوضوح، ألا يحصل فيلهلم على أي كحول. لقد كان من الصعب تحمله وهو صاحٍ. وطريقة تعامله مع الناس: اذهب بالخضر إلى المقبرة. ماذا كان يقصدً: اذهب بالخضر إلى المقبرة؟

لم تنر شارلوته مصباح المطبخ، لكن ضوء عمود الإنارة المائل إلى الزرقة في الشارع غمر المكان. وعبر الباب المفتوح المؤدي إلى مدخل الخدم كان يمكن رؤية الباب الذي كان يؤدي مباشرة إلى غرفة فيلهلم والذي سده فيلهلم قبل خمسة وثلاثين عاماً بالحجارة. ثم لاحظت في أثناء تفكيرها في ما كان يقصد فيلهلم بالمقبرة أنها كانت تحدق طوال الوقت إلى الباب المسدود. كان منظر الباب المسدود غير مريح لها. نهضت وأغلقت الباب المؤدي إلى مدخل الخدم السابق. ثم ألقت بنفسها مرة أخرى على الكرسي الصغير.

إذا ما خرج فيلهلم من البيت فستفتح هذا الباب ثانية، هكذا فكرت. من السفه أن تقوم دائماً بهذه اللفة المعقدة، دائماً تدور وتلف وكأنه ليس لديها شيء آخر تفعله. في كل مرة تحتاج إلى شيء من المطبخ عليها أن تلف وتدور. عندما تبحث عن ليسبيت لا بد أن تلف وتدور. كم لفت ودارت في هذا اليوم وحده! حقائق ملموسة! أيضاً من الحقائق الملموسة، كيف دمر فيلهلم البيت شيئاً فشيئاً. أينما نظر المرء وجد حقائق ملموسة!

ربما كان عليها تصوير كل شيء، فكرت شارلوته. للأسف لم يكن لديها كاميرا. أما كورت فلديه كاميرا لكنه لن يفعل ذلك بالطبع. هل لدى فاييه كاميرا؟ ذات فلاش؟ هذا مهم! لكان النور منطفئاً في الردهة، وفضلاً عن ذلك قد أعتم فيلهلم نافذة الردهة كي لا يتجسس

عليه الجيران عندما يذهب إلى النوم. وحدها القوقعة التي اشترياها في الماضي من بوشوتلا كانت مضاءة ليل نهار. وعلى نحو ما لا بد أن يكون المرء مسروراً لعدم وجود مصدر ضوء آخر سوى القوقعة، حتى لا يرى ما فعله فيلهلم: طلاء الأرضية! ألم يكن ذلك «حقيقة ملموسة»؟ لقد طلى خزانة المعاطف والدرج والدرابزين... والآن هو بصدد طلي كل الأبواب في الطبقة العلوية! كل ما هو خشبي طلاه فيلهلم بطلاء أرضية أحمر بني وقال إن طلاء الأرضية الأحمر البني هو الأكثر تحملاً!

أو الحمّام. لا بد أيضاً من تصويره. كله مدمر. لقد هدم كل شيء بالمطرقة الكهربائية. حطم الفسيفساء التي لا يمكن أبداً الحصول على مثلها ثانية. ولماذا؟ لأنه أراد تركيب ماسورة صرف أرضية. ماسورة صرف أرضية! ومنذ تلك الساعة انقطعت الإضاءة في الردهة. حسناً، لقد كان ذلك خطيراً جداً! اتصال الكهرباء بالماء! حقائق ملموسة...

لم يصنع فيلهلم طوال الوقت شيئاً سوى الحقائق الملموسة. عموماً لم يعد يفعل شيئاً آخر. كان يتدخل في أشياء لا يفهمها. يصلح أشياء لتخرب ثانية. ولو لم تضع ملعقة أو ملعقتين من قطرات الناردين في الشاي ليهدأ، فمن يدري ربما احترق المنزل أو انهار منذ فترة أو ربما ماتت هي مختنقة بالغاز!

أو عملية الشرفة. لقد كانت الأسوأ على الإطلاق. لماذا لم تفعل شيئاً لتمنعه؟ لماذا لم تتصل بالشرطة؟ قال: سنتمتران فقط، ولم تدر بالضبط لماذا: لأن الطحالب بين ألواح الحجر الطبيعي كانت تزعجه! لذا قرر أن يغطي أرضية الشرفة بالخرسانة. بمعنى أصح قام شلينغر وميليش بفعل ذلك وفيلهلم أعطاهما الأوامر. كان يفرد حبلاً ما ويعبث بالمقياس. وماذا كانت النتيجة؟ دخل ماء المطر إلى حديقتها الشتوية،



twitter @baghdad_library

وفكك الأرضية الباركيه. وانتفخ الباب المؤدي إلى الشرفة ما أدى إلى تحطم زجاجه...

وماذا قال هذا الدكتور زوس؟

- هذا شيء مؤسف.

مؤسف! قرة عينها! مكان عملها ونومها! مكان عزلتها! تلك القطعة الصغيرة من المكسيك التي حافظت عليها على مدى سنوات - دُمرت. والآن صارت تصعد الأربع وأربعين درجة مرات عديدة إلى غرفة البرج، حيث كانت الريح تصفر عبر الشقوق، وتضطر إلى الالتحاف بأغطية كي تجلس على المكتب، وفي الأيام الحارة كانت لها رائحة الغبار وألواح السقف - رائحة تذكرها على نحو مهين برائحة الغرفة التي اعتادت أمها أن تحبسها فيها، عندما كانت تعاقبها.

مجرد التفكير في هذا الأمر جعل أنفاسها تخشخش. فكرت، ما إذا كان عليها أن تأخذ عشر قطرات أخرى من الأمينوفيلين. لكنها أخذت اليوم جرعتين منه وقد قال لها د. زوس إن الجرعات الزائدة قد تؤدي إلى شلل في عضلات الجهاز التنفسي، ومنذ ذاك الوقت وهي تخشى أن تتوقف أنفاسها. تخشى أن تتوقف أنفاسها فجأة في الليل وأن تتوقف عن الوجود دون أن تلحظ ذلك... لكنها لن تصنع هذا المعروف لفيلهلم. فهي مازالت موجودة وقد اعتزمت أن تظل موجودة. ما زال أمامها مشاريع كثيرة - إذا ما غادر فيلهلم البيت. كل الأشياء التي حال فيلهلم دون قيامها بها: الحياة والعمل والسفر! الذهاب مرة أخرى إلى المكسيك...

تراءى لها الآن وكأنها سمعت صوت خدش بالباب. أم كان هذا

صوت أنفاسها؟ لم تتحرك شارلوته من مكانها ونظرت لتتحقق إن كان مقبض باب المطبخ يتحرك أم لا، لكن عوضاً عن ذلك... أصابتها قشعريرة: فقد انفتح ببطء، ببطء شديد جداً انفتح الباب المؤدي إلى مدخل الخدم الذي أغلقته تواً وظهر في ضوء درج القبو الخافت شيء مخيف ومنحن ذو شعر واقف...

- ناديجدا إيفانوفنا، صرخت شارلوته، لقد أفزعتني!

تبين أن ناديجدا إيفانوفنا كانت تبحث عن معطفها وتاهت في القبو. لقد أمرت شارلوته فعلاً بأن توضع كل المعاطف في القبو لأن خزانة المعاطف كانت قد اكتظت بالمزهريات، لكن ليسبيت أعادت المعاطف إلى أعلى عندما بدأ الناس ينصرفون. ولم تحصل ناديجدا إيفانوفنا على معطفها، فظنت أنه على الأغلب في القبو لكنه لم يكن، هذا أقله ما تقوله ناديجدا إيفانوفنا. بدأ الأمر تدريجاً يثير أعصاب شارلوته، فقد كان لديها أمور أهم من معطف ناديجدا إيفانوفنا!

ثم وجدتا المعطف معلقاً في خزانة المعاطف. فكرت شارلوته لحظة، إن كان عليها أن تستجوب ليسبيت بهذا الشأن: لماذا في خزانة المعاطف؟ بدلاً من ذلك نزعت المعطف من شماعته وأعطته لناديجدا إيفانوفنا.

- أين كورت، خطر لها الآن. لماذا لم يأخذها معه؟

- ني سانيو، لا أعرف، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

ثم بحثت عن كمي معطفها، الأول ثم الثاني، ووضعت الشال حول رقبتها بشكل صحيح وأغلقت أزرار معطفها زراً زراً فيما كانت شارلوته تتنقل ما بين قدم وأخرى. تحققت ناديجدا إيفانوفنا مرتين أن سلسلة مفاتيحها معلقة في رقبتها، وتحققت مرة أخرى من أزرار المعطف



twitter @baghdad_library

وبحثت عن حقيبة يدها، ثم قالت بعد أن تذكرت أنها لم تجلب معها حقيبة يد:

- نو فزيو بوييدو، أي سأذهب راكبة.

- لماذا تركبين؟ قالت شارلوته، بيشكوم، أي على قدميك!

- نييت، بوييدو، أصرت ناديجدا إيفانوفنا على الركوب، دوموي، أي إلى البيت!

على الأرجح، فكرت ناديجدا إيفانوفنا أنها لا تريد أن تسير وحدها في الظلام. هرعت إلى الصالون واتصلت بكورت كي يأتي لإحضارها - لكن أحداً لم يرد عبر الهاتف. شيء غير معقول، أن يترك السيدة العجوز ويمشي هكذا! فكرت قليلاً وطلبت تاكسي.

- ساديتيس، أي اجلسي، قالت لناديجدا إيفانوفنا، سييتشاس بوديت تاكسي، أي سأطلب تاكسي!

- نييت، نيه نادا تاكسي، أي لا حاجة لي بتاكسي، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

- ناديجدا إيفانوفنا. قالت شارلوته. يا أوتشيني سانياتا! أي لدي الكثير لأعمله. من فضلك اجلسي هنا وانتظري التاكسي.

لكن السيدة لم ترد تاكسي. لم ترغب في السير ولم ترغب في ركوب تاكسي. هذا التردد أثار أعصاب شارلوته.

- سباسيبا سا فزيو، شكراً على كل شيء، قالت ناديجدا إيفانوفنا.

وقبل أن تنتبه شارلوته كانت السيدة العجوز قد عانقتها وطوقتها بذراعيها اللتين تشبهان ذراعي قرد. حاولت شارلوته عبثاً أن تبعد أنفها

عن شال ناديجدا إيفانوفنا الذي له رائحة النفتالين والعطر الروسي - مزيج من معمل الأسلحة.

ثم خطت ناديجدا إيفانوفنا إلى الخارج في الظلام. وبقيت شارلوته واقفة في الهواء الطلق وتتبعت بنظرها السيدة العجوز وهي تسير منحنية بخطى قصيرة جداً تجاه بوابة الحديقة وتختفي. طارت ورقة شجر بلا صوت عبر مخروط ضوء عمود الإنارة وهُرعت شارلوته لتدخل قبل أن يدهمها حزن الخريف.

وقفت لحظة مترددة في الردهة. كا ن لا يزال هناك الكثير من العمل، من أين تبدأ؟ في المدخل بدت الأمور على ما يرام. لا بد من التخلص من الزهور فقط، لكن بالطبع ما زال ثمة وقت. لكن المزعج أنهم لم ينجحوا مرة أخرى في كتابة الأسماء على المزهريات، فكرت شارلوته وهي تنظر إلى البطاقات اللاصقة التي أحضرتها إيرينا كعادتها في آخر لحظة، ولهذا لم يكن ثمة وقت لكتابة الأسماء على المزهريات. فإذا ما وُضعت المزهرية إلى جانب الأخريات لم يعد ممكناً منطقياً معرفة صاحبها - وهي حقيقة يدركها الجميع ماعدا ليسبيت التي ألصقت برغم ذلك البطاقات على المزهريات. وهكذا اصطفت المزهريات ببطاقات لاصقة فارغة... ولكن ما هذا؟

إحدى البطاقات اللاصقة كُتب عليها شيء ما. اقتربت شارلوته، فوجدت حروفاً حمراء بخط فيلهلم المتعرج:

تشوف. كتب فقط: تشوف.

حقائق ملموسة. نزعت شارلوته البطاقة اللاصقة عن المزهرية لتضعها في العلبة الحديدية التي تحفظ فيها منذ فترة كل الوثائق المهمة: لم يكن يمكنها الوثوق بليسبيت. كانت تتجسس لمصلحة



twitter @baghdad_library

فيلهلم. لكن العلبة الحديدية كانت على بعد أربع وأربعين درجة سلم. وهذا الشيء اللزج من الممكن أن يلتصق داخل جيب البنطال. لهذا ألصقته موقتاً بسترتها التريكو.

ذهبت إلى الصالون واتصلت بفاييه وسألته إن كان لديه كاميرا.

- نعم لدي واحدة. قال فاييه.

- سأتصل بك لاحقاً. قالت شارلوته ووضعت السماعة. ثم اتصلت بفاييه مجدداً وسألته إن كان لديه فلاش.

- نعم عندي، قال فاييه.

- سأتصل بك لاحقاً. قالت شارلوته ووضعت السماعة.

إنه لشخص رائع، فاييه. كلاهما، روزي أيضاً مع أنها كانت مريضة جداً، كان يمكن دائماً الاعتماد عليهما. تساءلت شارلوته إن كانت قد شكرت فاييه على جمعه للمزهريات. وللاحتياط اتصلت به مرة أخرى وشكرته على جمع المزهريات.

- لكنك شكرتني بالفعل يا سيدة بوفيلايت.

- سأتصل بك لاحقاً، قالت شارلوته ووضعت السماعة.

ثم التفتت إلى مهامها. كان لا يزال هناك الكثير من العمل والآن ولأنها بدأت تنشط تدريجاً، أثار استمرار وجود ليسبيت تحت المائدة القابلة للتوسيع أعصابها. كانت مؤخرتها تنظر إلى الخارج.

- ماذا تفعلين هنا؟ سألت شارلوته.

ومن دون أن ترد على السؤال، قالت ليسبيت:

- قولي لي يا لوتي أليس لدينا وعاء بلاستيكي في المطبخ؟

- ماذا؟ وعاء بلاستيكي، كل هذا سيلقى به في القمامة.

- في القمامة؟

- في القمامة، أليس كلامي واضحاً!

- لكن خسارة يا لوتي! إذن سآخذه معي، إذا لم تريدي الاحتفاظ به.

- ماذا، تأخذينه معك؟ قالت شارلوته وخطر في ذهنها في هذه الأثناء أنه من الأفضل لو صورت البوفيه المنهار قبل أن تقوم ليسبيت بالتنظيف والترتيب.

لكن جرس الباب رن. من يرن في هذه الساعة؟ شيء مزعج، فكرت شارلوته، لا مجال للمرء أن يفعل أي شيء.. خطت غاضبة عبر الردهة وفتحت الباب.

- تاكسي، قال الرجل.

- شكراً، لقد قُضي الأمر. قالت شارلوته وأرادت إغلاق الباب. لكن السائق أصر على دفع أجرة فتح العداد.

أجرة فتح العداد، فكرت شارلوته، يا للعجب!

لكن كان لديها أمور أهم من الشجار مع سائق التاكسي. أعطته عشرة ماركات في يده وقبل أن يرد لها الباقي، كانت قد أغلقت الباب في وجهه من قلة صبرها. هرعت إلى الصالون وأمرت ليسبيت:

- انتهي الآن!



twitter @baghdad_library

كان لا يزال لا يُرى من ليسبيت سوى مؤخرتها. وتدريجاً تراءى لشارلوته أنها تتكلم مع مؤخرة ليسبيت.

- لوتي، لا يمكننا أن نترك الزجاج ملقىً هكذا!

- لدينا ما هو أهم. قالت شارلوته. مازال أمامنا كل الأطباق في المطبخ ولا بد من إعداد شاي فيلهلم المسائي من الآن، وإلا فسيشتكي بأنه ساخن.

- سأقوم أنا بغسل الأطباق لاحقاً، قالت ليسبيت، وبإمكانك أن تعدي شاي فيلهلم قبل أن أقوم أنا من هنا.

- طبعاً، قالت شارلوته. معذرة لقد نسيتُ أنك أنت سيدة البيت هنا!

ومشت غاضبة إلى المطبخ. وأغلقت احتياطاً الباب بالمفتاح. وأنصتت.

خشخشت أنفاسها.

لم يكن عليها قط أن ترفع الكلفة بينها وبين هذا المرأة، فكرت شارلوته. لا احترام، ولا ذرة منه. تحتال عليها وتفعل ما بدا لها... لو خرج فيلهلم من البيت، فستطرد ليسبيت.

أحكمت قبضتها على الزجاجة الصغيرة في جيبها وعدت إلى عشرة، ثم ملأت الإبريق الصفّار ووضعته على الموقد.

الغريب أن الباب المؤدي إلى مدخل الخدم قد فُتح من جديد. كما أن أحداً قد نسى أن يطفئ نور درج القبو. سقط ضوء خافت على ذاك الباب الذي سده فيلهلم قبل خمسة وثلاثين عاماً، وبرزت الخطوط

المميزة لقوالب الطوب في الجدار... أطفأت نوره القبو بسرعة وأغلقت الباب المؤدي إلى مدخل الخدم.

إذا ما غادر فيلهلم البيت، هكذا فكرت، فستقوم بفتح هذا الباب المسدود. شيء غبي، هذا كل ما في الأمر! كان جرس الخدم أول شيء ألغاه آنذاك: لأنه يمثل انتهاكاً للشرف البروليتاري! لكن لا ضير من أن تصرخ حتى تدمي حنجرتها، عندما تختفي ليسبيت مجدداً في مكان ما في المنزل. لم يكن ذلك انتهاكاً للشرف البروليتاري. لقد تخطت السادسة والثمانين من العمر. ألا يؤخذ ذلك في الحسبان. وكانت عضواً في الحزب طوال اثنين وستين عاماً. أصبحت مديرة للمعهد برغم أن تعليمها لم يتعد أربع سنوات بمدرسة التدبير المنزلي! ألا يؤخذ ذلك في الحسبان؟ ألا يحتسب شيء سوى شرف فيلهلم البروليتاري؟

شعرت على حين غرة بالوهن.

أغلقت عينيها. بدأ الماء يبقبق ويدمدم في الإبريق... وبعدها سيمتزج بهذه الأصوات هسيس خافت، كانت تعرف بالضبط توالي هذه الأصوات. لقد جلست مئات بل آلاف المرات بجانب الإبريق الصفار، وأنصتت إلى همس الماء وكانت أمها تضربها بلوح تقطيع الخبز على أم رأسها، إذا ما صدرت من الإبريق ولو مجرد بداية صفير: كان لا بد من توفير الغاز كي يستطيع أخوها إكمال دراسته. من أجل ذلك كانت تحرس الإبريق الصفار والغريب أنها بعد أن صارت في السادسة والثمانين ومات أخوها منذ فترة طويلة، ما زالت تحرس الإبريق الصفار... لماذا؟ فكرت، فيما كان الهسيس يتحول إلى هدير منتظم، لماذا كانت هي المكلفة دائماً حراسة الإبريق الصفار... فيما جاز لآخرين أن يدرسوا... وحصل آخرون على أوسمة الاستحقاق الوطنية...



twitter @baghdad_library

توقف الهدير وتحول إلى بقبقة مكتومة. نهضت شارلوته وأطفأت نار الموقد، بالضبط في اللحظة التي كان الإبريق على وشك الصفير. أعدت شاي فيلهلم المسائي بحركة آلية وأحضرت قطرات الناردين من خزانة أدوات التنظيف الموجودة تحت الحوض. ووضعت منها مقدار ملعقة طعام. وأخفت قطرة الناردين في جيبها... توقفت قليلاً. فجأة صار لديها زجاجتان صغيرتان في جيبها: كلتاهما من الحجم نفسه ويصعب التمييز بينهما...

فكرة مضحكة. أخذت شارلوته قطرة الناردين من جيب بنطالها ووضعتها مرة أخرى في الخزانة، وعادت إلى عملها.

كانت ليسبيت لا تزال تحت المائدة.

- ما زلت تحت المائدة. قالت شارلوته.

حركت ليسبيت مؤخرتها لتخرج ببطء لا متناه من تحت المائدة. وسحبت وراءها الدلو الملآن بشظايا الزجاج المكسور وكذلك عدة أوعية جمعت فيها قطع الزجاج التي يمكن استخدامها ثانية.

- هل أحضرت بعض الأوعية البلاستيكية؟ سألت ليسبيت فيما كانت تمسك بقطعة سجق في يدها.

- ماذا، أوعية بلاستيكية؟ سنلقي بهذه الأشياء في القمامة.

- لن نلقي بها في القمامة. قالت ليسبيت وقضمت من قطعة السجق.

تأملت شارلوته وجه ليسبيت وهي تمضغ. كان فك ليسبيت السفلي يتحرك جانباً بعض الشيء، طاحناً كالحيوانات المجترة. ظلت شارلوته تتأمل بعض الوقت فك ليسبيت السفلي. ثم أخذت قطعة السجق من يدها وألقت بها على كومة الحطام التي تبقت من البوفيه البارد. ثم

أخذت اثنين من الأوعية التي جمعت فيها ليسبيت بقايا الزجاج وألقت بهما وراءها.

- ماذا تفعلين؟ صاحت ليسبيت ووضعت يدها لتحمي بقية الأوعية.

أخذت شارلوته الدلو الملآن بالزجاج المهشم وأفرغته أيضاً.

- ماذا تفعلين! الآن سمعت صوت فيلهلم.

- عليك ألا تتدخل. قالت شارلوته. لقد خربت اليوم بما فيه الكفاية.

- لماذا أنا؟ تسينك هو السبب. قال فيلهلم.

- آه، لقد كان تسينك إذن! قهقهت شارلوته من فرط غضبها: الآن تسينك هو السبب! لقد قلت لك ألا تقترب من المائدة القابلة للتوسيع!

- أي نعم، قال فيلهلم. ألكسندر سيقوم بذلك. وأين هو هذا الألكسندر؟

- ألكسندر مريض.

- هراء، غير موثوق به سياسياً.

- كفاك هذراً، قالت شارلوته.

- غير موثوق به سياسياً، كل العائلة! متسلقون، وانهزاميون!

- كفى، قالت شارلوته. لكن لم يكن من الممكن إيقاف فيلهلم.

- ها هو! - وضحك وهو يشير إلى البطاقة اللاصقة على سترة شارلوته التريكو، ثم صاح، إذن لدينا الدليل. إنك تقومين بالدعاية للخونة!... ثم أخذ يعوي فجأة، رفع رأسه وأخذ يعوي تجاه السقف:



twitter @baghdad_library

تشوف، تشوف - تشوف، وفي اللحظة التي قررت شارلوته أن تعتبره مجنوناً فعلاً، نظر إليه نظرة رائقة تماماً.

- كانوا يعرفون، لمَ...

-لمَ ماذا؟ سألت شارلوته.

- لماذا كانوا يحبسون مثل هؤلاء الناس؟ قال فيلهلم، ثم أضاف بعد برهة: هؤلاء من أمثال ولديك.

أخذت شارلوته نفساً عميقاً ولم تستطع الزفير... نظرت إلى فيلهلم... لمعت جمجمته، عيناه ومضتا في وجهه المصقول بجهاز التسمير الاصطناعي... الشارب - هل كان دائماً صغيراً هكذا؟ - وتراقص فوق شفة فيلهلم العليا، لم يزد في حجمه عن حشرة. كان يتراقص ويدور ويطن أمام عينيها... ثم اختفى فيلهلم. بقيت كلماته فقط، أو بمعنى أدق آخر كلماته. أو بدقة أكثر آخر كلمة.

- وماذا أفعل الآن؟ صوت ليسبيت. هل أجمع كل هذه الزبالة مرة أخرى؟

- الآن عليك أن تذهبي إلى بيتك. قالت شارلوته.

لم يبد أن ليسبيت قد فهمت. حاولت شارلوته أن تتكلم بصوت أعلى:

- قلت إن عليك أن تذهبي إلى بيتك الآن.

- لكن يا.. ما هذا يا لوتي؟ لا يمكنني أن...

- لقد طُردت، وستغادرين البيت في خلال ثلاث دقائق.

- لكن يا لوتي..

- ولا تناديني بلوتي وإلا سأطلب لك الشرطة.

ذهبت إلى الردهة وجلست على الكرسي الذي تستخدمه عادة للبس وخلع أحذيتها وانتظرت حتى انصرفت ليسبيت.

ثم انتظرت حتى توقفت يداها عن الارتعاش.

ثم ذهبت إلى المطبخ وأغلقت الباب بالمفتاح وأنصتت.

كانت أنفاسها هادئة.

صبت شاي فيلهلم المسائي في فنجان شايه المسائي. أخذت القطرة من جيب بنطالها. وضعت منها ملعقتي طعام في الشاي. صعدت ثماني عشرة درجة إلى الطبقة العلوية ووضعت الفنجان على «الكومود» المجاور لسرير فيلهلم.

ثم دخلت إلى الحمّام ونظفت أسنانها. ثم صعدت ستاً وعشرين درجة إلى غرفة البرج. خلعت ملابسها وطبقتها قطعة قطعة ووضعتها كلها على الكرسي. نزعت البطاقة اللاصقة عن سترتها التريكو وألقت بالورقة في السلة.

وضعت الجورب في حذائها.

وارتدت بسرعة قميص نومها القطني ورقدت على السرير. قرأت لبعض الوقت «أوليفر تويست» لتشارلز ديكنز. وبرغم أنها كانت تعرف الكتاب وقرأته قبل أربعين عاماً، لكن شارلوته كانت تفضل أخيراً قراءة كتبها المفضلة التي كانت تعرفها وتحبها والتي نسيتها، بحيث تستمتع بإثارة لا تقل عن قراءتها للمرة الأولى.

عندما جُرح أوليفر ورقد فاقداً الوعي في الحفرة، أغلقت شارلوته



twitter @baghdad_library

الكتاب، لكي تبقي قراءة حل عقدة الحكاية حتى الصباح الباكر.

أطفأت النور. كان الليل صافياً. وظهر هلال رقيق في السماء. تذكرت مرة أخرى وجه ليسبيت الماضغ. وفكرت في الخادمة التي كانت لديها في المكسيك: كائن رقيق بلا صوت - طبعاً - وكانت دائماً تخاطبها بـ Señora. للأسف لم تتذكر اسمها. لكنها تذكرته بعد ذلك: غلوريا! ترى ما الذي جرى لها وإلام آل مصيرها؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟

بقيت عيناها مفتوحتين بعض الوقت وفكرت في غلوريا وفي شرفة السطح. وفي الهلال المكسيكي الذي كان مائلاً على الجنب دائماً. كان أقرب إلى السفينة منه إلى الهلال. ثم حضر أدريان أمام عينيها.

كانت تعرف بالطبع أنه كان حلماً. مع ذلك حاولت أن تتحدث معه. حاولت أن تقنعه برغم أنها كانت تدرك أنه جزء من الحلم - هذا الحلم الذي يتكرر منذ عبورها المحيط عائدة من المكسيك. كان أدريان ينظر إليها. كانت ثمة بقع ضوئية في وجهه، بدت مثل انعكاسات سائل متحرك. كان مظهره جيداً، لكنه شبحي قليلاً. برغم ذلك سارت وراءه. هبطا إلى الأسفل إلى غرفة الماكينات. سارا عبر متاهة من الممرات والسلالم. استغرق الأمر وقتاً وكلما طال الوقت شعرت بالوحشة أكثر. جرت وراءه، وبالرغم من أنه كان يسير بخطوات هادئة فقد وجدت صعوبة في اللحاق به. لقد سبقها أدريان كثيراً. رأته ينعطف في ممر وظل ينعطف فيه وظلت تتبعه، برغم أن الباب في آخر الممر كان مسدوداً.

هل صدقت شارلوته. وهل تعرف إن كانت قد صدقت في الحلم أم

لا. وهل كانت تصدق دائماً في الحلم أم في هذه المرة فقط. أم أنها كانت تعتقد كل مرة أنها صدقت هذه المرة فقط.

كان الباب مفتوحاً. خطت شارلوته عبره. الآن كان أدريان موجوداً مرة أخرى، كان يبتسم. لمسها بلطف، وجعلها تستدير - وأحسّت شارلوته بشعر قفاها يقف: كواتيلكو. الحية ذات الريش. كواتيلكو بوجه الحيتين. بعقدها المصنوع من القلوب المنزوعة من الصدور.

وأحد هذه القلوب، ذاك الذي هناك، كان قلب فيرنر. إنها تعرف ذلك.



twitter @baghdad_library

## ٢٠٠١

ترجح بخفة وكان يدفع بأطراف أصابعه درابزين الشرفة ليواصل الترجح. صمتت الأصوات الألمانية الجنوبية التي كانت تتناهى إليه متفرقة من المائدة الكبيرة. كما انكتم أيضاً صوت الصراخ والضحك الذي كان يأتي أحياناً من القرية، وهدير محركات السيارات وأصوات الراديو الشبحية، التي كانت تتطاير بين الفينة والأخرى إلى هنا، والدق والقرع الآتيان من مطبخ بيت الضيافة. حتى سعف النخيل توقف عن الحفيف. بدا العالم ساكناً لحظة وسط حرارة ما بعد الظهيرة العظمى.

ظل فقط الصرير المنتظم للحبل المصنوع من ألياف القنب، وصخب البحر البعيد العديم الفائدة مسموعين.

حالة هدهدة. سلبية جنينية.

بعدما صحا لاحقاً من نومه المتقطع، وتمكن من التغلب على الجاذبية الأرضية التي كانت تبقيه بنعومة لا تقاوم غارقاً في السرير المعلق، وبعد أن أحضر قهوة وحيا بنظرة سريعة من فوق فنجان القهوة السائحين الجوالين اللذين وصلا تواً، وانبهرا مثله تماماً لدى وصولهما بالمنظر عبر الشرفة - سيجلس لاحقاً كما كان يفعل كل يوم على الدكة الموجودة خلف جناح فريدا كالو، حيث يمكن المرء رؤية سطوح

الأكواخ المصنوعة من الصفيح المموج التي يسكنها العاملون لدى «إيفا وتوم»، وسيقرأ الجريدة.

الجريدة نفسها دائماً. دائماً الجريدة التي عليها صورة الطائرة التي تخترق بناية عالية. قرأ ببطء. عاود قراءة المقالات مراراً وتكراراً حتى فهمها بقدر ما.

لم يفهم كل شيء.

فهم أن الرئيس الأميركي قال: إن المرء يخوض معركة تاريخية ضد الشر وإن أميركا هي منارة الحرية الأكثر إشعاعاً.

فهم أنه ما زال جزء من سكان أميركا اللاتينية يعاني الجوع، وثمة جزء يتغذى بالنفايات.

فهم أن الاستعدادات تجري على قدم وساق لإدخال اليورو وسيلة للدفع، وأن بورصات العالم سجلت خسائر كارثية.

ما لم يفهمه هو لماذا سجلت بورصات العالم خسائر كارثية؟ ما الذي يربط بين قيمة - أسهم شركة البريد مثلاً - وانهيار مبنيين في الولايات المتّحدة؟ هل سيقل عدد الرسائل المرسلة؟

ما لم يفهمه أيضاً ولن يفهمه لو قرأ اليوم بعد الظهر هذا المقال عن الفقر في أميركا اللاتينية لثالث أو رابع مرة - أو أقله سيكون ما فهمه غريباً جداً لدرجة أنه سيشك في أن ما فهمه صحيح: وتحديداً أنه قد تطورت في مقالب النفايات في حواضر أميركا اللاتينية سلالة من البشر القصار القامة، يقال إن لديهم قدرة أفضل على البقاء على قيد الحياة وسط مقالب النفايات.

بعد قراءة الجريدة سيذهب مرة أخرى إلى الشاطئ، ويجلس على



twitter @baghdad_library

كرسي البحر الخشبي الذي ثُبتت إلى جانبه مظلة زرقاء، دفع ثمناً باهظاً لإيجارها في اليوم الأول (وتُركت منذ ذلك الحين منسية على الشاطئ) وسيشاهد منظر الغروب.

سيكون غروب الشمس كما كان دائماً. كل مشاهد الغروب الباسيفيكية متشابهة، هكذا تبين له: هائلة وحمراء وتتميز بلامبالاة - لا يدري إن كانت مريحة أم مثيرة للقلق.

عزيزتي ماريون، في الفترة الأخيرة كثيراً ما أفكر فيك، وكثيراً ما يكون ذلك لأبسط الأسباب، وبصراحة، أحياناً أفكر فيك لسبب غير مفهوم. قد يكون مفهوماً أن تخطري لي وقت الغروب. لكن لماذا تخطرين ببالي عندما أنظر إلى المظلة الزرقاء، برغم أنك تكرهين اللون الأزرق؟ لماذا تخطرين لي عندما ينطلق سرب طيور من فوق أسلاك الكهرباء؟ لماذا أتذكرك عندما أضع يدي فوق الرمل الفاتر؟

عندما تغرق الشمس بلا رجعة في البحر، سيكون هو الزبون الوحيد الذي يجلس إلى مائدة بلاستيكية بيضاء في مطعم «ألمار» ويأكل السمك. سيشرب كأس نبيذ أبيض. وسينظر إلى وميض السماء الصدفي، الذي يتطابق لونه تماماً مع لون باطن قوقعة الجدة شارلوته الكبيرة المضيئة.

سيتعجب من اعوجاج الهلال. وسيبحث (من دون نجاح) عن مجموعات النجوم المائلة إلى الجنب.

وعندما يسود الظلام تماماً، سيصعد دون تعجل إلى «إيفا وتوم»، حيث ستكون الجلسة التي تهيمن عليها الأصوات الألمانية الجنوبية مستمرة حول طاولة الشرفة. كان معظمهم معارف إيفا الهندية، الذين يتجمعون هنا سنوياً في هذا الوقت من العام: رجل أبيض الشعر يدخن

بشراهة ويرتدي قميصاً واسعاً موشى بالزهور، وآخر أصغر، أصلع وينام مع المدخن الشره في الغرفة نفسها. وامرأة ذات سن مخلوعة ترتدي فستاناً من الباتيك صبغته بنفسها. ورجل آخر أطلق عليه ألكسندر اسم القبعة القش، لأنه يرتدي في كل الأوقات قبعة متهرئة من القش، تناسب ملابسه البالية التي كانت فيما مضى من الكتان الأبيض. وأحد سائقي دراجات الهارلي البخارية الذي يضع عدة حلقات.

حكى سائق الهارلي (الذي تبين لاحقاً أنه ممثل العاملين في مستشفى كبير بإحدى المدن الألمانية) لألكسندر أنهم جميعاً ماعدا الأصلع قد تعارفوا هنا في السبعينيات، وأن إيفا وتوم بقيا هنا وحولا هذه المحششة التي كانت مفتوحة لكل من هب ودب، شيئاً فشيئاً إلى بيت للضيافة. وقبل أن يعرف من سائق الهارلي أن توم قد مات، ظن ألكسندر أن القبعة القش هو توم، ربما لأنه كان أعلاهم صوتاً، وكان دائماً يتكلم عن إصلاحات وتعديلات، وكان يشكو دائماً من خمول المكسيكيين وعدم إمكان الاعتماد عليهم:

المكسيكي الطيب هو المكسيكي الميت. سيقول ذلك في هذه الليلة عندما يعرج ألكسندر من الدرج إلى الشرفة، وسيقهقه الرجل ذو القميص الموشى بالزهور، كما لو كان يضحك على نكتة، كان من الممكن أن يحكيها بنفسه لأنه يعرفها. وستظل بطنه تتقافز من فرط الضحك تحت القميص الواسع ذي الزهور.

أسوأ شيء - أسوأ شيء؟ - يكون في الليل عندما أرقد تحت الناموسية وأسمع عبر الجدران البائسة لهذه الغرفة الخشبية هؤلاء الهيبيين المسنين وهم جالسون في الخارج يروون حكاياتهم. عندئذٍ بالذات أفكر فيك؟ لماذا إذن؟ لأنني أشعر بالإقصاء؟ لأنني أشعر بأنني



twitter @baghdad_library

لا أنتمي إليهم؟ لكنني كنت أشعر دائماً طوال حياتي بعدم الانتماء، برغم أنني كنت أرغب طوال حياتي في شيء أنتمي إليه، في أي مكان، إلا أنني لم أجد قط هذا الذي كنت أرغب في الانتماء إليه. هل هذا شيء مرضي؟ هل ينقصني جين معين؟ أم أن لذلك علاقة بتاريخي؟ بتاريخ عائلتي؟ إن أردت أن أكون صريحاً فسأقول إنه لا يوجد شيء يجذبني، عندما أرقد تحت الناموسية، إلى الخارج، إلى هذه المائدة. ومع ذلك أشعر، عندما أسمع ضحكهم، بحنين مؤلم.

سينفض فرش سريره، كما قالت له الهندية. وسيفكر في أثناء ذلك في العقارب التي رآها قبل أيام قليلة في الشرفة. لم تكن العقارب هنا قاتلة، ومع ذلك فهي في حجم كف اليد تقريباً - وعلى درجة مدهشة من الجمال. لقد رق قلبه كثيراً لهيكلها الهش، لدرجة أنه لم يكن قادراً على سحقها بقدمه. وفعلتها الهندية بشبشبها المطاطي. ومنذ ذاك الحين صار يعتقد أنها تحتقره.

ستظل الأصوات مسموعة إلى وقت طويل هذا المساء. ستهتز بطن الرجل ذو القميص الواسع الموشى بالزهور من الضحك. وسيحكي القبعة القش عن عدم خمول المكسيكيين وعدم إمكان الاعتماد عليهم. وفي وقت ما ستخرج المرأة ذات السن الناقصة الجيتار وتغني أغاني خوان بابيز وسيحاول الآخرون الغناء معها بحماسة حقيقية ولكنها مدمرة.

في وقت لاحق من الليل، لن تُسمع سوى نوبات السّعال المتواترة للرجل ذي القميص الموشى بالزهور وصرير جُدجُد يذكر برنة منبه. وسيرقد ألكسندر تحت ناموسيته ويصوغ رسائل إلى ماريون:

أحياناً أفكر أنه لا يجوز لي إطلاقاً أن أكتب لك، وأن علي أن أختفي من حياتك. وأن علي أن أتجرع وحيداً مرارة ما تورطت فيه. كيف يمكنني وقد أصابني المرض أن أرغب في الزحف تحت غطائك؟ كيف يمكن أن يخطر لي أن أشعر بالشوق إليك؟ لكنني مشتاق إليك. والغريب: أنه ليس حتى بالأمر السيئ. بلى إنه شيء سيئ، لكن به شيء من السلوى في الوقت ذاته. فوجودك سلوى. وتفكيري في شعرك الأسود الغزير سلوى، وفي رائحة قفاك عندما أرقد وراء ظهرك. أو عندما تتنهنهين في أثناء وسنك راضية مسرورة.

سيصحو قرابة السابعة والنصف، وسيحصل على قهوة من العاملة المكسيكية التي لم ينشط سواها في المطبخ في هذا الوقت من الصباح. سيجلس بعض الوقت في الشرفة وسيمسك بالفنجان الساخن بعض الشيء بيديه، وينظر إلى الخارج ليشهد بداية اليوم، وسيسمع أنفاسه التي تهمس له من الشكل المفرغ للفنجان.

أو في حفيف ملابسك الداخلية عندما تبدلين ثيابك خلف باب الخزانة. أو في الطريقة التي تفتحين بها فمك عندما تثارين.

سيتوقف طائر طنان بعض الوقت وسط زهور الكركديه وسيبدو وكأنه حشرة كبيرة. وفوقه ستحلق في سماء الصبح طيور سوداء على شاكلة النسور.

أو في عضلاتك (التي أخجلتني في البداية). أو بطنك، أو كفك التي تكون دائماً خشنة بعض الشيء من جراء العمل.

وبعد ذلك سيأتي أول الصيادين إلى المرسى الخرساني العملاق، وللحظة سينشغل ألكسندر بالسؤال عن سبب عدم رسو أحد أبداً في هذا المرسى. وكأن المكان الصغير أراد أن ينتزع لنفسه عبر هذا المرسى



twitter @baghdad_library

صفة الميناء التي هي جزء من اسمه: بويرتو أنخيل. وكأنهم كانوا يأملون عبر ذلك جذب سفن البحر إليه.

أو إحضارك من العمل، وأنت ترتدين بنطال الشغل ذا الحمالات وسط اخضرار يصل إلى ركبتيك، وكيف كنت تمسحين العرق عن جبينك بظهر يدك.

أو بطؤك - هل قلت لك ذلك من قبل؟

أو عندما تجعدين أنفك وتهمهمين.

أو هذا الوميض الماكر في عينيك.

أو - هل يجوز أن أقول لك ذلك من الأساس؟ - وجهك عندما تبكين.

للحظة ستراوده غواية تدوين ما يفكر فيه - في حال أراد فعلاً أن يكتب رسالة. لكنه سيخشى أن مجرد الذهاب للبحث عن أدوات الكتابة، حتى ولو تطلب ذلك جهداً ضئيلاً، قد يخرجه من الأجواء.

نعم، إنه لمن السلوى أن أستطيع التفكير فيك وأتساءل أحياناً: ربما يكفي هذا؟ فمن جانب يؤلمني أنني تعاملت مع كل شيء بإهمال عندما كنتِ بين يدي، ومن جانب آخر فإنني أمر بتجربة غريبة وهي أنه ليس بالضرورة أن يمتلك المرء ما يحب. من جانب أشعر بانجذاب نحوك، كي أعوضك ما فاتني أن أعطيك إياه. ومن جانب آخر فإنني أخشى - بعد ما شخصه الطب لي من مرض - أن أكون أنا وحدي من يأخذ. من جانب أريد أن أكتب لك كل شيء، ومن جانب آخر أخشى أن تفهمي ذلك أنه على نحو ما طلب للزواج - وهو كذلك على أي حال.

عندما ينتهي من شرب القهوة، سينتعل حذاءه الرياضي ويجري بضعة كيلومترات. لقد اشترى حذاءً للجري من بوشوتلا. في البداية حاول أن يجرب القيام بتمشيات: مثل كورت - ضحك عندما وجد نفسه يفكر في أن علاجه ربما يكون ممكناً مثل كورت، لو قلد أسلوب حياته. لكن سرعان ما تبين أن المنطقة تكاد تكون غير صالحة للتمشية. فالمنطقة الواقعة خلف الساحل والتي رآها من التاكسي لم تكن جذابة. كان الشاطئ هو المكان الوحيد الذي من الممكن أن يكون مشجعاً على التمشية، لولا أن الخلجان كانت منفصلة بعضها عن بعض بصخور وعرة لا يمكن تخطيها. لم يكن التنقل من خليج إلى آخر ممكناً إلا عبر الطريق الخارجي والطريق كان مملاً. لهذا قرر الجري.

سيجري - كالمعتاد، أيضاً في هذا اليوم - على الطريق المعبد الضيق المتعرج باتجاه الشمال، وسينطلق صاعداً المطلع بهدوء، من دون أن يزيد من سرعة نبضه، بحيث يؤاتيه الشعور بأنه قادر على الجري إلى الأبد.

من حين إلى آخر ستمر سيارات. سيلتفت إليه الناس في سيارات السرفيس، من النادر وجود مشاة هنا، وعندما يرى من بعيد رجلين قادمين نحوه، سيفكر لا إرادياً كيف يمكنه أن يفهمهما في حال أرادا سرقته، بأنه لا يحمل معه أكثر من عشرين بيسوس.

تبين أنهما رجلان في منتصف العمر، مفتولا العضلات بشرتهما دكناء، بديا بالضبط كالعمال الذين تجمعوا قبل أيام أمام الإدارة المحلية لبويرتو أنخيل للشكوى من سوء نوعية مياه الشرب. سيحيونه في صمت، ولكن بود، كما يحيي الرجال بعضهم بعضاً، ولسبب لا يدريه، ستدمع عينا ألكسندر، تأثراً بتحيتهم.



twitter @baghdad_library

ثم تظهر زيبوليته في الأفق. سيوضح له صاحب الكشك بإشارات كثيرة (وفي الحقيقة غير مفهومة إطلاقاً) أنه سيجهز له الماء: مع الوقت تعود ألكسندر أن يشتري الماء في طريق العودة بدلاً من أن يجري حاملاً زجاجة بها نصف ليتر من الماء. بدايةً وفي طريق الذهاب سينعطف من أمام الكشك إلى البحر.

سيصل بعد بضعة كيلومترات إلى خليج زيبوليته. إنه خليج للهيبيين بطول كيلومترين، وعلى النقيض من خليج بويرتو أنخيل الصغير الذي يستحم فيه السكان المحليون أيضاً، يكاد يقطن خليج زيبوليته فقط شباب من السياح الأجانب الذين من الممكن أن يعتبرهم المرء بتصفيفات شعورهم وسلاسلهم فعلاً من الهيبيين، لولا أنهم يبدون جميعاً أكثر أناقة وأفضل منظراً.

في هذا الوقت يكونون لا يزالون راقدين في أسرتهم المعلقة: ينامون على الشاطئ مباشرة تحت التعريشات المصنوعة من سعف النخيل والمسماة «بالاباس» (Palapas) والتي يقوم العديد من البارات الصغيرة والفنادق الواقعة على الشاطئ - حسب تخمينه - بتأجيرها بثمن رخيص. سيلتحق به فجأة شاب أنيق حسن المنظر ذو عينين زرقاوين وشعر أبهتته الشمس، لكن ألكسندر، وبرغم النيات الطيبة، سيوسع خطاه على نحو لا يكاد يكون ملحوظاً.

- Hi، سيقول حسن المنظر. Where're you just coming from?[1]

- بويرتو أنخيل، سيرد ألكسندر، وسيقول حسن المنظر:

- Wow, great![2]

---

(١) من أين أنت؟

(٢) واو، عظيم!

ولكن بعد بضع مئات الأمتار سيبدأ حسن المنظر باللهاث. وسيستسلم قبل أن يصل إلى آخر الخليج.

- Wow, great! سيقولها ثانية وسيرفع يده محيياً. وبفضل هذا الانتصار الساحق السهل وغير المتوقع سيشعر ألكسندر بانتعاش كبير لدرجة أنه سيقرر مواصلة الجري إلى مازونته.

لقد ذهب من قبل إلى مازونته، بإحدى سيارات السرفيس. وزار متحف السلاحف. لم يكن لديه أدنى اهتمام بالسلاحف، لكن سائق الهارلي نصحه بزيارة المتحف، وشدد على ذلك على نحو جعل من عدم اتباع هذه النصيحة بمنزلة إهانة. حكى له سائق الهارلي أنه كان في الماضي مصنع في مازونته يقوم بذبح السلاحف البحرية، التي كانت تأتي في الفترة ذاتها من كل عام إلى شاطئ مازونته لتضع بيضها، بطريقة وحشية جداً ويقوم بتصنيع حساء سلاحف معلب من لحمها. والآن مُنع ذبح السلاحف منعاً باتاً، وعوضاً من ذلك انصبت الجهود على العناية بهذه الزواحف وحمايتها. وبالفعل قضى ألكسندر ساعة كاملة في التعرف إلى مراحل تطور السلاحف وتأمل نماذجها الصغيرة والكبيرة في الأحواض ومست هذه العناية الشديدة التي يوليها القائمون على رعاية السلاحف شغاف قلبه، فهم يعالجونها ويعيدونها إلى البحر، بل يعتنون ببيضها، فإذا لم تقم إحدى السلاحف بدفن بيضها جيداً في رمال الشاطئ، يقومون هم بجمع هذا البيض ويضعونه في الحضّانات حتى يفقس. وقد قرر أن يربط هذا المكان بهذه الخبرات القليلة التي تنبئ على عكس الكثير من التجارب الأخرى بأن البشرية تتطور.

ستكون الشمس في الأفق بحجم كف اليد عندما يدخل مازونته، ستلقي بيوت مازونته بظلال دكناء وحادة وسيمر ألكسندر بالشاطئ العريض، وسيشعر عبر حذائه بسخونة الرمل الذي تدفن السلاحف



twitter @baghdad_library

فيه بيضها. خليج مازونته أوسع من خليج زيبوليته، أوسع وأكثر وحشة وخلاء. وقد قيل له إن البحر هنا أكثر خطورة. السماء أكبر - إن لم يكن لهذا علاقة بجرعة الإندورفين التي منحها له جسمه بعد عشرة كيلومترات من الجري. سترتسم ابتسامة على وجهه. ستتحرك ساقاه وكأنهما تفعلان ذلك من تلقاء نفسهما، وستجد قدماه، وكأنهما تفعلان ذلك تلقائياً، الموضع الثابت على أرض منحدر الشاطئ والحز الضيق ما بين الرمال الرطبة والجافة، بين الأرض والماء. تتقافز ألسنة الموج لتناله. يريد البحر أن يصيبه بالنشوة. سيهلل بصوت غير مسموع ولكنه عال في قلب الصخب. سيتفادى الأمواج العالية بمزاح وبخطوات دقيقة محسوبة. سينبهر بدقة خطواته. وسيشعر بأنه لا يتحكم هو نفسه في أي شيء، وأن جسده يتولى القيادة وكأنه تحلل تدريجاً من الشيء الذي يتحكم - في اللحظة نفسها، في لحظة الطيران ستتسلل إلى وعيه فكرة أن كل شيء، كل الوجود سيُمحى تماماً ونهائياً، وستضربه هذه الفكرة ضربة قاصمة بحيث سيحتاج إلى جهد كبير ليظل واقفاً على قدميه.

عندما يعود في هذا اليوم إلى بويرتو أنخيل سيكون قد جرى أربعة وعشرين كيلومتراً. سيصعد الدرج بألم تقليدي خفيف في وتر أخيل، سيتحسس عضلات الفخذ والضغط المكتوم على المفصل الذي تحمل مئات بل آلاف الالتواءات. سيقوم بصبر بإجراء تمارين الشد التي لا بد منها على الحائط. وسيثني ظهره على آخره حتى ينفك تصلبه بطقطقة مريحة. وسيقاوم من دون مجهود هذا الأمل الذي يبرق له مجدداً بأن تشخيص مرضه كان خاطئاً. سيجلس ممسكاً بزجاجة مياه الشرب وتي شيرت لا يزال مبللاً بالعرق على حافة الشرفة، وسيشعر أقله لبعض

الوقت أنه من المريح أن يستند بظهره إلى العمود الصلب.

سيخرج السائحان الجوالان اللذان وصلا أمس من حجرتهما: شاب وشابة لطيفان، يبدو وكأنهما أنهيا امتحان الثانوية تواً: هي، جمال لا يشوبه شائبة، وهو طويل ونحيف بعض الشيء. سيخرجان من حجرتهما وسيسألان ألكسندر عن مكان يمكن أن يستأجرا منه أدوات الغوص.

لن يستطيع ألكسندر الإجابة عن السؤال. سيؤكد كلاهما أن تلك ليست مشكلة. وأن في استطاعتهما أن يسألا في القرية.

سيلوحان له في أثناء انصرافهما وكأنه من معارفهما القدامى، وسيلوح لهما ألكسندر وسيتابعهما وهما يسيران بطول الممر وينعطفان لهبوط الدرج، وكيف أنهما وقفا برهة عند أعلى الدرج لكي يناقشا شيئاً لم يسمعه ألكسندر. ستقطب الجميلة جبينها. وسيضع الشاب النحيف يديها في يديه. وستبرز عظام كتفيه عبر التي شيرت الطيني اللون وكأنها أجنحة مقصوصة.

سيذهب ألكسندر للاستحمام. وسيستند بيديه إلى الحائط ويترك الماء الدافئ ينسال على ظهره وساقيه وقتاً طويلاً - مادام ماء كاف في السخّان.

ثم سيأخذ رقعة شطرنج أبيه التي تطوى تحت إبطه، وبرغم الحرارة سيشعر برعشة وهو ذاهب إلى الشاطئ. سيجلس في كرسي البحر تحت المظلة الزرقاء وسيشتري، قبل أن يبدأ نشاطاته الصباحية، فطوراً صغيراً من امرأة مكسكية تجوب الشاطئ ببضاعتها.

دائماً يشتري من المرأة نفسها ودائماً الأشياء نفسها: كوباً بلاستيكياً به فاكهة مقشرة وثلاث قطع من التورتيا. مع ذلك عندما تظهر المرأة



twitter @baghdad_library

بعد فترة من وجوده على الشاطئ، وتعرض عليه بضاعتها القليلة، ستنظر إليه النظرة المتسائلة نفسها (التي لا تتضمن إطلاقاً أي توسل). ستقوم بعد حصوله على كوب الفاكهة وقطع التورتيا، بحساب كل شيء مجدداً في رأسها وتصل إلى نتيجة تختلف اختلافاً طفيفاً من يوم إلى آخر، وهو ما يربطه ألكسندر باختلاف أنواع الفاكهة (اليوم كانت عبارة عن مانجو وأناناس وبطيخ أصفر)، وهو أمر لا أهمية له لأن المبلغ الذي يدفعه لها مع حلوان صغير اعتاد أن يتركه لها، هو نفسه. لكن ما يهم المرأة فقط، هكذا يخمن ألكسندر، هو أن تشعره، أو ربما تشعر نفسها؟ بأن الأمر يتعلق بتعامل بين شريكين متكافئين، وهو بالطبع أمر غير صحيح مطلقاً. فليس ثمة شيء واضح هنا أكثر من انعدام التكافؤ - إنه انعدام تكافؤ لا يستند إلى شيء، حسبما هو واضح له، إلا إلى بضع أوراق نقدية - وفوق ذلك مسروقة.

لذلك، أو ربما أيضاً لأن الجوع يخزه، سيقرر ألكسندر أن يختصر هذا الطقس وأن يعطي المرأة النقود في يدها - لكنه لن يفعل، بل سينتظر حتى تقوم بحرص مضن - باختيار واحد من أكواب الفاكهة الثلاثة وأن تضع له ثلاثاً من قطع التورتيا الست على طبق ورقي وتقوم بنظرة فارغة بإجراء حساباتها غير المرئية. سيتأمل ظهر يديها الدكناوين، وكفيها الورديتين الطفوليتين في المقابل، ووجهها النحيف الصارم الذي يلفه إيشارب أزرق دخاني. وسيتساءل عن عمر المرأة: هل هي في الخمسين؟ أم في الثلاثين؟ كم هو متوسط العمر المتوقع للناس في المكسيك؟ أو من الأفضل أن يسأل: كم هو متوسط العمر المتوقع لامرأة مكسيكية من الطبقة الدنيا؟

وبرغم أنه بدأ يشعر برعشة بسبب نقص سكر الدم، فسينتظر حتى تبتعد المرأة بخطى وئيدة يكبحها الرمل، ثم يقوم بغسل الفاكهة جيداً

بماء الشرب. سيأكل الفاكهة كلها مرة واحدة. سيأكل مرتعشاً من فرط النهم، وعندما يتأمل إصبعه اللزجة بسبب الفاكهة المسكرة والمرفوعة وكأنه يؤدي قسماً، لن يستطيع تجنب التفكير في كورت الذي يتيه في بيت متداع على الجانب الآخر من الأرض. سيتساءل إن كان كورت يفتقده على نحو غامض أو مجهول. ثم سيقوم بعد أن يأكل التورتيا بتنظيف أصابعه بالرمل وسيفتح رقعة الشطرنج القديمة التي وضع فيها الأوراق التي أخذها من ملف كورت الذي كتب عليه «شخصي».

لقد اكتشف الأوراق مجدداً عندما لعب لأول مرة الشطرنج مع سائق الهارلي. في البداية ظن أن الأوراق ليس فيها سوى رسائل كورت إلى إيرينا. لكنها في الواقع أوراق مختلفة. من ناحية بها بعض الرسائل المختارة إلى إيرينا، ولكن أيضاً بعض رسائلها إليه، وكذلك رسائل كورت إلى ألكسندر - التي كان كورت يحتفظ كعادته بنسخة كربونية منها. ومن ناحية أخرى ثمة تدوينات موجزة، كان كورت يكتبها دائماً بالخط الرفيع نفسه على ظهر فواتير قديمة أو ظهر صفحات من نصوص تخلى عنها. تدوينات لأجل ماذا؟ وعن ماذا؟

في البداية قرأ ألكسندر متعجلاً ومن دون نظام. لم يكن سهلاً تفسير خط كورت برغم أنه يبدو للوهلة الأولى دقيقاً. نفّرت الصفحات المكتظة بالتدوينات ألكسندر. كان لها رائحة الواجب. رائحة كورت. شعر وكأنه عاد مع هذا الخط ليواجه مرة أخرى كل ما يمثله كورت من مطالبة وهيمنة وسيطرة.

بعض الأشياء ظلت غير مفهومة برغم نجاحه في التعرف إلى الحروف - وكأن كورت كان يريد إخفاء مضمون ما يدونه.

تدوينة عن اجتماع الحزب: الحديث كان عن «إعدام روده».



twitter @baghdad_library

وعن رجل اللجنة المركزية الذي ذكّر كورت بـ(غير مقروء). وعن سيارة ترابانت زرقاء في الغابة.

بل كانت هنا وهناك أيضاً بعض التدوينات بالروسية، وهي فوق ذلك غامضة تتخللها اختصارات، بحيث احتاج ألكسندر إلى وقت طويل ليفهم عما يدور الكلام - إنها تسجيلات للخبرات الإيروتيكية. لماذا دوّن كورت ذلك؟ ولمَ بالروسية؟

ما كان مقروءاً بشكل جيد: شكوى من شارلوته التي كتبت أخيراً مقالاً عن التطور الاقتصادي في المكسيك:

ليست لديها فكرة عن أي شيء. تتصل سبع مرات في اليوم وتريد أن تعرف كم صفراً يوجد بالمليون.

كانت توجد أحياناً أيضاً أشياء غريبة على ظهر الصفحات:شكوى من كورت على فاتورة الغاز التي تضاعفت مئة مرة، أو خطاب يتعلق بمكافأة جماعية للمؤلفين عن «نشر جزئي» لكتاب صدر في اليابان، كان كورت سيحصل منها على أربعة وأربعين ماركاً، وسيُدفع نصف المبلغ بالعملة الصعبة، إن كان لديه حساب بالعملة الصعبة، وإلا فسيتم الدفع بشيكات العملة الصعبة: رجاء إبلاغنا فوراً! كان الخطاب موقعاً من مدير المعهد.

ثمة تدوينات يرد فيها ذكر ألكسندر وتتباين فيها ذكريات كورت عن ذكرياته تبايناً كبيراً: فهو لا يذكر أنه ارتدى الزي العسكري طوعاً لأجل زيارة فيلهلم في المستشفى، وتعجب من أن كورت اعتبر كريستينا الشقراء ذكية لكنها كاملة الصفات أكثر من اللازم قليلاً. وسأل ألكسندر نفسه، أين كان عندما انفجرت أمه بالبكاء لدى رؤية ابنها

بالزي العسكري، لأنها، كما يدعي كورت، تذكرت أن قائدها أمرها في الحرب بأن تعطي جندياً ألمانياً جريحاً رصاصة الرحمة، لكنها رفضت، برغم أن رفض الأوامر كان عقابه الإعدام. بين قوسين: إدخاله في وصف الشخوص.

ما هذا؟ هل هي تدوينات من أجل رواية؟ لجزء ثان من مذكراته التي تدور أحداثها في جمهورية ألمانيا الديمقراطية؟

في هذا اليوم - يوم مازونته - سيعثر ألكسندر على تدوينة من شباط/ فبراير ١٩٧٩ إنه يتذكر هذا الشتاء جيداً. لكنه لن يدرك أن الحديث يدور عنه إلا عندما يتمكن من قراءة هذه الكلمات:

لقد جُن جنونه على الأغلب.

وبعدها إلى الأسفل قليلاً:

يريد أن يفهمني أن حياتي كلها كانت كذبة.

وبعدها إلى الأسفل أيضاً (وأكثر إدهاشاً):

حسب ميليتا فإنه يذهب حالياً إلى الكنيسة.

الصورة التي ستظهر أمام ألكسندر هي جادة شونهاوس، وحواف الطريق الجليدية المتسخة. يسير والده إلى جانبه - لكن إلى أين؟ إلى أين يذهبان؟

ما هو واضح: أن كورت ظل واقفاً وأخذ يصيح. سيتراءى لألكسندر أنه يسمع (هراء محض) ما يصيح به كورت:

في أفريقيا يجوع الناس!



twitter @baghdad_library

ثم يأتي رصد المبالغ المالية التي تلقاها ألكسندر في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٨ - بما في ذلك هدايا عيد الميلاد (المجموع ألفان ومئتا مارك)، ويتلو ذلك شكاوى مما تعانيه إيرينا بسببه هو - ألكسندر -، ثم جملة يصعب فك طلاسمها عن الحياة التي لا يريد كورت، لو فهم ألكسندر ذلك بشكل صحيح، أن يضيعها.

بعد الظهر عندما تقترب أحرُّ ساعة في النهار، سيضع ألكسندر الأوراق المنفرطة مرة أخرى داخل رقعة الشطرنج ويصعد إلى بيت الضيافة. سيطلب إليه سائق الهارلي عندما يرى رقعة الشطرنج تحت إبطه أن يلعب معه دور شطرنج، وسيوافق ألكسندر، برغم أن نعاس ما بعد الظهيرة قد بدأ يثقل عينيه.

كالعادة عندما يلعبان الشطرنج، ولكي يكونا بعيداً عن الإزعاج، سيذهبان للجلوس على الدكة الواقعة خلف جناح فريدا كالو، حيث كان ألكسندر يقرأ جريدته في الثاني عشر من أيلول/سبتمبر. سيجلسان جانباً متواجهين وبينهما رقعة الشطرنج، مائلة قليلاً مثل الدكة نفسها.

وسيفتتح ألكسندر اللعب بـf2-f4، وهي بداية هجومية مستهترة بعض الشيء، كان كثيراً ما يلعبها مع كورت - وتكون ناجحة في البداية. وسيرد سائق الهارلي بهدوء بـd7-d5. ولكي يحصن ألكسندر نفسه لاحقاً من حركة وزير h4، سيحرك الحصان الذي نحته معتقل منذ أكثر من نصف قرن من خشب شجرة أرز سيبيرية، والذي تنقصه الأنف منذ وعى ألكسندر الدنيا، إلى f3.

سينقر دجاج العاملين المكسيكيين خلف سور الأسلاك الشبكية في الرمل الأجدب.

سيعود ألكسندر، في أثناء لعبه بشكل آلي نقلات c5 وe6 e3 و b3 حصان c6 وفيل b2 وحصان f6 وفيل d3، إلى ذلك اليوم الشتائي البعيد: إلى الأرصفة المتجمدة في جادة شونهاوس، إلى هذه التمشية الغريبة بلا هدف وإلى مشهد أفريقيا... لكن فجأة يستمر الفيلم: ساحة ألكسندر، والريح الباردة. المطعم الآلي الذي لم يعد موجوداً، على الجانب الأيسر إلى جوار ساعة التوقيت العالمي- هل هذا ممكن؟

سيقوم سائق الهارلي الذي كان اسمه بالمناسبة زافير، بعد تبييت كل منهما للملك بالانكفاء على رقعة الشطرنج بحيث يغطي وجهه نصف الرقعة. وسينظر ألكسندر بعيداً، لكي يتفادى النظر إلى بشرة سائق الهارلي المحمرة، التي تظهر في المواضع الخالية من الشعر في أثناء اهتزاز رأسه وهو يفكر في وضع اللعب. وفجأة سيتذكر ألكسندر التفاصيل: طاولات الوقوف الحديثة المصنوعة من مادة (Sprelacart) والتي كانت بالية برغم ذلك، والبار المعدني ورائحة الطعام - هل كان يخنى؟ سيرى كورت بمعطفه المصنوع من فراء الغنم وقبعته الفرو المملة، واقفاً إلى تلك المائدة يأكل حساءه، وسيرى نفسه من الخارج: برأس حليق مرتدياً معطفه البالي - وياللعجب، لا يزال يعرف ذلك أيضاً! - والبلوفر الأزرق المرقع عدة مرات بألوان غير مناسبة، والذي رأى آنذاك أنه من الضروري أن يرتديه، لأنه شعر بحاجة غير مفهومة لأن يبدو منفراً.

سيلعب سائق الهارلي وزير b6، وسيستشعر ألكسندر في اللحظة التي يلعب فيها سائق الهارلي أنه ليس لديه ما يكفي من التركيز لصد هذا الهجوم البائس على وضع الملك المكشوف بعض الشيء بسبب افتتاحه بـ f2-f4، الذي لا يؤخذ في الحقيقة على مأخذ الجد.



twitter @baghdad_library

بعد دور الشطرنج الذي استسلم فيه بعد الحركة السابعة عشرة سيرقد في السرير المعلق أمام باب غرفته. سيدفع بأطراف أصابعه درابزين الشرفة، وسيشعر بأوتاره وعضلاته المتعبة من الجري، وفي أثناء تلقف الجاذبية له ما بين ذراعيها، ستتقافز كل الأفكار بلا رادع في رأسه، سيخطر له كولومبوس الذي جلب السرير المعلق إلى أوروبا. ولوهلة ستبدو له فكرته بأن أكبر سوء فهم قد يكون قد وقع بين الثقافتين، يتمثل في أن كولومبوس لم ير في السرير المعلق سوى إمكانية فعالة لحشد أكبر عدد من البحّارة على سفنه، ستبدو له اكتشافاً عظيماً. وسيتساءل أيضاً إذا ما كان ينبغي له في أثناء دور الشطرنج أن يحرك الفيل d5، ومرة أخرى سيخطر له البلوفر الأزرق القبيح المرقع عدة مرات بألوان غير مناسبة، وسيتساءل لمَ هو جميل بل مريح أن يتذكر ذلك.

بعدئذٍ سيتوقف سعف النخيل عن الحفيف. سينقطع الصراخ والضحك في القرية والدق والقرع في مطبخ بيت الضيافة. ستصمت المحركات وستصمت أيضاً أصوات الراديو التي تتطاير طوال أوقات اليوم عبر سماعات فرع البنك الذي افتتح تواً.

سيبقى فقط صرير الحبال المصنوعة من القِنّب والصخب اللامبالي للبحر البعيد.

# شخوص الرواية الرئيسيون

فيلهلم وشارلوته بوفيلايت

مطلقة أومنيتزر

فيرنر وكورت أومنيتزر

ولدا شارلوته

إيرينا أومنيتزر، اسم المولد بتروفنا

زوجة كورت

ناديجدا إيفانوفنا

أم إيرينا

ألكسندر أومنيتزر

ابن كورت وإيرينا

ماركوس أومنيتزر

ابن ألكسندر



twitter @baghdad_library

## أويغن روغه

من مواليد عـام ١٩٥٤، سوسـفا، الأورال. درس الرياضيات في جامعـة هومبولـدت في برلين، ثـم عمل كباحث فـي المعهد المركزي للجيوفيزياء في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (سـابقاً) في بوتسـدام، لكن بعد التدخلات السياسية في عمله، قدم طلباً لتشـكيل لجنة أبحاث في اسـتوديوهات DEFA للوثائقيات وبدأ حياتـه المهنية ككاتب عام ١٩٨٦. عـام ١٩٨٨ انتقل إلى ألمانيا الاتحاديـة، ثم تفرغ للكتابة للمسـرح والإذاعة. ترجم العديد من أعمال تشيخوف المسرحيّة من الروسيّة، وهو يعلّم بشكل دوريّ في جامعة برلين للفنون. روايته الأولى هي «عند تلاشـي الضوء» وقد حازت جائزة الكتاب الألماني الأدبية عام ٢٠١١.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

## عند تلاشي الضوء

رواية كتبت بأحد أهم الأقلام العالمية الجديدة. تمتدُّ مع ثلاثة أجيال من عائلة واحدة، تدورُ أحداثها الأساسـية في ما كان يعرف بألمانيا الشرقية، لتتابع في المكسيك، مع تشتُّت أفراد العائلة، الذين شهدوا تحوُّلاتٌ سياسية وجغرافية واقتصادية واجتماعية، قلبت نظام حياتهم، وبدَّلت كثيراً من معتقداتهم الاجتماعية الفكرية، التي تمثَّلت في ردود أفعالهم حيال جُملة من الأحداث المتلاحقة، كان أقواها سقوط الشيوعية وانهيار جدار برلين.

جيلٌ آمن بالشيوعية وكافح وضحّى في سبيلها، وجيلٌ عانى ويلاتها، ولاسيما في معسكرات العمل الستالينية، وجيلٌ حاول الهروب من كل تلك الأجواء في هجرة معاكسة.

أكثر ما يميِّزُ هذه الرواية ضخامة أحداثها واتسـاعها الزمني؛ وأنها لا تشـي بنهاياتها، فهي لا تتيح للقارىء الفرصة ليكتشف ما يمكن أن تؤول إليه الأمور؛ وأنها تعكس نوعين من الصراع في وقت واحد: صراع داخلي بخصوص ما جرى، وصراع بين الأجيال حول رؤيتهم للقيم التي أخذت بالتغيُّر السريع، بل تعرَّضنا لسلسلة من الانقلابات المتلاحقة.

نقلاتٌ موفَّقة بين العام والخاص، مواقف مثيرة وطريفة وساخرة إلى حدود الضحك أو البكاء.

ISBN 978-9953-88-819-4

9 789953 888194

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٠٩٦١١٨٣٠٦٠٨+ فاكس: ٠٩٦١١٨٣٠٦٠٩+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر